لو كان البحر حِبرًا

رحلة إلى قلب القرآن

كارلا باور

ترجمة د.نافذ الشاعر

لو كان البحر حبراً

تأليف

كارلا باور

ترجمة

د. نافذ الشاعر

اسم الكتاب: **لو كان البحر حبراً**

تصنيف الكتاب: **(ترجمة)**

اسم المؤلف: **كارلا باور**

اسم المترجم: **د. نافذ الشاعر**

الطبعة الأولى: ٢٠٢٥

المحتويات

المقدمة: خريطة الرحلة

الجزء الأول: الأصول

١. القرآن في خمسة وعشرين كلمة

٢. أمريكي في الشرق

٣. اسلم في الغرب

٤. رحلة برية إلى المدرسة الهندية

٥. سجادة صلاة المهاجر

الجزء الثاني: المنزل

٦. الحياة الريادية في أكسفورد

٧. تسعة آلاف امرأة مخفية

٨. الحمراء الوردية الصغيرة

٩. الحجاب والسفور

١٠. قراءة سورة النساء

الجزء الثالث: العالم

١١. رحلة الحاج

١٢. يسوع ومريم والقرآن

١٣. ما وراء السياسة

١٤. فرعون وامرأته

١٥. قصص الحرب

١٦. الدرس الأخير

خاتمة: العودة الأبدية

مقدمة

خريطة للرحلة

عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، اشتريت كتابًا صغيرًا كتميمة يحتوي على آيات من القرآن من كشك بجانب مسجد بالقاهرة. كانت التميمة مصممة ليتم وضعها في الجيب لتهدئة صاحبها طوال اليوم. لم أكن مسلمة ولا أعرف القراءة والكتابة باللغة العربية؛ اشتريتها ليس من أجل الكلمات الموجودة بداخلها ولكن لحجمها الأنيق. راقبتني صاحبة الكشك بدهشة وأنا أتأمل الكتاب بحجم علبة الثقاب. كنت أعيش مع عائلتي في مصر في ذلك الوقت، وعند عودتي إلى المنزل، قمت بلصق قطعة من الورق فوق الغلاف ورسمت امرأة ترتدي فستانًا أزرق طويلًا، وكتبت عليها: "جين آير بقلم سي. برونتي". ثم وضعت الكتاب الصغير في يد دميتي الشمعية، التي كانت جالسة بثبات على رف عالٍ في غرفة نومي بالقاهرة.

لقد عاش الكتاب الصغير أكثر مما عاشته الدمية: فقد وجدته بعد أكثر من ربع قرن من الزمان، في إحدى ظهائر الصيف الرطبة في سانت لويس، ملفوفاً في صندوق مجوهرات في منزل والديّ. لقد كانت معجزة كبيرة أن يبقى لفترة طويلة مثل هذا الشيء الهش الذي اشتريته من أحد الأكشاك في السوق. لقد كانت معجزة كبرى أن أجده على الإطلاق، في منزل مكون من ثلاثة طوابق مكتظ بالهدايا التذكارية الغريبة لدرجة أن أصدقائي أطلقوا عليه اسم كهف علاء الدين. ولكن بطريقة ما، وجدت ذلك الكتيب، وسط مقتنيات والدي الشغوف بجمع التذكارات من الشرق الأوسط وآسيا: فوانيس المساجد من القاهرة، وأكوام من الأقمشة الهندية المطرزة ، والساموفار البخارى، وصناديق من اللازورد، وأكوام من الحُلي القديمة، ومئات من القطع الأثرية والسجاد.

وفي خضم كل هذا، نجى الكتاب الذي يحتوي على سورة من القرآن. وحين عثرت عليه، كنت أعرف ما يكفي لأشعر بالحرج لأنني كنت قد غلفته بمخاوفي الطفولية. وفي الصيف الذي أعدت فيه اكتشافه، أعلنت أصوات حادة، خلال ذلك الوقت الكئيب، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عن "صراع الحضارات" بين العالم الإسلامي والغرب. وبينما كانت التفجيرات الانتحارية في كابول وبغداد وأهوال سجن أبو غريب حاضرة في ذهني، بدت لعبتي الطفولية في بلادة تامة.

بحلول ذلك الوقت، لم أكن قد ورثت من أبي اهتمامه العميق بالعالم الإسلامي فحسب، بل إن شغف طفولتي كان قد نضج بدراسة المجتمعات الإسلامية وإعداد التقارير عنها. وعلى مر السنين، حصلت أيضًا على العديد من نسخ القرآن. فعندما كنت طالبة جامعية، اشتريت كتابًا ورقيًا بقيمة ٥.٩٩ دولارًا أثناء التحاقي بدورة لعمل دراسة مسحية عن الإسلام. مكث الكتاب على رف مكتبتي، وكانت صفحاته رخيصة ومحببة، ولم يكن غلافه الخارجي متشققًا تقريبًا. وفي العشرينيات من عمري، عندما كنت أعمل في مركز أبحاث إسلامي في أكسفورد، تلقيت قرآنًا مجانيًا، من الحكومة السعودية. كان مجلدًا بجلد صناعي أزرق، ومختومًا بالذهب بخط اليد، وكان واحدًا من ملايين النسخ التي تم توزيعها في جميع أنحاء العالم في التسعينيات كجزء من حملة سعودية رسمية. ومصحف ثالث كان باللون الأخضر الزاهي، مع زهور وردية على غلافه. وفي الداخل: وردة مضغوطة، وأزهار ياسمين ذابلة، وتذكرتا دخول إلى دار الأوبرا بالقاهرة، كانت بقايا من ذكريات صيف رومانسي دراسي في مصر. وعلى رفوف مكتبتي وحدها، كانت هناك ثلاث ترجمات للقرآن، تحمل الكثير من المعاني الرمزية: نسخة واحدة عبارة عن كتاب مدرسي، وأخرى أداة للدعاية التي ترعاها الدولة، والثالثة مستودع للذكريات الشخصية.

ولكن نسخ القرآن التي أستخدمها لا تشير إلا إلى الإمكانات الرمزية التي ينطوي عليها الكتاب. وبما أن المسلمين يعتبرونه كلام الله، فإن القرآن لا يقدم الراحة والإلهام باعتباره نصاً فحسب، بل ويفرض الاحترام كمصحف ورقي بين دفتين. وقد أدت هذه القوة أيضاً إلى تسييس النص. فإذا لُوِّح به أمام حشد من الناس، فإنه يلهم الثورات والحروب، وإذا أحرق أو شُوِّه، فإنه يتسبب في حوادث دبلوماسية ووفيات. وسواء أسيء اقتباسه أو أسيء استغلاله، فإنه يستخدم لتبرير الرحمة، وتبرير القتل الجماعي في آن.

وفي العصر الحالي حيث انتشرت رسالته بسبب الهجرة والتكنولوجيا إلى ما هو أبعد من وطنه التقليدي، فإن القرآن أصبح له تأثير هائل في أوروبا وأميركا. وفي بعض الأحيان، كان هدفاً للتعصب. فقد حاول الساسة الهولنديون حظره. وأحرقه واعظ في فلوريدا، وبث الحرق عبر الإنترنت. كما أن الأنباء التي تفيد بأن الجنود الأميركيين في أفغانستان أحرقوا عدة نسخ من القرآن قد أثارت موجة من الانتقادات. وعندما أدرجت جامعة نورث كارولينا مقتطفات منه في مناهج القراءة الصيفية، رفعت جماعات يمينية دعاوى قضائية، مدعية أن قراءة القرآن من شأنها أن تتعارض مع الحرية الدينية للطلاب.

بدأ القرآن كسلسلة من الوحي إلى محمد، تاجر القوافل، في القرن السابع الميلادي. وفي غضون عقدين من الزمن، نمت هذه الكلمات وترعرت لتصبح قوة روحية واجتماعية وسياسية في شبه الجزيرة العربية. واليوم، أصبح تأثير القرآن عالميًا. وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من بداية سماع النبي محمد للوحي، لا يزال النص يوجه الجغرافيا السياسية وكذلك وجهات النظر العالمية. وباعتباره الكتاب المقدس لأسرع ديانة نموًا على هذا الكوكب؛ إذ يتبعه ١.٦ مليار شخص، يأتي الإسلام في المرتبة الثانية من حيث الشعبية العالمية بعد المسيحية، فهو بمثابة بوصلة أخلاقية لمئات الملايين. وبدراسة القرآن جنبًا إلى جنب مع أقوال وأفعال محمد، أصبح حجر الأساس للدساتير وأساليب الحكم والقوانين. كما أضفت كلماته الشرعية على الأنظمة، وعلى من يقف ضدها أيضا. وبهذا يجب أن تكون قراءته شرطًا لفهم الإنسانية.

لكن، كما اكتشفت لاحقاً باندهاش، فإن قلة من الناس يفعلون ذلك. فمثل أي نص غني ومعقد، يُستشهد بالقرآن أكثر مما يُقرأ، ويُقرأ أكثر مما يتفق الناس على معانيه. ويتهم أعداءُ القرآن السطحيون القرآنَ بأنه فوضوي. وحتى المسلمون المتدينون يعترفون بأن جلاله وغنائه يغلبان على النص، لكن بعض الآيات تربك بقدر ما توضح. والواقع إن العديد من دارسي القرآن لا يفهمون اللغة العربية الكلاسيكية ويتعثرون في قراءتها، وحتى المدارس الدينية المرموقة كثيراً ما تتجاهل الكتاب لصالح لكتب الفقه، أو الفلسفة الإسلامية، وهي النصوص التي ظهرت بعد قرون من نزول القرآن. وكثير من المسلمين الصالحين وغير المسلمين الفضوليين على حد سواء ـ لا يحاولون أبداً قراءته، في حين أن القرآن يعلن عن إمكانياته اللامحدودة:

قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (الكهف:١٠٩)

إن القرآن، الذي يحظى باحترام وتقدير شعوب متنوعة من الأمة الإسلامية، قادر على إظهار جوانبه المختلفة بطرق مبهرة. فقد يكتشف محامي لحقوق الإنسان في سان فرانسيسكو الحريات في نفس السورة التي رأى فيها رجل دين من القاهرة، في القرن الثاني عشر، قيوداً. وقد يفسر الفقيه السوداني آية بأنها دعوة إلى خضوع الزوجة لزوجها؛ في حين تفسر الزوجة

الإندونيسية نفس الآية على أنه دعوة إلى المساواة والرحمة. كما يمكن لكل من الماركسي، والمصرفي في وول ستريت، والمستبد، والديمقراطي، والإرهابي، والتعددي أن يشير إلى نفس الآية لدعم قضيته.

* * *

ذات يوم، حكى لي الشيخ محمد أكرم الندوي، العالم الإسلامي الذي علمني القرآن، نكتة هندية قديمة، تقول بأنَّ هندوسياً ذهب إلى جاره المسلم وسأله إن كان بوسعه أن يعيره نسخة من القرآن. فقال المسلم: "بالطبع، لدينا الكثير من النسخ! دعني أحضر لك نسخة من مكتبتي". وبعد أسبوع، عاد الهندوسي وقال: "شكراً جزيلاً، إنها رائعة. لكنني أريد نسخة من القرآن الآخر؟". فقال المسلم: "أنت تمسكها الآن، لا يوجد إلا نسخة واحدة فقط، وهي التي بين يديك".

أجاب الهندوسي: "نعم، لقد قرأته، لكنني أحتاج نسخة من القرآن الذي يتبعه المسلمون!".

قال الشيخ أكرم الندوي:

"النكتة صحيحة! كل هذا الحديث عن الجهاد وتشكيل الدول الإسلامية، ليس هذا ما يقوله القرآن!".

كنا نتناول الشاي في أحد المكاتب في أكسفورد، بعد عامين من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كنت مراسلة لمجلة نيوزويك آنذاك، وقد أتيت لرؤيته في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وهو المركز الذي التقيته فيه لأول مرة في التسعينيات، والذي كان لا يزال يعمل فيه. كنا نتحدث في ذلك اليوم، كما كان يفعل ملايين الأصدقاء، عن شباب غاضبين يحملون رخص قيادة طائرات، وعن مجرمين ذوي شعر رمادي يختبئون في الكهوف، وعن القنابل الضخمة والدماء التي تولد مزيدًا من الدماء.

كانت الغرفة التي جلسنا فيها مكتظة بالمكاتب، ومبعثرة بالأوراق، وكانت أشبه بمقر لميليشيا عشوائية. وكانت الجدران معلقة بخرائط لجنوب آسيا، متقاطعة بالسهام ومرصعة بعلامات X حمراء صغيرة، من شمال ممر خيبر إلى جنوب بومباي. وعلى رفوف الكتب، كانت

أغلفة الكتب تتلألأ بأحرف ذهبية منقوشة باللغة العربية والأردية. وصفوف المجلدات، التي تحمل علامات باللغة الإنجليزية والأردية والفارسية، تملأ الرف تلو الآخر .

لقد تعرفت على خط يدي على بعض تلك الملفات. فقبل عقد من الزمان، عملت مع الشيخ أكرم للمساعدة في ملئها. لقد عملنا سوياً ضمن فريق من العلماء، بعضهم مسلمون وبعضهم غربيون- كان جميعهم من الرجال باستثنائي- لرسم خريطة انتشار الإسلام في جنوب آسيا. ولتمييز الشيخ أكرم عن جميع المحمديين الآخرين، الذين يعملون في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، أطلقنا عليه أنا وزملائي لقب "مولانا" أو "الشيخ"، وهي ألقاب تقليدية تطلق على عالِم إسلامي.

وأي عالِم كان يومئذ! لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين حين التقينا لأول مرة، لكنه كان بالفعل نجماً صاعداً في الشبكة العالمية للعلماء التقليديين، أو السلطات الدينية الإسلامية. ورغم أنه نشأ في قرية ناطقة بالأردية في ولاية أوتار براديش الهندية، فإن اللغة العربية التي تعلمها في مدرسة دينية في بلدة صغيرة كانت جيدة إلى الحد الذي جعله يبدأ في كتابة قواعد اللغة العربية في سن المراهقة. ثم التحق بمدرسة ندوة العلماء المرموقة في لكناو بالهند، حيث عُيِّن فيها لاحقاً للتدريس والتأليف. وكان تخصصه الأول هو الحديث، أو أقوال وأفعال النبي محمد، التي تشكل أساس الشريعة الإسلامية فضلاً عن المبادئ التوجيهية للحياة اليومية للمسلمين المتدينين. وفي أكسفورد، بدأ العمل الذي أكسبه شهرة تجاوزت دوائر المدارس الدينية، فقد كان مجموعة من أربعين مجلداً من سيرة حياة آلاف العالمات المسلمات، وهو العمل الذي أعاد تسليط الضوء على التاريخ المفقود للمرأة في الإسلام باعتبارها سلطة دينية.

في ذلك اليوم في أكسفورد، كان المزاج كئيبًا. فبعد أكثر من عقد من الزمان منذ أن كنا زميلين، أصبحنا الآن أكثر شيباً. فمنذ الحادي عشر من سبتمبر، كنا نشاهد العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين تتدهور على نحو محكوم عليه بأنَّ يظل هكذا دون إصلاح طيلة حياتنا. وبدت كل التفاؤلات الحلوة التي قضيناها في البحث عن علماء المسلمين والصوفيين في الهند ساذجًا. وعندما سقطت أبراج مركز التجارة العالمي، انقسم العالم إلى قسمين، كما أعلن رئيسي جورج دبليو بوش: "إما أن تكون معنا أو ضدنا". وفي جملة واحدة، استبعد الرئيس بوش: الشيخ، وأنا، وعشرات الملايين غيري. ولم يكن في نظرته للعالم أي مجال للغموض أو

الالتباس. ولم يعترف بالأميركيين الذين شككوا في غزو العراق، ولا بالمسلمين الذين أدانوا الجهاديين وسياسات الحكومة الأمريكية على حد سواء.

لقد ردَّدتْ أغلب وسائل الإعلام رؤية الرئيس بوش: إما أبيض وإما أسود، فبدأت تدق طبولاً متواصلة من التصريحات حول ثقافتين محكمتين ومنفصلتين: "الغرب" و"العالم الإسلامي"؛ وعندما يلتقي الاثنان لا بد أن تتوالى المتاعب. وقيل لنا إن الأمر كان على هذا النحو منذ أيام الحروب الصليبية، وسوف يستمر كذلك حتى يتبنى المسلمون الحداثة مثلنا.

إن مصطلح "العالم الإسلامي" كان دوماً مصطلحاً غامضًا. وقد أصبح عديم الجدوى على نحو متزايد خصوصاً في عصر الهجرة إلى الغرب، وتحول الكثيرين إلى الإسلام. فالمسلمون يعيشون الآن في كل مكان، من بكين إلى سيدني إلى باتاغونيا. ولا يقل عن ذلك غموضًا عبارة "كل المسلمين يعتقدون بـكذا..".

إن هذه التصريحات حول مجموعة تضم ١.٦ مليار إنسان تفشل بشكل كبير في وصف أمة تضم أشخاصاً متنوعين سواء أكانوا من قبائل الباثان البدائيين، أو من من جراحي كانسن[١] المتقدمين.

لكن الخوف يصب في صالح الصورة النمطية السطحية، وكانت تلك أوقاتاً مخيفة. فحينما كنت أعمل في مجلة نيوزويك، أرسل لي كاتب محترم رسالة بالبريد الإلكتروني يهين فيها الثقافة الإسلامية بعبارات شاملة ومبتذلة إلى الحد الذي لم أستطع معه أن أفكر ـ وأنا أحدق في كلماته بعينين محمرتين ساخنتين ـ إلا في خطاب معادٍ للسامية من ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين. وقد سمع الشيخ هراءات مماثلة من زملائه المسلمين. فقال: "عندما يقول الناس أشياء ضد الأميركيين أو اليهود، أقول لهم إنني عملت مع النوعين من الناس، وأنهم ليسوا جميعاً مثل أولئك الذين نقرأ عنهم".

في مثل هذا المناخ، بدت صداقتنا غريبة. ولقد كانت غريبة دوماً: فأنا علمانية نسوية[٢]، يهودية من جهة والدتي، وكويكرية[٣] من جهة والدِي؛ أما أكرم الندوي فهو عالم مسلم محافظ.

---

[١] فريق رائد موثوق به من كبار الأطباء الجراحين في الولايات المتحدة. (المترجم)

[٢] النسوية مجموعة من الحركات الاجتماعية والسياسية والايديولوجيات التي تهدف إلى تأسيس المساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الجنسين (المترجم).

[٣] الكويكرز هم أشخاص ينتمون إلى جمعية الأصدقاء الدينية، وهي مجموعة من طوائف مسيحية بروتستانتية، يؤمنون بقدرة كل إنسان على الاسترشاد بالنور الداخلي (المترجم).

عندما التقينا، كنت فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها ترتدي تنورة قصيرة، غير متأكدة من أي شيء سوى أهميتها الشخصية. وعلى مدى العامين اللذين عملنا فيهما معاً، وجدنا أرضية مشتركة في الأماكن العادية، حيث كنا نحتسي الشاي، ونتذمر بهدوء من رئيسنا، ومن شتاء إنجلترا الرطب. كان يتحدث بهدوء ولطف، ويقتبس بسخاء من شعرائه الفارسيين المحبوبين، ويتقاسم معي البرياني المصنوع منزلياً. في الشيخ أكرم الندوي، أدركت الجهد الذي يتطلبه خلق الألفة في مكان غير مألوف. بمرور الوقت، تحولنا من زملاء ودودين إلى أصدقاء.

عندما زرته في ذلك اليوم في أكسفورد، جلسنا نحن الاثنين، كشخصين عاشقين للكتب، مذهولين من الدماء، والكراهية التي أشعلتها المعارك باسمه وباسمي. وبدا كل خبر مرتبط بالإسلام سيئاً. وبدا كل مسلم تصوره الصحف الغربية متطرفاً. لا أحد يريد إجراء مقابلة مع مسلمين مثلك يا شيخ. احملْ كلاشينكوف وابدأ في الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وعندئذ ستحصل على بعض التغطية الإعلامية!

توقف الحديث بيننا، وأصبحت أكواب الشاي فاترة. وخفتت أشعة الشمس الليمونية، مما أضفى على الغرفة شعورًا بالطراز العتيق. لسبب ما - ربما كان ذلك بسبب شفق أكسفورد، أو ربما بسبب شعوري بأن روح العصر قد اجتاحتني- تذكرت فجأة ملصقاً دعائياً للتجنيد أثناء الحرب العالمية الأولى. كان الملصق عبارة عن رجل نحيف يرتدي بدلة من ثلاث قطع وشعره مصفف بطريقة أنيقة ومفروق من المنتصف، وكان جالساً في منزله على كرسي مريح، وكان يبدو عليه الكآبة. كانت ابنته الشقراء تجلس على ركبته، وكان ابنه يقود جنوداً من الألعاب عبر الأرضية. وكان عنوان الملصق يقول: "أبي، ماذا فعلت أنت في الحرب العظمى؟"

لقد كان الملصق مصمماً لتحفيز الجيل السابق من البريطانيين على الانخراط في ساحات المعارك، لكن تأثيره كان معاكساً تماماً بالنسبة لي. فقد حشدني بكل تأكيد. وجعلني أشعر بالقلق إزاء الكيفية التي قد ينظر بها أطفالي إلى الوراء ويسألونني عما فعلته خلال هذه الأوقات المظلمة، خلال ما يسمى بالحرب على الإرهاب. لقد جعلني أشعر بالرغبة في الخروج إلى هناك، مسلحاً بلوحة المفاتيح فقط، ومهاجمة الصور النمطية السائدة. وكنت على استعداد لقيادة حملة حوار بين الحضارات. كانت التعميمات البسيطة حول "العالم الإسلامي" و"الغرب" خيالات، وقوالب مريحة يستخدمها كتاب العناوين والمتعصبون.

"ماذا فعلت في الحرب يا أبي؟" كرر الشيخ ببطء وهو يهز رأسه. "هذا رائع، حقًا. من واجبنا أن نعمل بجد، في هذه الأوقات، لجعل الناس يفهمون بعضهم البعض".

* * *

عندما أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم في أكسفورد، ألاحظ أنه لم يقل إن الوقت قد حان "لاتخاذ موقف". كانت مثل هذه العبارات كانت تُنسب للمتشددين. لقد أزالت حياة الشيخ الحدود السوداء السميكة التي أراد المتطرفون المسلمون والمحافظون الجدد الأميركيون خلعها على "العالم الإسلامي" و"الغرب". وبما أن تعليمه كان يتبع المنهج الإسلامي الكلاسيكي، فقد تلقى تعليمًا، في بواكير حياته، حول تلك اللبنات الأساسية للحضارة الغربية والفلسفة والأخلاق اليونانية. ومن خلال التنقل بين المسجد ومركز الأبحاث، عاش الشيخ أكرم حياة في إنجلترا أثبتت أن الغرب والإسلام ليسا منفصلين، بل متداخلين. وعلى النقيض من العديد من علماء الدين المسلمين، قام بتعليم بناته في المدارس العلمانية البريطانية. فماذا كانت بناته المولودات في بريطانيا واللائي نشأن في أكسفورد، هل كن غربيات ومسلمات أيضاً؟ وماذا عن الشيخ نفسه الذي كان يدرّس طلابًا في جامعة أكسفورد، أقدم جامعة في بريطانيا، وكان أيضًا يلقي الدروس في المساجد والمدارس الدينية؟

ولن تضطر بناته الست إلى سؤاله عما فعله خلال العقد الفوضوي الذي أعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فبين التدريس والعمل في المركز، أنتج أبحاثاً قضت على الاعتقاد بأن الإسلام لم يسمح قط بحريات المرأة. وعلى مدى تلك السنوات، كشف عن تاريخ منسي منذ زمن طويل لعالمات إسلاميات، والذي طمسته قرون من المحافظة الثقافية: وهو تقليد من السلطات الدينية النسائية يعود إلى أيام النبي. وعندما بدأ، تصور أن سيرة حياة عالمات الدين من النساء قد تشكل مجلداً صغيراً يمثل ثلاثين أو أربعين امرأة، إلا أنه وبعد مرور عشر سنوات، بلغ ما كتبه أربعين مجلداً. وقد اكتشف ما يقرب من تسعة آلاف امرأة، بما في ذلك أولئك اللاتي ألقين المحاضرات، وأصدرن الفتاوى، وسافرن على ظهور الخيل والجمال طلبًا للعلم الديني. إنَّ عمل الشيخ حول عالمات الدين من النساء يتحدى المتعصبين من جميع الأنواع: مسلح طالبان الذي يطلق النار على فتاة لأنها ذهبت إلى المدرسة. والإمام الذي يمنع

النساء من دخول مسجده. والمتعصب الذي يدعي أن النسوية هي أيديولوجية غربية تقوض أسلوب الحياة الإسلامي. والغربي الذي يدعي أن الإسلام يضطهد المرأة.

إن مثل هذه الأصوات ترتفع أعلى من الأصوات الأكثر اعتدالاً مثل صوت الشيخ أكرم. والرسائل المتطرفة تصل إلى أبعد مدى، دون أن يثقلها التردد. والرجال الذين يبصقون بمقاطع صوتية تندد بالغرب يشكلون عناوين رئيسية مثيرة. والواقع أنَّ الصراعات، والخارجين عن المألوف يشكلان توربينين عظيمين لصناعة الأخبار، ولكنهما يشكلان بشكل خاص محوراً مركزياً لتغطية وسائل الإعلام الغربية للعالم الإسلامي. ويرجع هذا جزئياً إلى الحروب الحقيقية في حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. ومع ذلك فإنَّ قصص الصراعات الإخبارية نادراً ما تتوازن مع القصص المميزة في أقسام أخرى من وسائل الإعلام. فبعد أن تصفحت المجلات الأميركية على مر السنين، لا أستطيع أن أتذكر أنني رأيت غلاف مجلة أزياء رئيسية يُظهِر امرأة ترتدي الحجاب، أو تغطية مجلة سفر لأفضل الفنادق في مكة للحج.

وإذا كان المسلمون نادراً ما يَظهَرون في الصحف باعتبارهم كائنات بشرية ثلاثية الأبعاد، فإن هناك أيضاً شهية ضئيلة في وسائل الإعلام الغربية السائدة لمعرفة ما يقوله قرآنهم. ومع ذلك لم يطلب مني أي محرر قط، طيلة سبعة عشر عاماً، من كتابتي القصص في المجلات عن العالم الإسلامي، أن أكتب شيئاً عن القرآن، أو حتى أن أستشهد به، أو أشرح كيف يفهمه المسلمون.

لقد كانت هذه الفجوة واضحة بشكل خاص في حالتي، باعتباري شخصاً احتك بثقافات المسلمين طوال حياته تقريباً. لقد عشت في طهران وكابول ودلهي والقاهرة أثناء نشأتي، ودرست المجتمعات الإسلامية في الكلية والدراسات العليا. ومع ذلك فإن ما أثار اهتمام أساتذتي والمحررين لم يكن إيماني، بل السياسة التي نشأت عنه. لقد كتبت مقالات عن الانقسام بين السنة والشيعة في الإسلام، والإسلاميين المصريين، والمرابطين المغاربة، لكنني لم أتحدث قط عن النص المركزي الذي يوحدهم جميعاً: القرآن. وفي كتاباتي لمجلة نيوزويك، ثم مجلة تايم في وقت لاحق، كتبت عن تصميم المساجد، والمسلمين الشباب، وفرق البانك، وصناديق التحوط الإسلامية[٤]، ومشروبات الطاقة الحلال. كما كتبت قصصاً عن الزعماء العنيفين الذين تصدروا عناوين الأخبار: الجهاديين، وبن لادن، وطالبان، والمتطرفين الباكستانيين. لقد كتبت

[٤] صناديق التحوط الإسلامية هي نوع من صناديق الاستثمار التي تقوم على مبادئ التمويل الإسلامي، من خلال مجموعة من المستثمرين الذين يجمعون أموالهم معاً للاستثمار من خلال السندات والأسهم والعقارات.. (المترجم)

عن آرائهم السياسية، لكنني لم أكتب قط عن التقوى التي زعموا أنها ألهمتهم جميعاً. ومن المؤكد أنني لم أكتب قط عن القرآن.

للإنصاف، إن الإسلام دين شامل إلى الحد الذي يجعل المرء قد ينحرف بسهولة عن جوانبه الروحية. إن أسسه، الأركان الخمسة الشهيرة، تتركز في الغالب على الأفعال وليس المعتقدات: تلاوة الشهادتين: "لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"؛ وأداء الصلوات الخمس اليومية؛ والزكاة؛ وصوم رمضان؛ وأداء الحج. ومع وجود إرشادات حول كل شيء من اللباس إلى الأكل إلى التجارة، فإن الإسلام ينسج نفسه في العالم بدلاً من أن يقتصر على الكنيسة يوم الأحد.

لكن من المثير للدهشة أنني في المرات القليلة التي وجهت فيها انتباهي إلى القرآن، أنني كنت أتعمق فيه بشكل سطحي. فقد درست بعض السور ضمن ندوة جامعية. وقرأت الآيات التي يستشهد بها العلماء بشأن قضايا الساعة، مثل قواعد اللباس للمرأة وضرب الزوجة. وارتجفتُ من الجمال العضلي لشِعْره[٥]. في بعض الأحيان، تساءلت عما يمكن أن يضيفه من فهم أعمق لحياة الإنسان. وعندما قرأت كتاب الشيخ أكرم "حياة المدرسة"، وهو رواية شخصية عن يوم قضاه في المدرسة الدينية في لكناو، لفت انتباهي وصفه لطقوس الصباح الباكر: تلاوة القرآن في الفجر قبل حضور صلاة الجماعة في المسجد. وكان من بين السور المفضلة لديه سورة "الزمر"، التي تضمنت آية عن مغفرة الله، والتي كانت تجعله يبكي حتماً:

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"

وكتب أكرم: "عندما أقرأها أشعر بفرحة كبيرة لدرجة أنني أستمر في تلاوتها مرارًا وتكرارًا".

وباعتباري غير مؤمنة، كنت أعلم أنني لن أتمكن من محاكاة نشوة أكرم. وباعتباري متحدثة باللغة الإنجليزية ولا أتقن العربية الكلاسيكية، كنت أعلم أنني سأفقد شاعرية الكلمات الأصلية. ولكن مثل الراهبة التي كانت تنام وتسمح لنفسها ببضع ثوان من التساؤل حول الجنس، وجدت أن وصف أكرم يشير إلى حدود علمانيتي المريحة. لقد أزعجني أنني ربما أخسر

---

[٥] مصطلح "الشِعْر العضلي" يقصد به الكلام الواقعي دون زخرفة أو تزويق. وتقصد المؤلفة بأن القرآن يتحدث عن واقع الناس ولا يطوف في الخيال والمثاليات. (المترجم).

واحدة من أقوى التجارب المتاحة. لقد قرأت عن مسلمين يعتقدون أن القرآن قادر على إيقاف الزلازل. وكانت والدة أحد الأصدقاء تتلو القرآن للحفاظ على هدوئها بينما كانت تتعرض لسطو مسلح في منزلها. وفي المساجد في لاهور والقاهرة، كنت أشاهد رجالاً بالغين يبكون عند سماع كلمات القرآن.

حتى الآن، كان تقديري للحضارة الإسلامية يقتصر على الملاحظة فقط، كحالي عندما أعجب بزخارف على سجادة تركمانية، أو بخطوط عربية حول قوس مغولي. كان ذلك تقديراً مهذباً ومتحفظاً. ولأنني سئمت من كوني زائراً حسن السلوك في عالم المؤمنين، فقد أردت أن أجرب عاماً كاملاً من الانغماس في رؤية الشيخ أكرم للعالم، وكانت الطريقة الأكثر وضوحاً للقيام بذلك هي دراسة القرآن معه. وبصفتي صحفية، قضيت سنوات في تصوير المسلمين باعتبارهم أشخاصاً يقومون بأشياء: يختلقون الثورات، ويؤسسون الأحزاب السياسية، ويقاتلون، ويهاجرون، ويمارسون الضغوط.. كنت أتوق إلى فهم أفضل للدين الذي يحرك هذه الأفعال. وكنت أكتب تقارير عن الكيفية التي تشكل بها الهوية الإسلامية لباس المرأة أو المسار المهني للرجل، أو اقتصاد القرية أو أفق المدينة. والآن أردت أن أستكشف المعتقدات التي تقوم عليها هذه الهوية وأن أرى مدى توافقها مع معتقداتي.

ولكي أتجاوز الكتابة عن المسلمين بوصفهم عناوين إخبارية، كنت أعلم أنني في حاجة إلى الانخراط في محادثة مطولة، واستكشاف القضايا التي تصدرت عناوين الأخبار، كي أتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى الكيفية التي شكَّل بها القرآن نظرة المسلم للعالم. لقد أردت أن أعود إلى القرآن- مصدر الإيمان- وأن أبدأ في فهم الكيفية التي يوجه بها حياة المؤمن المتعلم. لقد كنت آمل أن أفهم تأثير القرآن ليس فقط على الثقافة والسياسة، بل وعلى الفرد أيضاً.

بعد عدة سنوات من محادثتنا أثناء الحرب التي اندلعت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اقتربت من الشيخ واقترحت عليه مشروعًا أصبح في النهاية هذا الكتاب. أردت أن أغمس نفسي في تعاليمه، وأحضر محاضراته حول القرآن وغيره من القضايا الإسلامية، وأن أتلقى دروساً فردية بين الحين والآخر على مدار العام. وبدلاً من محاولة إجراء تحقيق شامل عن القرآن بالكامل، وهو ما قد يكون عملاً يستغرق مدى الحياة، وليس عاماً كاملاً، فإن الدروس سوف تكون بمثابة نقطة انطلاق لمناقشة كل أنواع القضايا. وسوف يتم أخذ بعض هذه المواضيع من قواعد اللعبة حسب المواصفات القياسية للهواجس الغربية تجاه الإسلام.

لقد كنت مهتمة بآراء أكرم حول حقوق المرأة، وتعدد الزوجات، والشريعة الإسلامية. وكنت متشوقة لسماع تفسيره لما يسمى "آية السيف"، التي استخدمها بن لادن لتبرير جهاده. ولكنني كنت أريد أيضاً أن تتطرق محادثاتنا إلى مجالات نادراً ما تتناولها وسائل الإعلام. كنت أريد أن أعرف المزيد عما يراه الشيخ من أهم الموضوعات في القرآن، وكيف شكلت هذه الموضوعات حياته. وأي الآيات والأحاديث كانت بمثابة مرشد له، كمهاجر، وزوج، وأب؟ كنت آمل أن أسمع أفكاره حول الزواج وتربية الأطفال، واليهودية، والمسيحية. كنت أرغب في معرفة المزيد عن القرآن، ولكنني كنت أرغب أيضًا في العمل كرسام خرائط ثقافية، أرسم خرائط توضح الأماكن التي تتداخل فيها وجهات نظرنا للعالم، والأماكن التي تتعارض فيها. كنت أرغب في تحديد ما يجمعنا وما يفرقنا.

ولقد فوجئت بموافقته على الفور. ليس فقط على الدروس، بل وعلى ما قد يكون تدخلاً غير مسبوق في حياة رجل منعزل إلى هذا الحد. وعلى مدار العام، تحمل عشرات المقابلات والزيارات العديدة إلى منزله في أكسفورد. وعندما طلبت منه مرافقتي في يوم عادي، من صالة الألعاب الرياضية إلى المسجد، سمح لي بذلك. وسمح لي بمرافقته إلى الهند، حيث زرنا مدرسته القديمة وقريته الأصلية. وشجعني على إجراء مقابلات مع أسرته وطلابه. ولم يحاول قط أن يحد من الأشخاص الذين أتحدث إليهم، أو الأسئلة التي أطرحها، أو ما أكتبه.

ولكن لماذا وافق على مثل هذا النظام؟ لقد ساعدني أنني كتبت عنه من قبل، وأننا نعرف بعضنا البعض منذ عشرين عامًا. لكن في النهاية، وافق على مشروعي لنفس السبب تقريبًا الذي جعلني أرغب في القيام بذلك. قال: "هناك الكثير من سوء الفهم حول الإسلام والمسلمين. الناس لا يسمعون إلا كلمات المتطرفين. أما العلماء، فلا أحد يسمع أصواتهم أبدًا".

* * *

ولكن لماذا الدراسة معه؟ سألت إحدى صديقاتي المسلمات. لماذا هذا الشيخ بالذات؟

لم يكن لديها أي اعتراضات ضد أكرم تحديدًا؛ فهي لم تكن تعرف عمله. ومع ذلك، كانت تعلم أن هناك مئات من الشيوخ الناطقين باللغة الإنجليزية في بريطانيا وأميركا، وأن العديد منهم على استعداد لتعليم النساء. ولا شك أن بعضهم سيقبل بشخص غير مسلم مثلي. وفي الواقع إن اختيار عالم إسلامي أمر معقد لا محالة، لأن الإسلام السني يفتقر إلى رجال الدين

والبنية التنظيمية المركزية. وفي غياب مكتب رئيس أساقفة أو أبرشية محلية لتوجيه المرء نحو عالم أو إمام معين، فإن أي شخص يسعى إلى المعرفة الإسلامية يستطيع أن يدرس مع أي شخص مستعد لتعليمه. لذا كان سؤالها منطقياً: لماذا أكرم؟ لماذا ليس إسلامياً تقدمياً، شخصاً تقترب رؤيته للعالم من رؤيتي؟ لماذا لا أكتب عن أمينة ودود، العالمة الأميركية من أصل أفريقي التي قدمت أول قراءة نسوية للقرآن؟ أو حمزة يوسف، رجل الدين المقيم في بيركلي، والذي يدير مدرسة دينية في لوس أنجلوس، والذي يستطيع أن يقتبس من هوميروس وفلورنس نايتينجيل بنفس السهولة التي يقتبس بها من صوفيِّ القرن الرابع عشر؟

لقد اخترت أكرم لأسباب عديدة، وأهمها حقيقة أن وجهة نظره تختلف تمام الاختلاف عن وجهة نظري. ذلك أن التغطية الصحافية الغربية للإسلام تشغل حيزاً ضيقاً، وتركز إما على المتطرفين العنيفين أو الأصوليين المتزمتين. وفي بعض الأحيان، نتعرض نحن القراء الغربيين لما يطلق عليه "المعتدلون" ـ وهو اختصار للمسلمين الذين لا تتدخل معتقداتهم في السياسة أو الأماكن العامة. والأفق ليس واسعاً تماماً: فنحن مدعوون إلى التحديق إما في الهاوية، أو في قاعة مليئة بالمرايا العاكسة. وإذا كنت أريد أن أرى أين تتقاطع وجهة نظري الخاصة مع وجهة نظر إسلامية أو تنحرف عنها، فمن المنطقي إذن أن أقرأ القرآن مع شخص تلقى تدريبه في مدرسة دينية تقليدية، خارج الغرب.

لقد رسَّخت السنوات، التي قضاها أكرم الندوي في مدرسة دينية هندية، من تقاليد الإسلام لديه إلى حد أكبر من المتطرفين، الذين تعلم العديد منهم الإسلام في عطلات نهاية الأسبوع أو في ندوات تعليمية. وباعتباره عالماً عاملاً - يتشاور معه المسلمون العاديون في بريطانيا حول القضايا العملية من الزواج إلى الرهون العقارية- فإنه يتمتع بميزة لا يشاركه فيها العديد من الأكاديميين في الجامعات الغربية. وقد لاحظ هذه الميزة "ديفيد دامريل" وهو زميل سابق له في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وأستاذ الآن في قسم الأديان المقارنة في جامعة ساوث كارولينا، فقال: "إن الشيخ أكرم مختلف حقاً. هناك بعض العلماء الذين يتعاملون مع المجتمعات المحلية، ولكن نادراً ما يتعاملون مع أشخاص من خارجها. وهناك آخرون يدرسون في جامعات على النمط الغربي، ولا ينخرطون في المجتمعات المحلية. وقد فعل أكرم كلا الأمرين. وباعتباره إماماً في أكسفورد، لم يكتف بالتواصل مع الأكاديميين على النمط الغربي، بل كان أيضاً من طليعة الأئمة في المساجد.

لقد تلقى الشيخ أكرم تعليمه في الهند والمملكة العربية السعودية، وهو يجيد الأوردية، والهندوسية، والفارسية، والعربية، والإنجليزية، وهو يتمتع بنظرة ثاقبة مبنية على هويات متعددة الطبقات. وخلال شبابه، امتزجت ثقافة قرية جمدهان بتدريبه في المدرسة الدينية، التي بدأها محلياً، ثم في جونبور، ثم أخيراً في ندوة العلماء في لكناو بالهند. وبعد عشرين عاماً قضاها في بريطانيا، ومواسم قضاها في الدراسة في دمشق والمدينة المنورة، أصبح للشيخ نطاق ثقافي يمتد عبر القارات. وحتى وفقاً لمعايير التقاليد التعليمية التي يستطيع فيها الصبية الموهوبون من أبناء القرى أن يذهبوا إلى أبعد الحدود، فإن التحول السلس تقريباً الذي حققه الشيخ من معجزة قروية إلى عالم عالمي يشكل مثالاً مذهلاً على عالمية المسلمين. ونادراً ما نجد عالماً عاملاً قام بتدريس طلاب جامعة أكسفورد. ويقول دامريل: "لا أستطيع أن أفكر في أي شخص حقق مثل هذه القفزة الدرامية. ولا أستطيع أن أفكر في أي شخص فعل ذلك بمثل هذه الرشاقة، وبعينين مفتوحتين".

وعلى ما يبدو، لم يكن الشيخ يشعر بأنه غريب في أي مكان تواجد فيه، فقد كان يشعر بأنه في وطنه سواء في الغرب أو في الهند، لأن وطنه الحقيقي كان في مكان آخر تماماً. وقد قال لي ذات مرة: "هذه الأرض الصغيرة ليست مكاننا. علينا أن نمكث هنا لفترة قصيرة للغاية ـ ستين أو سبعين عاماً- إنها مكان اختبار، ثم نعود إلى مكاننا الحقيقي".

إن إعجابي بالرشاقة التي أبحر بها أكرم في العالم يرجع جزئياً إلى أن رحلاتي الشخصية عبر العالم كانت متعرجة إلى حد ما. لقد ولِدَتْ نزعتي إلى العالمية، التي كانت أوسع وأقل عمقًا من نزعة الشيخ، من طفولة كان يجرها حول العالم والد لا يهدأ. ذلك الرجل الذي يتوق إلى أفق مرصع بالمآذن ومضاء بهلال معقوف، ما كان ينبغي له أبداً أن يدرس الوصايا والمواريث في كلية الحقوق في سانت لويس. لقد كنا نقضي الصيف في أوروبا، وكان والداي يأخذان إجازة من جامعاتهما كل بضع سنوات للتدريس في الشرق الأقصى، حيث كانا يأخذانني وأخي للعيش معهما في إيران وأفغانستان والهند ومصر.

لقد عمل والدي على تسوية الأرض من أجلنا، وجعل استكشافها بمثابة بحث روحي. وخلال هذه السنوات التي قضيناها في الخارج، اكتشفنا أنا وأخي أن "الوطن" ليس مكانًا واحدًا بل أينما كنا نتواجد فهو وطننا. كنت رحالة صغيرة مدربة تدريبًا جيدًا، وأشعر بالراحة في معظم الأماكن طالما كان والداي معي، وكتابًا من تأليف لورا إنجلز وايلدر، ورفيقة للعب

من حين لآخر. كانت دروسي الأولى في الاختلاف الثقافي بدائية، لكنها كانت البداية. في قم، المدينة الإيرانية للحوزات والعلماء، كانت كل أنثى، حتى من كانت في سن الخامسة مثلي، ترتدي جادور[٦].

في أفغانستان، لم يكن لك لترتدي ملابس بلا أكمام، أو لتقط صورة لأحد دون إذنه، أو ترفض فنجاناً من الشاي يُقدَم لك. وعندما سنحت لي الفرصة، حاولت أن أفهم الاختلافات الثقافية بين المجتمعات الإسلامية ومجتمعي، ولكنني أحببت أيضاً أن أرى أوجه التشابه بينهما. في البداية، نشأت هذه الرغبة من محاولة جعل الأماكن الأجنبية موطناً لي. وساعدني روتين المقارنة والتباين في نسج وجود منقسم بين الغرب الأوسط والشرق الأوسط وآسيا. ومع تقدمي في السن، أصبح هذا التمرين أكاديمياً ومهنياً. فقد درست التفاعل بين الثقافات الغربية والإسلامية في الكلية والدراسات العليا، وكتبت عنه لاحقاً كصحافية. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اكتسب الموضوع إلحاحاً سياسياً، حيث أقنع الخوف والغضب كل من المسلمين وغير المسلمين بأن "هم" يكرهون "نحن". ولم تكن الدراسة مع أكرم تهدف إلى تنمية فهم أعمق للإسلام فحسب، بل كان الأمر بمثابة اختبار لحدود إيماني: إيمان متحمس لمحاولة فهم ما هو غريب حقًا، وما يبدو كذلك فقط.

* * *

لقد بدأت تجربتنا في الحوار بين الثقافات في مقهى يقع على مقربة من شارع التسوق الرئيسي في أكسفورد. وبعرضه الفاخر لكعكات الكريمة ذات الطابقين واسمه الطفولي"نوزباغ"، بدا المكان غريباً لعقد درس في القرآن. في القرون السالفة، ربما كان نوزباغ هو نوع المقاهي الذي كان يرتادها طلاب أكسفورد الأكثر رصانة لحضور مناقشات حامية حول لوك وسوفوكليس. جلست أنا والشيخ على طاولة خشبية داكنة تحت سقف منخفض، نتطلع من خلال النوافذ الرصاصية إلى رذاذ شتوي رمادي. وفي بريطانيا يبدأ الاستعداد لعيد الميلاد في اللحظة التي تسقط فيها أول ورقة من أوراق الشجر، وعلى الرغم من أن الوقت كان في أوائل نوفمبر، فقد تم بث نسخة كورالية من "تعالوا أيها المؤمنون" من مكبر صوت.

[٦] الجادور: عباءة سوداء ترتديها النساء الايرانيات تكتب بالفارسي هكذا (چادر) وتلفظ اتْشادُر

وتحدثت طالبتان أميركيتان في الدراسات العليا عن أساتذتهما. وتحدثت سيدتان رماديتا الشعر يرتدين الكشمير بهدوء عن مشترياتهن في عيد الميلاد.

لقد اتفقنا على اللقاء في مقهى نوزباغ لأنه كان مناسبًا، ويقع على بعد خطوات قليلة من مكتب الشيخ. وضعت نسخة من القرآن على الطاولة بيننا وحاولت تجاهل شعوري الداخلي بالحرج. لقد شعرت بطريقة ما أنه من غير اللائق إجراء مناقشة جادة حول كتاب ديني مقدس في العلن، حيث يمكن للآخرين سماعنا. باختصار، خطرت لي فكرة غير مكتملة وهي وضع لافتة كرتونية على الطاولة: "هذه المحادثة لأغراض بحثية فقط!".

ولم ير الشيخ أي غرابة في دراسة القرآن أثناء تناول الشاي في منتصف الصباح في منطقة التسوق في أكسفورد. ربما يقتصر شعوري بالدين على دور العبادة، لكن الإسلام يتبنى وجهة نظر أوسع. فقد قال النبي محمد ذات يوم: "إن العالم كله مسجد"[٧]. وفي المطارات أثناء موسم الحج، رأيت المتدينين يسجدون خارج متاجر السوق الحرة، وبجوار بوابات الصعود إلى الطائرات. ورأيت سائقي سيارات الأجرة المسلمين يصلون خلف مكتب سيارات الأجرة في مطار لاغواردیا في نيويورك. ورأيت ذات مرة أفغانياً معمّمًا يسجد على منصة عرض فارغة في متجر في سانت لويس. فقد كان يصلي وعيناه مغمضتان، وكفاه مرفوعتان نحو السماء، ويتواصل مع اللانهائي في وسط حركة المرور في وقت الغداء في شارع جراند بوليفارد.

لقد شرعنا أنا وأكرم في دراسة القرآن من خلال نشاط أكثر بساطة: تناول فطائر الجبن واحتساء أكواب قوية من الشاي الإنجليزي. لم يكن الشيخ يشبه الصورة النمطية الغربية للعالم المسلم في ذلك اليوم. كان يشبه أستاذاً ودوداً في معطفه الصوفي، وبنطاله الكاكي، وحذائه الأسود. وبدت لحيته ملطخة بالشيب، لكن وجهه لا يزال يحتفظ بملامح ناعمة ومنفتحة لرجل أصغر سنًا. وكانت عيناه بلون خشب الساج المصقول المتألق. ورغم أنني أعرف الشيخ منذ عشرين عاماً، فقد شعرت بالتوتر.

"شيخ"، افتتحت حديثي بتردد: "أنا لم أقرأ القرآن من قبل!".

انتظرت حتى أدرك جدية اعترافي. كان الاعتراف بهذا في هذه المرحلة من حياتي المهنية أمراً مخزياً، أشبه بأستاذة الأدب التي تكشف أنها تجاهلت هوميروس وهاملت.

---

[٧] تشير الكاتبة إلى حديث (جُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا).

قال أكرم وهو يدهن الكعكة بالزبدة: "أغلب المسلمين لم يقرأوا القرآن أيضاً، وحتى لو قرأوه فإنهم لا يفهمونه. القرآن غريب عليهم. وعادة ما يلجأون إلى كتب الشريعة. وإذا كانوا مهتمين بالتقوى أو تزكية النفس فإنهم يقرأون الغزالي ـ الفيلسوف ـ أو الصوفيين مثل جلال الدين الرومي.

لقد أزعجني هدوء أكرم. كنت أعلم بالطبع أن العديد من خريجي المعاهد الدينية الأقل شهرة في العالم الإسلامي لم يقرأوا كتب الإسلام المقدسة. ربما كان الصبية في المدارس الدينية في القرى، الذين كانوا يتأرجحون ذهاباً وإياباً، وينطقون بآيات من القرآن باللغة العربية الفصحى، وهي لغة لا يفهمونها، يقرؤون قراءة حرفية، لكن ليس أكثر من ذلك. لقد خُدِع الانتحاريون والجنود الجهاديون الذين وُعدوا بمكافأة اثنتين وسبعين عذراء في الجنة[٨]. لا يوجد في القرآن أي مكان يذكر مثل هذه المكافآت للقتلة. ومع ذلك، افترضتُ أن خريجي المؤسسات الإسلامية العظيمة، مثل الأزهر الشريف في القاهرة، أو جامعة الشيخ الأم، ندوة العلماء في لكناو، يعرفون القرآن عن كثب، إن لم يكن عن ظهر قلب.

"حتى الأشخاص الذين يذهبون إلى المدارس الدينية الجيدة لا يعرفونها بالضرورة كما ينبغي" قال أكرم، وهو ينفض فتات الكعكة عن سرواله الكاكي: "في الواقع، غالبًا ما يكون القرآن هو الجزء الأضعف في مناهج المدارس الدينية".

انحنيت للأمام، وقد ظننت أنني سمعته خطأً. كان صوته ناعمًا كما كان عندما كان شابًا، وعلى الرغم من أنه أمضى عقدين من الزمان في إنجلترا، إلا أن لهجته لا تزال تحمل الطابع القوي للهند الريفية.

"حقا؟" تلعثمت. "لكن هذا... أعني، إنه القرآن! من الواضح أنه أساسيات ما يدرسه علماء الدين؟"

"إنها ليست كذلك. يتم بذل المزيد من الجهد والوقت الدراسي لنصوص الفقه أو الحديث". وتابع إن فروع المعرفة الإسلامية التي جاءت بعد وفاة النبي، مثل القانون والفلسفة، لم تفعل سوى زيادة الظلم والانقسامات في العالم الإسلامي. لقد أبعدتْ البشرية عن المصدر. لقد دُفنت رسالة القرآن، والسنة، وأسوة النبي محمد، تحت جبل من الجدل الأكاديمي. في القرون التي تلت محمد، أقام العلماء نظامًا متقنًا للفقه، وهو سقالة قانونية من

[٨] طبعا لسنا نوافق المؤلفة على كلامها على إطلاقه، فهناك أحاديث صحيحة أثبتت ذلك للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله.

صنع الإنسان تستند إلى تفسيرات القرآن والحديث. هذه المدارس الأربعة للفقه، التي تم تطويرها بعد وفاة النبي في عام ٦٣٢ م، تختلف في قضايا تتراوح من أوضاع الصلاة الصحيحة إلى ما إذا كان المؤمنون يجوز لهم أكل جراد البحر أم لا. كان علماء الدين في العصور الوسطى الذين طوروا الفقه كانوا أكثر تحفظًا تجاه القرآن، وغالبًا ما كانوا أكثر شدة في عقوباتهم من النبي محمد.

قال أكرم: "اقرأ كتب الشريعة الإسلامية، وستجد أنها أكثر قسوة على النساء. هل تعلمين متى أصبحت ضد النساء حقاً؟ عندما بدأ العلماء في دراسة الفلسفة". قال الشيخ إن كراهية النساء التي تسري في الفقه لم تكن مجرد مسألة تتعلق بأخلاق العلماء في العصور الوسطى، بل كانت أيضاً مسألة تأثر بالفلاسفة اليونانيين. وأردف أكرم قائلاً: إن أرسطو، الذي اعتقد أن إخضاع النساء كان "طبيعياً" و"ضرورة اجتماعية"، أثر على المفكرين المسلمين الرئيسيين الذين شكلوا الفقه في العصور الوسطى، وقبل أن يصبح أرسطو نصاً أساسياً، وقبل أن يكرس علماء العصور الوسطى وجهات نظرهم بشأن الأدوار الجنسانية في الشريعة الإسلامية، كان الرجال والنساء يتمتعون بحريات متساوية أكثر بكثير في الإسلام. ثم رسم أكرم بيديه قمماً وقيعاناً في الهواء، وكأنه يخطط لصعود وهبوط التمييز على أساس الجنس عبر التاريخ.

"ليحفظكم الله سعداء أيها السادة الكرام!"[٩] كان صخب هذه الأغنية يبلغ ذروته فوق رؤوسنا. فسألت: "لماذا إذن أصبح الناس مهووسين باتباع المذاهب الفقهية؟ لماذا لا يعودون إلى القرآن؟"

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ومشرقة وقال: "الناس يمكن أن يكونوا كسالى. إن استشارة العلماء وطاعة قواعدهم أكثر أمانًا وسهولة، فلستَ بحاجة إلى القراءة أو التساؤل أو التفكير، لأن لديك أشخاص آخرون يفكرون نيابة عنك. أما إذا أصبحت منفتحًا، فهذا يمثل تحديًا". ألقى الشيخ نظرة على ساعته، ليرى كم من الوقت بقي قبل صلاة الظهر. كما ترين، كارلا، ما حدث حقًا هو أننا في العالم الإسلامي دمرنا التوازن بالكامل. لقد أصبحنا مهووسين بهذه التفاصيل الصغيرة، هذه الفقهيات. ماذا يكرر القرآن؟ تزكية النفس. هذا هو المهم! لماذا أصبح قطع يد السارق – وهو شيء يذكره مرة واحدة! – ذا أهمية كبيرة لبعض الناس؟"

[٩] "God Rest Ye Merry, Gentlemen" هو عنوان ترنيمة عيد الميلاد إنجليزية تقليدية، يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر. معنى العبارة قد يبدو غير واضح بسبب اللغة القديمة المستخدمة؛ لكنها تعني: "ليحفظكم الله سعداء" أو "ليجعل الله قلوبكم مطمئنة وسعيدة"(المترجم).

كعالم كان غير مصدق لما قاله، أما أنا كصحافية فلم أكن كذلك. فالدموية والحقائق المطلقة تجذب انتباه الناس دائماً أسرع مما يفعل الشِّعر والفروق الدقيقة.

ابتسم أكرم بنظرة ذات مغزى وقال: "يصاب الناس بالصدمة حقًا عندما أخبرهم أن المذاهب الأربعة ليست مهمة حقًا. إذا قرأ الناس القرآن فقط، فإن معظم هذه الاختلافات ستتلاشى".

لم أقتنع بذلك. فقد قرأه المزيد من الناس، ولكنه أثار الجدل رغم ذلك. فما زال الرجال يستخدمون القرآن لتبرير أفعالهم حين يضربون زوجاتهم. وقد استخدم بن لادن القرآن لإعلان الحرب على كل من اعتبرهم كفاراً.

وتابع الشيخ قائلا: "هناك قراءة متقنة للقرآن وقراءة غير متقنة. وفي كثير من الأحيان يقرأ الناس القرآن بشكل انتقائي، ويُخرِجون العبارات من سياقها. يستخدم الناس القرآن لأي نقطة يريدون إثباتها، فهم يأتون إليه بأفكارهم الخاصة ومن ثم يبحثون عن الآيات التي تؤكد ما يودون سماعه".

قال أكرم إن القرآن ليس قائمة تسوق للحياة الطيبة. فالمسلمون المتدينون مثله، والطلاب المتحمسون مثلي، يحتاجون إلى الوقوف جانباً من أجل رؤية شاملة للنص. ولا يمكن للقارئ المتمعن أن يصرف انتباهه عن رسائله الشاملة وموضوعاته المترابطة. لأن تصميمه في حد ذاته معجزة، وواحدة من العلامات اللامتناهية لنعمة الله.

"كتاب كمعجزة؟!" أومأت برأسي.

"آه! هل هذا كتاب الآن؟" صفع فخذه بسعادة قائلاً: هذا هو السؤال الأول الذي يجب أن نسأله! هل هو كتاب أم لا؟

انحنى إلى الأمام، متحمسًا للسؤال. أليس مفهوم "الكتاب" الذي صنعه الإنسان- ببداية ووسط ونهاية- كلمة ضئيلة جدًا لوصف شيء لا نهائي مثل القرآن؟

وتابع قائلاً: "إن القرآن لا يُقرأ بالترتيب الذي نزل به. فالوحي الأول الذي تلقاه محمد (سورة العلق) لم تُكتب في المصحف إلا في مكان متأخر للغاية، في السورة رقم (٩٦).

لم تكن هذه أخباراً طيبة. كنت متحمسة للدقة، ولكن مثل منتج برودواي، كنت آمل في الحصول على لحن يمكنني غنائه.

قال أكرم: "قد لا تكون آيات القرآن مرتبة حسب نزولها الزمني، لكن تسلسلها الحالي كان مقصودًا"

"لماذا تعتقد أن الترتيب قد تغير؟"

"بما أن الله كان دقيقا ومحددًا في إنزاله القرآن، فلا بد أن يكون هناك سبب". جلس إلى الوراء راضيًا. أشياء كثيرة كانت مفتوحة للنقاش، ولكن ليس الاستراتيجية الإلهية. لقد كان هذا الطريق متحولاً من الغموض إلى اليقين ثم العودة مرة أخرى.

"لذا، بهذا المعنى، إنه كتاب، أليس كذلك؟"

"نعم. يستمر القرآن في تسمية نفسه كتاباً. إنه كتاب أُنزل على النبي، وكشف للناس عما يحتاجون إليه، عندما احتاجوا إليه. لكن كونه ليس كتاباً عادياً، فإنه لم يكن دائماً منطقياً كما كانت الكتب الأخرى. ستجد نفسك أمام آية تتحدث عن الطلاق. (قال ذلك وهو يرسم خطاً على الطاولة، مثل مدرب كرة قدم يخطط للمباراة)، ثم فجأة ستجد حديثاً عن الصلاة، ثم العودة إلى الحديث عن الطلاق"[١٠] جلس إلى الخلف "كيف من المفترض أن يفهم المرء ذلك؟"

ولم يكن لدي أدنى فكرة عن هذا، ولم أكن وحدي في هذا. فمن بين أكثر قراء القرآن ارتباكاً كان توماس كارليل. فقد كان الكاتب الفيكتوري من أشد المعجبين بالنبي محمد وبالإسلام نفسه، ولكنه وجد كتابه "أكثر قراءة مملة من أي قراءة قام بها على الإطلاق... خليط مربك مرهق". لكنه لم يكن خليطاً، كما أصر أكرم. "سوف ترى، وتتعجب، كيف تنسجم الآيات مع بعضها البعض. وإذا حركت الآيات من مكان إلى آخر، فسوف تفاجأ بأنها لا تعمل خارج الترتيب الالهي".

---

[١٠] للأسف عدم فهم الشيخ للمحور الذي تدور حوله الآيات جعله يتجرأ قائلا "ترتيب آيات القرآن غير منطقي"! فآيات سورة البقرة من (٢١٥-٢٥٢) تدور حول محور واحد هو "انفصال شيء وابتعاده عن الإنسان" كالتالي: تبدأ الآية (٢١٥) بالحديث عن الإنفاق وإخراج الصدقات، ثم تتناول الآيات التي تليها الخروج من البيوت إلى ساحة القتال، وفي ذلك انفصال الإنسان عن أهله وأولاده وماله. بعد ذلك، تتحدث الآيات عن خروج الإنسان من بيئته مهاجرًا إلى وطن جديد. ثم تليها آية تتناول الفصل بين مال اليتيم ومال كافله، ثم آية تتحدث عن انفصال المؤمن عن الكافر في الزواج، إذ لا يجوز اجتماعهما. ثم تستمر الآيات بالحديث عن انفصال الزوج عن معاشرة زوجته أثناء المحيض، ثم انفصال الزوج عن زوجته بالطلاق. تليها آيات تناقش انفصال الرضيع عن والدته أثناء الرضاعة، ثم انفصال الزوج عن زوجته بالموت. بعد ذلك، تأتي آيات تتحدث عن انفصال عقد الزواج قبل إتمامه. ثم تنتقل الآيات لتتناول خروج الملأ من بني إسرائيل من بيوتهم خوفًا من الموت، فقال الله لهم: "موتوا". ثم تتناول الآيات إخراج الإنسان الصدقات من ماله (من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا). وفي النهاية، تأتي الآيات لتتحدث عن خروج الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى للقتال.

بدأت أدرك لماذا يركز العديد من المسلمين على القواعد الملموسة بدلاً من التفاصيل الدقيقة للقرآن. فكم هو بسيط نسبياً أن نناقش ما إذا كانت حلوى (إم آند إمز) حلالاً أم حراماً، أو نتجادل حول المشاكل الدنيوية مثل الحجاب ومشتقات لحم الخنزير، فهي أسهل كثيراً من الخوض في غابات من الآيات القرآنية. وقليلون هم القراء الذين يستطيعون أن يرتقوا إلى مستوى التحدي المتمثل في تقدير التصميم الإلهي لترتيب آيات القرآن. لقد شعرت بالإرهاق، ولابد أن هذا قد ظهر على وجهي، لأن الشيخ ابتسم وقال: "انظري، القرآن صعب. ولكي تتمكني من قراءته بالنص الأصلي، عليك أن تعرفي اللغة العربية الفصحى، التي لا يرغب سوى عدد قليل من الناس في تحمل عناء تعلمها".

لم أكن لأفعل ذلك بالتأكيد! لقد تذكرت جيداً ذلك الطالب الجامعي العجوز الذي كان يلهث حول تعلم اللغة العربية وهو يقول: "إن السنوات العشرين الأولى فقط هي التي تكون صعبة". لقد ربتُّ على ترجمتي، وأنا جالسة بجوار إبريق الشاي، وهممت بفتحها، متحمسة للبدء، لكن الشيخ استمر في حديثه قائلاً: "لكي تفهميها حقاً، سوف تحتاجين إلى معرفة الكثير. ولكي تفهمي قصص الأنبياء الواردة فيها، عليك أن تعرفي قصص الكتاب المقدس".

لقد بلعت ريقي. لقد اكتسبت معرفتي بالكتاب المقدس من خلال لوحات عصر النهضة وقراءة رواية الفردوس المفقود في مادة الأدب في السنة الثانية.

وتابع الشيخ: «لكي تفهمي النص لابد أن تفهمي سياقه، ولكي تفهمي القواعد التي وضعها لابد أن تفهمي المجتمع العربي في العصر الذي نزل فيه: فإذا لم تعرفي عادات وتقاليد زمن النبي محمد فلن تفهميه».

تجربتي في الجزيرة العربية في القرن السابع كانت بدائية، ولغتي العربية كانت محدودة!.

ابتسم الشيخ وهو يمد يده إلى معطفه. "بالطبع، إذا كنتِ كسولة، فلن تتمكني من فهمه".

لقد كنت كسولة في كثير من الأحيان. وفكرت في كارليل، وهو رجل من العصر الفيكتوري، واسكتلندي، وفيلسوف. باختصار، رجل لم يكن من سلالة كسولة على الإطلاق، وقد حذر رغم ذلك من أن "لا شيء سوى الشعور بالواجب يمكن أن يحمل أي أوروبي على قراءة القرآن[١١]".

[١١] لست أدري أين قال كارليل هذا الكلام، ومتى قاله؟ وتوماس كارليل كاتب اسكتلندي وناقد وساخر، وكان من أشد المدافعين عن الاسلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أشهر كتبه الأبطال. وإن كان كارليل قد قال هذا الذي

وكما سيخبرك أي طفل يدرس الأديان العالمية، فإن الإسلام انطلق من الصحراء. لقد شعرت أن وقت دراستي مع الشيخ كان أشبه برحلة صحراوية. فالشمس قد تبهر، وصفاء الهواء قد يضغط على مظهر المسافات؛ إذ يبدو الكثيب البعيد قريباً؛ وقد يلوح الأفق، ثم يتراجع في لمح البصر، وقد تغطي الرياح القوية المسارات وآثار الأقدام بالرمال. هذه كانت تجربة الدراسة مع الشيخ. لم تكن المناظر الطبيعية القرآنية جافة ولا قاحلةً، ولكن بالنسبة لي كعلمانية غربية غير متعلمة في الكتب المقدسة لأي دين، كنت أفتقر في كثير من الأحيان إلى المعالم. ووجدت نفسي أضع حدوداً ذهنية، ثم أضطر إلى إعادة ضبطها، مراراً وتكراراً.

لقد كنا نشكل قافلة صغيرة غريبة، أنا والشيخ، مؤمن متدين وعلماني متشكك. لكن من المدهش أنني في كثير من الأحيان أتطرق إلى موضوع كنت أظنه سيثير كثيرًا من الخلاف، فنجد أنفسنا متفقين فيه. فقد يتبين لنا أن بعض القضايا التي كان الشيوخ أو الساسة يتذمرون منها كانت تافهة للغاية. ثم فجأة، أتعثر في عبارة تبدو لي غير ضارة على الإطلاق، فقط لأكتشف تعقيدات وعرة كامنة تحتها. فأجد نفسي أتأمل في وديان من عدم الفهم. وقد يكون الأمر مربكاً للغاية. لكن الارتباك يشكل مَعْلماً جيداً. ذلك أن إعادة النظر في المعتقدات، معتقداتك الشخصية، تشكل صميم التقاليد العلمانية الغربية. كما يشكل الارتباك دليلاً على قدرة الله، وهو موضوع بعض أكثر آيات القرآن إثارة.

لم يكن الشيخ مشتتًا حقًا. كان لديه قبلته الخاصة، وهي الاتجاه إلى الله. وبعد أن شرعنا في رحلة من نوع ما، لم يكن أمامنا إلا المضي قدمًا، ومعًا.

زعمته المؤلفة فليس هو حجة في فهم كتاب لا يتقن لغته أصلا، وإذا قال هذا القول فربما كان هذا رأي قديم له قبل أن يكتب كتابه (الأبطال) الذي أشاد فيه بالنبي محمد وبالاسلام. (المترجم).

الجزء الأول

الأصول

(١)

القرآن في خمسة وعشرين كلمة

قبل أيام قليلة من درسي عن أول سورة في القرآن، ذهبت إلى حفل غداء يوم الأحد في شمال لندن. وعلى المائدة، التقيت برجل، سأطلق عليه اسم هانز، بشعر رمادي أنيق، وسترة خضراء مصقولة، ولهجة أوروبية هادئة. ولد هانز في فيينا وتلقى تعليمه في كامبريدج، وكان قد تحدث عن موضوعات تتراوح من أصول التدريس في المدارس الابتدائية إلى نثر "سكوت فيتزجيرالد" حتى قبل أن ينهي كأسه الأول من بروسيكو. وبعد أن أخبرني عن الكتاب الذي نشره في مجلة أدبية في باريس في زمن الحرب، علم أنني صحفية فسألني عما أكتب. وعندما أخبرته، بدا وكأنه ابتلع للتو عمودًا فقريًا لسمكة.

"القرآن!". قال متلعثمًا. "ولكن لماذا؟"

سادت لحظة صمت محرجة. فعندما سمعت هذا الرفض الجريء من رجل راقٍ، شعرت بنفس الحيرة التي بدت عليه. فقبل عام أو نحو ذلك، اتَّهَمتْ سياسية بريطانية مسلمة، الإسلاموفوبيا بأنها "نجحت في اختبار حفلات العشاء" وأنها أصبحت الآن، على نحو مخزٍ، شكلاً مقبولاً من أشكال التمييز في المجتمع المهذب. وكنت آمل أن تكون قد بالغت، حيث لم أصادفها في دائرتي الصغيرة المتسامحة حتى الآن.

لقد ابتلعت سمكتي وبدأت في استعراض الأسباب. بدت لي الأسباب واضحة إلى الحد الذي كدت أرددها بنبرة الغناء التي أستخدمها لتوبيخ أطفالي حتى ينظفوا أسنانهم: اهتمام شخصي مدى الحياة بالمجتمعات الإسلامية. تعداد سكان العالم من المسلمين يبلغ ١.٦ مليار نسمة، يتزايد باستمرار، حيث أن الإسلام هو أسرع الأديان نمواً على هذا الكوكب. حروب ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. قضية جديدة حاسمة في البرلمانات الأوروبية والانتخابات الأميركية. قوة النص، وشعريته. لقد شعرت بشيء من الحماقة وأنا أسرد القائمة. فحتى قبل دقيقة واحدة كنت أفترض أن الشخص الذي يعيد قراءة رواية "الليل الرقيق" ويكتب عن التاريخ الفكري للقرن العشرين، سوف يعتبر قراءة القرآن أمراً مسعى جديرًا. أنهيت حديثي، ثم تناولت بعض الكرنب في فمي بشموخ وابتلعته، وتصدَّيت: "لماذا؟ ما رأيك في الإسلام؟"

قال هانز بمرح: "إنهم يعيشون في العصور الوسطى، وهم بحاجة إلى اللحاق بركب العالم".

لقد سمعت هذا عشرات المرات من قبل: من سائقي سيارات الأجرة في لندن، ومن البرامج الإذاعية الحوارية في الغرب الأوسط، وحتى من أشخاص مثقفين مثل هانز. ولولا ضجيج الأطفال الذين يتجادلون حول ما إذا كان ينبغي لهم أن يشاهدوا بيتر بان أو سنو وايت، لربما كنت لأرد عليه بأن الأصوليين لا يمكن أن نعتبرهم من العصور الوسطى. وأنهم لا وجود لهم خارج دائرة الحداثة، فهم جزء منها بفضل استخدامهم للتكنولوجيا، وشبكاتها العالمية المتطورة. ولولا أنني كنت قد شرعت في كأس البروسيكو الثانية، وكنت على دراية بالضيوف الآخرين الذين ينتظرون منا أن نربط خيوط محادثتنا، لربما كنت لأخبر هانز بما افترضه العديد من العلماء: أن الخطاب المناهض للغرب والمعادي للعلمانية الذي يتبناه الأصوليون المسلمون هو استجابة للنسيج الاجتماعي المتهالك في المجتمعات المتغيرة بسرعة والمستقطبة على نحو متزايد. وأن المسجد يوفر للمهاجرين الجدد ملاذًا من الوحدة. وأن الإيمان القائم على وصفات دقيقة، يوفر مرساة للأشخاص الذين انفصلوا عن وطنهم أو عائلاتهم.

في الحقيقة لم أطرح تلك الحجج، لأنني كنت أعتقد أنها ثقيلة بعض الشيء في فترة ما بعد الظهيرة من يوم أحد مشمس، حيث يستغل مضيفونا أشعة الشمس الشتوية النادرة، ويفتحون الأبواب المنزلقة المؤدية إلى شرفات منزلهم. بيد أني اتخذت مسارًا أسهل: "حسنًا، بالطبع، ربما تعتمد فقط على ما تقرأه في الصحف"، أومأت برأسي. "صدقني، أنا أعلم، كصحفية: من يصنع أفضل القصص، ومن يقدم أفضل الاقتباسات. إنهم المتطرفون، والمجانين. فمن هم الأشخاص الذين نميل إلى الاستماع إليهم؟ أليس الأشخاص الذين يصرخون بأعلى صوت؟".

سأل هانز: "ولكن أين المعتدلون؟ لماذا لا يتحدثون؟

"حسنًا، إنهم موجودون هناك، لكنهم لا يتصدرون عناوين الأخبار"، أجبت. "إن الهدوء لا يصنع الأخبار. في بعض الأحيان يكتبون مقالات رأي، أو يعملون مع مجموعات دينية أو منظمات غير حكومية. لكنك لن تسمع عنهم، لأنهم لا يفجرون الأشياء، ولا يطلقون العنان لغضبهم".

قال: "ولكن هل هناك مسلمون معتدلون حقا؟ أعني معتدلين حقيقيين؟

"بالطبع هناك!" قلت. "لديك ملايين وملايين من المسلمين الذين ينظرون إلى إيمانهم بنفس الطريقة التي ينظر بها إليه معظم المسيحيين أو اليهود أو البوذيين، باعتباره مسألة خاصة. وإن كنت تبحث عن مسلمين يحاولون التوفيق بين إيمانهم وحقوق الإنسان العالمية، فلديك حركات إصلاحية صغيرة مستمرة: نساء، ومثليون، وأقليات، يعودون إلى القرآن ويقرؤونه بأنفسهم، ولا يسمحون لرجال الدين المحليين بإخبارهم بما يجب عليهم أن يفكروا فيه. لديك الكثير من العلماء، والكثير من المسلمين العاديين، الذين يحاولون استعادة دينهم من المتطرفين الذين نصّبوا أنفسهم كقادة دون أي تعمق في الشريعة الإسلامية أو الثقافة. وهناك الصوفيون الذين يكافحون ضد صرامة رجال الدين...".

"لكن ماذا عن السعودية؟" تابع وهو يدفع كرسيه إلى الخلف من على الطاولة في هيئة مصارع يستعد لمباراة. "في المملكة العربية السعودية، لا تستطيع النساء القيادة. وماذا عن طالبان؟ ماذا يفعلون بالنساء؟ في ظل حكم طالبان، لا يمكنهن الذهاب إلى أي مكان دون تغطية أنفسهن". بدأ الضيوف الآخرون، الذين شعروا بتوتر خفي، يجمعون أطباقهم وينقلونها إلى الحوض.

"إنهم لا يمارسون الإسلام"، أجبت ربما بغطرسة مفرطة: إنها عادة محلية أو قبلية تحولت إلى قانون وطني. نعم، هذه القوانين والقيود فظيعة، لكنها ليست إسلامية. كل ما عليك فعله لمعرفة أن الإسلام له قيمًا عالمية – مثل قيمي وقيمك– هو العودة إلى المصادر".

كان مضيفونا قد عادوا إلى المائدة حاملين كعكة الشوكولاتة، لذا توصلنا إلى هدنة غير مستقرة، لصالح الطعام والمرح. ودخلنا معًا، بخطوات متقطعة بعض الشيء، إلى أرض أكثر أمانًا للمحادثة حول مخاطر الأسلحة النووية الإيرانية وفضائل البيتزا النابولية. كنت أعلم أنني لم أقنعه، لكنني كنت على ثقة تامة من أن المصادر، كما قرأها أكرم، سوف تكشف عن دين عادل وإنساني. غادرت الحفلة وأنا منزعجة من تحيز هانز، لكنني مشحونة بالاستقامة، ومطمئنة بيقيني الخاص.

لقد حملت هذا الشعور النقي المشرق معي إلى أكسفورد بعد بضعة أيام، حيث نما فقط عند رؤية أكرم مرة أخرى. وبينما كنا نصعد السلالم الحادة إلى نوزباغ، حدثني كيف أمضى يومه

السابق في ليستر، حيث التقى نساءً، وقادة مجتمع مسلمين، للحديث عن السماح للنساء بالصلاة في المساجد. ففي عهد النبي، كانت النساء يصلين بحرية في المساجد مع الرجال، لكن مع مرور الوقت، بدأت العديد من الثقافات في تقييد وجودهن. وعلى مر القرون، تحول إجماع العلماء، على أن النساء ليس لهن الحق في الذهاب إلى المساجد للصلاة، إلى قاعدة فقهية تقول إنه لا يجب عليهن ذلك. وفي العديد من أجزاء العالم الإسلامي، توقفت النساء عن الذهاب إلى المساجد، أو مُنِعن من القيام بذلك.

تحدى أكرم هذا الأمر، وقال وهو يسمح لنفسه بجزء من الثانية من الانتصار الهادئ: "لقد كانت النساء في غاية السعادة، حقاً. لم يكن الجميع مقتنعين، لكنها كانت البداية". ومنذ بدأت أنباء عمله في مجال النساء الباحثات تنتشر، تم استدعاء أكرم في عشرات البعثات الدبلوماسية من هذا القبيل. فالرجل الذي بدأ حياته المهنية كخبير في الحديث النبوي أصبح مدافعاً مشهوراً عن حقوق المرأة المسلمة في إطار إسلامي تقليدي.

وفي ليستر، أخبر مسؤولي المسجد عن عمله في جمع أسماء النساء التاريخيات اللواتي لم يكنَّ فقط يصلين في المساجد، بل كن يناقشن ويحاضرن فيها، ويعلمن الطلاب الذكور والإناث على حد سواء. وكنت آمل أن يخبرهم أيضًا، كما أخبرني، عن الفقيهة البغدادية، المولودة في القرن العاشر، والتي طافت البلاد تعطي المحاضرات للنساء في سوريا ومصر. وكذلك أم الدرداء، الفقيهة البارزة في القرن السابع من دمشق. فقد وجد أكرم أنها عندما كانت شابة، كانت تجلس مع العلماء في المساجد تناقش اللاهوت. وقد كتبت: "لقد حاولت عبادة الله بكل الطرق، لكنني لم أجد طريقة أفضل من الجلوس ومناقشة العلماء الآخرين".

لقد جعلتني هذه المقولة وحدها أرغب في تبني أم الدرداء كقديسة غير رسمية لهذا المشروع: لقد أحببت صورتها وهي تجلس في المسجد مع الرجال، واثقة من معرفتها بأن النقاش شيء مقدس. لقد أوحى بحث أكرم بأنها كانت امرأة مستقلة تمامًا. كانت يتيمة، وكانت تذهب إلى المسجد دون تغطية رأسها، ولفترة من الوقت كان من الممكن العثور عليها وهي تصلي في صفوف الرجال بدلاً من صفوف النساء. وفي فصولها الدراسية في دمشق والقدس، كنت تشاهد الرجال والنساء، وحتى الخليفة نفسه من طلابها.

عندما وصلنا إلى صندوق الدفع في المقهى، دارت مشادة لطيفة حول من سيدفع الشاي. كانت الشقراء المملة التي تقف خلف الصندوق تراقب مباراتنا الودية: "اسمح لي أنا سأدفع"، "لا لا، في المرة القادمة.. الشاي لي هذه المرة".

وكأنه خط عربي متقن، وكأنه طقس قديم بقدم صداقتنا. كان الحوار مطمئنًا بشكل خاص هذا اليوم. فبعد محادثتي المزعجة مع هانز يوم الأحد، أدركت أن معرفته بالإسلام تشكلت من خلال الأخبار التي وصلته عن الأصوليين والمتطرفين. لقد كان يقينهم وغضبهم نابعين من تفسير هش للإسلام، وليس من الأدب الأكثر مرونة ودقة للسلوك الإنساني المتعلم. لقد أعلن النبي محمد ذات يوم أن الأدب "يعادل ثلثي الدين تقريباً"[١٢]. وكان أدب الشيخ يتجاوز اللطف. وأظن أنه كان له علاقة أيضاً بهدوء اليقين. فقد كان يتمتع بالسلام النفسي العميق الذي يتمتع به الرجل الذي يلتزم بواجبه كمسلم: أن يكون "عبداً لله". على مدار العام، كنت أراقب، وليس بقليل من الحسد، وأنا أرى كيف أن هذا العبودية جلبت له قدراً كبيراً من الطمأنينة والهدوء.

إن توقير القرآن لا يمنح الهدوء دائماً. ففي وقت سابق من هذا العام، كانت الأخبار مليئة بأعمال الشغب والاحتجاجات، بعد قيام جنود أميركيين في قاعدة باغرام الجوية خارج كابول بحرق نسخ من القرآن مع القمامة. وقد صودرت هذه النسخ من السجناء للاشتباه في استخدامها لنقل رسائل متطرفة. واعتذر الرئيس باراك أوباما، لكن هذا لم يمنع الغضب الذي راح ضحيته ثلاثين أفغانياً وستة جنود أميركيين. وكانت هذه المأساة واحدة من عدة شائعات لاحقة، بعضها صحيح وبعضها كاذب، عن قيام القوات الأميركية بتدمير القرآن في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر المتوتر. والواقع إن الأدب والأخلاق، مثل الحقيقة، يكونان ضحية للحرب.

كانت قراءة اليوم قصيرة لكنها مؤثرة: "الفاتحة"، أول سورة في القرآن. وقد أطلق عليها اسم "أم الكتاب" لأن الموضوعات الرئيسية للقرآن محتشدة في كلماتها الخمس والعشرين. وقد شبهها بعض غير المسلمين بالصلاة الربانية لدى المسيحيين[١٣]، لكنها أكثر من ذلك، حيث إن

---

[١٢] ربما تشير المؤلفة إلى حديث عبد الله بن المبارك الذي يقول: (كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين).

[١٣] الصلاة الربانية هي:(أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ) (لوقا٢/ ٢-٤) لكن البون شاسع بين معاني الفاتحة ومعاني الصلاة الربانية، وفي مقال لي على الانترنت عقدت مقارنة مفصلة بين الفاتحة والصلاة الربانية.

كلماتها متشابكة بإحكام في نسيج الحياة الإسلامية. ويقرأها المسلمون المتدينون سبع عشرة مرة في اليوم:

"مرتين خلال صلاة الفجر، وثلاث مرات أثناء صلاة المغرب، وأربع مرات لكل صلاة أخرى. يمكن لـ "الفاتحة" أن تجلب الأخبار السارة، أو تبرم عقدًا، أو تيسر مساومات السوق. بعض المسلمين ينقشونها على شواهد القبور؛ ويقرأها آخرون وهم يخلعون ملابسهم لحمايتهم من أعين الجن والأرواح الشريرة. يقول أحد الأحاديث في فضل هذه السورة: "هي شفاء من كل داء إلا الموت"، ولعل هذا هو السبب في أن كلماتها تستخدم كتميمة شائعة، ملفوفة، أو محاطة بالذهب والفضة، تلبس حول العنق. وهي معلقة على الجدران في بيوت المسلمين في جميع أنحاء العالم، لتحمي سكانها من الأذى. ذات مرة، أنقذت السورة امرأة أعرفها أثناء عملية سطو مسلح. لقد هدأت الفاتحة من روع لصَّين احتجزاها تحت تهديد السلاح من خلال الإشارة إلى كلماتها المؤطرة والمعلقة على الحائط. وعند سماع كلماتها ورؤية القرآن، أنزل الرجل ببطء مسدسه الذي كان يضعه على رأسها. وغادرا بعد ذلك بوقت قصير، ولم يلحقا بها أذى.

فتحت قرآني على الآية الأولى وبدأت بالقراءة:

بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ. مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

(الفاتحة ١-٧)

"إياك نعبد". بهذه العبارة، التي تعني في بعض الترجمات "إياك وحدك نعبد"، تم استبدال التعددية القديمة التي كانت سائدة في القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية بإله واحد، يوحد أفراداً من مجموعة من القبائل في مجتمع من الإيمان. وبالنسبة للعرب الوثنيين في مكة والمدينة، لم يجلب القرآن عقيدة جديدة فحسب، بل نظاماً اجتماعياً جديداً. فلم يعد المرء مجرد عضو في قبيلته أو أسرته، بل أصبح عضواً في شيء أكبر كثيراً: مجتمع من الناس يُدعى المسلمون،

متحدون بعبادة كائن واحد أعلى. لم يعد هناك ازدحام لعبادة المئات من الآلهة والإلهات الصغار، كما كان يفعل وثنيو مكة قبل الإسلام. وبدلاً من ذلك، كان هناك خضوع تام للخالق المطلق القدير.

لكن هذا البيان لم يعلن التوحيد فحسب. بل أثبت مفهوماً أكثر راديكالية. ففي أربع كلمات قصار يكمن مفهوم كرامة الفرد التي وهبها له خالقه. عندما تقول الآية: "إياك نعبد"، فهذا يعني أنه لا يجوز للناس أن يعبدوا أي ملاك، أو أي رجل ذي مال، أو أي رجل ذي سلطة"، كما أوضح أكرم: "إن المسلم لا يخضع إلا لله".

هنا، تحديدًا، يكمن التبرير لكل شيء، بدءًا من ثورات الربيع العربي، إلى الحركات النسائية الإسلامية. باقتصاد لغوي مذهل، داخل الآية الأولى من القرآن، تكمن الكلمات التي اخترقت الطغيان. لقد كانت سلاحًا لطيفًا ضد الأزواج الذين يحكمون زوجاتهم، أو الرؤساء الذين يضطهدون شعوبهم. ففي كون متمركز حول الله، لم يكن لأي شخص الحق في السيطرة على شخص آخر، لأن الجميع متساوون أمام خالقهم. لقد مَنَحتْ الناس كرامة متأصلة تجاه زملائهم البشر. يا لها من سورة مُرْضية. تساءلت في نفسي ماذا سيفعل هانز بها؟

وأشار أكرم إلى أن الآية "وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" تعتبر إشارة إلى المبدأ الأساسي للإسلام وهو الاستسلام. وأضاف: "إنها تُظهر البشرية وهي تسأل عن كيفية العبادة. إنها تقول: "نحن قوم عاجزون. نحن بحاجة إلى المزيد من فضلك. نحن بحاجة إلى معرفة كيفية عبادتك".

وهنا أيضاً كان الاستسلام الذي يطالب به الإسلام ـ المشتق من نفس الجذر العربي لكلمة "السلام"، ولكنه يعني حرفياً "الخضوع" المطلوب من المسلم. وقد لاحظ أكرم: "عندما ترى كلمة "عبادة" باللغة العربية، فهذا هو نوع الإذلال الشديد الذي لا يجوز إلا لله. ولهذا السبب يتعين علينا أن ننحني أمامه في الصلاة، وهذا يتطلب تواضعاً شديداً". وفي حين استمدت المسيحية واليهودية اسميهما من الناس، فإن كلمة "الإسلام" لا تشير إلى الناس إنما تشير إلى العلاقة بين كل مؤمن والله.

حتى ذلك الحين، كان الدرس يسير على ما يرام. فقد ألقت قراءة أكرم على سورة الفاتحة نظرة عالمية عادلة وموسعة. وكان التأكيد في الآية على ارتباط الفرد المباشر بالله، دون وساطة

من رجال الدين، ديمقراطياً ومطمئناً. وكان مفهوم التواضع الشديد أمام الله مألوفاً ومثيراً للإعجاب. ولم أشعر بأي قلق إلا في السطور الثلاثة الأخيرة:

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ

وأوضح الشيخ أن "القرآن يريد منك أن تسير في طريق الله، وطريق الله هو الطريق المستقيم".

"ومن هم الذين أنعم الله عليهم؟" سألت وأنا أفترض أنهم أي شخص يلتزم الطريق المستقيم. لكن الأمر كان أكثر تحديدًا من ذلك. قال أكرم: "لقد أنعم الله على أربعة أنواع من الناس".

جلست منتصبة، كطالب متحمس دائمًا، وأصابعي تحوم فوق لوحة مفاتيح الكمبيوتر المحمول. وكتبت ما سمعته: "الأنبياء". "الصديقون" وهؤلاء هم الناس الذين ليسوا أنبياء، ولكن طبيعتهم الحقيقية قوية لدرجة أنها تضعهم على الطريق المستقيم؛ مثل مريم في الكتاب المقدس، التي اتبعت تعليمات الله، بقلب نقي ونظيف"

ثم: "الشهداء".

ثم من؟

"الناس الصالحين الآخرين"

كنت آمل أن تكون فئة شاملة، لكن شرحه لـ "الذين أنعم الله عليهم" كان أضيق نطاقًا مما كنت أتمنى. وعندما تساءلت عن مدى اتساع تعريف "الصالحين"، وجدت تلميحًا في السطر التالي: "ليس [طريق] أولئك الذين هم مواضع للغضب، ولا أولئك الذين هم متخبطون في الضلال".

"وما هي أنواع هؤلاء الناس؟" سألت، وأنا أتوقع تمامًا أن أسمع قائمة مماثلة تقريبًا لتلك الموجودة في التقليد اليهودي المسيحي، بدءًا من الحرف (ز) للزناة وانتهاءً بالحرف (ر) للمرابين.

لكن القائمة كانت أقصر كثيراً مما توقعت. قال أكرم، الذي تحول هدوءه فجأة إلى مصدر إزعاج: "حسناً، قال بعض الناس إنَّ عبارة "أولئك الذين هم مواضع للغضب" تشير إلى اليهود. لقد غضب الله على اليهود بعد أن رفضوا يسوع المسيح. يمكن أن يُنتزع رضا الله منك في أي وقت".

لقد وقعت كلمة "يهود" كحصاة. إنها كلمة صلبة صغيرة لا تلين. ويبدو أنها تربك المحادثة دائمًا بطريقة لا تفعلها كلمة "إسرائيلي". لقد تذكرت ذلك السطر الشهير للمخرج البريطاني جوناثان ميلر. قال ميلر: "أنا لست يهوديًا. أنا إسرائيلي فقط. ليس خنزيراً بالكامل، كما تعلم"[١٤].

وتابع الشيخ قائلا: "إن الله لا يحب الضالين، ويعتقد البعض أن المقصود بهذا الجزء هو المسيحيين الذين ذهبوا إلى حد التطرف بخلطهم بين نبيهم عيسى والإله، والقرآن يريد أن يذكر المسلمين أن عيسى عليه السلام ليس إلا إنسانا".

"ولكن أليس اليهود والنصارى أهل الكتاب؟" سألت، في حزن الآن. ثم تابعت قائلة: إن احترام الإسلام الشهير لأهل الكتاب كثيرًا ما يُستشهد به في فعاليات التقارب بين الأديان.

– نعم، هم كذلك، قال الشيخ: نحن نحترم الشعب اليهودي والشعب المسيحي.

ولم يعتقد الشيخ أن السطر الأخير من سورة الفاتحة كان يقصد به اليهود والنصارى على وجه الخصوص، بل كان يقصد به كل مسلم انحرف عن طريق التقوى.

لقد انتهى الدرس. وعدت إلى لندن، وقد شعرت بالغثيان بعد ساعات قضيتها في حافلة مكتظة، وقد أصابني القلق عندما سمعت أكرم يروي لنا القراءة العدائية المحتملة للسطر الأخير. ومثله كمثل التنديدات العابرة التي كان هانز يوجهها للإسلام أثناء الغداء، فقد أوحى لي ذلك بأن التحيز كامن في أماكن غير متوقعة. لقد أزعجني ذلك. ليس باعتباري يهودية، بل باعتباري إنسانة. ربما كانت دراسة القرآن مع أكرم محفوفة بالمخاطر، مثل أن تطلب من

---

[١٤] عبارة جوناثان ميلر تعتمد على التلاعب اللفظي من حيث الفرق بين "Jew" كاسم (يهودي، يشير إلى الهوية والانتماء الكامل للدين اليهودي) و"Jewish" كصفة (يهودي، تشير إلى تراث ثقافي أو ارتباط بسيط باليهودية). يقول جوناثان: "I'm not a Jew. Just Jewish." يقصد أنه لا يعتبر نفسه يهوديًا "بالكامل" أو ملتزمًا تمامًا بالدين اليهودي، لكنه مرتبط بها جزئيًا وبشكل مخفف. وتعبيره "Not the whole hog" يضفي نبرة فكاهية على التوضيح. لذلك أنا استبدلت كلمة يهودي بإسرائيلي حتى يتضح المعنى. (المترجم)

والديك أن يعلموك كيفية القيادة. فعندما بدأنا في تفكيك أول سورة في القرآن، انحرفنا عن قائمة الموضوعات التي تقيدنا بها بعناية طيلة عشرين عاماً. لقد انحرفنا عن مسارنا المستقيم ووقعنا في طريق مسدود. لقد كان قدر كبير من حماسي للمجتمع الإسلامي نابعاً من متعة العثور على أوجه تشابه مع وجهات نظري الخاصة. لقد كنت أتلذذ بإيجاد قيم مشتركة تحت اختلافات سطحية. وكان قدر كبير من متعة صداقة أكرم نابعاً من المفاجأة الصريحة التي انتابني عندما التقيت بشخص تختلف وجهة نظره بشكل مذهل عن وجهة نظري الخاصة. ومع ذلك، هنا، في درسنا الأول، كنت بالفعل أسمع أشياء لم أكن أرغب في سماعها .

كانت مثل هذه الاضطرابات ضرورية بطبيعة الحال. فالدراسة مع أكرم كانت، من بين أمور أخرى، بمثابة اختبار لحدود تسامحي. وحتى يومنا هذا، كانت وجهة نظري التعددية عبارة عن عمل تجاري يتسم بالمسايرة، أو عادة عالمية أكثر منها تحديًا حقيقيًا لمعتقداتي. وكان ذلك يعني تناول سندويشات التاكو في الغداء، وترديد عبارة "أوم" قبل درس اليوجا، والأعشاب الصينية خلال موسم حمى القش. وعلى مر السنين، اعتنقت التنوع مرتين يوميًا على الأقل، في تلك الرحلات الصباحية التي أقضيها جالسة في مترو أنفاق نيويورك أتصفح بحر اللغات، أو في حافلات لندن أراقب أفق الرؤوس، بعضها محجبة، والبعض الآخر أصلع أو مجدل بضفائر .

لقد أوحى لي هذا الدرس الأول مع أكرم بأن انخراطي في وجهات نظر عالمية أخرى كان أكثر ارتباطاً بالاستعراضية وليس بالتعددية. لقد كنت أعرف بعض الجمهوريين القدامى، ولكن لم يكن أي منهم متمسكاً بالحزب الجمهوري بعد رئاسة جورج دبليو بوش. كان لدي الكثير من الأصدقاء اليهود، ولكن معظمهم كانوا من اليهود الثقافيين؛ ولم يكن أي منهم من الأرثوذكس. وكان كل الكاثوليك الذين أعرفهم قد ارتدوا عن ديانتهم منذ زمن بعيد. ولم ينكر أحد في دائرتي الاجتماعية حق المرأة في اختيار الإجهاض. ربما كنت أعتبر نفسي شخصاً يحتفي بالتنوع، ولكن في الواقع كانت وجهة نظري للعالم محدودة للغاية.

انطلقت الحافلة مسرعة إلى لندن وأخرجتني من المحطة التي كنت أقف فيها، وكنت أكثر حزنًا وأقل ثقة مما كنت عليه عندما صعدت إليها في ذلك الصباح. وقفت على الرصيف، وحملت حقيبتي على كتفي وتساءلت في حزن عما قد يقوله هانز.

في اليوم التالي، وبتصميم صارم، توجهت مباشرة إلى بلومزبري[١٥]. فحينما كنت طالبة دراسات عليا، كنت أتخلص من رصانة أكسفورد الصارمة بالذهاب إلى العمل في مكتبة كلية الدراسات الشرقية والآسيوية بجامعة لندن. كانت الدراسة هناك تمنحني شعوراً بالتحرر. كان الطلاب يضعون حلقات في أنوفهم، ويرتدون الحجاب؛ وكانت القاعات مغطاة بالملصقات التي تدعو إلى السلام العالمي وضد العنصرية. حتى المكتبة ذات الخطوط النظيفة المشرقة كانت أقل تقييداً بالتاريخ. توجهت مباشرة إلى الرفوف المخصصة لكتب التفسير ـ تفاسير القرآن ـ وسحبت كومة منها. كنت أريد أن أستعيد اليقين القوي المشرق الذي كنت أشعر به من قبل.

جلست مع برج التفسير الخاص بي، وأعمدة الفهرس التي أستخدمها في مسح الأصابع لقراءة سورة الفاتحة وسور القرآن والمواقف من اليهود والنصارى. وقد وجدت بعض الراحة في نص تمهيدي كتبه فضل الرحمن[١٦]، وهو مصلح إسلامي عظيم من القرن العشرين. ففي كتابه "الموضوعات الرئيسية في القرآن"، يستشهد بآية من السورة الثانية:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ".

وفي النهاية، يخلص فضل الرحمن إلى أن هذه الكلمات تحمل "معنى واضحًا"، وهو ببساطة أن أولئك "من أي فئة من البشر – الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات – هم الناجون يوم القيامة". هناك. في نهاية المطاف، كان الأمر يتعلق بالإيمان بالله، والتصرف على نحو جيد. لقد كان ذلك طوفانًا من الراحة. هذا ما أستطيع القيام به. لقد استعدت إيماني بالإسلام باعتباره قوة للتناغم بين الأديان.

---

[١٥] بلومزبري هي منطقة تقع في ويست إند في لندن، وهي موقع للعديد من المؤسسات الثقافية والفكرية والتعليمية ودور النشر والكليات المختلفة. (المترجم).

[١٦] ولد فضل الرحمن في مدينة حرزة بالهند، التي صارت ضمن حدود باكستان فيما بعد، وحصل على الدكتوراة من جامعة أكسفورد حول فلسفة ابن سينا، وعاد لباكستان عام ١٩٦٣ وعين رئيسا للمعهد الإسلامي للأبحاث، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقام بالتدريس في جامعة كاليفورنيا وشيكاغو ثم درس بعد ذلك في بريطانيا وكندا، ثم عاد للولايات المتحدة ومكث بها حتى وافته المنية عام ١٩٨٨. ومن مؤلفاته: الإسلام، الموضوعات الرئيسة في القرآن، النبوة في الإسلام، الإسلام والحداثة. واعتبر فضل الرحمن في نظر الدارسين الغربيين من أفضل المفكرين الإسلاميين بفضل تمكنه المزدوج من علوم التراث ومن عدد من اللغات الشرقية مثل العربية والفارسية والأوردية فضلا عن الإنجليزية.

(٢)

أمريكي في الشرق

بالنسبة لوالدي، كان اصطحاب عائلته للعيش في الخارج لسنوات بمثابة بلسم لشكواه المزمنة من المجتمع الأميركي، وشفاء له من الاكتئاب. فقد كان أستاذاً للقانون في ولاية ميسوري، لكنه كان يشعر بقدر عظيم من الرضا في الأماكن الأجنبية، خاصة إذا كانت هذه الأماكن تحتوي على "العنب، والبطيخ، وأشجار الزيتون" التي اعتبرها ضرورية للحضارة. وعلى هذا فقد انقسمت طفولتي بين ضواحي سانت لويس ومدن في شتى أنحاء العالم الإسلامي. ومن المؤكد أن قائمة البعثات الخارجية إلى طهران ودلهي وكابول والقاهرة، بدت مشبوهة إلى حد كبير. فقد افترضت أسرة والدتي أن والدي كان عميلاً في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية متنكراً بذكاء في هيئة أستاذ غريب الأطوار. ولم يكن والِدِي يعمل مع وكالة المخابرات الأميركية، بل كان ينقلنا إلى الخارج لأسباب جمالية وعاطفية وليس لأسباب مهنية.

كان أقرب ما يمكن أن يكون لعائلتي من الاعتقاد، هو اعتقادها الراسخ بالقوة العلاجية للسفر، لذا نشأت وأنا أتجاهل النصوص الدينية. ولأنني ابنة لأب كويكري منقطع عن دينه، وأم يهودية يكمن إيمانها في الكعك والذكريات الباهتة لأغنية الدريدل، لم أقرأ قط نصاً من الكتاب المقدس أثناء نشأتي. كان منزلنا علمانياً، وكانت كنائسه عبارة عن صالات عرض فنية وحدائق، وكان الشك هو الوضع الافتراضي. لم يكن والدَاي، وكلاهما أستاذان جامعيان، يهتمان كثيراً بالإيمان. ربما كان الإيمان مفيداً لأسلافنا، الذين كانوا يتنقلون في القرى الصغيرة ويكافحون في المزارع في السهول الكبرى، لكنه لم يكن مفيداً لوالدَي، بدرجاتهما العلمية المتقدمة وأسطوانات مايلز ديفيس. كانا يعتقدان أن السمو موجود في لوحات تيتيان أو غروب الشمس، وليس في الكتب المقدسة ورجال الدين. كان تدريبي الديني الوحيد هو الذهاب في يوم الأحد إلى الجمعية الأخلاقية، وهي جماعة إنسانية كنا نرسم فيها صورًا لأطفال من بلدان عديدة ونغني أغاني عن هبة البساطة.

عندما كانت تظهر يهودية أمي، كانت تظهر كثقافة، لا كدين، وحتى في تلك اللحظة تم تفسيرها على أنها شيء من رواسب طفولتها، مثل أحذية الرياضية أو الأقواس. وإذا تذكرت، فقد نخفي الماتزو في عيد الفصح، أو نشعل الشمعدان في عيد الحانوكا. وفي بعض الأحيان

كانت تفاجئنا ببعض الكلمات اليديشت التي تتذكرها بشكل غامض من جدتها الليتوانية: مثل رفض قصة حب باعتبارها "مبتذلة"، أو نعتي بـ "فيلدي تشايا" - الطفل البري - عندما ألعب بعنف مع أخي. ومع ذلك، كنت أشعر بأنني يهودية، بشكل غامض، على الرغم من أن هذا لم يكن يعني أكثر من سلالة مميزة من المواطَنة العالمية، تتألف من السخرية الداكنة والقهوة والإشتراك في مجلة نيويوركر. وكانت البقايا الوحيدة من تراث والدي الكويكري هو الإيمان الشديد بالادخار، وقصص عن خالات أجدادنا اللاتي كن يستخدمن ضمير المتكلم "أنتِ" و"أنتم" مع بعضهن البعض، والشعور الغامض بأن الذهاب إلى اجتماع للكويكرز قد يكون لطيفًا في بعض الأحيان. كان والدي يقول: " أحب أن أؤمن"، ثم يبسط ذراعيه على اتساعهما، كما لو كان ينتظر وصول إله ما ليحتضنه، لكن لم يصل أحد قط!.

في المساحة الفارغة التي كان من الممكن أن يسكنها الإيمان، كان والدي يحشر أغراض السفر والتحف التي جلبها من رحلاته. وفي منزلنا في سانت لويس، كنا نعيش وسط تماثيل بوذا المطلية بالذهب، والمنمنمات الهندية، وأكوام من السجاد الشرقي، وكأنها سواتر وضعها والدي ليحجب نفسه عن ميزوري. وكانت سانت لويس بالنسبة له مدينة التحيات القصيرة مع الجيران، والبنزين الذي يتم ضخه في صمت عابس، والمشي لمسافات طويلة منحنياً في مواجهة برد الشتاء. لكن مع وجود أسرة يعولها، فقد اكتفى بوظيفة تدريس القانون هناك. ووجد أن الأمر محتمل، طالما كان بوسعه السفر إلى أوروبا في الصيف، والحصول كل عامين على زمالة أو إجازة غير مدفوعة الأجر للعيش في الخارج.

في أوائل السبعينيات، كان والدي قد وجد مضاداً قوياً للاكتئاب في الثقافة الإسلامية في إيران. فكان إيقاع الأيام الأبطأ- التي تتخللها أكواب الشاي والأذان- يريح قلبه. وكانت ثقافة البازار، حيث كانت المحادثات المتعرجة تخفف من حدة التوتر والصراع في التجارة، تبدو له أكثر حَدَباً وإنسانية من المراكز التجارية. وللمرة الأولى شعر وكأنه في وطنه. فلم يعد ذلك الرجل الذي كان يجلس القرفصاء مستنداً إلى الحائط في مسجد أصفهاني، أو يناقش مزايا جراب تركماني في أحد البازارات. كلا، لم يعد هو الشخص المنعزل في حفلة مجلة القانون. فبالنسبة لرجل لم ينضم قط إلى أي شيء سوى أسرته المباشرة، كان غرب آسيا يمنحه شعوراً بالانتماء. حتى عندما كنت طفلة، رأيت التأثير التحويلي الذي أحدثه التعدد الثقافي عليه: فقد تجاوز الأمر كونه قيمة ليصبح استراتيجية للبقاء.

كان أول ما خطر ببالي من المجتمعات الإسلامية هو الحسية البحتة، أي مسألة القوام السطحي: قبة مسجد فيروزية اللون في مواجهة صحراء قاحلة. رائحة السجاد الصوفي المليئة بالغبار واللحوم الموضوعة تحت أشعة الشمس. الرشاقة الفعّالة التي تمسك بها النساء الإيرانيات بأسنانهن بحواف الحجاب الذي يغطيهن من الرأس إلى أخمص القدمين، في حين يطلقنَ أيديهن لحمل الأطفال أو أكياس التسوق.

في طفولتي، كنت أحاول أن أجعل الغربة المحيطة بي مألوفة، فبذلت محاولات بدائية للتفاهم بين الثقافات. وفي سن الخامسة، كانت لعبتي المفضلة هي "السيدات الإيرانيات" والتي كنت ألعبها وأنا أرتدي الحجاب الإيراني. وبعد ست سنوات، وأنا أعيش في كابول، راودتني أحلام اليقظة بوجود كشك في مكان ما في عمق السوق، ربما كان يبيع حلوى "ببل يام" و"سماكرز" وسراويل الجينز من ليفيز، وهي السلع الأمريكية التي كنت أتوق إليها بشدة عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. وكانت كل خرائطي الذهنية للمنطقة مرسومة على مقياس صغير وشخصي للغاية. وكان ممر خيبر هو الطريق الذي يسلكه المراهقون الأميركيون إلى طبيب الأسنان التابع لوزارة الخارجية في إسلام آباد. وكانت مدينة بيشاور تضم مطعماً صينياً يقدم الزلابية اللذيذة، وسوقاً للذهب حيث يسمحون لك بتجربة التيجان المتلألئة بالياقوت والزمرد الحقيقيين.

عندما عشنا في كابول، لم أكن الوحيدة التي تمتلك رؤية ضيقة للمنطقة. ففي سبعينيات القرن العشرين، كان الغربيون ينظرون إلى أفغانستان باعتبارها ملعباً غريباً للباحثين عن الإثارة والغرابة. وكان الهيبيون يأتون إلى هنا بحثاً عن نوعية أفضل من الحشيش مقارنة بتلك التي الموجودة في دلهي أو غوا. وكان علماء الكلاسيكيات في أكسفورد وكامبريدج يجوبون الريف بحثاً عن الآثار التي خلفها الإسكندر الأكبر. وكان والدي يصل إلى هنا بحثاً عن سجاد كاشغاي، وبطيخ بخارى الحلو، وأطول مسافة ممكنة بينه وبين صالة أعضاء هيئة التدريس في كلية الحقوق بجامعة سانت لويس.

وعلى الرغم من حبه لإيران وأفغانستان، فإن والدِي كان ينظر إلى الثقافة الإسلامية نظرة استشراقية أكثر منها انغماسية، وتقديراً جمالياً أكثر منه واقعياً. وفي رسائله إلى الوطن، لا يظهر الإيمان إلا كإبداع للمساجد، والأضرحة الفخمة، والبلاط الأزرق، وسجاد الصلاة. وكنا نحوم على أطراف المجتمع، غافلين عن الأحداث التكوينية التي تتكشف في الشرق الأوسط

حتى ونحن نعيش هناك. ومن شرفتنا في طهران كنا نشاهد مواكب محرم، حيث يجلد الرجال أنفسهم، بالسياط أو بالسلاسل، وهم يهتفون "يا حسين"، حدادًا على وفاة حفيد النبي في معركة كربلاء. ولم يكن والدَاي يدركان أن مثل هذه الطاقة، التي تسخر لكراهية نظام الشاه، سوف تكون قوية بما يكفي لتفجير ثورة. ولم يتكهنا أيضاً بأنَّ الإسلام سوف يكون أداة قوية للمقاتلين الأفغان ضد الجيش السوفييتي. أو أنه سيشكل إطاراً للسخط المصري على الطغاة.

حتى عام ١٩٧٩، كان الإسلام يتراجع إلى المجال الخاص، أو هكذا كانت الحكمة الغربية التقليدية في ذلك الوقت. كان مستقبل الشرق الأوسط ينتمي إلى العلمانيين العصريين مثل الشاه أو صدام حسين، الرجال العقلاء الذين سيشترون دباباتنا وطائراتنا، والذين سيبنون الطرق والسدود، وإذا لم تكن الديمقراطية، فعلى الأقل سيكون الأمن. وفي ليلة رأس السنة الجديدة عام ١٩٧٧، احتفل الرئيس جيمي كارتر بالشاه، واصفاً إيران بأنها جزيرة الاستقرار في منطقة مضطربة. لقد كان المستقبل غربياً وعلمانياً، وكنا نعتقد أن من يتمسك بالإسلام النساء في القرى، أو الشيوخ الذابلين، الجالسين في ساحات المساجد.

ولكننا لم ندرك إلا في وقت لاحق مدى ضيق هذه النظرة. ففي شتاء عام ١٩٧٩، حملت الأنباء صوراً لنساء متجهمات يمشين في شوارع طهران مرتديات التشادُر الأسود. وكان الرجال ذوو اللحى الشعثاء يصرخون: "يانكي[١٧]، عودوا إلى دياراكم". وفي نفس الشتاء، ظهرت صور أخرى، لا تقل صدمةً: الشاه وزوجته، الإمبراطورة "فرح"، متدثرين بالفراء، على مدرج مطار طهران، يغادران إيران لقضاء "إجازة" في مصر، ولن يعودا أبداً. وبعد أسبوعين، حملت طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية الفرنسية آية الله الخميني إلى أرض الوطن بوجه متجهم، وسط حفاوة كبيرة.

عندما كنا نعيش في طهران، كان الشاه يبدو لي وكأنه إله علماني، بعرشه الطاووس وإمبراطورة جميلة بشكل لا يصدق، وكان تاج تتويجها أكبر من أي تاج رأيته في كتب القصص الخيالية. بالنسبة لي، كان الشاه يبدو لي قوياً للغاية ويرى كل شيء، بعينيه الباردتين الداكنتين اللتين تحدقان من الصور المعلقة على جدران المتاجر والبنوك. ولكن نفس الشيء كان مع الرئيس السادات عندما كنا نعيش في مصر في عام ١٩٧٩، العام الذي وقّع فيه معاهدة السلام

[١٧] يانكي (Yankee) مصطلح يستعمل في بريطانيا وبعض دول العالم للإشارة إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية، بينما يستعمل في أمريكا للإشارة إلى سكان نيو إنجلاند خصوصا ذوي الاصول الإنجليزية. ويطلق على سكان الولايات الشمالية عموماً بـ «يانكي» (المترجم).

مع إسرائيل. وبعد عامين، كنت أتصفح صوراً في مجلة تايم لمنصة مليئة بالرصاص ورئيس اغتيل على يد عضو في حركة الجهاد الإسلامي.

حتى في ذلك الوقت، كنت أشعر بالخجل إلى حد ما لأننا كنا في جهل تام: فقد بدت المسافة بيننا وبين المجتمعات التي كنا ننتمي إليها قريبة بشكل مريب من الفشل الأخلاقي.

"كيف لم تكن تعلم؟" سألت والدي بكل ما تحمله المراهقة من غرور وكبرياء. كنا في سانت لويس، وكنت أشاهد مع والديّ لقطات من أزمة الرهائن في إيران على نشرة أخبار السادسة. وعلى الشاشة كان الدبلوماسيون الأميركيون مقيدين ومعصوبي الأعين، يُعرضون في ساحة السفارة الأميركية، وهو المكان الذي أحببته لأن المطعم الذي فيها كان يقدم على الطاولات كاتشب هاينز وعبوات السكر.

حدقت في والديّ موجهة إليهم اللوم: "كل هذا كان يحدث، وكنا هناك، ولم نكن نعلم؟"

" حسنًا، كنا نعلم أن هناك شيئًا فاسدًا تحت السطح"، أجابت أمي بلطف. "على الرغم من كل هذا البناء، والنقود، واللافتات، كان لدينا شعور بأن كل هذا كان على عمق مبنى واحد فقط، وخلف الواجهة الجميلة، كان كل شيء فظيعًا".

عندما كنا نعيش في إيران، كانت هناك شائعات بأن رئيس السافاك، (الشرطة السرية للشاه)، كان طالباً في فصل العدالة الجنائية الذي كان والدي يدرِّسه. حتى أن ظل الشاه كان يخيم على فصل شكسبير الذي كانت والدتي تدرسه. وباعتبارها صورة لطاغية ضعيف، أثبتت مسرحية الملك لير أنها مسرحية صعبة التدريس بشكل خاص. وبقدر ما بذلت والدتي من جهد، لم تتمكن من جعل طلابها الإيرانيين يفهمون لماذا لم تعط كورديليا والدها لير الإطراء الذي طلبه. وباعتبارهم رعايا مطيعين للشاه (ملك الملوك، نور الآريين)، وورثة عهود من الخضوع الملكي، ظل طلابها في حيرة من أمرهم. أو ربما كانوا على دراية بالشائعات حول عملاء السافاك في الحرم الجامعي، لكنهم تظاهروا ببساطة بأنهم كذلك.

في حين شكلت دكتاتورية الشاه حياة الإيرانيين العاديين، ظل معظم الغرب منبهراً بنظامه. ففي العام الذي عشنا فيه هناك، أقام ما أطلق عليه آية الله الخميني "مهرجان الشيطان"، وهو حفل للاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على الملكية الفارسية. وبنى منظمو الحفل جدراناً لإخفاء أحياء بأكملها، خشية أن يضطر كبار الشخصيات الأجانب إلى النظر إليها. ونجح بائع الزهور الذي سافر جواً من فرساي في إنشاء حديقة ورود في صحراء مليئة بالعقارب في

برسيبوليس. وفي الخيام المكيفة، شرب زعماء العالم نبيذ شاتو لافيت- روتشيلد الذي يعود إلى عام ١٩٤٥ وأكلوا لحم الطاووس المشوي. وكان الضيوف يرتدون ملابس يمكن استحضارها في أحلام محمومة لطفل في الخامسة من عمره: حتى كلب هيلا سيلاسي كان يرتدي طوقاً مرصعاً بالماس.

ولسنوات قبل احتفالات برسبوليس[١٨]، كان المنتقدون للنظام من العلمانيين والدينيين يعظون ضد عبادة القشور المستوردة من الغرب. وقد تم نفي العديد منهم أو سجنهم أو مضايقتهم من قبل السافاك، لكن كلماتهم ترددت من المنفى وتم تداولها في منشورات محظورة. في عام ١٩٦٢، نشر الكاتب الإيراني "جلال آل أحمد" كتاب " غربزدگي" أو "التسمم بالغرب"، وهو هجوم على هوس النخبة الإيرانية بتقليد الغرب. كتب آل أحمد: "الرجل المصاب بالغرب يشبه ذرة غبار تطفو في الفضاء، أو قشة تطفو على الماء. لقد قطع جذوره بالمجتمع والثقافة والعادات".

لقد زادت دراسة تاريخ المنطقة من إحساسي بأننا كنا غافلين عن المجتمعات التي عشنا فيها. وكأفراد، لم نكن أميركيين قبيحين. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل دروس اللغة الفارسية التي تلقيناها من والدي وافتتاننا بالمساجد والسجاد الإيراني، أدركت أننا كنا جزءاً من الغزو الأميركي لإيران في سبعينيات القرن العشرين. ورغم الحساسية الثقافية التي يتمتع بها والدَاي، فقد كانا لا يزالان عضوين في قوة قوامها خمسون ألف فرد من الأميركيين الذين تم جلبهم للتشاور بشأن خطوط الأنابيب وقوانين العقوبات أو بيع الثلاجات أو الصواريخ، ودفع إيران على طريق التغريب.

ولأننا أميركيون، فإن قوانين البلاد لم تكن تسمح بمساسنا أو الاقتراب منا. ولقد شهدتُ حصانتنا كأمريكيين في إحدى ليالي الشتاء الباردة عندما وصلت عائلتي إلى شيراز في رحلة سياحية. وبينما كان والداي يفرغان الحقائب من سيارة الأجرة، طلبا مني أن أراقب أخي البالغ من العمر عامين. ولكنني لم أفعل ذلك، فانحدر إلى الشارع، فصدمته شاحنة. لقد كان بخير، لكن الحادث اجتذب حشداً من الناس، وعددًا من رجال الشرطة. وأكد والداي للمسؤولين أن اللوم لا يقع على عاتق سائق الشاحنة بل عليهما، لتركهما طفلاً رضيعاً في عهدة طفلة في الخامسة. ومع ذلك، تم سحب السائق إلى السجن، لسبب بسيط هو أننا أميركيون. فقد وقَّع

[١٨] هو احتفال رسمي أقره الشاه محمد رضا بهلوي لاحياء ذكرى ٢٥٠٠ عام على إنشاء مملكة فارس القديمة، ودعا فيه رؤساء وملوك العالم لزيارة مدينة برسبولس الإيرانية (المترجم)

الشاه على اتفاق مع واشنطن، يُعرف في الولايات المتحدة باسم معاهدة وضع القوات (SOFA) وفي إيران باسم معاهدة الاستسلام، والتي منحت الأميركيين الحصانة في الأراضي الإيرانية. وأمضى والدي بقية الليل في مركز الشرطة، متوسلاً لإطلاق سراح السائق.

ولم أفكر في هذه الحادثة إلا بعد عقدين من الزمن، عندما طلب منا أستاذي في الفارسية في جامعة أكسفورد ترجمة إحدى خطب آية الله الخميني، والتي يرجع تاريخها إلى عام ١٩٦٤، بعد توقيع اتفاقية (SOFA)، وكانت سبباً في نفي آية الله الخميني من إيران. وقد أشار الخميني إلى ذلك بقوله: "إذا دهس شخص كلباً أميركياً، فسوف يحاكم. ولكن إذا دهس طاهٍ أميركي الشاه، رئيس الدولة، فلن يكون لأحد الحق في مساءلته".

ولقد أضافت قراءات أخرى أبعاداً جديدة مزعجة إلى ذكرياتي. ففي الكلية، مثل ملايين الطلاب الآخرين في ثمانينيات القرن العشرين، كنت مفتونة بأعمال الناقد الأدبي والثقافي إدوارد سعيد. فقد كتب أن الرؤية الغربية للشرق كانت لقرون من الزمان خيالية، مرتبطة بالمخاوف الغربية والإمبريالية أكثر من ارتباطها بالمجتمعات ذاتها. وفي نظر سعيد، كانت التصورات الغربية للثقافات الشرقية امتداداً للاستعباد السياسي والاقتصادي للشعوب الآسيوية والأفريقية من قِبَل القوى الاستعمارية الأوروبية.

وأثناء دراستي للحكم البريطاني في الهند، تعرفت على والدِيَّ في الخطوط العريضة لأوصاف أصحاب السادة البريطانيين، الذين جاؤوا لوضع قوانين وستمنستر في البنغال، أو الهوانم البريطانيات اللاتي أنشأن مجددًا حدائق ويلتشاير في البنجاب. وبفضل المنحة التي حصل عليها من واشنطن للمساعدة في تدوين القانون الدستوري الأفغاني، لم يعد والدي جزءاً من إمبراطورية رسمية. لكن وجوده في كابول، إلى جانب وجود العديد من الأميركيين الآخرين، كان بمثابة إشارة إلى اللعبة الكبرى التي لُعِبتْ في أفغانستان بين السوفييت والأميركيين. وقبل أن يغزو الروس أفغانستان عام ١٩٧٩، كانت هذه اللعبة تتلخص في مشاريع التنمية المتبادلة. فقد بنى الروس مطار كابول؛ ووفر الأميركيون له الاتصالات والإلكترونيات. وقام الروس بحفر جبال هندوكوش لإنشاء ممر سالانج؛ وحفر الأميركيون سداً في هلمند

وإنَّ كوني طفلة أميركية في كابول تعني أن طفولتي كانت مضخَّمة: فالجدران العالية والنوادي والمكاتب التي تقتصر على الغربيين فقط، كانت سبباً للحفاظ على انفصال

إمبراطوري عن المجتمع الأفغاني. وفي كثير من النواحي، كانت حياتي في كابول أكثر أميركية منها في سانت لويس. فقد كنا نشاهد فيلم حرب النجوم على جهاز بيتاماكس، ونلعب التنس، ونعيش في منزل أبيض من طابقين مع كلب وحديقة. وقد عقَّبتْ أمي على ذلك بقولها: "تماماً مثل منزل من طابقين في جنوب كاليفورنيا، إذا حدقتِ جيداً !"

ومثل أغلب أصحاب السادة البريطانيين في الهند، كانت علاقاتنا بالسكان المحليين محدودة. كنا نحب خدمنا، ونتبادل المجاملات مع قضاة المحكمة العليا ومسؤولي الوزارات الذين كانوا يأتون لتناول العشاء في منزلنا من حين لآخر. لكن ذكرياتي تخلو، بشكل غريب، من أي صداقات حقيقية، أو حتى محادثات مطولة مع الأفغان.

وبفضل إجادته للفارسية وعطلات نهاية الأسبوع التي كان يقضيها مع تجار السجاد، كان والدِي، أقرب إلى الثقافة الأفغانية منَّا. وفي وقت لاحق، قال: "إنَّ السنوات التي قضاها في كابول كانت الأسعد في حياته".

في واقع الأمر، كان جيله آخر جيل يستسلم للخيال الاستشراقي حول عالم إسلامي بعيد ومستقل. ففي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، كان الغربيون قادرين على إقناع أنفسهم بأن الإسلام موجود في أراض بعيدة، تماماً كما فعلوا منذ عام ١٠٩٥، عندما انطلق الصليبيون لانتزاع القدس من السَّراسِنة[١٩]. وحتى عام ١٩٧٩، كان بوسع المرء أن يذهب إلى الشرق ليجد نعيمه الشخصي في غرزة حشيش، أو تكية صوفية، أو ليبدأ مسيرة مهنية في بناء السدود أو الطرق أو الأنظمة العقابية. وفي ذلك الوقت، قبل الثورة الإيرانية، وقبل الحروب في أفغانستان، ظلت منطقة الشرق الأوسط وآسيا الوسطى تراوح مكانها.

اليوم، تقلصت الفجوة بين الولايات المتحدة وأفغانستان إلى لا شيء على الإطلاق: فالأمهات في ميلووكي يخشين الدوريات الراجلة في هلمند. وقندهار اسم مألوف في كل بيت، وكابول محطة علاقات عامة روتينية للرؤساء والجنرالات. والهجرة، فضلاً عن الحرب، طمستا الخطوط الفاصلة بين العالمين الإسلامي وغير الإسلامي. كان هناك مسلمون يعيشون في الغرب في زمن والدي. لكن لم يكن هناك شعور بأن الإسلام سيظل وجوده دائماً في الغرب إلا في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عندما بدأ المهاجرون من المستعمرات الأوروبية

---

[١٩] استخدمت المؤلفة هنا كلمة (سَراسِنة) "Saracens" التي كانت شائعة في النصوص الأدبية والتاريخية الأوروبية في القرون الوسطى، حيث تشير إلى "الكفار" أو "غير المسيحيين" من منظور الأوروبيين.(المترجم).

السابقة في الاستقرار في الغرب وتربية الأطفال. وفي الثمانينيات والتسعينيات، انضم إلى المهاجرين لاجئون من الدكتاتوريات والحروب. فإلى باريس وشيكاغو وبرلين ولوس أنجلوس فرَّ الإيرانيون المتهمون بارتكاب أنشطة محظورة ضد الثورة؛ وفرَّ العراقيون المضطهدون من صدام حسين؛ وكذلك الليبيون الذين يأملون في التخفي عن أجهزة المخابرات التابعة للقذافي. وهاجر الجزائريون والأفغانيون والصوماليون والسودانيون من الحروب الأهلية. لقد ربوا أطفالهم، وبنوا المساجد، وبدأوا في ممارسة الضغط والانتخاب في أوطانهم الجديدة. لقد نجحوا في سد الفجوة بين هذين المكانين المختلفين ظاهريًا، "العالم الإسلامي" و"الغرب".

بالنسبة لإدوارد سعيد، ونقاد ما بعد الحقبة الاستعمارية المتأثرين به، كان الغرب يَنظر إلى العالم الإسلامي باعتباره عالماً جامدًا، يسكنه نماذج بشر، وليس بشر أحياء يتنفسون. وكانت المقتطفات في بداية عمله الرائد "الاستشراق" اقتباس من كارل ماركس: "إنهم لا يستطيعون إيضاح أنفسهم؛ بل يجب أن يتم إيضاحهم".

في أثناء عملي كصحفية، رأيت هذه الفرضية في الصحافة. ففي اجتماع صحفي، حيث ناقشنا كيف ينبغي لنا أن نغطي تفجيراً مروعاً في إسرائيل، اقترحت أننا قد نرغب في الحصول على إيضاح فلسطيني فضلاً عن إيضاح إسرائيلي. فقال أحد المحررين: "أعتقد أننا نعرف ما يفكرون فيه". وفي أول شهر لي في نيوزويك، في عام ١٩٩٥، أُرسِلْتُ لكتابة قصة عن التوترات بين المسيحيين والمسلمين في وسط مدينة فيلادلفيا. وعندما وصلت إلى هناك، وجدت التعايش السلمي، فكتبت تقريراً وفقاً لذلك. لكن قبل أن نذهب إلى المطبعة مباشرة، وجدت نفسي أتوسل إلى أحد المحررين ألا ينشر عنواناً صارخاً فوق المقال: "الجهاد في المدينة"

فعند التدقيق والفحص، نجد التصنيفات التي كنا نستخدمها لوصف الجماعات الإسلامية قد انهارت مراراً وتكراراً. فعلى سبيل المثال أصبح مصطلح "طالبان" مرادفاً للمقاتلين المتزمتين المناهضين للغرب. لكن في رحلة إعداد التقارير إلى كابول حيث كان يسيطر طالبان، سمعت السكرتير الصحفي لوزير الخارجية الأفغاني وهو يثرثر، باللغة الإيطالية الممتازة، عن حدائق روما، التي كان يدرس فيها علم الآثار هناك. وكان أحد كبار أعضاء طالبان يتأمل أمجاد "لاس فيجاس" قائلاً: "إنها مكان مذهل. مع أنني خسرت عشرة دولارات في ماكينات قمار قصر سيزار". ولم يكن الطالب الشاب جانج، الذي تم تعيينه كمرشد لي ولمصورة مجلة

نيوزويك، متطرفاً مرعِباً، بل كان فتىً مرْعُوباً، وهو الفتى الذي أظن أنه لم يتحدث قط إلى نساء خارج أسرته. وكان يمضغ أطراف عمامته ويحمر خجلاً إذا ضحكنا. وكان جانج يقول ضاحكاً: "أختي العزيزة. لم أكن مع صحافيات من قبل". حتى أن أسئلتنا عن الجبال وأسماء الشوارع بدت محرجة له: حتى أنه دفن رأسه بين يديه ذات مرة. "إذا كنتم تريدون تخويفه حقاً، فيمكنكم لمسه"، هكذا اقترح رجل أفغاني في منتصف العمر. لم نمتلك الشجاعة لفعل ذلك قط، وظللنا خجولين معه طوال زيارتنا. وفي الخفاء كنا نطلق عليه "طالباننا".

ولأنني كنت أعلم أن الصور النمطية غالباً ما تنهار عند فحصها عن قرب، فقد كتبت قصصاً مميزة عن الإسلام، قصصاً كنت آمل أن تُقَدّم كصورة مقابلة للمسلمين الذين تصدروا صفحات الأخبار. وقد تناولت تصميمات المساجد المبتكرة، ورواد الأعمال الإسلاميين، والمسلمين العصريين في منطقة خليج سان فرانسيسكو. وكانت مثل هذه القصص حسنة النية لكنها سطحية. فقد كنت أصور حياة المسلمين بدلاً من النظر إليهم كصور شخصية. وكان السياق الضمني هو أن هؤلاء المسلمين يشبهون الغربيين تماماً، وذكّرتني قصصي بتلك الصفحات في الصحف الشعبية التي تظهر المشاهير وهم يقومون بأشياء عادية، مثل حمل الأطفال الصغار الملونين، أو احتساء القهوة بالحليب. إن المسلمين يشترون الأسهم والسندات، تماماً مثل الناس العاديين! إنهم يتواصلون مع الناس ويمارسون الرياضة! ويتناولون مشروبات الطاقة بشراهة، طالما أنها حلال! وكانت هذه القصص بمثابة استراحة من سيل الأخبار عن الجهاديين والنساء المنقبات، لكنها ظلت تتنقل بين القطبين الباليين للتشابه والاختلاف. وما زالت هذه القصص تعتبر الثقافة الغربية بمثابة النجم الشمالي، والضوء المرشد الذي يجب على كل ثقافة أخرى أن تدور في فلكه. كانت هذه المقالات أقل اهتمامًا بالثقافة الإسلامية بشروطها الخاصة، وأكثر اهتماما بالغرب وهواجسه.

إن قراءة القرآن كانت بمثابة حمل إرث، ولكنها كانت أيضاً بمثابة التخلص منه. وما بدأه والدي من حاجته إلى التواصل مع العالم الخارجي من خلال التجول ذهاباً وإياباً في آسيا، سوف أواصله. إلا أن استكشافي سيكون من خلال التعاليم الإسلامية، والصداقة. لقد كانت رحلاته في عالم لا تزال الغرابة موجودة فيه. أما رحلاتي فكانت رحلة استكشافية إلى عالم مفتوح وعولمي، عالم تتلاشى فيه المسافات الجغرافية بين العالم الإسلامي والغرب، حيث لم يعد "الإسلام" و"الغرب" متعارضين تماماً، بل متداخلان.

(٣)

مسلم في الغرب

عندما أخبر الناس بأنني أدرس مع عالم مسلم، فإن أول ما يريد غير المسلمين معرفته عادة هو نوع هذا العالِم المسلم. "أمعتدل هو أم أصولي؟" أو في بعض الأحيان، " أليبرالي هو أم محافظ؟". تتنوع المصطلحات؛ لكن النص الضمني لا يتغير: هل هو واحد منا، أم واحد منهم؟ هذه هي اللغة التي تُركت لنا، بعد الصدمة التي عشناها في العقود الأخيرة. لقد أصبح من السهل تصنيف الناس في الأخاديد الأنيقة التي حفرتها لنا وسائل الإعلام، ورهطُ "صراع الحضارات".

لكن كيف نستطيع أن نحدد شخصية الشيخ؟ إن الساعات التي قضيناها في المكتبة مع كومة من الكتب عن الحركات الإسلامية المعاصرة لم تساعدنا. فهل عمله حول النساء العالمات يجعله تقدمياً؟ وهل جعلته دعوته للعودة إلى القرآن وتقاليد النبي إصلاحياً أم تقليدياً عصرياً؟ وهل جعلته قراءاته الحرفية للقرآن عن نار جهنم وحدائق الجنة الخصبة سلفياً أم وهابياً؟

كلما درست مع الشيخ، كلما وجدت أن كل التسميات المتاحة، سواء الغربية أو الإسلامية، أقل إفادة. فما هو الشيخ على أية حال؟ عالم تلقى تعليمه على الطريقة التقليدية، لكنه يثير حفيظة المحافظين ويخيب آمال التقدميين. وأحيانا العكس تمامًا: بطل حقوق المرأة الذي يؤيد أن الإسلام يسمح بتعدد الزوجات. ومدافع عن الضمير الفردي، ولكن ليس الفردية على النمط الغربي. وبطل الفكر الإبداعي، طالما أنه يستند إلى الدراسات الإسلامية السليمة والمصادر الكلاسيكية. ودومًا ينصح الطلاب "فكروا بأنفسهم. لكن لا تغيروا الحقيقة التي وهبها الله للإسلام. ويحذرهم قائلاً: "الرسالة هي الرسالة".

إنه تقليدي، لكنه يتعرض لانتقادات متكررة من قِبَل آخرين يزعمون أنهم تقليديون. هو من أنصار الأصولية، لكنه يتعرض لانتقادات شديدة من جانب الأصوليين. وفي كل مرة كنت أعتقد أنني وجدت مصطلحاً لوصفه، كان يبدو لي أن العكس ينطبق عليه أيضاً. إن محاولة تصنيف الشيخ كانت بمثابة محاولة فاشلة.

وقد اكتشفت ذلك، وهو ما أسعدني، عندما زرت تيم وينتر، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة كامبريدج. فقد أخبرني أن محاولة تصنيف المفكرين الإسلاميين ضمن فئات غربية كانت محاولة فاشلة. وقال وينتر، الذي يستخدم أيضاً اسم عبد الحكيم مراد، وهو مسلم: "هناك مسلمون ينتمون إلى تقاليد حرفية للغاية ومؤيدون لحقوق المرأة بشكل كبير. وهناك آخرون صوفيون للغاية، لكنهم أيضاً سياسيون للغاية. وأي مزيج ممكن. لكنَّ الخطر يكمن دائماً عندما تحاول فرض فكرة أن المسيحية هي الدين الافتراضي".

غادرت مكتب وينتر وأنا عازمة على محاولة تجنب التصنيفات الجامدة.

* * *

حتى أن زملاء أكرم من المسلمين بدا أنهم يجدون صعوبة في تصنيفه ضمن الفئات المتاحة. فقد قال أحد النشطاء بعد لقائه لمناقشة عمله حول العلماء الإسلاميين: "إنه محافظ للغاية، أليس كذلك؟". ولكن المسلمين الغاضبين الذين اعتقدوا أن عمله في مجال المرأة يعني أنه يدافع عن الاختلاط غير المقيد بين الرجال والنساء قالوا: لا، إنه ليبرالي للغاية.

عندما وصل أكرم لأول مرة إلى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في عام ١٩٩١، كان مدير المركز "يريد أن يعرف رأيي". كان المدير إدارياً لبقاً يرتدي بدلات أنيقة ويهتم كثيراً بجمع التبرعات، ولذلك أجرى ما كان في ذلك الوقت بمثابة اختبار حاسم للمسلمين. فسأل المدير أكرم عما ينبغي فعله بشأن "آيات شيطانية"؟

في ذلك الوقت، كانت قضية سلمان رشدي لا تزال تثير الجدل في المساجد ووسائل الإعلام. وظلت فتوى آية الله الخميني، التي تدعو إلى قتل رشدي[٢٠] تشكل تهديداً حقيقياً له. فقد رأتْ أن روايته أهانت الإسلام، وتجرّأتْ على طرح أسئلة حول صحة القرآن باعتباره كلام الله، واحتوت على مشاهد تصور بيت دعارة فيه عاهرات يأخذن أسماء زوجات النبي محمد. ورأى المسلمون في مختلف أنحاء العالم أن الكتاب يشكل إهانة للنبي محمد وعائلته والقرآن.

ولقد كانت الجراح عميقة بشكل خاص في بريطانيا. فالجالية المسلمة البريطانية تنحدر في أغلبها من جنوب آسيا، وهي المنطقة التي تتسم بحساسيات شديدة تجاه القرآن والنبي محمد.

---

[٢٠] من الموافقات اللطيفة أن المؤلفة تكتب اسم سلمان رشدي هكذا Rushdie وهي تتكون من مقطعين rush و die ومعناها (موت عاجل!).

ففي حين يستطيع العرب أن يدّعوا أن النبي محمد هو من العرب مثلهم، وأن لغتهم العربية هي لغة القرآن، فإن المسلمين في شبه القارة الهندية لا يستطيعون ذلك، لذا فإن الدفاع عن شرف النبي والقرآن قد يتحول إلى رمز ثقافي ثمين. ولقد شعر المسلمون في جنوب آسيا، من الجيلين الأول والثاني، بالألم لأن رشدي، وهو مهاجر مسلم هندي من أبناء جلدتهم، لجأ إلى استخدام أهم جوانب ثقافتهم الإسلامية العزيزة لينسج منها قصة خيالية. ولقد وحّدتْ قضية رشدي المسلمين البريطانيين على نحو لم يسبق له مثيل، فجلبت إلى شوارع بريطانيا رجالاً ملتحين يرتدون القمصان الهندية التقليدية وطواقي القراكول[٢١]. ولقد أحرقوا الكتب، وهزوا اللافتات، ورفعوا تماثيل قبيحة لرشدي وهو يرتدي قروناً. وجلبت الرواية السخط العام وأفرغته بين الجالية المهاجرة الشابة، مثلما يجلب مانع الصواعق الشحنات الكهربائية ويفرغها في الأرض. وليس هذا فحسب، بل كان أيضا أداة فرز فظة لأولئك الذين يسعون إلى تقسيم العالم إلى "معتدلين" و"راديكاليين"؛ إلى "نحن" و "هم ".

لذلك لم يكن من المستغرب أن يتساءل مدير المركز عما يعتقد الباحث الشاب، الذي تخرج للتو من المدرسة الدينية، عما يجب على المسلمين أن يفعلوا بشأن عمل رشدي.

- " تجاهلوه! " أجاب الشيخ.

في مناخ عام ١٩٩١ المحموم، كان اقتراح استراتيجية عدم القيام بأي شيء يعني الحكم على الذات بالحرمان الثقافي. فقد أقيمت المعسكرات، وحُفرت الخنادق العميقة، التي فصلت بين حماة حرية التعبير والقيم "الغربية"، وبين المدافعين عن الإيمان. يقول أكرم: "في ذلك الوقت، اعتقد الجميع أنه يتعين علينا الاحتجاج".

هل من المعقول أن نتجاهل الرواية والفتوى؟ كيف بالضبط يمكن أن يتم ذلك؟ مع أي فريق ثقافي كان هذا الشاب المتخرج من المدرسة الدينية يلعب؟

لقد تبين أن الاحتجاج لن يضر إلا المسلمين، كما استنتج الشيخ. إنَّ عاصفة آيات شيطانية لن تضر الله ولا رسوله، ولا يحتاج أي منهما إلى الدفاع عنه. بيد أنها ألحقت ضرراً كبيراً بوجهة نظر العالم للإسلام. قال الشيخ : "عندما خرجنا في مسيرات واحتجاجات، لم يغير أحد رأيه

[٢١] طواقي القَرَاكول هي نوع من الطواقي التقليدية المصنوعة من فرو صغار الخراف، تُعرف باسم "قَرَاكول" يتم تربيتها في آسيا الوسطى، خاصة في دول مثل أفغانستان وأوزبكستان. تُعتبر هذه الطواقي رمزًا ثقافيًا، وتُستخدم عادةً في المناسبات الرسمية أو كجزء من الملابس التقليدية. (المترجم).

بشأن الإسلام. فالمسلمون البريطانيون لو استخدموا الجدل لتصحيح المفاهيم الخاطئة والتواصل مع المجتمع البريطاني الأوسع، لكان ذلك قد أفادهم بعض الشيء. لكن حرق الكتب والشكوى كان مضيعة للوقت"[٢٢].

إلى جانب ذلك، وبصفته عالمًا، لم يفكر كثيراً في فتوى الخميني، إذ قال عنها: "لقد كانت فتوى عديمة الفائدة، ولا تقدم أي فائدة للمسلمين. كانت فتوى سياسية أكثر منها دينية. فبعد الحرب مع العراق، لم يكن الخميني محبوباً في البلدان الإسلامية. فحاول استعادة احترامه في قلوب المسلمين من خلال هذه الفتوى".

عندما روى أكرم عدم رغبته في الانخراط في الجدل الدائر حول "آيات شيطانية"، تذكرتُ كورديليا، ابنة الملك لير، التي رفضت إظهار حبها لأبيها علناً. وفي حين أعلنت شقيقاتها عن ولائهن للملك لير بأصوات عالية وخافتة، قالت كورديليا: "لا شيء". هكذا مثل أصغر أبناء الملك لير، رفض أكرم المشاركة في مسرحية العاطفة المسيسة، ولم يلعب دور المهاجر غير الآمن الممزق بين الثقافات، ولم يوافق على أن يكون أحد هؤلاء الممثلين المسلمين الذين يَظهرون في نشرات الأخبار، غاضبين ومستنفرين. وبينما كانت عواصف ما بعد الاستعمار تشتعل في الهند وبريطانيا، جلس يراقب. ولم يقل شيئاً لأولئك الذين كانوا يبحثون عن عرض جيد، أو عن صراع مثير بين الحضارات.

ربما كانت كورديليا هي الصوت الهادئ العاقل للأخلاق في مسرحية الملك لير، لكن يا إلهي، لقد عانت بسبب ذلك. فقد تم نفيها وسجنها، وبحلول نهاية المسرحية ماتت. كذلك، فإن استقلال أكرم جعله هدفاً للنقد. ففي مقال بعنوان "خطأ الدكتور أكرم الندوي الكارثي!" هاجم أحد المدونين أكرم قائلاً إنه "تجسيد للجدال بالكلمات" وأنه "يسعى إلى هدم السنة من خلال إهانة ممارسات الإسلام". ولفترة من الوقت، كانت هناك مدونة بعنوان: "آراء أكرم الندوي الشاذة" وقد تضمنت منشوراتها مناقشات لمواقف الشيخ حول مواضيع تتراوح من "التمييز العنصري" إلى "ارتداء الفرو أو الجلد المستخرج من الخنزير".

في إحدى غرف الدردشة على الإنترنت، وجدت شخصاً يصفه بأنه سلفي، من أنصار الإسلام المتزمت الذي يرتبط بالأصوليين المتعصبين الذين يهاجمون أي شخص ينحرف عن

[٢٢] عندما يقول الشيخ: إن رواية آيات شيطانية لن تضر الله ولا رسوله، ولا يحتاج أي منهما إلى الدفاع عنه، تمامًا مثلما نقول: إن وجود أصنام في مكة لن تضر الله ولا رسوله، وبإمكان المسلم أن يعبد الله ويتجاهل تلك الأصنام، فهي حجارة لا تنفع ولا تضر. فهل هذا المنطق مقبول؟

قواعدهم الأخلاقية الصارمة. (بعد الربيع العربي، كان عنوان صحيفة نيويورك تايمز "لا تخافوا من كل الإسلاميين، خافوا من السلفيين".

وبشيء من التوتر، اتصلت لأستفسر عن سبب تسمية الناس لك بـ "السلفي"؟.

"لأنني أقول ببساطة أنه يجب علينا أن نعود إلى القرآن والسنة النبوية، والسلفيون يقولون هذا أيضًا".

أومأت برأسي موافقة، فقد سمعت نفس النداء بالعودة إلى الأساسيات من الحركات النسوية الإسلامية، والتقدميين. لكن مرة أخرى، سمعت هذا يتكرر أيضا من قبل الجهاديين، والإصلاحيين، والحداثيين، والتقليديين الجدد، والمسلمين المثليين، والدكتاتوريين، والديمقراطيين، والاشتراكيين الماركسيين. وبغض النظر عن التسميات التي يختارونها لأنفسهم، فإن المسلمين يتفقون على شيء واحد، على الأقل من الناحية النظرية: أولوية القرآن والحديث. وقد ذكرني تيم وينتر قائلا: "إن أي شخص يدعي الشرعية في سياق إسلامي يجب أن يبني خطابه في نهاية المطاف على النص المؤسس. والأمر نفسه ينطبق على المسيحية".

لكن صفة السلفية ما زالت تثير اهتمامي. فقلت بإصرار: "إذن، هل أنت سلفي؟".

أجاب : "لا. أنا لست هذا، ولست ذاك. أنا فقط مسلم" ثم استطرد قائلاً: في مثل هذه البيئة الممزقة سياسياً، من الصعب إقناع الناس بأنك مستقل حقاً. ففي البداية، عندما بدأت بإلقاء المحاضرات، اعتقد الناس أنني أنتمي إلى مجموعة ما. والآن أدرك معظم الناس أنني لا أنتمي إلى أي مجموعة".

بالفعل، لقد شارك الشيخ في المنابر مع مجموعة متنوعة من زملائه المسلمين، من الأطباء النفسيين، والديوبنديين[٢٣] المحافظين، إلى الصوفيين، والأستاذات الجامعيات. حتى أن ظهوره على المسرح مع متحدثات من النساء أدى إلى وقوعه في مشاكل مع العديد من المشاغبين الذين اقترحوا أن المنصة المشتركة تنتهك تقليد فصل الجنسين. وزعموا أنه لا ينبغي لأي امرأة أن تخاطب حشداً من الرجال.

كان أكثر ما أثار حفيظة بعض زملائه المسلمين هو المرات التي أشار فيها الشيخ إلى ممارسات لا علاقة لها بالإسلام، إنما ترتبط بالعادات والتقاليد الثقافية. فعندما جاء الشيخ

[٢٣] يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من المسلمين الذين يتبعون المدرسة الدينية المعروفة باسم "ديوبند" والتي نشأت في الهند في القرن التاسع عشر. وتتميز هذه المدرسة بتفسيرها التقليدي للإسلام واهتمامها بالالتزام الصارم بالشريعة (المترجم).

لأول مرة إلى أكسفورد وبدأ في إلقاء الخطب في مسجده المحلي، صَدَم المصلين بآرائه حول طواقي الصلاة. وسأله أحد الرجال: هل من الضروري أن يرتدي الرجال طواقي الصلاة أثناء الصلاة؟ فأجابه أكرم: لا. إنها ببساطة عادة جنوب آسيوية، وليست متطلباً إسلامياً على الإطلاق. وقد أصاب هذا الأمر المصلين بالحيرة. هل من الضروري أن يصلوا مكشوفي الرأس؟ ولكن آباءهم وآباء آبائهم كانوا يصلون مرتدين طواقي الصلاة! إنه لأمر شنيع.

وهناك فتوى أخرى مثيرة للجدال: إعلان الشيخ أن المرأة يجوز لها قص شعرها. وقد أثار هذا الأمر استنكارًا واسعًا. فهل يعني هذا التأييد لقص الشعر أن الشيخ كان يبشر بفكر غربي؟ وهل أرغمته الموضة على التخلي عن العقيدة الإسلامية؟ وكما اتضح فيما بعد، فقد استند في فتواه إلى حديث روى أن زوجات النبي قصصن شعورهن بعد وفاته. وإذا كان الشعر القصير جائزاً لأرامل النبي، فقد استنتج الشيخ أنه من المؤكد أنه جائز للمسلمين اليوم. وقال الشيخ: "يعتقد بعض الناس أن المرأة لا ينبغي لها أن تقص شعرها، لأن هذا ما تفعله النساء الغربيات. وهم يعتقدون أنني ليبرالي. ولكن في الحقيقة، أنا أعود إلى سنة النبي".

وبعد فترة من الجدل حول غطاء الرأس، توقفت الدعوات لإلقاء المحاضرات في المساجد، الأمر الذي ترك الشيخ بلا مكان للتدريس. لذا بدأ يلقي الدروس من غرفة المعيشة في منزله، ابتداءً من الساعة السادسة والنصف صباحاً. وبمرور الوقت، وبصحبة ابنته "هالة" عادة، بدأ يملأ قاعات الندوات، ثم المساجد والقاعات لاحقاً. وفي بعض الأحيان، كانت الشكوك في كونه "ليبرالياً" تعني أن مسؤولي المسجد كانوا يطلبون منه أن يخفي معتقده. وعندما أعلن لأول مرة عن عمله بشأن العالمات، توسل إليه العديد من الرجال ألا ينشره. لم يشككوا في علمه؛ فقد كانوا يعرفون أن المصادر التي استند إليها في بحثه موثوقة. لكن هذا قد يجعلهم يبدون سيئين، وخاصة في نظر الغرب. وفي بعض الأحيان عندما كان الشيخ يزور مسجداً لإلقاء كلمة، كان إمام المسجد يطلب منه ألا يذكر فتوى أو أخرى خشية أن تزعج الجمهور. وطلب أحد الأئمة في شمال إنجلترا من الشيخ ألا يذكر فتواه بشأن النقاب. وأوضح أن أغلب النساء في ذلك المسجد كن يرتدين النقاب. وربما أثار رأي أكرم -بأن النقاب اختياري وليس إلزاميًا- ضجة. وبصفته ضيفا مهذبا، امتثل أكرم لطلبه.

* * *

وإذا كان القرآن يشكل الأساس الروحي والفلسفي للشيخ، فإن حياة النبي كانت نموذجاً لكيفية تطبيقه لهذه المبادئ في ممارساته اليومية. وقد أخبرني ذات يوم عبر سكايب: "الإسلام ليس فكرة، بل هو تاريخ".

بعد ثلاث رشفات فقط من فنجان القهوة الأول في الصباح، شعرت بالارتباك، وقلت: "وإذن؟"

"حسنًا، في الديانات الأخرى، مثل المسيحية، يؤكدون على أفكار مجردة، مثل القرب من الله، والجيرة الصالحة، ومحبة الآخرين".

"فهل أنت مهتم بهذه القيم أيضًا كمسلم صالح؟"

"نعم، بالطبع، لكننا لا نريد أن تأتي الروحانية من هذا الباب. إننا نؤمن بالأفكار العظيمة. إن المسيحيين لا يهتمون كثيراً بما فعله المسيح. إنهم لا يهتمون بتفاصيل الطريقة التي عاش بها حياته. أما روحانيتنا فهي تأتي من خلال أداء الصلوات الخمس، كما فعلها النبي محمد. أو من خلال تقديم الصدقات، كما فعلها النبي محمد. إننا نريد القرب من الله من خلال هذا التاريخ". وقد أدرك الشيخ أنه بدون تفاصيل هذا التاريخ، فإن الإسلام لن يكون مختلفاً كثيراً عن أي دين آخر. أو حتى، لو جازفت، عن مجموعة القيم العلمانية التي أتبناها.

"نعم، صحيح! ففي نهاية المطاف، تدعو كل الأديان والمعتقدات إلى العدالة. فالجميع يؤكدون على أن تكون لطيفًا مع الناس، و تمنحهم العدالة، وتعطيهم الحقوق، وتعمل الأعمال الخيرية. لكننا لا نحتاج إلى الإسلام من أجل هذا! ألا تنادي الأمم المتحدة بنفس هذه القيم الإنسانية؟ يمكنك أن تبتكر هذه الأفكار من منزلك!"

أما الإسلام فقد رسّخ هذه القيم الإنسانية العالمية في تاريخ النبي محمد. يقول أكرم: "إن هذه الأخلاق ليست مجردة، بل إنها مرتبطة بتفاصيل تاريخ حياة النبي محمد". والولاء لهذا التاريخ ـ لسنة النبي أو أقواله وأفعاله ـ هو ما يجعل المسلمين مختلفين عن كل البشر الآخرين الذين يسعون إلى الخير. وبالتالي فإن الحفاظ على سنة النبي في كل ما يفعله الإنسان، من تنظيف أسنانه إلى بناء نظام الحكم، أصبح عملاً مقدساً. "لقد نزل الإسلام على النبي محمد، وعلمه لأصحابه، والآن أصبح من واجبنا أن ننقله إلى الجيل التالي تماماً كما نقله إلى أصحابه".

لقد وصل الكافيين إلى مجرى دمي، وانتشر الشك العميق لدي حول وجود تاريخ واحد، لأي شيء على الإطلاق.

"ولكن يا شيخ، هل التاريخ يعتمد على الراوي؟ أنت من بين كل الناس أكثر من يعرف ذلك. لأن تاريخ النساء العالمات قبل أن تنقب عنه وتجده، كان قد تم محوه إلى حد كبير - ربما لأن التاريخ الإسلامي كان يروي دائمًا من قبل الرجال"

"نعم، بالطبع، علينا التحقق من هذا التاريخ. علينا أن نزنه وننظر إلى التقارير والمصادر المختلفة، ونفحص ما إذا كانت هناك أي طريقة لترجيح أحدها على الآخر".

ثم اضطر إلى إغلاق الهاتف وهو يتأسف، فقد جاءه بعض الزوار من بوسطن في أميركا، ولم يكن راغباً في إبعادهم. كان هناك تفجير في ماراثون، نفذه رجلان يدَّعيان أنهما يتصرفان باسم الإسلام. وكانت هناك نصائح يجب تقديمها حول كيفية الرد.

* * *

وبمقاييس أي عصر، كانت حياة النبي محمد استثنائية. فقد ولد في مكة عام ٥٧٠ م، وتيتم في سن مبكرة في مجتمع تعتبر فيه الأسرة والعشيرة المصدر الوحيد لحماية الإنسان. وكان بلا مال ولا أب، فرباه جده ثم عمه، فنشأ رجلاً جذابًا، ذا عيون داكنة عميقة، وشعر طويل يجدِّله على شكل ضفيرتين. وفي شبابه عمل راعياً بسيطاً في بلدة تقوم على التجارة. وسرعان ما لفتت وقاره الطبيعي انتباه خديجة، تلك الأرملة التي كانت واحدة من أغنى تجار مكة. فقد سمعت عن الشاب اللامع المعروف في مكة بـ "الصادق الأمين". فعهدت إليه بقيادة قافلة إلى سوريا، وبعد ذلك، على الرغم من أنها كانت تكبره بخمسة عشر عاماً، تزوجته.

في أحد الأيام، عندما كان محمد وحيداً في كهف جبلي بالقرب من مكة، وهو المكان الذي اعتاد أن يلجأ إليه للتأمل الروحي، سمع فجأة صوت الملاك جبرائيل يقول له: "اقرأ!". فسأله محمد الذي كان في الأربعين من عمره في حيرة: "ما الذي ينبغي أن يقرأه؟". فضغط الملاك عليه قائلاً: "اقرأ!"، وعانق الرجل المذعور بقوة حتى ظن أنه سيموت. واحتج محمد قائلاً إنه ليس قارئاً. وبعد عناق ثانٍ وثالث، توقف محمد عن المقاومة، وبدأ ينطق بالكلمات التي تراكمت في رأسه:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

(العلق ١:٥)

لقد خاف محمد من الكلمات التي خرجت من فمه، وظن أنه مسكون بجن (روح شريرة)، فهرع خارج الكهف وبدأ يتسلق الجبل الوعر، مصمماً إلقاء نفسه منه في يأس[٢٤]. وعلى حافة الهاوية، سمع صوت الملاك مرة أخرى: "يا محمد، أنت رسول الله".

وبعد هذا اللقاء الأول، استمر محمد في تلقي الوحي طيلة الأعوام الثلاثة والعشرين التالية، وحتى وفاته عام ٦٣٢ م. وكانت الآيات الـ ٦٢٣٦ التي أصبحت في النهاية القرآن، تتسم بالتنوع؛ فهي تارة غنية وقاسية، وتارة شاعرية وإرشادية، وفي أحيان أخرى تكون حميمية ومهيبة. وكانت بعض الآيات تنزل من تلقاء نفسها (بدون أسباب نزول)، فتفاجئ النبي وهو يتناول عشاءه أو يغسل شعره. وكان بعضها الآخر ينزل استجابة لقضية معينة كان يواجهها محمد أو أمته. وفي بعض الأحيان كان جبريل ينزل في تجمع عام، وأحياناً ينزل في أثناء تجول محمد في الصحراء. وفي أحيان أخرى، كان جرس يرن فيعلن عن نزول الآيات. وكانت بعض الرسائل تنزل في صور[٢٥]، وبعضها الآخر في أحلام.

ولم يكن الوحي يأتيه بسهولة. بل كان يتصبب عرقاً من شدة الجهد الذي يبذله في سبيل ذلك. وكان يقول: "لم أتلق وحياً قط إلا وفكرت في أن روحي قد انتزعت مني". وبعد أن تنزل عليه آية من آيات القرآن كان يتلوها بصوت عالٍ على أصحابه، الذين كانوا أول من اعتنق الإسلام. وكان بعضهم يحفظها عن ظهر قلب، وكان الرجال الذين عينهم محمد ليكونوا كتبة؛ يكتبونها على أوراق النخيل، أو قطع الخشب، أو الجلد، أو عظام أكتاف الإبل.

وباستثناء قِلة من رفاقه، لم يكن بقية أهل مكة متقبلين له على هذا النحو. فقد كان الناس يهمسون في السوق بأنه مجنون. وكان من هؤلاء الشعراء المأجورين أو العرَّافين الذين كانوا يمارسون عرافتهم على طرق القوافل. وكان الناس يقذفونه بالقمامة والأوساخ. وكانوا يرمونه بأحشاء الأغنام. ولكن على أية حال، فقد ظل يعظ الناس.

لقد خلقت الرسالة التي جاء بها محمد أعداء أقوياء له. فقد تحدى مفهومُ الإسلام- للإله الواحد القادر على كل شيء- المشركين، واقتصاد مكة. وكان جزء كبير من ثروة المدينة مستمداً من الحج السنوي إلى الكعبة، أو المكعب الأسود الذي يضم أصنام الآلهة المختلفة التي تعبدها

---

[٢٤] هذه الحكاية وردت في أحاديث ضعيفة لا تقوم به حجة (المترجم).

[٢٥] لم أفهم ماذا تقصد الكاتبة من هذه الفقرة لكن المعروف بأن الوحي كان يأتي إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأشكال متعددة، منها: (١)جبريل، الذي كان يتجلى له في صور مختلفة.(٢)الرؤيا الصادقة، التي تأتيه في المنام. (٣) القرآن الكريم: وقد كان ينزل على النبي في شكل آيات تُقرأ. (المترجم).

القبائل. لقد أطاحت فكرة الإله الواحد القادر على كل شيء بتقاليد آلهة القبائل والتماثيل الـ ٣٦٠ الموجودة في الكعبة.

ولقد تحدى مبدأ المساواة الاجتماعية الذي تبناه محمد المكانة الاجتماعية السائدة. ولم يكن أصحاب السلطة في مكة راغبين في رجل يبشر بأنَّ الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. ومثل أتباع المسيح الأوائل، كان صحابة محمد الأوائل في كثير من الأحيان من الفقراء أو المهمَّشين اجتماعياً. وبالنسبة للثقافة القبلية، فقد جلب الإسلام مفهوماً جديداً جذرياً: مجتمع لا يقوم على الأسرة أو العشيرة، بل على الإيمان. فلم يعد بوسع الثروة أو سلالات الدم أن تنفع أحداً، بل التقوى فقط هي التي تُعتبر معياراً.

كما أدخل الدين الجديد أشكالاً أخرى من المساواة. فأعلن أن جميع الأجناس متساوية أمام الله، وعلى الأغنياء أن يعطوا الفقراء، ولم يعد الإسلام يتسامح مع العادة العربية المتمثلة في دفن البنات عند ولادتهن. كما لم يعد يُنظر إلى النساء على أنهن مجرد منقولات، بل ككائنات بشرية لهن الحق في وراثة الممتلكات والتصرف في ثرواتهن بالطريقة التي يرونها مناسبة.

وبعد أن زاره الملاك جبريل للمرة الأولى، ظل محمد يقيم في مكة ويبشر بدينه لمدة اثني عشر عاماً. ولكن مع تزايد معارضة قبيلة قريش، القبيلة الحاكمة القوية في المدينة، ومع مواجهة أصحابه للاضطهاد المتزايد، أدرك النبي بأنهم بحاجة إلى الهجرة، فبدأ في إرسالهم إلى يثرب، على بعد ٢١٠ أميال من مكة.

وفي عام ٦٢٢م، وبعد أن وصلت أنباء عن تخطيط قريش لقتله، انضم محمد إلى المسلمين المهاجرين في ما أصبح يعرف الآن بالمدينة المنورة، أو "المدينة"، وهي اختصار لـ "مدينة النبي". وكانت هذه الخطوة، المعروفة باسم الهجرة، محورية للغاية لدرجة أنها شكلت بداية التقويم الإسلامي. وفي المدينة المنورة، قرر محمد وأصحابه أن يبنوا أول مسجد في الإسلام: وهو فناء بسقف من سعف النخيل مدعوم بجذوع الأشجار، تحيط به أكواخ لعائلة محمد. وهناك توسع دوره كزعيم روحي ليشمل دورًا سياسيًا أيضًا. وأصبح هو الزعيم الفعلي لمجتمع متعدد الأديان، وصاغ دستور المدينة المنورة، الذي حدد حقوق ومسؤوليات سكان المدينة، سواء كانوا مسلمين أو وثنيين أو يهودًا. فكان بمثابة ميثاق عدم اعتداء متبادل، يعترف بالانتماءات المتميزة للناس مع ضمان العدالة للجميع. "فلليهود الذين يتبعوننا النصر والأسوة،

غير مظلومين، ولا متناصر عليهم. وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة". وكان من المفترض أن يتولى محمد تسوية جميع النزاعات، وتتحالف جميع العشائر للدفاع عن المدينة المنورة ضد الغرباء.

لقد تميزت السنوات التي قضاها محمد في المدينة المنورة بالاشتباكات العسكرية مع أهل مكة. وبعد تسع معارك وثماني سنوات، ركب محمد إلى مكة منتصراً، دون إراقة دماء. وكان أول ما قام به عند دخول الكعبة تحطيمه الأصنام العربية بعصاه. وقد قضى سنواته الأخيرة في تعليم الإسلام وترسيخه باعتباره القوة الدينية والسياسية الأبرز في شبه الجزيرة العربية. وفي عام ٦٣٢، قبل وفاته بفترة وجيزة، أدى آخر مناسك الحج، حيث ألقى خطبة أمام ١٤٤ ألف حاج من أعلى جبل خارج مكة. وبعد بضعة أشهر من خطابه، توفي.

* * *

إن حياة محمد، شأنها في ذلك شأن القرآن نفسه، غنية إلى الحد الذي يجعل المرء قادراً على أن يجد فيها كل ما يريد. ولقد نسب الناس إلى النبي عدداً لا حصر له من الأدوار، فكشفوا عن أنفسهم أكثر مما كشفوا عن محمد: السياسي، والدبلوماسي، والمحارب، ورجل الأسرة المخلص، ومتعدد الزوجات، والمدافع عن حقوق الإنسان، والثوري. فعلى سبيل وجد الإسلامي الماركسي علي شريعتي- الذي كان يخطب ضد نظام الشاه قبل الثورة الإيرانية- في محمد رفيقاً للفكر. وأكَّد الجهاديون على حروبه؛ وأكد الإنسانيون على رحمته، واستشهد العاملون من أجل العدالة الاجتماعية بصدقاته تجاه الفقراء؛ إذ كان كرمه كثيرًا ما يترك أسرته جائعة. واستشهدتْ به الحركات النسوية الإسلامية باعتباره ثوريًا في قضايا النوع الاجتماعي، كما استشهد به رجال الدولة الإسلاميون باعتباره ديمقراطيًّا ومؤلفاً لأول دستور في العالم.

كما انتقى غير المسلمين من حياة النبي محمداً ما يؤيد جدالهم. فقد استخدم الفيلسوف فولتير في عصر التنوير محمداً في حججه ضد السلطة الكهنوتية والخرافات، فكتب مسرحية بعنوان "محمد أو التعصب". أما الكاتب توماس كارليل في القرن التاسع عشر فقد اعتبره بطلاً. وكان آخرون أقل إطراءً، حيث كانت إهانات النبي المسلم تندرج في ثلاثة معسكرات: المعسكر الديني، والمعسكر الجنسي، والمعسكر العسكري. ومنذ القرن الثامن فصاعداً، هاجم الكتاب المسيحيون محمداً باعتباره محتالاً، أو كاذباً، أو ملحداً مسيحياً، أو ساحراً، جاء لتقويض الكنيسة. وكان الجنس يشكل مصدر انشغال آخر للمستشرقين الغربيين المعادين،

بدءاً بالمسيحيين في العصور الوسطى. فبعد أن علموا بتعدد زوجات النبي محمد، انشغلوا بقوة بنسب كل أنواع الانحرافات إلى النبي المسلم. لقد تزايد هوس أوروبا في العصور الوسطى بمحمد كمحارب أثناء الحروب الصليبية، الأمر الذي وفر دعاية مفيدة للمجتمعات التي شرعت في حروب مقدسة لانتزاع القدس من براثن المسلمين. وقد استمرت صورة الإيمان المبني على الفتح العسكري لفترة طويلة بعد سقوط القدس: ففي عام ١٧٤٤، كتب جورج سيل، أول ترجمة إنجليزية للقرآن باعتبار أن "المحمدية لم تكن سوى اختراع بشري، وتدين بتقدمها وتأسيسها بالكامل للسيف". والواقع أن صورة الإسلام اليوم باعتباره دين الإرهابيين تتناسب تمامًا مع تقاليد الحكايات الصليبية.

في الحقيقة، كانت المعارك التسع التي خاضها محمد مجرد مناوشات. ففي انتصار النبي العظيم على أعدائه في مكة، خسر المسلمون أربعة عشر رجلاً، ولم يتجاوز عدد ضحايا مكة السبعين. وفي هزيمة النبي العظيمة، لم يمت من المسلمين سوى خمسة وستين[٢٦]. ولكن قروناً من الجدل تعني أن الهوس الغربي بالسيف الإسلامي لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. وبمساعدة وتحريض الجهاديين، لا تزال الصورة القديمة باقية. و"سيف الإسلام" لا يزال عنوانًا حاضرًا في وسائل الإعلام، والإنترنت، وألعاب الكمبيوتر. ولا يزال رسامو الكاريكاتير يرسمون محمدًا وهو يلوح بالسيف، ويرتدي عمامة تحمل قنبلة موقوتة.

لقد أصبح النبي محمد هدفاً للسخرية والانتقاد منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها تلقي الوحي. وتلك ضريبة لا بد أن يؤديها كلُّ ثائر، إذ تعد جزءًا من وظيفته. فقد قال الشيخ ذات مرة " إن الأنبياء لابد أن يكونوا مستعدين لتلقي كراهية الناس، بقدر استعدادهم لتلقي محبتهم". لكن في حالة محمد، على وجه الخصوص، كانت كل هذه السخرية الانتقادات تشكلان تناقضاً صارخاً مع تفاصيل حياته، التي سجلتها المصادر الإسلامية الكلاسيكية بكل إجلال وتبجيل. ففي تاريخ العالم لم تُسَجل حياة أي نبي كبير عن كثب كما سُجِّلت حياة النبي محمد. وبعد وفاة النبي، سجل صحابته ـ وهو مصطلح جميل، أكثر ديمقراطية من "التلاميذ" وأكثر وداً من "الأتباع" ـ كل تفاصيل أقواله وأفعاله التي استطاعوا تذكرها. وقد جُمعت هذه التفاصيل في مجموعات من الأحاديث، التي يُنظَر إليها مجتمعة باعتبارها سنة محمد أو ممارساته. وتحتوي الأحاديث على معلومات عن كل شيء، بما في ذلك الطريقة التي اعتاد بها النبي تناول

[٢٦] تشير الكاتبة إلى انتصار المسلمين في معركة بدر، وهزيمتهم يوم أحد (المترجم).

الطعام، والمعاشرة الزوجية، والاغتسال، والثناء على ربه. ولكي أتمكن من إلقاء نظرة سريعة على الأفق الواسع للحديث، فتحت أحد كتب أكرم في الفقه. وهنا جزء من فهرس الأحاديث، اخترته عشوائياً:

صلى النبي صلى الله عليه وسلم على جنازة ثم ذهب إلى قبر الميت فرمى ثلاث حثيات من تراب من عند رأس الميت.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتطهير المساجد المبنية في البيوت وتطييبها.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفن شهداء غزوة أحد في ثيابهم الملطخة بالدماء.

أمر النبي المؤذنين أن يقولوا: صلوا في أماكنكم في ليلة باردة ممطرة.

وهنا، في أربع لحظات عشوائية من حياة النبي، تكمن جذور الشريعة الإسلامية فيما يتصل بالدفن، وصيانة المساجد، والحرية في الصلاة في المنزل بدلاً من المسجد في الطقس العاصف. وقد أخبرني أكرم ذات مرة: "القرآن هو الهداية، وليس القوانين. فهو يعطيك الاتجاه الصحيح. فمثلاً لو أردت الذهاب من هنا إلى لندن، فإنك ستذهب باتجاه الجنوب قطعاً. وهكذا النبي أتي ليعطينا أسهل الطرق وأقصرها للوصول إلى الله". وقد وصفته زوجة محمد عائشة بأنه "قرآن يمشي على الأرض". وبالنسبة للمسلمين، كانت حياته بمثابة خريطة للقيم القرآنية في تجسيد بشري.

وفي حياته اليومية كان الشيخ يحاول أن يقتدي بالنبي في أمور كثيرة. فكان كلما دخل المطبخ يضع قدمه اليمنى كما كان النبي يفعل. وكان يتناول إفطاره بيده اليمنى. ويمشط الجانب الأيمن من شعره أولاً. وكان قبل دخوله الحمام يدعو بدعاء النبي المعتاد: "اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث". وكان يدعو عند الخروج من الحمام، كما كان يدعو عند الخروج من البيت، كما كان النبي يفعل. وكان حرصه على اتباع سنة النبي يتجاوز مجرد العادة إلى السلوكيات. فلم يكن يترك ضيوفه ينتظرونه لأن النبي لم يفعل ذلك قط. ولأن النبي كان يذهب إلى المسجد دائما بعد عودته من السفر حتى لا يفاجئ أهله، كان الشيخ يحرص على الاتصال بأهله ليخبرهم بعودته إلى البيت.

لقد نصح أكرم ذات يوم بأن اتباع نهج النبي "يجعل الحياة أكثر سهولة". فمثلاً، لنفترض أنك تقدم الماء للضيوف، فهل تبدأ بالضيوف الأكثر أهمية؟ كبار السن أم الأطفال؟ أجاب: الأمر سهل: ابدأ من اليمين، لأن هذا ما فعله النبي.

عندما كان شابًا، بدأ أكرم في بذل جهد مستمر لتقليد النبي، ليس فقط في العادات والسلوكيات، بل في الشخصية أيضًا. ولأن النبي نصح أصحابه "بالتصرف بلطف ورفق"، حاول أكرم أن يفعل الشيء نفسه. يقول أكرم: "عندما كنت صغيرًا، بذلت جهدًا للتحكم في غضبي". وقد نجح في ذلك، يقول: "الآن، الغضب يتطلب مني جهدًا لكي أغضب!"

إن الرجال المسلمين الذين يتصدرون العناوين يميلون إلى التركيز على النبي كقائد سياسي. لكن الشيخ ليس منهم؛ بالنسبة له، كان محمد في الأساس معلمًا يحذر من نار جهنم ويعلم الناس كيفية تجنبها. قال: "النبي لا يدعو الناس للحصول على السلطة أو لإقامة حكومة إسلامية. إنه يعلمهم شيئًا واحدًا: اتباع خطة خالقهم وإنقاذ أنفسهم من نار جهنم". ومن غير المستغرب أن يكون أكرم- وهو رجل يقدم غالباً ندوات تستمر ثماني ساعات- متناغماً مع النبي كشخص يحاول مرارًا وتكرارًا توضيح رسالته. قال لي أكرم: "لم يجبر النبي الناس على الإيمان بأي شيء. فأيُّ شخص يجبر الناس على تغيير معتقداتهم، ليس مُعَلمًا. يجب أن يأتي التعلم من الفهم الصحيح، وليس من الإكراه".

ذات مرة سألت أكرم عن أكثر ما يعجبه في النبي. ففكر للحظة ثم قال بهدوء: "معرفة حدوده!. كان يعرف حدوده كزوج، فلم يكن يفرض على زوجاته كيف يتصرفن. ومعرفة حدوده بخصوص ما يستكن في قلوب الآخرين، فلم يحاسب الناس إلا على ظواهرهم، ولم ينقب داخل ضمائرهم وقلوبهم. وفي هذا تُروى حكاية شهيرة كيف قتل أحد الصحابة رجلاً أثناء معركة. فقبل أن يسقط السيف على عنقه، نطق بالشهادتين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فظن الصحابي أن اعتناقه الإسلام، قبل لحظات موته، كان غير صادق، لكن النبي محمد رفض هذا الافتراض. وسأل الصحابي: "أشققت عن قلبه؟" الله وحده يعلم ما يستكن في القلوب.

ولقد أبدى أكرم تردداً مماثلاً في إصدار الأحكام. ويتذكر ديفيد دامريل، الذي كان يشترك معه في نفس المكتب في مركز الأبحاث، رنين الهاتف ذات يوم من قبل أحد الوالدين المذعورين على الخط يطلب المشورة من الشيخ. فقد اكتشفا بأنَّ ابنتهما، غير المتزوجة، حامل. فماذا ينبغي عليهما أن يفعلا؟ وقد أدينت العلاقة، خارج الزواج، كخطيئة كبرى. يقول دامريل: "لقد فاجأتني إجابة أكرم. فقد قال لهما: "لقد أخطأت هذه المرأة المسكينة بالفعل، لذا فسوف تكون هناك عواقب في الآخرة. لكن في هذه الدنيا، دور الوالدين هو أن يسهلا عليها الأمر[٢٧]". ويتذكر دامريل: "لقد أخبرهم أن يساعدوها ويدعموها، وألا يحكموا عليها في هذه الدنيا".

عندما سمعت هذه الحكاية، لمحت فجأة ضيق رؤيتي الخاصة عن التسامح. ففي عقيدتي، كان الجنس، والمخدرات، وموسيقى الروك، وأي عدد آخر من الاستكشافات، مقبولاً، طالما لم يؤذِ أحدًا. وكان هذا التسامح نابعاً من افتراض أن هذه الحياة هي كل ما لدينا، وأن كل فرد يتمتع بالحرية. أما تسامح أكرم فقد جاء من اعتقاد معاكس تماماً: ففي كون يتمركز حول الله، لا يتمتع أحد بالحرية، ولا يحق لأحد الحكم على الآخرين، فهذه هي وظيفة الله. والقرآن ليس دليلًا فحسب، بل هو وسيلة لتوسيع مدارك العقل. واقترح أكرم قائلاً: "لا تنظر إلى هذا العالم الضئيل. فالأشياء أكبر كثيراً مما يمكنك أن تتخيل. فهناك ماضٍ يتجاوز ماضيك، ومستقبل يتجاوز مستقبلك".

لقد كان وعي أكرم بحدوده الذاتية بوصلة لحياته. ونظرًا لمكانته في المجتمع المسلم البريطاني، كان من السهل عليه أن يتجاوز هذه الحدود. ففي المسجد وفي محاضراته، كان يُطلب من أكرم أن يُعبّر عن رأيه في قضايا مختلفة، بدءًا من الجنة إلى صبغ الشعر. وقبل أن أشاهده في عمله، كنت أتصور أن الشيخ يخدم إخوانه المسلمين تمامًا كما كان القساوسة الأيرلنديون أو الإيطاليون يخدمون رعيتهم، كمرشدين أخلاقيين يتخطون أحيانًا إلى الإفتاء في شؤون اجتماعية أو سياسية. وفي بعض الأحيان، كان الشيخ يبدو كنوع من كاهن الاعتراف. "فالله وحده، وليس إخواننا من البشر، هو الذي يستطيع أن يدين، ودور العالِم تسهيل الحياة على الناس، وليس تعقيدها. فإذا كان الشخص عازمًا على التوبة، فهذا يكفي".

[٢٧] لم أفهم ماذا يقصد الشيخ بهذه العبارة. (المترجم).

ولكن عالم الدين الإسلامي الملتزم يفعل أكثر كثيراً مما يفعله كاهن الرعية. ففي حالة أكرم، كان الأمر كما لو كان أستاذًا جامعيًّا في إحدى الجامعات العريقة، يعمل مستشارًا، بينما يقدم خدمات قانونية. وفي أوقات فراغه، كان يكتب عشرات الكتب في علم الكلام، وقواعد اللغة العربية، وسير العظماء، والمذكرات، والفلسفة، بل وحتى النقد الأدبي.

كان يتوقف عن الكتابة في المساء، عندما كان الزوار يقرعون جرس بابه أو هاتفه المحمول طلباً للنصيحة. المتزوجون حديثاً، الذين يخشون أن الرهن العقاري ينتهك الحظر الإسلامي على القروض ذات الفائدة. العائلات الثكلى التي تريد أن تقيم طقوس الدفن. رجال الأعمال الذين يكتبون وصاياهم، ويطلبون إرشادات حول قانون الميراث. الأزواج المتخاصمون الذين يطالبون بالطلاق. (قالت ابنته سمية إنه وجد عمله كمستشار زواج مُرْضِياً بشكل خاص: "إنه سعيد عموماً عندما يتمكن من الوفاق بين زوجين مرة أخرى".

كان هذا العمل يعتمد على لطفه الفطري وصبره المكتسب. فقد كانت هناك امرأة تظل تتصل هاتفياً ـ أحياناً كل عشر دقائق أو نحو ذلك ـ قلقة من أنها ليست مسلمة صالحة. وأخبرها بلطف أن مجرد قلقها يثبت أنها مسلمة صالحة. كان يستمع إلى الأرامل والمطلقات الوحيدات اليائسات في البحث عن أزواج للرفقة والجنس[٢٨]. وفي بعض الأحيان كان يقوم بزيارات منزلية، كما حدث عندما طلب منه صاحب منزل خائف أن يتأكد من أن منزله خالٍ من الجن (مخلوقات خارقة للطبيعة). فقال له ضاحكاً: "اتصل بي فقط. وسوف يهرب الجن!"

لكن للأسف، كان الشيخ رجلاً متحفظًا بشكل ملحوظ، مما زاد من إحباطي كصحفية تحاول رسم صورة له. وفي هذا، كان يتبع عن وعي خطوات النبي محمد. كما أنه كان يتجنب تقاليد ثقافة الاعتراف التي تروج لها تقريبًا كل زاوية من زوايا الحضارة الغربية، من أرائك المعالجين النفسيين، في حي ويست ساید في نيويورك، إلى صفحات بروست. وبالنسبة لأكرم، كان الحديث عن الحب والكراهية والتفضيلات والذكريات في العلن شيئًا غريبًا، إن لم يكن مبتذلاً تمامًا. قال ذات مرة: "عندما بدأ محمد الدعوة في جزيرة العرب في القرن السابع، لم يدعُ الناس إلى دينه من خلال الحديث عن نفسه، أو عن صدمات طفولته!" وبالفعل، على الرغم من التوثيق الشامل لأقوال النبي وأفعاله، فإن هناك معلومات قليلة جدًا عن حياته الداخلية،

[٢٨] لم أفهم ماذا تقصد المؤلفة بهذه العبارة؟

بالمعنى الحديث للمصطلح. فقد كتب المؤرخ جوناثان براون: "نحن نشعر بقليل جدًا من أفكاره وصراعاته الداخلية. حتى عندما مات ابنه إبراهيم وذرف النبي الدموع، فوجئ أصحابه، فكان عليه أن يشرح لهم أنه يشعر بالحزن أيضًا لفقدان كهذا".

وكان أكرم قد مات له طفل في الهند. ويتذكر دامريل: "كانت تلك المرة الوحيدة التي رأيت فيها الشيخ يذرف الدموع. ولكن رغم ذلك، كان تركيزه منصباً على الآخرة". وذات مرة، بعد سنوات من الوفاة، استجمعت شجاعتي لأسأله عن الأمر. وتلقيت أقصر الإجابات. وبطريقة نموذجية، لم يتحدث الشيخ عن الحزن، بل عن الله: "إن الله يرسل إلينا هذه القضايا فقط ليختبرنا".

وبالنسبة للطالب الذي رفع يده وسأل عن كيفية التعامل مع المآسي مثل موت طفل، نصحه الشيخ باتباع سنة النبي: "إذا مات ابنك، يمكنك البكاء، ولكن لا يمكنك إحداث ضجيج. لقد بكى النبي عند موت ابنه إبراهيم، لكن دموعه كانت صامتة، وحذر المسلمين من تمزيق ملابسهم، أو العويل، كما كان يفعل العرب الوثنيون".

يشعر معظم المسلمين بحبهم للنبي، لكن المعرفة الواسعة التي اكتسبها أكرم بالحديث النبوي ربطته بالنبي محمد بشكل وثيق. فقد كان أكرم مرتبطًا بالنبي بسلسلة ثقيلة من الروابط الفكرية، إذ إن الحديث النبوي عبارة عن سلسلة من الروايات التي تربط الناس بالنبي عبر الأجيال. ويُعتبر الإسناد نوع من لعبة الهاتف المقدسة التي تمتد عبر القرون من النبي إلى الحاضر. ويحتفظ أكرم بعشرات هذه السلاسل في ذاكرته. أما أقوى إسناده للإمام البخاري، جامع الأحاديث العظيم في القرن التاسع، فهو أقصرها وأقلها عددًا، إذ يتكون من أربعة عشر شخصًا فقط. في أحد اجتماعاتنا بأحد مطاعم الكباب في أكسفورد، حيث كان مشغل الأقراص المدمجة يبث أغنية لمغنٍ إيراني يتغنى بالحب المفقود، تلا أكرم سلسلة الأسماء:

أخبرني أستاذي محمد بن عبد الرزاق الخطيب، أخبره أبو النصر الخطيب، أخبره عبد الله الطلي الشامي، أخبره عبد الغني النابلسي، أخبره نجم الدين محمد الغزي، أخبره بدر الدين محمد الغزي، وأبو الفتح محمد بن عبد الحسن الإسكندري، أخبرته عائشة بنت ابن عبد الهادي، وأبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار، وأبو عبد الله الحسين بن المبارك الزبيدي، وأبو

الوقت عبد الأول بن عيسى الهروي الجزي، أخبره أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد، أخبره المظفر الداودي وأبو محمد عبد الله بن حامية السرخسي. وأبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري أخبره الإمام محمد بن إسماعيل البخاري.

وفي إحدى المرات، أبهر مجموعة من الطلاب بتلاوة سلسلة من الرواة تعود إلى النبي. وأحيانًا، عندما كان يتناول العشاء مع مانحين مهمين لمركز الدراسات الإسلامية، كان يستجيب لطلب المدير بسرد سلسلة أو سلسلتين. وكان المتبرعون في كل مرة يطلبون المزيد، ويقول أكرم: "يندهش الناس حقًا، إذْ لم يعد أحد يفعل هذا الآن".

ويظهر مدى نفوذ أكرم أيضًا من خلال مجموعة الإجازات التي يمتلكها، وهي شهادات يمنحها عالم إسلامي أو شيخ صوفي. فإذا منحك شيخ إجازة في كتاب أو موضوع، فهذا يعني أنك مؤهل لتدريسه. وإذا حصلت على إجازته، فهذا يعني أن لديك إسنادًا يربطك بمعلمك، ثم بمعلم معلمك، وصولاً إلى المؤلف الأصلي للكتاب. وبصورة أكثر عمومية، أصبح هذا يعني التصديق، أو نوعاً من خطاب التوصية. والآن تجاوزت مجموعة الإجازات التي يمتلكها أكرم الخمسمائة، وهو رقم يتزايد كل عام.

ذات مرة، عندما ذهبت في إجازة إلى سوريا، سألني أكرم عما إذا كان بوسعي إحضار إجازة له من مفتي المدينة، تماماً كما يطلب مشجع البيسبول من صديقه أن يشتري له قبعة فريق يانكيز من مانهاتن. فذهبت على الفور إلى مكتب المفتي في دمشق وقدمت له خطاب تعريف من أكرم. وبينما كنت أحتسي الشاي في مكتبه، كان يكتب الإجازة لأكرم، ثم طلب مني أن ألتقط له صورة خلف مكتبه. قال أكرم عندما تذكرت ما حدث: "لقد كان من حسن حظي أنكِ أحضرتِها لي. لقد توفي بعد ذلك بفترة وجيزة!".

وكلما سافرت إلى جنوب آسيا أو الشرق الأوسط، كنت أسأله عما إذا كان يحتاج إلى إجازة من هناك. فقال لي في إحدى رحلاتي الأخيرة: "لا أحتاج إلى إجازة من دلهي. ولكن من جايبور. دعني أرى إن كان هناك أحد هناك".

وأكد لي الشيخ أن النبي محمد كان أكثر مرونة من الفقهاء الذين تبعوه وطوروا الفقه.

"على سبيل المثال، إذا مارس شخص الجنس في نهار رمضان، ففي الشريعة الإسلامية يجب عليه تحرير عبد. وإذا لم يكن لديه عبد لتحريره، فيجب عليه صيام شهرين متتاليين. وإذا لم يتمكن من القيام بذلك، فيجب عليه إطعام ستين شخصًا".

أومأت برأسي موافقة. لم يكن القانون نفسه مألوفًا بالنسبة لي، لكن شدة العقوبة وتفاصيلها في حالة المخالفة كانت متوافقة مع الصورة الشائعة لقانون الشريعة الصارم.

قال أكرم: "جاء رجل إلى النبي في شهر رمضان، وقال له: "هلكت، يجب أن أقتل نفسي". وعندما سأله النبي عن السبب، أوضح الرجل: "عدت إلى المنزل، وكانت زوجتي متزينة وترتدي ثيابًا جميلة، ولم أستطع التحكم في نفسي. فحدث ما حدث. والآن لا أعرف ماذا أفعل. فقال النبي: "حسنًا، هل لديك عبد لتعتقه؟"

الرجل لم يكن يملك عبدًا.

"فقال النبي: "حسنًا، عليك بالصوم المستمر لشهريين"، فقال الرجل: "إذا كان في يوم واحد فقط حدث هذا! فماذا سيحدث لو صمتُ باستمرار؟" فقال النبي: "حسنًا، عليك إطعام ستين مسكينًا".

ولم يكن لدى الرجل طعام يكفي ستين شخصًا.

"فقال له النبي: "حسنًا، ابق هنا"، تابع أكرم. "لحسن الحظ، كان هناك شخص قد أحضر هدية للنبي، تكفي لإطعام ستين شخصًا. فعاد النبي وقال: "خذ، أعط الناس". فقال الرجل: "ليس في المدينة كلها بيت أفقر من بيتي. لا أحد أسوأ حالًا مني".

وهنا ابتسم الشيخ ابتسامة واسعة، وصفع فخذه، وانفجر ضاحكًا.

"فقال النبي: «حسنًا، اذهب فكله»[٢٩].

وكما حدث في كثير من الأحيان عندما تحدث الشيخ عن النبي، كان وصفه واضحاً وحميمياً، وكأن محمداً كان قريباً حياً محترماً، وليس رجلاً مات منذ ألف وأربعمائة عام.

ولكن المشكلة، تابع الشيخ، بعدما توقف عن الضحك: هي أن القانون أصبح مهنة. فكونك مفتيًا أو خبيرًا قانونيًا يمنعك من العودة إلى جوهر الإيمان. ومثل أي مهنة مرموقة لها معاييرها الخاصة للتميُّز، فإن العمل كمفتي مكبل بالتقاليد والهياكل السابقة. وكان الشيخ

[٢٩] يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هلكتُ. قال: "وما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي في رمضان. فقال: هل تجد ما تعتق رقبة؟ " قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا . فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر، فقال: تصدق بهذا. فقال فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، ثم قال: اذهب فأطعمه أهلك " (المترجم)

عازمًا على تجنب التأثير الخانق لما يسمى بالمدارس الفكرية الأربع ـ المالكي والحنبلي والشافعي والحنفي- وكل منها سميت باسم الفقيه الذي أسسها. هذه الهياكل القانونية، التي تتراوح من المدرسة الحنفية المنفتحة نسبيًا، التي تشيع في جنوب آسيا، إلى المدرسة الحنبلية الأكثر صرامة، الشائعة في شبه الجزيرة العربية ـ شجعت في كثير من الأحيان الانقسامات في المجتمع الإسلامي وصرفت انتباه الناس عن جوهر الإسلام إلى اختلافات تافهة. وفي كثير من الأحيان، كان الفقه يتطلب ببساطة أن يتفق المرء أو يختلف مع الفقهاء السابقين، وليس استكشاف إمكانيات أخرى. بمجرد أن يكون لديك نظام، عليك أن تفكر في داخله. وهذا صحيح في الطب، حيث لا تريد شركات الأدوية أن يتطلع الناس إلى العلاج بالطب البديل. وبالمثل، فإن توسع الفقه يمنع الناسَ من العودة إلى القرآن وسنة النبي".

لقد خطرت لي فجأة صورة غريبة لأكرم وهو يجلس في مقهى في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وكأنه يرتدي خرزاً، بشعر طويل، ويحمل شهادة الدكتوراه من جامعة بيركلي. فإذا أغمضت عينيك واستمعت إليه وهو يهاجم الأنظمة، فسوف تجده منسجماً مع هذه الصورة.

لقد كان هناك نوع من الذكورية مرتبطة بالفقه لم تكن موجودة في الأحاديث النبوية. فقال وهو يلوح بقبضتيه ويثني ذراعيه مثل رجل السيرك القوي: "يعتقد الكثير من المسلمين أن الفقه يجعلك قويًا. لكن كل هذه القواعد تؤدي إلى التطرف، في حين أن القرآن وسنة النبي يهدفان إلى تعليم الناس الاعتدال".

توقف للحظة ثم قال: "كلما قرأت القرآن أكثر، وكلما فكرت فيه أكثر، كلما ازداد اقتناعي بأن السبيل الوحيد هو العودة إلى القرآن والحديث". وبدت جبهته أقل توترًا، وقال: إن اختلاف الآراء في مثل هذه القضايا أمر مفهوم. ويجب اتباع القواعد المنصوص عليها بوضوح في القرآن والسنة، ولكن فيما يتعلق باختلاف الفقهاء، فإن المرء حر في اختياره. واختتم حديثه قائلا: "هناك العديد من الاختلافات بين المسلمين، ومع ذلك فإننا ما زلنا على قيد الحياة".

إن الاختلافات داخل الأمة ساعدت الإسلام على الازدهار. فقد كانت بساطة مبادئه سبباً في انتشاره من شبه الجزيرة العربية إلى آسيا في غضون عقود من ميلاده. إن مرونة الإسلام هي أحد الأسباب التي جعلته يزدهر في كل مكان؛ من الريف الأفريقي إلى بيوت بروكلين. لكن

هذه المرونة خُطَّ عليها ثمنها، لأنها تعني أن الممارسات غير المرتبطة بالدين كثيراً ما تُلحق وتُدمج به وكأنها عبادات إسلامية". وعندما سألت أكرم عن السبب وراء انتشار ممارسات مثل ختان الإناث على نطاق واسع في المجتمعات الإسلامية في أفريقيا؟ قال "إن الإسلام يتسامح مع العادات المحلية طالما أنها لا تتعارض مع جوهر الدين. أما إذا كانت هذه الممارسات تؤذي الناس، فتلك مسألة أخرى".

لقد نشأ أكرم متشبعًا بثقافة قريته وبإيمانه. وفي بعض الأحيان، كنت أحسده. فهو لم يذهب يومًا إلى السينما، ولم يكن له أصدقاء هندوس. لكن على مدار رحلتنا التي استمرت عامًا كاملًا، بدأت أشك في أنه أكثر عالميّة مني. كان تقواه ومعرفته العميقة بتراثه كمسلم هندي ليستا بالضرورة عوائق، بل مرساة. أما هويتي، الثقافية والدينية على حد سواء، فكانت أشبه برقع مختلفة. فعندما كان أكرم مهمومًا بتحول الإسلام إلى مجرد هوية لكثير من المسلمين، مسألة عشائرية وموضة أكثر من كونه تقوى، كنت أرى نفسي في كلامه، بل وأكثر. فقد كانت هويتي تستند ليس على النقاء أو الوحدة، بل على المزيج المتنوع. وبصفتي علمانية عالمية، كانت جذوري في كل مكان ولا مكان: كنت في الغرب الأوسط مع خبرة من الشرق الأوسط، ومتزوجة من زوج بريطاني، لكني أربي أطفالاً يحملون وجهات نظر أنجلو أميركية.

ومع نمو شهرته في بريطانيا، اجتذب أكرم العديد من الطلاب المتحمسين، من الرجال والنساء الذين يستيقظون في عطلات نهاية الأسبوع لركوب القطارات في الساعة السادسة صباحاً، أو الذين يتجمعون في سيارات مشتركة في فجر بريطاني رمادي ليقطعوا طول الجزيرة لسماع حديثه. في السنوات الأولى، عندما كان الطلاب يأتون فرادى أو مجموعات، كان يدرس من غرفة معيشته في أكسفورد، وكان يبدأ غالباً بعد صلاة الفجر مباشرة. وبحلول الوقت الذي بدأت فيه الدراسة معه، كان بإمكانه أن يملأ قاعة محاضرات.

وفي عطلات نهاية الأسبوع، لم تكن محاضراته "الرحلة العظيمة"- وهي سلسلة عن القرآن تُعقد في كامبريدج- مجرد محاضرات تستمر ثماني ساعات، بل كانت نزهات عائلية. كانت الأمهات يهدهدن أطفالهن. وإذا سمح الطقس، كان الأولاد يلعبون الكريكيت في الخارج. وكان بإمكانك شراء برياني أو خبز فرنسي بثلاثة جنيهات في وقت الغداء، وكانت هناك دائماً

طاولات مخصصة للبسكويت والشاي، واحدة عند مدخل السيدات، والأخرى عند مدخل الرجال. وفي المحاضرة الأولى ، تجاهلتُ هذا التمييز، عندما رأيت شقيق أكرم "مزمل" ينتظر في الطابور للحصول على الشاي، قفزت نحوه لأتحدث معه. فلما وصلت إلى مقدمة الطابور وكنت على وشك أن أمد يدي لأخذ كوب شاي، أشار رجل مبتسم إلى طابور آخر عبر القاعة. وقال: "ذاك للأخوات!".

وكان طلاب الشيخ هؤلاء، الذين كانوا يشيرون إلى بعضهم البعض بـ "بالإخوة والأخوات"، يتمتعون بلطف ملحوظ وجدية في العزم. وكانت هناك طبيبة العيون الشابة التي أخبرت رئيسها بوضوح أنها لن تذهب إلى العمل أيام السبت التي تقام فيها "الرحلة العظيمة". كما كانت هناك امرأة أخرى تدعى "ثمينة" تقود سيارتها لساعات من مدينة "هيرتس" وتوزع بانتظام حلوى "إم آند إمز" على الأخوات لمساعدتهن على البقاء نشيطات.

وقبل أوقات الصلاة، عندما كانت حمامات قاعة المحاضرات مزدحمة بالنساء اللواتي يقمن بالوضوء، كان الجو مفعمًا بالودية والتعاون، حيث كانت النساء يتجمعن لغسل أقدامهن ووجوههن في المتوضّأ. كنت أضع أحمر الشفاه بينما كن يقمن بالوضوء، وأتصل بالمنزل للاطمئنان على الأطفال أثناء الصلاة. ولم يُبدِ زملائي في الفصل أي انزعاج من وجود شخص غير مسلم في الدرس، بل على العكس من ذلك تمامًا: كنَّ فضوليّات بشأن الكتاب الذي أكتبه، ومتحمساتٍ لمشاركة آرائهم حول الشيخ.

وفي أحد أيام السبت، الْتقيت بثلاث شقيقات، لم يرغبن في ذكر أسمائهن، لكنهن جميعاً أردن أن يشرحن لماذا كانت محاضرات أكرم مختلفة إلى هذا الحد عن أي محاضرات أخرى حضرنها. ففي حين رفض العديد من العلماء تلقي أسئلة من الحضور، رحب الشيخ بها. قالت إحداهن، وهي امرأة صغيرة الحجم في الثلاثينيات من عمرها: "رسالته أكثر إيجابية وروحانية من الأشياء التي نشأنا عليها". كما لم يكن لديها الوقت لحضور المحاضرات الإسلامية منذ ولادة أطفالها. وتذكر أنها في تسعينيات القرن العشرين، وجدَتْ أنَّ الأجواء في دائرة المحاضرات الإسلامية كانت أكثر غضبًا من أجواء الشيخ. قالت: "كان هناك سلبية عامة، كما لو كان الناس يحاولون فرض أيديولوجية ما. كانت هناك النبرة الانتقادية، والكثير من جنون العظمة. كان هناك: "هم" و"نحن". أخبرونا أنه لا ينبغي لنا أن نندمج. كانوا يتحدثون عن

الجهاد والكفار. كانت عقلية الهجرة قد تسببت في انعزاليتنا، وكنت أعلم أنها كانت تشويهاً، لكن في ذلك الوقت، كنت جديدة على كل هذا، ولم يكن لدي الثقة للتحدث".

لذلك كانت تأمل أن يفعل أطفالها ذلك. لقد نَجَحتْ للتو في إقناع زوجها، وهو من مشجعي لعبة الكريكيت، بالتخلي عن مبارياته يوم السبت حتى تتمكن الأسرة بأكملها من حضور ندوات الشيخ.

كان الجمهور الذي اجتذبه الشيخ يشبه إلى حد كبير الأخوات الثلاث: فتيات صغيرات، متعلمات تعليماً جيداً، من مواليد بريطانيا، يرغبن في التحرر من الأعباء الثقافية التي جلبها آباؤهن أو أجدادهن من البلاد الأصلية. وكان طلابه يرغبون في التعلم عن الإسلام استناداً إلى النصوص، وليس عادات البنجاب أو جوجارات. وكانوا حريصين على فصل "الثقافة" عن الشريعة. وكانت "الثقافة" هي الكلمة التي كنت أسمعها كلما أشار أي شخص إلى أي ممارسة تسللت مع مرور الوقت وتجمدت في الشريعة الدينية. ختان الإناث؛ وارتداء الطواقي أثناء الصلاة؛ والحجاب، وعزل النساء عن أنظار العامة... لقد سمعت كل هذه الأشياء تُرفض باعتبارها "ثقافة، وليست إسلاماً!".

وفي أحد الأيام، التقيت باثنتين من طالبات أكرم المتميزات لتناول الشاي والكعك. كانت كل من أرزو أحمد، ومهرونيشا سليمان، أو مهرون اختصاراً، في العشرينيات من العمر، وقد بدأتا في حضور دروسه في عطلات نهاية الأسبوع منذ عام ٢٠٠٥ ولم تتوقفا منذ ذلك الحين. وسرعان ما وصلت خبرتهما إلى المستوى الذي يسمح لهما بخوض امتحانات على مستوى المدارس الدينية، وهو ما قال الشيخ إنه سيجعلهما عالمتين.

كانت المرأتان موهوبتين في المناهج العلمانية أيضًا. حصلت مهرون على درجة في علم وظائف الأعضاء من كامبريدج، ودرجة الماجستير في علوم الصحة العالمية من أكسفورد، وكانت تسعى للحصول على درجة الدكتوراه في أخلاقيات البحث السريري. أما أرزو فقد حصلت على درجتين من أكسفورد: واحدة في الفيزياء، والثانية في الفكر العربي في العصور الوسطى. تقاسمتا شقة في أكسفورد، فضلاً عن الدفء المعدي والثقة الواضحة، عندما التقيت بهما لتناول الشاي والكعك في متحف أشموليان، كانتا في حالة من الإثارة الجادة بشأن الشيخ. "إنه جوهرة"، كما قالت أرزو. وعندما ذكرت أنني التقيت به لأول مرة في عام ١٩٩١،

اتسعت عيناها اللامعتان، وأضاءت ابتسامة وجهها الجميل المستدير، وتنهدت قائلة: "أنت محظوظة للغاية! ما أروع ذلك!"

لقد تطور أسلوب الشيخ في التدريس على مر السنين التي درسنا فيها معه. ففي أثناء دروسه الأولى في لندن، كان يدرّس بأسلوب المدرسة التقليدية: فكان يقرأ الحديث بصوت عالٍ باللغة العربية ويشرح بعض المصطلحات. وفي إحدى دروس الفقه، كان يستعرض العمل الفقهي للعلماء بتفصيل كبير، ويشرح الأسباب وراء فتاوى العلماء.

"كانت تلك الدروس مسلية للغاية"، هكذا قالت أرزو. وأضافت مهرون: "كان الأولاد يطرحون أسئلة مضحكة".

كان هناك العديد من الأسئلة الغريبة حول الوضوء، والطهارة، مثل: "عندما تكون في الماء، في البحر، وحان وقت الصلاة، كيف تتوضأ؟" قالت مهرون وهي تهز رأسها ببطء وتبتسم. "مثل: هل يجب أن تخرج وتقفز مرة أخرى للقيام بالوضوء؟ كان الأمر مضحكًا" "لكن لم يقل أبدًا: "يا له من سؤال سخيف!". قالت أرزو.

لقد توقف جمهور "ماذا لو؟" عن الحضور تدريجيا مع طول الدروس. ولكن بعد عامين، تغير إيقاع الدروس. فقد دخل الشيخ إلى الفصل في اليوم الأول بعد العطلة الصيفية وقال: "لن نركز على قراءة الكتاب، ولن نركز حتى على إنهاء الفصل؛ سأقوم بمراجعة هذا الكتاب، وأشرح لماذا كُتبت الأحاديث بهذه الطريقة، ولماذا وُضعت الأحاديث في ترتيب معين".

وقد سمح النهج الجديد للطلاب بإعادة النظر في تقاليدهم بعيون جديدة. تقول أرزو: "لا يمكنك أن تجد مثل هذا النوع من المناقشات في أي مكان، لا في الكتب المدرسية، ولا في المدارس الدينية".

أضافت مهرون: "لقد أذهلنا ذلك. فقد اعتقد أنه يستطيع أن يثق بنا للوصول إلى هذا المستوى من المعرفة". عندما تناولوا البخاري، أحد كتب الحديث الستة العظيمة، انحرف الشيخ عن مجرد دراسة أقوال وأفعال النبي، كما قالت مهرون، وضغط على الطلاب لاكتشاف البناء المعقد للعمل نفسه. لقد ذكّرتني الأسئلة التي طرحها حول النصوص - لماذا تم تضمين هذا العالم؟ لماذا تم استبعاد هذا الحديث؟ - بدروسي الجامعية في الأدب حول التفكيك.

كان الشيخ يُعَلِّم بطريقة مختلفة ليس فقط عن دروسه السابقة، بل وعن تدريبه الشخصي. فقد تخلى عن كل الأساليب التي تعلمها في ندوة لكناو، وركز بدلاً من ذلك على التفكير

الجديد. يقول أرزو: "كان يؤكد باستمرار: "أريد أن أعلمكم أدوات التعلم، حتى تتمكنوا من تعلم التفكير بأنفسكم، والتوصل إلى هذه النتائج الجديدة بأنفسكم". "قال: "لا أستطيع أن أعلمكم كل شيء، لكنني أستطيع أن أعلمكم كيف تفكرون، وإذا كنت أعلم أنكم في المرحلة التي تستطيعون فيها التفكير من خلال حججكم، واستخدام المصادر بشكل صحيح، فسوف تضطرون إلى المغادرة واكتشاف كل الأشياء التي لم أعلمكم إياها".

إن منتقدي الإسلام يزعمون في كثير من الأحيان أن الإسلام يخنق التفكير. وقد اشتدت حدة هذه الانتقادات بشكل خاص أثناء الجدل الدائر حول كتاب "آيات شيطانية"، بعد فتوى آية الله الخميني ضد سلمان رشدي. وكتبت الكاتبة البريطانية فاي ويلدون: "إن القرآن، على النقيض من الكتاب المقدس، يقدم طعاماً لا يحتاج إلى تفكير. فهو ليس قصيدة شعرية يمكن أن يستند إليها المجتمع بأمان وعقلانية. إنه يحظر التغيير، والتفسير، ومعرفة الذات، وحتى الفن، خوفاً من أن يدوس المرء على أصابع الله الإبداعية"[٣٠].

ولكن النبي محمد كان حريصاً على إخبار أصحابه بأن الإيمان الأعمى، دون تفكير أو عمل، لا يكفي. ففي حكاية شهيرة، صادف محمد بدوياً يبتعد عن ناقته، بعد أن أهمل ربطها. وعندما سأل الرجل لماذا لم يربطها، قال الرجل: "لقد توكلت على الله". وكان رد محمد مقتضباً: "أعقلها أولاً، ثم توكل على الله".

ولقد كان الشيخ يخبر طلابه مراراً وتكراراً أن الاتِّباع الأعمى يتعارض مع روح الإسلام. إذ يتعين على المسلمين أن يفكروا بأنفسهم حتى وهم يخضعون لحقيقة واحدة، ولرسالة أبدية واحدة. وكان يشجع طلابه على التفكير بطريقة مختلفة عنه ـ طالما أنهم يربطون حججهم بالمصادر الكلاسيكية. وفي بعض الأحيان كان اقتراحه يصدم بعض العلماء، الأقل مرونة، بأن على المسلمين تجاوز المذاهب الأربعة في الإسلام والعودة مباشرة إلى القرآن والسنة النبوية. بل إنه كان يكمل معرفته الشاملة بالمصادر الإسلامية بمجموعة واسعة، وإن كانت انتقائية، من الكتب الغربية، بدءًا من المستشرقين البريطانيين في القرن التاسع عشر إلى نيتشه وسارتر في القرن العشرين.

---

[٣٠] تلاحظون أن منتقدي الإسلام يقولون أي شيء وبدون أي تفكير، فالكاتبة تزعم أن قصائد الشعراء تُبنى عليها المجتمعات! (المترجم)

ولكن بعد ذلك، كانت حياة أكرم بمثابة رحلة بارعة بين التقاليد والاستكشاف. ورغم أنه نشأ في ثقافة هندية إسلامية، فقد صنع لنفسه اسماً من خلال تعليم المسلمين البريطانيين. ورغم أنه نشأ في منزل يفرض الفصل الصارم بين الجنسين، فقد أنتج أبحاثاً تاريخية قوضت هذا التقليد ذاته. ولم أبدأ في رؤية كيف رسخت إيمانه حتى أثناء دفعه إلى العالم الخارجي إلا عندما تبعته إلى الهند، إلى قريته الأصلية ومدرسته الأم.

(٤)

رحلة برية إلى المدرسة الهندية

إذا كان الشيخ يعتقد أن العودة إلى المصادر الأصلية تشكّل عنصراً أساسياً لفهم الإسلام، فقد كنت آمل أن تساعدني العودة إلى بلدته الأصلية أن تشكّل عنصراً أساسياً لفهم شخصيته. ولكي أرى كيف نشأ فتى من قرية أوتار براديش ليصبح عالمًا من علماء أكسفورد، فقد رافقت الشيخ عندما عاد إلى قريته الأصلية ومدينة لكناو الحبيبة. وعندما سألته عما إذا كان بوسعي أن أرافقه في رحلته، وافق، طالما أنني أستطيع التعامل مع "المراحيض الشرقية"، وأُلْقي خطابًا في المدرسة التي بناها في مسقط رأسه في جمداهان.

لقد توجهت إلى الهند، وهبطت هناك بعد أيام قليلة من وصول أكرم. وفي اليوم السابق لرحلتي من لكناو إلى قريته، ذكّرني أكرم، ثلاث مرات على الأقل، بألا أفوِّت قطار "دوون إكسبريس" الذي ينطلق الساعة ٨:٤٥ صباحاً من دهرادون. كان هناك قطار واحد في ذلك اليوم يتوقف في لكناو قبل أن يتجه بالقرب من قرية جمدهان، وكان قطار دوون إكسبريس هو ذلك القطار. إن تفويت القطار يعني تفويت أول رحلة يقوم بها الشيخ إلى منزل طفولته منذ أربع سنوات. وهذا يعني تفويت فرصة مقابلة والديه ورؤية الحقول التي كان أجداده يزرعون فيها الشعير وقصب السكر، تماماً كما فعل أسلافهم في عهد البريطانيين، وعهد المغول.

لذا، حرصت على ركوب قطار دوون، ومرت الساعات السبع بسرعة، وكان من الأسباب الرئيسية لذلك أنني شعرت بالمتعة المطلقة من كل شيء، حتى من قولي "إنني على متن القطار من دهرادون"، وهي جملة تذكرني بـ "روديارد كبلينج"، أو فيلم مغامرات لبوب هوب وبينغ كروسبي. وبينما كنت أسترخي على السرير السفلي في عربة النوم، كنت أشاهد ولاية أوتار براديش من خلال نافذة متسخة للغاية، لدرجة أن الحقول الخضراء بدت محببة ومائلة إلى اللون البني، مثل صورة فوتوغرافية تعود إلى القرن التاسع عشر. وفي منتصف الرحلة، أجبرت نفسي على الجلوس على جهاز الآيباد الخاص بي: كان لدي خطاب ينتظرني في المدرسة يجب أن أكتبه. وعندما سألت أكرم عن الموضوع الذي ينبغي أن يكون عليه الخطاب، كان غامضاً بشكل غير مفيد: "فقط أخبريني كم أنتِ سعيدة لوجودكِ هناك!".

كانت القطارات الهندية أماكن اجتماعية شرسة، لذا كتبت ببطء. أراد الحمال أن يتبادل الحديث: كان من مشجعي فريق مانشستر يونايتد، أو على الأقل من مشجعي عبارة "مانشستر يونايتد". كانت السيدة السمينة الجالسة في السرير المقابل معجبة بسوارتي، وكانت تلتقط الصور على هاتفها لتعرضها على صائغها. كانت كل محطة تشهد موكبًا من الرجال يحملون صواني من الصفيح، ويقدمون الشاي والوجبات الخفيفة المقلية.

كانت الرحلة ذات تناسق شعري. فالسفر لمدة يوم عبر مساحة شاسعة من شبه القارة الهندية، لزيارة أحد الشيوخ، هو نفس نوع الرحلات التي كنا نبحث عنها أنا وأكرم عندما التقينا لأول مرة. ففي أكسفورد، قضينا أيامنا في تتبع المسارات الفكرية والجغرافية لعلماء جنوب آسيا. وكنا ننقب في كتب التاريخ ومعاجم السِّيَر، ونرسم الروابط بين الرجال والمدن، وبين العلماء والمساجد، وبين المساجد والمدارس الدينية. فقد وصل الإسلام إلى جنوب آسيا في أوائل القرن السابع، على يد جيش من العرب تحت قيادة جنرال يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، هو محمد بن قاسم. وفي وقت لاحق، انتشر الإسلام من خلال التجارة، والعلماء الرحالة، والصوفيين.

وعلى مدى عامين عملتُ فيهما مع فريق الشيخ، كانت مهمتي مسح السجلات البريطانية في القرن التاسع عشر في جنوب آسيا، بحثاً عن أي ذكر لأي شيخ أو قديس أو مسجد أو ضريح صوفي. لقد أثبتت الأشهر التي قضيتها في قراءة الصفحات المهترئة المصفرّة من المسوحات الأثرية للهند البريطانية أن رجال أكسفورد وكامبريدج الذين أُرسِلوا لحكم شبه القارة لن يكونوا شيئًا مذكورًا إنْ لم يكونوا دقيقين. فالواجب، والحماسة الفيكتورية للتصنيف، والحماس الحقيقي للهند- أحياناً- كان يدفع هؤلاء الضباط الاستعماريين ألا يغفلوا عن أي شيء؛ إذْ كانوا يوضحون بدقة كل طبقة وطبقة فرعية من الهنود، حتى أنهم لاحظوا أصغر قرية بنجابية وأبعد مدينة على تلال الهيمالايا. وسرعان ما أصبحت جدران غرفة الأطلس مليئة بالخرائط المغطاة بما يشبه شباك العنكبوت من الصلات. وكانت هذه الخرائط تتتبع رحلات تلاميذ الشيوخ الذين انتشروا في مختلف أنحاء المنطقة، وبنوا مدارسهم ومساجدهم الخاصة. وكانت الخرائط على طول المحيط الهندي تمتلئ بالسهام الحمراء التي توضح كيف أبحر التجار العرب لشراء التوابل والحرير، حاملين معهم الدين الجديد. كما توضح الطرق التي سلكها العلماء الهنود الذين ذهبوا غرباً للدراسة مع كبار شيوخ بغداد والقاهرة ودمشق، والذين ذهبوا

شمالاً إلى سمرقند وبخارى. وفي نهاية المطاف، عاد العديد منهم إلى مدنهم الأصلية، وأنشأوا مدارس دينية لتعليم الشباب المحليين ما تعلموه في المدن الكبرى.

وبالمال الذي كسبه في أكسفورد، واصل أكرم هذا التقليد، فبنى مدرستين دينيتين في قريته، واحدة للأولاد وأخرى للبنات. وكان الشيخ أول شخص في تاريخ جمدهان يصل إلى ندوة العلماء المرموقة في لكناو، وكان يريد إعداد الأولاد المحليين لمتابعته هناك. وفي غضون ست سنوات، أرسلت مدرسته اثني عشر طالباً إلى ندوة العلماء، وهو أمر مثير للإعجاب بالنسبة لقرية نائية يبلغ عدد سكانها ثلاثة وثلاثين ألف نسمة. وساعد معدل النجاح في ظهور جمدهان على الخريطة. فقد قال لي: "عندما ذهبت لأول مرة إلى لكناو، اعتدت أن أخبر الناس أنني من جونبور أقرب مدينة مشهورة إلى جمدهان. أما الآن، فأستطيع أن أقول إنني من جمدهان".

لقد مشيت مترددة نحو جمدهان، وأنا أتناول السمبوسة الرطبة التي أهدتني إياها السيدة التي أعجبت بسواري. وتساءلت عما ينبغي لي أن أقوله في خطابي، بعيداً عن الموضوع الواضح حول أهمية التفاهم الثقافي المتبادل. ولقد بدا الأمر لي وكأنني أبيع الماء في حارة السَّقّايين، عندما أحاضر الهنود بالذات حول دمج الثقافات والتسامح مع الأديان المتباينة. فالمتعصبون في جنوب آسيا الذين ينادون بإقامة الهند تحت حكم القيم "الهندوسية"، أو بالإسلام "الخالص"، يتجاهلون التاريخ الطويل لشبه القارة الهندية من الاختلاط الثقافي. فقد جاء أهل آسيا الوسطى، والعرب، والبرتغاليون، والفرنسيون، والهولنديون، والبريطانيون ـ جميعهم للتجارة والحكم، وتمكنت الهند من إيجاد مساحة كافية لكل تأثيراتهم الثقافية. وخلال فتراتها الأكثر ثقة، كان الإسلام في جنوب آسيا متوسعاً ومنفتحاً، حيث استوعب التأثيرات من الغرب والشرق على حد سواء. وقد أدت قرون من العيش جنباً إلى جنب مع الهندوس إلى تعزيز ثقافة إسلامية قوامها الأولياء والأضرحة، وازدهرت جنباً إلى جنب مع المدارس الدينية الأرثوذكسية. ولقد أسس الإمبراطور المسلم "جلال الدين أكبر" ديناً خاصاً به كان يهدف إلى نسج أفضل عناصر الديانات المختلفة في جنوب آسيا. وحتى اللغة الأردية، لغة المسلمين في جنوب آسيا، هي مزيج من اللغة العربية والهندية والفارسية. ولقد اشتبهت في أن أحد الأسباب التي جعلت الشيخ يشعر بالارتياح إلى هذا الحد في التعامل مع العالم هو أن العالم كان يأتي دوماً إلى الهند.

لقد استقبلني في المحطة مجموعة من الرجال المبتسمين من جمداهان بقيادة "مزمل" شقيق أكرم. كان مزمل أصغر من شقيقه بخمسة عشر عامًا، وكان وسيمًا مثل نجوم بوليوود[٣١]. وكانت أسنانه لامعة، وبياض قميصه الطويل الفضفاض يبهر العيون ـ وربما كان هذا هو السبب وراء ارتدائه نظارة شمسية كبيرة الحجم. وكان مع مزمل شاه نواز علم، رئيس مدرسة أكرم، الذي كانت عظام وجنتيه المرتفعة تشير إلى أصوله من آسيا الوسطى، وكانت لحيته الحمراء المحنّاة تميزه بأنه من قدامى الحجاج إلى مكة.

ركبنا سيارة استعرناها خصيصاً لهذه المناسبة، وخرجنا من المدينة وسرنا على طرق ضيقة مليئة بالغبار. وعلى جانبي الطريق كانت هناك أراضٍ زراعية خصبة، ومررنا بحقول الأرز الزمردية، ومنازل الطوب الوردية، وحقول الخردل. كان مزمل يدور حول المقعد الأمامي ليتحدث. ومثل أخيه الأكبر، كان يعيش في بريطانيا، حيث كان يُعلّم في مدرسة دينية في سلاو. وقال إن طلابه المراهقين المولودين في بريطانيا كانوا أكفاء بما فيه الكفاية، لكنهم لم يكونوا محترمين مثل الهنود. وقال بأسف: "إنهم يلقبونني "طازة" بسبب لهجتي التي تشي بأنني جئت حديثًا من الهند".

وصلنا إلى المدرسة، وهي عبارة عن مجمع أبيض أنيق مزين بزخارف فيروزية. وفي الداخل كان هناك مبنى من طابقين به سلسلة من الفصول الدراسية. كانت الزخارف بسيطة، لكن الفناء المجاور للمسجد، المظلل بأشجار الشُّرِّيش، خفف من تأثيرها. وعلى الطريق الرئيسي، تجمع عدد من الطلاب حول "مقصف" المدرسة، وهو كوخ من أوراق النخيل والخيزران يبيع الحلوى والوجبات الخفيفة المقلية. قال لي مزمل: إن ظروف معيشتهم ضئيلة، ولا توجد مساكن، لذا ينام الطلاب على أرضيات الفصول الدراسية ليلاً.

وكان الشيخ قد أدرج دروسًا قياسية في اللغة العربية، والقرآن، والفقه الإسلامي، بالإضافة إلى دروس في اللغة الإنجليزية، في خروج عن مناهج التقليدية. وعلى الرغم من الظروف المتقشفة، فقد كان للمدرسة سجل مثير للإعجاب: خمسة وستون حافظًا يحفظون القرآن بالكامل.

قلت لشاه نواز: " كل هذا في ثماني سنوات! لا يجب أن تنام كثيرًا !"

[٣١] بوليود جزء من صناعة السينما الهندية، تقع في مدينة مومباي بالهند.

" إذا نمت" ابتسم مثل الذئب، "هل سيكون لدي تسعة أطفال!؟"

لقد أدخلني إلى قاعة دراسية مجهزة بحاملات للقرآن، لمنعه من ملامسة الأرض، وخمس ساعات، كل منها تشير إلى وقت صلاة ذلك اليوم. (تتغير أوقات الصلاة، المرتبطة بموقع الشمس في السماء يوميًا). كانت مروحة السقف تهب في الهواء الكثيف، وتعمل بواسطة مولد كهربائي أحضر خصيصًا لزيارتي. وصل الشيخ، وكان يبدو عليه الانزعاج على غير عادته، وكان يتبعه جميع أعضاء هيئة التدريس في المدرسة. كان هناك نصف دزينة من الشباب، يبتسمون بخجل، ويهزون رؤوسهم، ويجلسون على الأرض في مواجهتي. وصل أحد الطلاب ومعه صينية محملة بالتمر والبسكويت وعلبة مشروب الطاقة "ردبول". قدم لي شاه نواز هدية ملفوفة بشكل متقن من أمناء المدرسة - سيرة النبي محمد - مع بطاقة موجهة إلى "السيدة المحترمة كارلا باور، الصحافية الأمريكية الشهيرة". حثني مزمل على الراحة. لقد سافرتُ لمدة تسع ساعات، وكان الجو حارًا، ومن المقرر أن أقدم خطابي بعد صلاة العشاء مباشرة.

* * *

ولم تكن الهدايا ومشروبات الردبول من بين الترحيبات التي يتوقعها أغلب الأميركيين من المدارس الدينية. فبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عَرِف الغربيون كلمة "مدرسة" باعتبارها مكاناً يتأرجح فيه الصبية ذوو العيون الباهتة ذهاباً وإياباً، وهم يرتلون القرآن عن ظهر قلب. وكانت المدارس الدينية تُعَد مصانع للجهاد حيث يتم تعليم المسلمين البسطاء كراهية الغرب. ومثلي كمثل العديد من الصحافيين الآخرين، الذين كتبوا التقارير عن التطرف في باكستان على مدى العقدين الماضيين، زرت "المدرسة الحقانية" سيئة السمعة، التي تعتبر المدرسة الأم التي خَرَّجتْ العديد من الجهاديين وزعماء طالبان. وفي أواخر تسعينيات القرن العشرين، كان الأساتذة في مدرسة الحقانية، التي يديرها رجل الدين والسياسي المعروف بحنكته الإعلامية "سميع الحق" يقذفون بكل لطف اقتباسات على ضرورة الجهاد المسلح في أفغانستان، والمعاملات الفاسدة التي تقوم بها القوى الغربية، وصلاحية نضال أسامة بن لادن.

ولكن العديد من المدارس الدينية تعمل على تقويض هذه الصور النمطية الآن. فقد عُلِّق إعلان في سوق لكناو عن دروس اللغة الإنجليزية، بـ"عروض جذابة لطلاب المدارس الدينية"، ورُسم عليه صورة لعلم أميركي يرفرف في الهواء. وكان الشيخ قد رتب لي ذات يوم

زيارة مدرسة دينية في غرب يوركشاير، في قلب بلاد برونتي[٣٢]، حيث الجدران المصنوعة من ألواح الأردواز الرمادية والمستنقعات التي تعصف بها الرياح. وكانت الأجواء تذكرني بنسخة إسلامية من التربية المسيحية القوية التي تخيلت أن الأخوات برونتي ربما كن يتمتعن بها في بيت والدهن. وكانت الفتيات المحجبات يرتدين عباءات طويلة، ويمشين في أزواج عبر التلال الموحلة ويضحكن بهدوء في مساكن الطلبة النظيفة ناصعة البياض.

ولكن ليس كل المدارس الدينية مبنية على التلقين والحفظ واليقين الجامد. ففي نيو مكسيكو كنت قد شاهدت فصلاً دراسياً في مركز إسلامي بني من الطين. وكان الشيخ حمزة يوسف، المولود في كاليفورنيا، يوجه الفصل من خلال نص كتبه عالم مصري من القرن الثامن، ويعرض على الطلاب دعواته إلى التسامح والتعددية بقوله: "نحن نقول في النهاية: "الله أعلم"، حيث لا تكون المعرفة الحاسمة بشأن مسألة ما واضحة لنا".

وخلال تناولنا التاكو في مقهى مجاور، كان حمزة يوسف، وهو راكب أمواج سابق ذو لحية خِنجرية، يشكو من تدهور نظام المدارس الدينية التقليدية. فقد حدث قدر كبير من الفساد في ظل الحكم الاستعماري الأوروبي، إذ اعتبرت المدارس الدينية الإسلامية من بقايا عصر ما قبل الحداثة، تعيق تقدم وانتشار القيم المسيحية. ومع تدهور التعليم التقليدي في المدارس الدينية تآكل الأدب والسلوك الفكري الرفيع. وبحلول أواخر القرن العشرين، تم إغراق صوت المعتدلين الهادئ بصوت المتطرفين الصاخب. وكان يوسف قد عمل بجد لمواجهة مثل هذه الأصوات ـ سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة. وعندما دُعي إلى البيت الأبيض بعد الهجمات على مركز التجارة العالمي، أحضر للرئيس جورج دبليو بوش نسخة من القرآن مليئة بأوراق الملاحظات.

بعد صلاة العصر، رافقني مزمل إلى الفناء وأشار لي بالجلوس في صف من الكراسي ذات الظهر المستقيم في مواجهة الجمهور. كان هناك عنزة تتجول في الفناء، وتشم رائحة نبات الجهنمية. ابتسمت بشجاعة لحشد الشباب الذين يلتقطون صورتي على هواتفهم المحمولة. لم يُسمح لي بالرد بالمثل، على الرغم من رغبتي في ذلك: فقد طلب مني أكرم بعصبية الامتناع عن

[٣٢] تقصد أن المدرسة تقع في مكان يشبه المكان الذي كانت تعيش فيه برونتي وأخواتها، وهن كاتبات إنكليزيات كن يعشن في منطقة معروفة بمناظرها الطبيعية الريفية والتلال الوعرة (المترجم).

ذلك. لذا جلست، ويداي مطويتان في حجري، وشاهدت الجمهور يملأ صفوف الكراسي البلاستيكية الحمراء. كان المزارعون يتوافدون من الحقول مرتدين الدوتي البيضاء والعمائم. وكان أصحاب المتاجر يرتدون قمصانًا بأكمام ويجلسون بثبات. رحب الشيخ بالشخصيات البارزة المحلية، الذين سُمح لهم بصفتهم ضيوف شرف بالانضمام إلي المنصة، مواجهين الجمهور: رئيس بلدية جمدهان، وطبيب، وعم أكرم، الذي كان ذات يوم مساعدًا لقاضي المحكمة العليا في بومباي. ملأ الجمهور كل المقاعد، مما أسعد الشيخ كثيرًا. وهمس لي قائلاً: "في آخر مرة نظمت فيها المدرسة برنامجًا، لم يأتِ سوى عدد قليل من الناس. هذه المرة، يستمرون في السؤال عن موعد بدء البرنامج".

لقد كنت غريبة في المدرسة الدينية، لكنني بدأت أستمتع بذلك. فأنا أحب أن أكون الشخص المختلف، فقد تعلمت، بشكل مذهل، منذ زمن طويل الخصائص المريحة العميقة التي يتمتع بها المرء عندما يكون خارج مكانه. وسواء كنت الطفل الجديد في الفصل، أو المرأة الوحيدة التي ألقت خطاباً في مدرسة جمداهان، فإن الناس لا يتوقعون منك الكثير، ومعظم الهفوات تُغتفر. ومثلي كمثل والدي من قبلي، أشعر بأنني في بيتي عندما أكون بعيداً عن منزلي، متحرراً من توقعات ثقافتي. لقد كان والدي يعرف مبدأ الغربة جيداً. والواقع إن حياته التي قضاها غريب الأطوار ساعدت في اجتذابه إلى العالم الإسلامي. ففي سانت لويس جعلته شخصيته غريب الأطوار؛ فكان الرجل الخجول النحيل، الذي يجلس وحيداً بجوار وعاء المشروبات الكحولية في الحفلات. وفي ندوة بجامعة طهران، أو في لقاء مع المؤسسة القانونية في كابول، كانت أجنبيته تخفي غرابة أطواره. وفي آسيا، كانت ثقافته هي التي جعلته شخصًا مثيرًا للفضول.

كان دخولي إلى المدرسة بدافع الفضول بطبيعة الحال هو السبيل الوحيد الذي سُمح لي به. ففي ساحة مليئة بالرجال كنت أنا المرأة الوحيدة البالغة. وأوضح مزمل: "ليس من اللائق أن تظهر نساء جمداهان في الاجتماعات العامة". وكما يحدث في كثير من الأحيان، تطغى العادات المحلية على التعاليم الإسلامية. وتتسع الفجوة بين تعاليم الإسلام والممارسات الحقيقية عندما يتعلق الأمر بالنساء. فقد كانت زوجات النبي يمتطين الجمال، لكن هذا لم يمنع السعوديين من حظر قيادة النساء للسيارات. وقد أكد كل من القرآن ومحمد على أهمية التعليم، لكن المتطرفين الأفغان والباكستانيين يفجِّرون مدارس البنات باسم "التقاليد" الإسلامية. وفي العديد من الثقافات الإسلامية، تنص التقاليد على أن المرأة لا تصلي في المسجد، بل في المنزل. وعلى الرغم

من أن قرية جمداهان أنتجت خبيرًا عالميًا في أدوار الجنسين في القرون الأولى من الإسلام، إلا أنها لم تكن استثناءً. وكانت العادات المحلية تعني أن الأنثى الوحيدة التي حضرت محاضرتي هي ابنة أخت الشيخ البالغة من العمر عشر سنوات، والتي جلست في الصف الخلفي، بجوار بنات عمومتها. ورغم ذلك فقد كتب الشيخ نفسه عن الكيفية التي شجع بها النبي صراحة حضور النساء في المسجد، ورحب بأطفالهن ورضعهن. وعندما كان يسمع بكاء طفل أثناء الصلاة، كان يقصر من الصلاة مراعاة لأمه. (حتى عدم ارتداء الجلباب لم يكن عذراً، وفقًا لأحد الأحاديث، وإذا لم تتمكن من إيجاد جلبابك الخاص، فقد نصحك محمد باستعارة واحد من شخص آخر).

ومع امتلاء الساحة بالناس، بدأت أدرك مدى حساسية المفاوضات الدبلوماسية التي شرع فيها أكرم بمجرد أن طلب مني أن أتحدث. فوجودي هنا قد يسيء إلى مشاعر شيوخ المدارس الدينية الأكثر تحفظاً، أو يخل بالنقاب، وهو التقليد الذي يفرض على النساء إخفاء وجوههن عن أعين الناس. فأحكمت حجابي على شعري بإتقان. وكان الشيخ قد قال لي بهدوء في وقت سابق من ذلك اليوم: "الجميع ينتظرون منك أن ترتكبي خطأ ".

ولقد كنت ممتنة لأنه وثق في أنني لن أرتكب خطأً. فقد كان ترحيبه بي، باعتباري امرأة أميركية تسافر وحدها بدون زوجها، سبباً في تحويل مدرسته الدينية مثاراً للشائعات. وربما كانت هناك شائعات تقول بأن المكان "ليبرالي" وهو مصطلح يستخدمه بعض المحافظين ليعني تآكل القيم الإسلامية الصحيحة. وعلى وجه الخصوص، كان الشيخ قلقاً من منتقديه من المدرسة الدينية المنافسة القريبة منه، التي تتبع تقاليد الديوبندية، الأكثر تشددًا من تقاليد مدرسته. ولقد منعه القلق بشأن الديوبندية من الاتصال بالصحف المحلية لإرسال مراسلين لتغطية خطابي. وقد أوضح قائلاً: "كما تعلمون، الناس يثرثرون". (وكما اتضح، فقد حضر أحد المراسلين على أية حال، وأجرى مقابلة معي، ونشر اسمي في الصحيفة المحلية، مستخدماً صورة التقطها من الإنترنت).

ولقد تعرضت المدرسة لانتقادات أخرى أيضاً. فقد بنى أكرم المكان على أرض عامة، حسبما اشتكى بعض القرويين. بل إن أحد المواطنين حاول رفع دعوى قضائية ضد أكرم في محاولة لنقل المدرسة. كما تذمر بعض المحافظين المتطرفين من بنائه لمدرسة للفتيات. كما بدأ

بعض القرويين حملة همس، قائلين إنه يجب عزل شاه نواز من منصبه كمدير للمدرسة الدينية الخاصة بالأولاد. قال الشيخ متحيرًا: "لا أعرف ما السبب بالضبط، ربما بسبب الغيرة أو شيء من هذا القبيل" على أي حال، رفض أكرم هذه المطالب بقوله: "يقولون: أقيلوه، فإذا فعلنا ذلك، فقد يريدون نفس الشيء مع المدير القادم"، قالها وهو يهز كتفيه.

* * *

بدأ طالب شاب ذو لحية خفيفة برنامج بعد الظهر، بتلاوة آيات من القرآن بصوت شجي. كان أكثر من مجرد ترتيل لكنه لم يكن غناء، وعلى أي حال فقد أسكت الجمهور. ثم ألقى مراهق ثان قصيدة طويلة جدًا في مدح النبي، وهي مقدمة تقليدية في مثل هذه الفعاليات. ثم أخذتُ الميكروفون وألقيت خطابي، متوقفة بعد كل فقرة لأمرر الميكروفون إلى الشيخ ليترجمها إلى الأردية.

قلت أمام الحشد: إننا نعيش في أوقات خطيرة مليئة بسوء الفهم المتبادل بين المسلمين وغير المسلمين. ومثل الولايات المتحدة، يمكن للهند أن تكون بلدًا مفتوحًا واثقًا، لكن الخوف من "الآخر" يمكن أن يجعل المجتمعات متصلبة. وقد يؤدي فقدان الثقة إلى منع الثقافات من التفاعل والتكيف عند مواجهة تيارات جديدة. وكما عانى مسلمو الهند من تصاعد الأصولية الهندوسية أو من التوترات مع باكستان، فإن جعل الذات في مواجهة "الآخر" كان وسيلة سهلة ورخيصة لجذب الانتباه، أو للحصول على الأصوات، أو لكسب الأتباع.

لقد كان الشيخ يتخذ موقفًا ضد هذا النوع من التفكير بمجرد السماح لي بالدراسة معه. "كلما تحدثنا أكثر، أدركت كم من القيم المشتركة تجمعنا"، قلت للجمهور: "أنا مثله، أريد السلام والأمان، وتعليمًا جيدًا لأطفالي، ومجتمعًا عادلًا" لكن الأمريكيين غالبًا ما يجهلون مدى تقاسمهم للقيم المشتركة مع المسلمين. قلت: "إن أفضل سلاح ضد العداوة المتبادلة والجهل بالإسلام هو مناسبات كهذه".

ثم جاءت كلماتي التالية وكأنها من صياغة موظف مبتدئ في وزارة الخارجية: "الحوار الثقافي هو أقوى سلاح في العالم ضد التطرف من أي نوع"، هكذا قلت: "إن المشاركة الحقيقية بين الناس الذين يحملون وجهات نظر مختلفة هي أفضل أمل لإنقاذ هذا الكوكب الذي يزداد استقطابًا". وبعد أن وضعت مبادئ عقيدتي أمامهم، انغمست في ذكريات ابنتي الصغرى نيك.

كانت في الثانية من عمرها في اليوم الذي اضطررت فيه لزيارة مدرسة محلية في لندن من أجل قصة في إحدى المجلات. كانت جليسة الأطفال قد ألغت موعدها، لذا اصطحبتها معي، رغم أنها كانت مشاكسة مثل أي طفل صغير وقت العشاء. كانت المدرسة الدينية عبارة عن غرفة في الطابق الأرضي أسفل بقالة في شمال لندن. نزلت الدرج شديد الانحدار، ونيك تتدافع ورائي بغضب لأجد غرفة مليئة بالأطفال، كل منهم يحمل مصحفًا، ويقرأ سورة، ويتمتم باللغة العربية. لقد هدأ صوت التلاوات من روعها. جلسنا معًا متربّعتين على السجادة المتسخة، وركزنا على الأطفال الذين كانوا يركزون على مصاحفهم. قبل دقائق فقط، كانت نيك على وشك الدخول في نوبة غضب. لكن بطريقة ما، حَسَّنتْ أصوات تلاوة القرآن مزاجها ومزاجي.

متمنية أن الحكاية الختامية لم تكن مضحكة للغاية، ومن ثمَّ نظرت إلى الحشد قائلة: "بروح التبادل الثقافي، أود أن أفتح المجال للأسئلة"، وابتسمت بأفضل طريقة ممكنة في اجتماع مجلس المدينة.

السؤال الأول جاء من صحفي يرتدي نظارة طبية، حيث سأل: "هل يسيطر اليهود على وسائل الإعلام الأمريكية؟" .

لقد بلعت ريقي. لقد كان ينظر إليَّ أحدهم، كما شعرت بالرغبة في القول بأن والدتي يهودية. لكنني كنت أعلم أن أكرم كان متوتراً بما يكفي بشأن خطابي؛ فالقول بأن والدتي يهودية لن يساعد في حل الأمور. لذا تراجعت وتجنبت الموضوع بتعليق مهدئ حول مخاطر التعميم، وحول أميركا باعتبارها بوتقة تنصهر فيها مختلف الأعراق. فضلاً عن ذلك، فأنا لا أعرف أبداً ماذا يقصد الناس عندما يقولون "وسائل الإعلام"، تماماً كما لا أعرف ماذا يقصدون عندما يقولون "المسلمين".

وظلت الأسئلة السياسية تتوالى مهذبة لكنها حادة. فسأل شاب نحيف: "لماذا تستمر الولايات المتحدة في دعمها لإسرائيل؟" .

لقد تحدثت عن التاريخ، وعن الهولوكوست، وعن مجموعة ضغط قوية.

" ما هو السبب الذي يجعل السياسيين الأميركيين يتصرفون دائماً ضد مصالح المسلمين؟" سأل عمٌّ أكرم المهذب ذو الشارب.

ذكّرته بالحرب في البوسنة، حيث دافعنا عن المسلمين ضد الصرب المسيحيين، ولكن كان عليّ أن أعترف بأن الإسلام السياسي بدا في كثير من الأحيان وكأنه يخيف الرأي العام الأميركي.

لقد ذكرني سؤاله بسؤال مماثل من الغرب ـ الترنيمة الحزينة التي تكررت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر: "لماذا يكرهوننا؟". كنت قد ساعدت في إعداد تقرير لمجلة نيوزويك الشهيرة التي حاولت الإجابة على هذا السؤال. لقد شاهدت الرئيس بوش على شاشة التلفزيون وهو يؤكد لأميركا أننا نتعرض للهجوم لأنهم "يكرهون حرياتنا". ولكن السؤال ذاته كان مضللاً: ففي كل مكان ذهبت إليه في العالم الإسلامي، لم تكن حرياتنا مكروهة بل محط حسد. ولم تكن المرارة موجهة إلى الأميركيين، أو إلى قيمنا الديمقراطية، كما زعم بوش. بل كانت موجهة إلى إساءة استخدامنا للسلطة، واستعدادنا المستمر لدعم الأنظمة الدكتاتورية في بلدان مثل مصر والسعودية التي حرمت شعوبها من الديمقراطية ذاتها التي كنا نزعم أننا نريد نشرها. لم يكن الناس يكرهوننا نحن، بل كانوا يكرهون سياساتنا.

لقد أدركت أن أسئلة الجمداهانيين كانت أكثر أهمية من مجرد عبارات مبتذلة حول القيم المشتركة. فبالنسبة لرجال القرية الذين لم يلتقوا بأميركي من قبل، كان التقاطع بين الإسلام والغرب يتشكل من خلال الجغرافيا السياسية، وليس من خلال قصص الأطفال الذين تأثروا بالقرآن. ولقد أدركت أن الحكاية عن ابنتي "نيك" لم تكن منطقية بالنسبة لحشد من طلاب المدارس الدينية. وبالنسبة للمؤمنين حقاً، لن يكون من المستغرب أن تتأثر طفلتي بكلام الله. ولن ينبهر إلا العلمانيون بقدرة القرآن على تهدئة الطفل الغاضب. أما بالنسبة للمؤمنين، فقد كان من البديهي أن يحصل ذلك.

* * *

بدأت النجوم تتلألأ في سماء مظلمة، كما لو كانت تعمل على مفتاح خافت الإضاءة. وحملني أكرم ومزمل مع أمتعتي في عربة ريكشا تجرها دراجة هوائية، وسحبني سائق العربة عبر الحفر والأخاديد في أزقة جمداهان غير المعبدة. وركض صبي بجانبنا، ممسكًا بضوء دراجة ليكشف الطريق إلى منزل أكرم.

وصلنا إلى بيت مكون من طابقين، وشعرت بالفارق مباشرة، فقد كان الجو هنا أنثويًا بامتياز، بينما كان الجو في المدرسة ذكوريًا بحتًا. ولم يكن أكرم موجوداً في المشهد، لأسباب اكتشفتها لاحقاً. أحاط بي حشد صغير من النساء والأطفال المبتسمين. وأمسكت فتاة بيدي وقادتني إلى الداخل، واستسلمت للدفء السلطوي لكرم الضيافة الجمدهاني. في الفناء الداخلي، قدّمني مزمل إلى ثلاث من شقيقاته وشقيقات أكرم، وكن يرتدين ملابس بألوان زاهية من الأحمر الأجاصي والأرجواني والأصفر الزعفراني. كانت "عظيمة" زوجة مزمل، ممتلئة الجسم وجميلة، وبشرتها بلون العسل. وبينما كنت أتعرف على العائلة، كانت هناك شخصية واحدة ظلت صامتة وجالسة: أم أكرم التي اكتفت بالإيماء بسرعة وراقبت تحركاتي بنظرة متيبسة وغير متوقفة. عرفت لاحقًا أنها كانت تبلغ من العمر حوالي سبعين عامًا، لكنها كانت تبدو في الأربعين، إذ حافظت بشرتها المشرقة على شبابها بفضل حياة قضتها داخل الزنانخانة (الجزء المخصص للنساء في المنزل). كانت شفتها السفلى مصبوغة بلون أحمر قاتم، نتيجة سنوات من مضغ البان، وهو خليط من الجوزة والتبغ الذي يُلف غالبًا في ورقة. كانت تعدّ البان عدة مرات خلال الوقت الذي قضيته هناك، في طقس يكاد يكون منتظمًا كالصلاة. كانت تنحني، وأساورها البلاستيكية تصدر صوتًا، وتخرج صندوق البان من أسفل الشاربوي، (وهو الفراش التقليدي المصنوع من الخيوط والخشب). كانت تفتح الصندوق، بأجزائه الصغيرة السحرية التي تحتوي على أوراق الشجر والأعشاب والبان الأحمر، وتدلكها حتى تتحول إلى عجينة، وتطويها في حزمة أنيقة ملفوفة في ورقة.

لم تبْدُ والدة أكرم وكأنها تتحدث أبداً، لكن على الرغم من صمتها، فقد كان حضورها طاغياً. وعندما ذهبت إلى غرفة الضيوف لوضع حقائبي قبل العشاء وخلعت حجابي، اعتقدت أنه من الجيد أن أكون مكشوفة الرأس في "الزنانخانة". لكنني كنت مخطئة. ودون أن تنبس بكلمة، ودون ابتسامة، أشارت والدة أكرم إلى رأسها؛ فأعدت ارتداء الوشاح. قال لي مزمل: "الناس هنا يحبون التقاليد، وهم مستعدون لتحمل بعض الانزعاج والمشقة للحفاظ عليها".

كان العشاء مُعَدّاً لشخص واحد. وقادتني الأختان إلى طاولة مليئة بلحم الضأن والكاري والسلطات، وأشارتا لي بالجلوس. ثم وقفتا حولي في تجمع متعاطف وراقبتاني وأنا أتناول الطعام. كانتا اثنتان منهما تدوران بالمراوح فوق رأسي. وفي منتصف الطبق الأول، أومأت "عظيمة" إلى يدي. فقد كنت أتناول الطعام بيدي اليسرى، التي عادة ما تُستخدم للتنظيف بعد دخول الحمام. قمت بالتبديل بشكل أخرق، وحاولت بدء محادثة، فقلت وأنا أمضغ: "يجب أن

تكونوا فخورين بأكرم. ما رأيكم في كونه أصبح عالِمًا مشهورًا عالميًا؟ هل كان بإمكانكم توقع ذلك؟".

شعرت أن حماستي كانت صاخبة للغاية، وبدا الأمر وكأنني أعلن عن مباريات السوبربول[٣٣].

نَدَّتْ ضحكات من الشابات، وبدا صمت من والدتهن، وبدا مزمّل محرجًا: "نحن نعيش في قرية.. نحن نفكر في الخبز، ولا شيء أكثر من ذلك" أوضح مزمل[٣٤].

لاحقاً، عندما عدت إلى أكسفورد، سألت الابنة الكبرى للشيخ عن نظرة العائلة لأبيها، فقالت: "إنهم لا يعرفون عنه الكثير. هم يعرفون أنه متعلم، ويعيش في الغرب، ويظهر على التلفاز".

* * *

كان المنزل مصمماً خصيصاً لعزل النساء عن الرجال، وكانت النساء محجوبات بعناية عن الزقاق الخارجي. وكان الرجال ينامون في الأمام، والنساء في الخلف. وتساءلت أين يذهب الأزواج المتزوجون بحثاً عن الخصوصية، لكنني لم أستطع أن أستجمع الشجاعة لأسأل. كانت غرف نوم النساء بلا نوافذ، وكان العالم الخارجي مختصراً في مستطيل من السماء يتدلى عالياً فوق الفناء المركزي. وكانت دراجة مزمل النارية الحمراء متكئة في الزاوية، ملمحة إلى الطرق المفتوحة. وكان في وسط الزنانخانة ثلاثة أسرّة خشبية متجاورة تشكِّل منصة عملاقة، وكانت مملوءة بعائلة أكرم. وكنت أشاهد هذه "الجزيرة" من الأسِرَّة متعددة الوظائف: كأريكة، وصالون للسيدات اللاتي يأتين للزيارات اجتماعية، وحضانة، وحتى كمنضدة مطبخ، حيث جلست إحدى الأخوات فوقها، لتقطيع البامية بمنجل صغير.

قبل صلاة الفجر بقليل، أومأتْ لي "عظيمة" زوجة مزمل، أن أتبعها إلى السطح، المكان الوحيد الذي تستطيع النساء التحرك فيه بحرية خارج منزل النساء دون نقاب. حتى بعد ليلة

---

[٣٣] السوبربول (Super Bowl) هو المباراة النهائية لبطولة دوري كرة القدم الأمريكية. وتُعدُّ أحد أكبر الأحداث الرياضية في أمريكا، حيث يجذب ملايين المشاهدين ويشهد عروضاً موسيقية ضخمة بين الشوطين، بالإضافة إلى إعلانات تجارية مكلفة ومبتكرة خصيصاً للمناسبة (المترجم).

[٣٤] يبدو أنه حدث سهو لدى الكاتبة، فهذا الحوار ربما حدث في مناسبة أخرى ومكان آخر، لأن مزمل حسب وصف المؤلفة لم يكن حاضرًا أثناء استقبالها في البيت، وتناولها الطعام.

واحدة مرتدية الحجاب، كان الوقوف على سطح مبنى في مرأى كامل من القرية يبدو جريئاً بعض الشيء، مثل أول مغامرة على الشاطئ بملابس سباحة جديدة. في الغرفة المجاورة، جلست جارة متربعة، منحنية على حامل القرآن. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أرى فيها شخصًا وحده في جمداهان.

قال النبي: "إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار". كان من السهل أن نتخيل مخلوقات من عالم آخر تستمع إلى تلاوة المرأة الهادئة. كان الضباب الصباحي يتلاشى رويداً رويداً، وبدأت أشجار النيم والنخيل تبرز بوضوح، كما لو أن عدسة كاميرا عملاقة تدور ببطء. وكان الطاووس يتبختر في حقل قريب، وأسراب من اليعاسيب تنطلق محلقة. عندما كان أكرم صبياً كان يلعب في هذه الحقول لعبة الجري الهندية (الكابادي)،. في المساء، بعد المدرسة، كان يصحب جاموس العائلة إلى ضفة النهر، حيث كان يلعب مع الفتيان الآخرين في انتظار انتهاء جاموسهم من الري.

قبل ثلاثة قرون، في عهد المغول، كان أجداد أكرم يمتلكون معظم الأراضي حول جمداهان، حتى جاء البريطانيون وفرضوا إصلاحات على الأراضي. قال وهو يبتسم: "عندما يتحدث الناس في القرية عن البريطانيين، يقولون إنهم جيدون. باستثناء عائلتي!" كان جد الشيخ يزرع هذه الحقول بنفسه، ويزرع القمح والشعير وقصب السكر. لم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة، لكنه كان يحفظ أجزاء كبيرة من القرآن عن ظهر قلب، وحرص على أن يحفظ ابنه، والد أكرم، القرآن كاملاً، ليحصل على لقب حافظ. وعندما أصبح والد أكرم شابًا، بدأ العمل في مصنع نسيج قريب، حيث علَّم نفسه ليس فقط تشغيل الآلات، ولكن أيضًا إصلاحها. وعندما كان أكرم صغيرًا، جمع والده ما يكفي من المال للانتقال إلى بومباي وفتح متجرًا للملابس. أقنعته رؤية العالم الخارجي بأن أبنائه بحاجة إلى تعليم رسمي أكثر مما حصل عليه. وبالنسبة لعائلة ريفية متدينة، ذات ملكية متناقصة من الأراضي، كان إرسال الأبناء إلى المدارس الدينية وسيلة للحفاظ على التقاليد مع الاستعداد لاقتصاد ريفي مضطرب.

علاوة على ذلك، أثبت أكرم على وجه الخصوص براعة في الدراسة. ففي سن الخامسة، بدأ تعليمه في المدرسة ذات الغرفة الواحدة الواقعة في نهاية الزقاق، قبالة المسجد الأبيض ذي البلاط الأخضر النعناعي. وبينما كان يجلس على حصيرة أرضية، أتقن الأبجدية ـ القاعدة ـ وهي كلمة ستكتسب لاحقًا دلالات جديدة خطيرة. وفي سن السادسة، بدأ حفظ القرآن عن

ظهر قلب. لكن بعد الانتهاء من جزأين من أصل ثلاثين جزءًا، شعر بأن الحفظ ممل. وبحلول سن الثامنة، كان قد استوعب المناهج الدراسية في المدرسة المحلية. لذا فقد جمع جده حقيبة تحتوي على القرآن، وكتاب تمهيدي باللغة الفارسية ورافقه إلى مدرسة عليا، على بُعد ميلين.

هناك، بدأ دراسة اللغة الفارسية، وهي مادة أحبها كثيرًا لدرجة أنه كان أول من يصل إلى المدرسة صباحًا، وآخر من يغادرها مساءً. وفي أيام الجمعة، يوم العطلة، كان يبكي. ويتذكر أكرم: "ذات مرة، ضربني والدي، لأنه كان منزعجًا من أنني كنت أرغب دائمًا في البقاء في المدرسة".

في الليل، كان يسحب سريره إلى الزقاق ويلتف حول مصباح الكيروسين، وبيده نسخة من كتاب "جولستان" لسعدي، وهو مجموعة قصصية وشعرية شهيرة تعود إلى القرن الحادي عشر. وكان أولاد الحي ينضمون إليه، ويقرأ لهم بصوت عالٍ. وعلى مدار عام أو نحو ذلك، أصابت براعة أكرم سكان جمدهان بالعدوى، فبدأوا بإرسال أبنائهم إلى نفس المدرسة. وشكَّل أولاد جمدهان عصابة من نوع ما، فكانوا يجلسون معًا على الغداء ويتشاجرون مع الأولاد من القرى الأخرى. ولكن في غضون عام، ترك معظمهم المدرسة وعادوا للعمل في الحقول. واستمر أكرم يركب دراجته لأميال عبر الحقول لسماع المحاضرات في المساجد. يتذكر قائلاً: "في كل مرة كنت أسمع أن شخصًا متدينًا يتحدث في مسجد، كنت أذهب إليه". وبحلول سن الخامسة عشرة من عمره، كتب مخطوطته الأولى: "قواعد اللغة العربية".

في فترة ما بعد الظهر، كان أكرم يجلس بجانب سرير جده يقرأ له القرآن. وفي اللحظة التي توفي فيها الرجل العجوز، كان يقرأ بصوت عالٍ. فلما رفع أكرم عينيه رأى جده توقف عن التنفس في منتصف السورة. إلا أن والده حثه: "استمر في القراءة"، وفعل ذلك، وكرر سورة "يس" أربعين مرة، السورة التي تُتلى على المتوفى. في هذا المنزل ليس أكرم وحده الذي يحفظ القرآن، فقد حفظه أخوه "مزمل" واثنتان من أخواته وأصبحوا حفظة. وبناءً على إلحاح أكرم، درست جميع شقيقاته الأصغر سناً في مدرسة دينية نسائية في "أزامغرة". والآن جميع البالغين في المنزل يقرأون القرآن مرة واحدة على الأقل يوميًا، وعدة مرات يوم الجمعة. وقد أكد لي مزمل: "إذا قرأت القرآن، فلا يهم إن كنت تفهمه أم لا. بمجرد قراءته، تحصل على الأجر".

لقد سخرت غريزيًا من هذه القراءة غير المفهومة، وعدت بذاكرتي إلى تلك القارئة التي سمعتها على السطح ذات صباح. لم أكن قد فهمت الكلمات، لكن سماعي لها جلب لي شعوراً غريباً بالسلام!.

* * *

طوال زيارتي لمنزله، لم أر أكرم في أي مكان. باستثناء مزمل ووالده، كان المنزل مأهولاً بالنساء والأطفال. وعندما قمت بجولة في المنزل لرؤية مطبخ كل أخت على حدة، ولكل منهن أوانيها الخاصة وموقد الحطب، لمحت وجوداً رمادياً لطيفاً اتضح أنه والد أكرم. تبادلنا نظرات سريعة، ثم نظر كل منا بعيداً.

أما أكرم، فلا بد أن يكون من غير اللائق على الإطلاق أن يتجول رجل من جيله، في شرفة نومه، مع امرأة ليست من محارمه ولا ترتدي حجاباً.

في وقت لاحق، عندما عاد أكرم إلى أكسفورد، أوضح أنه ابتعد عن منزل عائلته لأنه كان يلتزم بالحجاب. ففي القرية، كانت إملاءات الحجاب لها الأولوية على الترابط الأسري. وأوضح أكرم: "لا أحب الاختلاط بزوجات إخوتي. لو كانت زوجتي هناك، لكان الأمر مختلفًا. علاوة على ذلك، كان هناك العديد من نساء القرية اللاتي أتين لرؤيتك. لم يكن من الجيد أن أكون هناك". لقد خلق وجودي كأجنبية تدافعًا من النساء والفتيات من كل أنحاء القرية، فضوليات حول الشكل الذي قد تبدو عليه المرأة الأمريكية. قال بتعجب: "كل هؤلاء النساء أتين لرؤيتك. كان الأمر أشبه بحفل زفاف، عندما يأتين لرؤية العروس".

ابتعد أكرم جزئيًا عن المنزل مراعاة لأخواته وزوجات أخوته. "أردت أن أمنحهن حريتهن: ما كنَّ ليتمتعن بهذه الحرية، أمامي. فمع وجودي هناك، لا يستطعن الضحك بصوت عالٍ، ولا التحدث بحرية. داخل المنزل، تتمتع النساء بالحرية، أما الرجال فلا ".

لقد لاح على وجهه للحظة شيء يشبه الندم. وأدركت لثانية كيف يمكن للحجاب أن يكون ذا وجهين، حيث يحد من حرية الرجال والنساء على حد سواء. فالستائر يمكن أن تحجب الضوء والهواء عن الناس على جانبيها. وهي لا تحجب رؤية الجميع للعالم بالتساوي. بطبيعة الحال، القيود التي يفرضها الحجاب تكون أكثر إحكامًا حول النساء. إنَّ شقيقات أكرم ووالدته لم يخرجن أبدًا دون تغطية وجوههن بالنقاب، وهو الغطاء الإسلامي الذي يترك شقًا

فقط للعينين. كما لم يكن بإمكانهن الخروج إلى الأسواق في خيتاساراي القريبة دون محرم. لم يكن الشيخ يؤمن بتقييد حركة النساء على هذا النحو، لكن بقية القرية كانت تؤمن بذلك.

كانت ابنة الشيخ الكبرى، حسناء، في التاسعة من عمرها عندما غادرت العائلة جمدهان، لكن حتى عندما كانت طفلة، كانت قواعد الحجاب تُطبق عليها. وبحلول سن السابعة، لم يعد يُسمح لها باللعب بحرية في الخارج. قالت: "كنا نستطيع الذهاب إلى الدكان في نهاية الشارع إذا كان الأمر طارئًا". ولأن الجميع أبقوا بناتهم في الداخل، فإن المغامرة بالخروج تجعلك هدفًا تلقائيًا للمعاكسات والتعليقات.

لقد تركت السنوات التي قضتها حسناء في جمداهان لديها تحفظًا ولَكْنَة في لغتها لا تظهر لدى شقيقاتها اللاتي تربين في بريطانيا. وعندما شرحت لي القيود المحيطة بالحجاب المتبع في منزل عائلة جمداهان، فهمت أخيرًا لماذا لم أر الشيخ إلا نادرًا أثناء زيارتي هناك. تذكرت حسناء أن الحجاب في المنزل كان صارمًا للغاية لدرجة أن الأخوات والإخوة بالكاد يتحدثون مع بعضهم البعض: "كانت عمتي الكبرى تتحدث إلى والدي، لكن بقية الأخوات لم يكن يتحدثن، أو لم يكنَّ يتحدثن كثيرًا. لقد كن خجولات".

كما وصفت حسناء نفسها بأنها خجولة، وحتى بعد سنوات من زواجها وعيشها في أكسفورد بالقرب من والديها، استمرت في اتباع تقاليد الحجاب التي تعلمتها في الهند. وقالت ببساطة: "لا أتحدث إلى الرجال، وإذا فعلت، أحاول أن أجعل الحديث مقتضبًا. ولا أتحدث إلى زوج أختي سمية ـ فلا داعي للحديث حقاً. وحتى الآن، بالكاد أتحدث مع والدي".

شهقت: "معذرة؟ حقًا؟"

"نعم"، على سبيل المثال، إذا كان الجو ممطرًا، وكان عليّ العودة إلى المنزل، أطلب من والدتي أن تخبره بأنني بحاجة إلى الذهاب، وستطلب منه أن يوصلني، بدلاً من أن أطلب ذلك منه بنفسي".

ذكرتني جمداهان مرة أخرى بأنها مكان للنساء والرجال المسنين. مع غياب الآباء والأزواج في العمل في الخليج أو في أماكن أخرى، والتزامهم بالحجاب عند عودتهم إلى الوطن، عاش الرجال والنساء في حياة منفصلة إلى حد كبير. في الغرب، نشعر بالقلق من تفكك الأسر بسبب الطلاق أو العمل أو الفجوات بين الأجيال. فالمراهقون المتذمرون أو

الأزواج المدمنون على العمل يخلقون انقساماتهم الخاصة، لكن هنا توجد طرق أخرى لخلق الانقسام.

* * *

في بيت الشيخ في أكسفورد، يُطبق الحجاب، لكنه أقل صرامة مما هو عليه في جمداهان. عندما يستقبل الشيخ زواراً من الذكور، فإنهم غالباً ما يجتمعون في غرفة واحدة، وتغلق زوجته أو ابنته باب غرفة الجلوس، للحفاظ على الشعور بالفصل. ومع ذلك فإن الحرية هنا أكبر كثيراً من الهند، وخاصة بالنسبة للجيل الأصغر سناً. تتذكر سمية، الابنة الثانية لأكرم، وهي ترفع عينيها إلى السماء عندما سألها شخص غير مسلم بتردد عما إذا كانت تعرف كيفية قيادة السيارة. ضحكت قائلة: "كنت أقود السيارة قبل أن يقودها زوجي!".

وعندما أرادت سمية ارتداء النقاب، أصيب أكرم بالدهشة، لكنه اعتقد أن الأمر يعود لها. وقال أكرم: "يريد الإسلام أن تغطي المرأة كل شيء بملابس فضفاضة عندما تخرج من المنزل. لكن هذا التغطية للوجه بالنقاب تطورت في وقت لاحق بعد أيام النبي".

سألته: "لكن لماذا لا تخبر عائلتك في جمداهان بذلك؟"

أجاب: "بالنسبة لشخص نشأ في القرية، يعتقد أن الأمر إسلامي تمامًا. فهم لا يستطيعون التفريق بين ما هو تقليد وما هو إسلامي. الشيء الوحيد الذي يعرفه الناس في جمداهان عن النقاب هو أن الهندوس لا يرتدونه، بينما المسلمون يفعلون ذلك. ومثل الكثير من العادات القروية، نجدها تقاليد تُمارس ليست بدافع المعرفة الدينية، بل لبناء هويتهم كمجموعة"

فقلت مازحة: "ولكنك يا شيخ مرجع ديني!". حتى أقدم رجال القرية كانوا يرجعون إليه في الأمور الدينية. وفي استثناء نادر من التسلسل الهرمي في جمداهان، كان هو، وليس كبار السن، من يقود الصلاة في المسجد احترامًا لتعليمه الديني. ثم واصلت كلامي: "أنت عالم مشهور عالميًا، لماذا لا تخبرهم أنهم ليسوا مضطرين لارتداء النقاب طالما أنهم متحشمون؟ لماذا لا تخبرهم عن عملك حول النساء العالمات؟ لماذا لا تخبرهم عن كل هؤلاء النساء اللواتي ركبن الإبل بمفردهن للوصول إلى الدروس في القرون الأولى من الإسلام؟ لماذا لا تخبرهم عن تلك المرأة في سمرقند التي كانت تصدر الفتاوى؟ أو تلك العالمة الأخرى التي كانت تُلقي محاضرات على الطلاب الذكور وهي واقفة عند قبر النبي؟".

أجاب: "لن يستمع أحد إليَّ. سيقولون: "أوه، لقد ذهب إلى ندوة العلماء"، أو "منذ أن ذهب إلى بريطانيا أصبح يقول هذا". أستطيع أن أقول ذلك في لكناو. أستطيع أن أقوله في أكسفورد. لكن لا أستطيع أن أقوله في القرية. إذا كنت تريد تغيير عقول الناس، فلا تبدأ من القرية".

إن تغيير التقاليد، مثل مد الكهرباء أو شبكة المياه الجارية، يحتاج إلى البنية التحتية المناسبة. لقد اشتُهر النقاب جزئيًا بسبب التحرش الواسع الذي تتعرض له النساء الهنديات، حسب قول الشيخ. "في الوقت الحالي، لا يمكنك تخيل مدى قلة الاحترام تجاه النساء في الهند". في ذلك الوقت، كانت ابنته الرابعة، مريم، قد بدأت للتو دراستها الجامعية، حيث درست اللغة العربية في جامعة لندن. يقول: "في بريطانيا، إذا سافرت مريم إلى لندن، فلا توجد مشكلة. لكن في جمداهان، لا يمكنك حقًا تخيل فتاة تخرج دون تغطية وجهها. نظرًا لأن الجميع يرتدي النقاب، فأنت تجعل نفسك هدفًا إذا لم تفعل ذلك".

يعتقد أكرم أن الوسيلة لتغيير عقلية الناس هي التعليم. وتحقيقاً لهذه الغاية، بنى مدرسة الصالحات للفتيات في جمدهان، في حقول الأرز خلف فرن الطوب القديم خارج المدينة، ووضع صهره أبو بكر مديراً لها. وكما يحدث غالباً في المدارس الدينية للفتيات، فإن مستوى التدريس لم يكن مرتفعاً. وكانت الأسر عادة ما تريد من النساء فقط أن يعلمن بناتهن، وحتى يومنا هذا، لم تكن المعلمات من النساء متعلمات بقدر ما كان الرجال. ولكن مدرسة الصالحات كانت بمثابة أمل في أن تتغير الأمور. ففي غضون جيل أو جيلين، قد يؤدي التعليم إلى تآكل القواعد الراسخة.

* * *

بينما كنت جالسة مع أكرم في مطعم في أكسفورد، نحتسي القهوة بالحليب ونأكل الناتشو، كان من الصعب تخيل مدى الضغط الناعم الذي يمكن أن تمارسه عادات القرية.

كانت الحياة في جمداهان تقتصر على مجموعة متماسكة من المسلمين، الذين يعيشون على غرار أسلافهم. وكانت الضغوط الدافئة التي تفرضها مثل هذه البيئة تجعل من السهل للغاية أن تتشابك العادات المحلية مع الدين. وشعر أكرم، مثل العديد من المهاجرين المسلمين إلى أوروبا والولايات المتحدة، بأن الحياة في الغرب ساعدته على فصل التقاليد التي كانت جزءاً

من ثقافة شمال الهند، عن تلك التي كانت جزءاً من الإسلام. وسمحت له الحياة في بريطانيا بالاختلاط بالمسلمين من مختلف البلدان والتيارات الدينية. وبعيداً عن قريته ومدرسته الدينية، وجد مساحة محايدة تمكنه من إعادة النظر في المصادر الأصلية.

يقول أكرم: "لقد كان الذهاب إلى ندوة العلماء بمثابة تحول، ولكن عندما أتيت إلى هذا البلد، وبدأت في قراءة المزيد من الأحاديث، تمكنت من التركيز على الأشياء الرئيسية في الدين – مثل التقوى والخوف من الله – بدلاً من الأشياء التي هي مجرد ثقافة. لكن القرويين، الذين لا يملكون سوى تعليم محدود، وخبرة بسيطة بالعالم الخارجي، لن يرحبوا بمحاضرات حول اكتشافاتي".

"لكنك سمحت لي بإلقاء محاضرة". "بالمناسبة، كيف كان رد فعل الناس؟"

يبدو أن زيارتِك كانت حديث القرية. أوضح الشيخ: "الناس ليس لديهم الكثير ليفعلوه. لمدة أسبوعين تقريبًا، كلما جلسوا معًا، كانوا يتحدثون عنك. إنهم لا يقولون أشياء سيئة بالضرورة، لكنهم كانوا يتحدثون كثيرًا".

قلت: "لم أفهم حقًا المخاطرة التي كنت تخشاها بمجرد استضافتي هناك!".

ووافقني الرأي قائلاً: "كل الناس هناك، لا يمكنهم تخيل وجود عالم وامرأة. حتى الآن، لابد وأن الناس يخبرون أصدقائهم عن هذا الأمر. لقد أصبحتِ شيئًا محفوراً في ذاكرة القرية".

" فهل قال أحد أي شيء سيئ؟" ألححتُ عليه.

قال وهو يبدو مندهشا بعض الشيء: " لم يثر أحد مشكلة كبيرة بشأن هذا الأمر. لم يشك أحد في تقوانا".

قلت: "لكن كان من الواضح أنهم لا يحبون الولايات المتحدة حقًا. لقد كانوا لطفاء معي، لكن ما كل تلك الأسئلة حول السياسة؟".

"إنهم لا يحبون السياسة الأميركية"، أومأ برأسه. "لكنهم لم يربطوا هذه السياسات بك".

وأضاف إن أسئلة الجمهور ربما كانت أقل ارتباطا بالإيديولوجية وأكثر ارتباطا بالتباهي: "ربما كانوا يسألون عن فلسطين وإسرائيل لأنهم لا يعرفون أي شيء آخر عن أميركا".

لقد أكد لي الشيخ أنني لن أجد خطاباً متشدداً معادياً للغرب في القرية. وقال: "إنهم أناس بسطاء للغاية. إنهم يمتدحون الحكم البريطاني أكثر من الحكم الهندي، لأن كل ما يهمهم هو

من يجعل حياتهم أفضل". ربما تتمتع النخب الحضرية برفاهية التفكير في أفكار عظيمة حول الاستعمار والنضال من أجل الاستقلال، لكن بالنسبة لأهل جمداهان، كل ما يهمهم هو حقيقة أن خط السكة الحديدية الذي أخذهم إلى جونبور كان بريطانيًا، تمامًا مثل هيئة الإذاعة البريطانية التي كانوا يستمعون إليها عبر أجهزة الراديو التي تعمل بالبطاريات.

* * *

إذا كانت جمدهان هي موطن أكرم الأصلي، فإن ندوة العلماء هي موطنه الفكري. كطالب جامعي في جامعة لكناو، درس اللغة العربية والاقتصاد، لكن السنوات التي قضاها في ندوة العلماء في لكناو هي التي شكلته أكثر من غيرها. أثناء زيارته للحرم الجامعي، كان أكرم يشعر بالحنين مثل لاعب كرة قدم سابق يعود للملعب، وكان يحظى بنفس القدر من الاحتفاء. وعندما رأوه الأساتذة الأكبر سنًا استنارتْ وجوههم ، بينما حدجه الأساتذة الأصغر سنًا بنظرات الرهبة والإجلال.

سألته: "هل كنت تشعر بالحنين إلى الوطن عندما كنت بعيدًا عن القرية؟"

بدا مرتبكًا. "كنت سعيدًا جدًا لوجودي هنا، لا يمكنك أن تتخيلي ذلك".

في الواقع، كنت أستطيع تخيل ذلك، لأن "مدرسة الندوة" كانت مختلفة تمامًا عما رأيته من قبل. كانت الفراشات السوداء والصفراء تحوم عبر العشب في الساحة. وكان الحرم الجامعي أخضر وواسعاً: خارج مسكنه السابق، أشار الشيخ إلى بستان من الأشجار كان قد زرعه طلابه. (قال مبتسماً: "كان ذلك مخالفاً للقواعد، ولكن لم يقل أحد شيئاً"). توقفنا عند المكان الذي كان فريقه في كرة الريشة يتدرب فيه. وأبدينا تقديرنا للمكان في كافتيريا الحرم الجامعي حيث كان أكرم وأصدقاؤه يشربون الشاي معاً، ويتقاسمون الفاتورة، وهي الممارسة التي أطلق عليها "الشاي الأمريكي" بسبب الفردية التي سمعوا أنها سائدة في الولايات المتحدة. وفي المساء، كانت الجامعة تعقد تلاوات شعرية ـ مسابقات شعرية إسلامية من نوع ما، حيث يحاول كل طالب أن يتفوق على الآخرين. وكان مركز الحرم الجامعي في ندوة العلماء هو المبنى الأصلي، الذي بُني في القرن التاسع عشر على الطراز الأنجلو هندي الراقي. كان لونه أصفر ليموني مع حواف بيضاء، وكان به أقواس مزخرفة وخيوط منحوتة من الزهور الجصية المطلية بدقة والتي كانت تتدلى حول الأعمدة. كان يشبه متجرًا فاخراً لبيع فساتين الزفاف.

كانت الفخامة الزخرفية متعمدة. فقد تأسست "مدرسة الندوة" في عام ١٨٩٨، بعد أكثر من نصف قرن من قرار البريطانيين بفرض التعليم على النمط الإنجليزي لصالح النخب الهندية. وكانت المدارس الدينية في حالة انحدار على مدى قرون، كما كانت هيبة العلماء المسلمين في حالة انحدار. وقد أوضح لي أكرم وهو يشير إلى شرفة مزخرفة فوقنا: "كانت الفكرة وراء جعل مدرسة الندوة جميلة إلى هذا الحد هي أن يشعر العلماء الذين كانوا يتدربون هناك بالفخر. ولم يكن الرجال الذين أسسوها يريدون أن يشعر الطلاب المسلمون بالدونية مقارنة بأولئك الذين كانوا يدرسون في مؤسسات على الطراز الغربي".

توقف تحت اقتباس مؤطر وترجمه: "كم مرة تمنيت أن أعود إلى الطفولة، كي أتمكن من الدراسة في ندوة العلماء، حتى أتنفس هواءها وأستفيد من علمها!". يحصل خريجو الندوة عل حق وضع "الندوي" في نهاية أسمائهم. مباريات كرة القدم في الجامعة تضع "الندوي" ضد "غير الندوي". "غير الندويين" ليسوا فريقًا زائرًا، بل هم فقط الطلاب الذين لم يتخرجوا بعد. إن التمرير لأسفل قائمة الخريجين أو ترويسة مجلة الكلية يجعل القراءة متكررة: كل اسم ينتهي بـ"الندوي".

المنافس الأكبر للندوة هو ديوبند، التي تأسست قبل جيل من ذلك. لقد عارض الديوبنديون الحكم البريطاني ورفضوا إدراج العلوم أو الدراسات الإنسانية المتأثرة بالغرب في مناهجهم الدراسية. وعلى النقيض من ذلك، كان الرجال الذين أسسوا الندوة حريصين على تعليم الشباب العلوم الإسلامية إلى جانب المواد الدنيوية، فاختاروا مسارًا وسطاً بين التقليدية الصارمة للديوبندية، والتعليم العلماني الذي دافع عنه البريطانيون. وكانت دراسة أكرم للفقه والقرآن والنحو والمنطق العربي مصحوبة بقراءة شكسبير وفرويد وسارتر؛ إذ كان طلاب ندوة العلماء من جيله منبهرين بالوجودية. فكانت ندوة العلماء تسعى لتعليم طلابها التفكير، في حين لم يكن في المدارس الدينية الأخرى تفكير، بل تقليد".

ومع ذلك، كان هناك حدود لمقدار العالم الخارجي المسموح له الدخول من بوابات كلية الندوة. وكطلاب جامعيين توسل أكرم وأصدقاؤه للسماح لهم بالخروج من الحرم الجامعي لمشاهدة السيرك. وباعتبارهم علماء مستقبليين، فقد طالبوا بالسماح لهم بمعرفة الفساد عن كثب، حتى يروا الشرور التي يواجهها المتدينون. لكن حجتهم لم تحرك المفتي، لذا لم يشاهدوا السيرك قط. كما تم حظر الأفلام أيضاً. فإذا تسللت إلى دار السينما "ليلا" لمشاهدة أحدث

أفلام شاروخان أو توم كروز، فإنك تخاطر بعقوبة الندوة المعتادة: منعك من تناول طعامك لمدة أسبوع أو أسبوعين. ويقول أكرم مبتسماً: "يقول الناس لا يمكنك أن تكون ندوياً دون أن يتم إيقاف طعامك مرة واحدة على الأقل". وبصفته مشرفًا على مهجع الطلاب، كان أكرم يقوم بدوريات في دور السينما في وسط المدينة بحثاً عن الندويين. ويشرح أكرم: "إنهم لا يريدون أن يفسد الطلاب. فالناس يعتقدون أن "ندوة العلماء" مؤسسة حديثة، وهم لا يريدون لها سمعة سيئة"

لكن دوريات الأفلام في الندوة لم تكن دائمًا ناجحة؛ إذ اكتشف أكرم لاحقًا أنه كان الطالب الندوي الوحيد الذي التزم بالحظر، في حين كان الطلاب الآخرون يذهبون لمشاهدة الأفلام.

لكن ليس كل من يلتحق بالندوة يصبح عالمًا، كما اكتشفت عندما التقيت بزميل أكرم القديم في المدرسة الدينية، ولي الله. كان ولي الله رجلاً عريضاً ذا عينين لامعتين ولحية كثيفة، وكان أشبه بالكاتب إرنست همنغواي من جنوب آسيا. لقد شارك أكرم غرفة نومه، ولكن لم يشاركه اجتهاده. وبعد فشله في امتحاناته النهائية، اتجه ولي الله إلى مجال البناء، حيث كانت الأعمال مزدهرة. وقد ظهر ذلك أيضًا في الطريقة السهلة التي كان يحيي بها النوادلَ في مطعم التندوري الذي دعانا إليه، وفي وسيلة نقلنا في هذا اليوم: سيارة شيفروليه رباعية الدفع، مع سائق ومكيف هواء. مررنا بالسيارة من وسط لكناو، مروراً بمسجد تيلا الأبيض العظمي، حيث احتفل أكرم ذات مرة بحفظ أحد أصدقائه للقرآن مع مشروبات كوكاكولا من مقهى قريب. ثم سلكنا طريق مليحاباد، حيث كانت المنازل الفخمة التي بناها البريطانيون تتدهور ببطء تحت أدخنة العوادم وأمطار الرياح الموسمية. ومرت مجموعة من الشابات المسلمات، وهن يرتدين الأوشحة المربوطة حول رؤوسهن ووجوههن، مثل المقاتلين الثوريين. قال أكرم إنها نظرة تطورت منذ الفترة التي قضاها في لكناو، وهي نظرة لا تتعلق بالتقوى بقدر ما تتعلق بالانتماء إلى الهوية الإسلامية". "الهوية!" قالها وهو يهز رأسه.

كانت الأرض المحاذية للطريق تصطف على جانبيها مخازن ومتاجر منخفضة الارتفاع، ولكن عندما كان أكرم في كلية الندوة، كانت الأرض عبارة عن غابة. وفي أيام الجمعة، اعتاد أكرم وأصدقاؤه الصيد في الحقول القريبة قبل صلاة الظهر. وكان أكرم يستخدم البندقية الألمانية القديمة التي أحضرها له والده الحاج من مكة. ولم يكن الشيخ بارعاً في التصويب مثل

والده. يتذكر أكرم بإعجاب: "كان والدي يرسم رقم ٥ على قطعة من الورق، ويرجع إلى الخلف مسافة بعيدة، ويصيب الرقم في منتصفه". لكن الشيخ نفسه كان رامياً جيداً بما يكفي. وفي بعض الأسابيع، كان هو وأصدقاؤه يصطادون أكياساً مليئة بالحمام ويأخذونها إلى مدرسة دينية قريبة يديرها أحد زملائه الصيادين، ويتناولونها على الغداء. ويتذكر قائلاً: "كنا نصطاد بين خمسة وعشرين إلى خمسين طيراً في الصباح. وكانت زوجة صديقي تطهوها بالكاري. كانت لذيذة جداً".

" كيف كان أكرم عندما كان في الندوة؟" سألت وأنا أستدير من المقعد الأمامي لألقي نظرة على ولي الله. قال ولي الله: "لقد درس بجد. ذات مرة، بعد أن ألقى عميدنا محاضرة، ألهم أكرم لدرجة أنه ذهب إلى غرفتنا وواصل القراءة لمدة ثلاثة أيام متتالية". ضحك ضحكة مكتومة. "لقد سمع في مكان ما أنه من الصحي تناول براعم الحمص الخضراء. لذلك كل ما أكله خلال تلك الأيام الثلاثة هو الحمص المنقوع في الماء، مع تلك البراعم الخضراء الصغيرة". لقد تعرفت على نزعة الزهد لدى الشيخ؛ حيث كان صارمًا بشأن تدريباته في صالة الألعاب الرياضية في أكسفورد، وقبل عامين شرع في نظام لإنقاص الوزن، حيث كان يتناول الفاكهة فقط في المساء.

وعلى بعد خطوات من الطريق توقفنا لنلقي نظرة على الأرض التي اشتراها أكرم عندما كان أستاذاً شاباً في جامعة ندوة. في ذلك الوقت، كان يتخيل أنه سيبقى في لكناو الحبيبة، ليقوم بالتدريس وتربية أسرته على قطعتي الأرض اللتين اشتراهما. وفي العقدين التاليين، نشأت حولهما ضاحية من المنازل المبنية من الطوب الأبيض. لكن أرض أكرم ظلت على حالها. وأدارها ولي الله نيابة عنه، فبنى حولها جداراً من الطوب الأنيق وزرع بستاناً من أشجار الحور. كانت الأشجار الآن طويلة، وتشكل نصباً تذكارياً لاثنين وعشرين عاماً قضاها أكرم بعيداً عن الهند. كانت الأشجار تلقي بظلالها الترحيبية، وعندما خرجنا من السيارة الرياضية متعددة الاستخدامات وتوقفنا فيها للحظة، فكرت في مقدار ما تخلى عنه أكرم بالانتقال بعيداً عن وطنه.

(٥)

سجادة صلاة المهاجر

عندما كنت أعمل في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في أوائل التسعينيات، كان مبنى جاهزًا هشًا في شارع خلفي في أكسفورد، وهو ليس من نوع الأماكن التي ترتبط بأي نوع من الحماسة. ولكن في أحد أيام الربيع، بدا المكان وكأنه ينبض بالحياة. فقد نصبت خيمة، وفُرِشتْ سجادة حمراء، وطلبت عصائر الفاكهة والكعك. ففي ذلك اليوم كان من المقرر أن يزور المركز الأمير تشارلز ـ صاحب السمو الملكي أمير ويلز، كما تطلق عليه نشرة المركز الإخبارية. وأمضى إداريُّو المركز أسابيع في التحضير، وتمت طباعة الدعوات، وتعيين مقدمي الطعام. وكانت خطوط الهاتف مشغولة، وكانت أجهزة الفاكس ترسل الموافقات الأمنية. كان هذا كله محيراً لأكرم، كما كانت تكهنات السكرتيرات الشابات اللاهثات اللواتي كنّ يخططن للحدث. وكان اليوم نفسه أشبه بحفلة تنكرية للرجال المسنين من ذوي النفوذ. وتجمع أكاديميو أكسفورد بأثوابهم الأكاديمية السوداء. وتدافعت سيارات الليموزين القادمة من لندن التي تقل عرباً بشوارب طويلة يرتدون أثواباً بيضاء فضفاضة، وهي الجلابيب الخليجية التقليدية التي تصل إلى الكاحل. وكان رجال الأعمال البريطانيون بشعرهم المصفف إلى الخلف وبدلاتهم المصممة خصيصاً يتشاورون في مجموعات، ويمددون أعناقهم، ويبحثون ـ بلا جدوى ـ عن الشيري. وعندما وصل الأمير وحاشيته، ساد الهدوء، وانحنت الرؤوس بتحيات خجولة.

لكن أكرم لم يفعل ذلك. فقد وقف منتصب القامة مرتديا طاقية الكاراكول الرمادية، ومعطفه الأسود المزرر الذي يُعدّ الزي التقليدي لعلماء الدين الهنود. ووقف على بعد خطوات قليلة من السجادة الحمراء، يراقب الأمير وهو يتجاذب أطراف الحديث مع الحاشية. ولقد أذهلني هدوء أكرم. فمثله كمثل العديد من العلماء الذين سبقوه، كان يعتقد أن العلماء لابد وأن يظلوا مستقلين عن البلاط الملكي من أي نوع. ولكنني أدركت فيما بعد أن كرامته كانت تنبع من مكان أعمق. فلم يكن الأمر مجرد أنه لم يكن يتأثر بالسياسات التي تنتهجها المكاتب أو الشهرة الملكية. بل كان الإسلام بالنسبة له يسحق التسلسل الهرمي الدنيوي. ولم يكن هناك

سوى قوة واحدة يهتم بها: قوة الله. وقد كتب في وقت لاحق: "إن التصرف بشكل مختلف لمجرد أن شخصاً ما أضعف أو أقوى منا يعني فهماً خاطئاً لمساواتنا كمخلوقات أمام الخالق".

كان عدم تأثره بالأمير تشارلز مثيرًا للإعجاب بشكل خاص، لأن ذاكرته لا زالت حية بصورة الحكم البريطاني في الهند. فقد ولد عام ١٩٦٣، وقضى طفولته في شبه القارة حيث كانت بريطانيا وأفرادها الملكيون لا يزالون يحظون باحترام كبير. وعندما اختاره شيخه- مدير كلية الندوة- للذهاب للحصول على زمالة في أكسفورد، وافق أكرم، ليس لأجل بريطانيا، بل طاعة لشيخه؛ إذ كان عبدًا لله. ففي منهج أكرم، عندما يطلب منك شيخك شيئًا، عليك أن تفعله، طالما لا يتعارض مع إيمانك.

في خريفه الأول في الخارج، بدا كما لو أنَّ لكناو بعيدة جداً. وكان قد اشترى تذكرة حافلة ودراجة هوائية وتقدم بطلب للحصول على بطاقة قارئ في مكتبة بودليان بأكسفورد. واستثمر نقوده في شراء حذاء قوي ومعطف واقٍ لمقاومة الشتاء البريطاني. واستعار كتبًا عن المسيحية من مكتبة أكسفورد العامة، وصُدم من الطريقة التي يكتب بها الناس عن المسيح: "إما كإله، أو كإنسان عادي". في الربيع، عندما نضجت مانجو لكناو الشهيرة، وجد متجراً بأكسفورد يبيع تلك المانجو فاشتراها جميعاً. ووجد جزاراً حلالاً وعلّم نفسه طهي يخني بولاو اللكناوي. في المسجد في شمال أكسفورد، كانت صلواته بالطبع نفس الصلوات، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من افتقاد روتين لكناو. ففي جامعة الندوة، كان يعقب صلاة الفجر بنزهة بجانب نهر جومتي، ويناقش المنطق اليوناني مع أصدقائه، أو يناقش كيف تختلف مدارس النحو العربية في الكوفة عن مدارس البصرة وبغداد. وفي جامعة الندوة، كانت العبادة والدراسة الدينية تشكل أيامًا متصلة من الإيمان. أما في أكسفورد، فقد كان الناس يصلون ثم يغادرون، مسرعين إلى دروسهم أو سيارات الأجرة أو إلى متاجرهم الصغيرة. ذات مرة، سألته عن أكثر ما يفتقده هنا، فأجاب: "الصداقة الحقيقية".

ولقد وفر له فريق أطلس جواً من الألفة والود. ففي إحدى استراحات الشاي دار نقاش نصف جدي حول كيفية تحديد المسلم صلاته إذا كان في الفضاء الخارجي. فاتفق العلماء المجتمعون أخيراً على السماح له بالصلاة على توقيت مكة بمجرد أن يصبح خارج الغلاف الجوي. وكان ديفيد دامريل، الأميركي ذو الشعر الطويل، الخبير في الطرق الصوفية في جنوب

آسيا، يتنافس مع الشيخ في المجاملة، حيث يحاول كل منهما التفوق على الآخر بأسلوب المجاملة على الطريقة الجنوب آسيوية.

" يا شيخ، أنت ساطع كالشمس" يبدأ ديفيد بلهجته الجنوبية الناعمة.

فكان أكرم يرد: " آه يا شيخ، لقد حجب سطوعك القمر والشمس"[٣٥]

وبما أن الرجلين كانا يتشاركان في مكتب واحد، فقد كان الشيخ يسأل دامريل مرارًا وتكرارًا عن الغرائب التي كان يكتشفها باستمرار في الثقافة الغربية. فيرد دامريل بأن أغرب ما اكتشفه: "ميل النساء البريطانيات إلى تصغير ملابسهن يومًا بعد يوم". فيسأله الشيخ: "كيف يتعامل مع هذا اللغز المحير؟" فيجيبه دامريل: "لقد أدركت أن هذا ليس من شأني". وهو موقف تبناه أكرم بسهولة.

وكانت الموسيقى البريطانية لغزًا محيرًا آخر؛ إذ اعتاد موسيقار من الشارع العزف تحت نافذة غرفة أطلس يومياً في نفس الوقت. وبعد بضعة أيام من الاستماع لنفس الأغاني الثلاث، سأل الشيخ أخيرًا: "هل هذه موسيقى جيدة؟ فقد كان بعض المسلمين التقليديين ينفرون من الموسيقى، وكان أقرب ما استمع إليه الشيخ من الغناء هو التغني بالقرآن. وفي إحدى المرات، بعد أن ألقى محاضرة في ليفربول، سألته عما إذا كان قد سمع بفرقة البيتلز. فقال: "عندما جئت إلى بريطانيا، عرفت العديد من الفلاسفة البريطانيين. لكني لم أعرف هؤلاء البيتلز[٣٦]".

لقد بقي أكرم في أكسفورد، وبعد عامين تمكن من الحصول على تأشيرات لزوجته وابنتيه حسناء وهالة. وقد وُلِدت له أربع بنات أخريات في إنجلترا، وأصبحن بريطانيات منذ أنفاسهن الأولى. وفي المركز، جاء باحثون آخرون من أوروبا أو أمريكا للمساعدة في بحث أطلس الإسلام في جنوب آسيا. كانوا جميعاً مجتهدين، لكن التقدم في المشروع ظل جليديًا. وكان فريق البحث يتغير باستمرار. فضلاً عن ذلك، كان مدير المركز مشغولاً بالتخطيط لبناء مركز جديد ضخم في الجامعة: مركز يجمع بين أفضل ما في أكسفورد وأرقى التقاليد في العالم الإسلامي. وكان المدير يكتب رسائل التمويل إلى شيوخ وأمراء الخليج ويطلب من أكرم ترجمتها إلى العربية. وكان أكرم يفعل ذلك دون شكوى، تماماً كما كان يترجم النشرة الإخبارية

---

[٣٥] في هذه الجملة تعريض من طرف خفي، فكأن الشيخ يقول لزميله دامريل، ربما من باب المداعبة، أنت جعلت الدنيا مظلمة عندما حجبت الشمس والقمر.

[٣٦] فرقة البيتلز هي فرقة روك بريطانية تأسست عام ١٩٦٠ (المترجم).

اللامعة للمركز إلى العربية. ولأنه كان يُطلَب منه ذلك، فقد حضر ندوات حول مواضيع لم يسمع بها من قبل في ندوة العلماء في لكناو، مثل الإسلام والبيئة أو الإسلام والإعلام. ولأنه كان يُطلَب منه ذلك، كان يشرب الشاي مع آخر الباحثين الزائرين، أو يقف إلى جانب أحد المانحين أثناء تفقده لمخططات المبنى الجديد. وكان يؤدي هذه الأعمال دون تذمر. ربما كان يفتقد لكناو، لكنه كان يعيش في بريطانيا دون ذرة من الشفقة على الذات؛ فقد كان يتمتع بقدر هائل من الانضباط الذاتي. هذا الرجل الذي كان يصلي حتى ساعات متأخرة من الليل، ثم يستيقظ قبل الفجر ليصلي مرة أخرى. ذات مرة، اتصلت به على هاتفه المحمول فوجدته في حافلة متجهة إلى لندن.

" سأذهب إلى مستشفى العيون"، أخبرني بأنه يعاني من صداع مستمر من عدة أسابيع.

" أسابيع؟" سألت. "ولكن كيف تمكنت من العمل؟"

قال: "ليس بالأمر السيئ جداً. هو مؤلم، لكنني أستطيع القراءة".

في تلك الأثناء كان يعيد قراءة مؤلفات ابن تيمية، عالم الدين في العصور الوسطى.

ذات يوم، ذهب فريق أطلس إلى لندن لمدة يوم لإلقاء نظرة على مجموعة الخرائط الأثرية في مكتبة الهند. وشاهدنا أمين المكتبة الذي كان يرتدي قفازات بيضاء وهو يكشف عن شريط ورقي مصفر، اتضح أنه خريطة مغولية تبين الطريق بين دلهي وقندهار. وعلى عكس الخرائط التقليدية التي تُظهر الأماكن في علاقة مع بعضها على سطح مستوٍ، أظهرت هذه الخريطة طريقًا، ولا شيء سوى الطريق. خطان أنيقان بالحبر الأسود الرفيع، وتضمنت علامة عرضية– ربما صخرة، أو شجرة، أو ضريحًا. كانت هذه أشياء فرعية، لكن الطريق كان هو الشيء الأساسي. ما كان خارج الطريق لم يكن شيئاً مهماً. كانت تلك خريطة للمسافر الذي ينبغي ألا يغرق في رؤية ما حوله، لمسافر ليس لديه اهتمام بالتشتيتات. هذا، كما أتذكر، هو نوع الخريطة التي تناسب شخصاً مثل أكرم.

* * *

لم ترهب هيبة أكسفورد أكرم. فقد كانت مجرد مكان وجد نفسه فيه، فلم يكن معاديًا له، ولا واقعًا تحت سحره. فالمروج المشذبة مجرد عشب، والأبراج العالية، والساحات الواسعة

مجرد حجارة. بالنسبة له، كانت أكسفورد مجرد مكان للعمل كما أخبره شيخه، وللصلاة كما أمره ربه. لم يكن هناك أحد أعرفه في أكسفورد يمتلك مثل هذه البوصلة الثابتة.

كان المشروع الذي عملنا عليه ضخماً ومتعدد الأجزاء، وممولاً بسخاء من المنح الأميركية المرموقة. وكان المركز يُروَج له أمام كبار الشخصيات باعتباره زواجاً سعيداً بين الأساليب التكنولوجية العالية والمنح الدراسية الرفيعة. وكان القائمون على المركز حريصين على جسر الهوة بين الجامعة ومؤسستهم الناشئة، فيرتدون عباءاتهم الأكاديمية السوداء لتناول العشاء على المائدة العالية مع زملائهم من الأساتذة. وكنت أفعل ذلك كل بضعة أشهر خلال العامين اللذين عملت فيهما في المركز، فأعبر المدينة لأستمتع بأمسية مليئة بالزخارف التقليدية في أكسفورد: محاضرات يلقيها علماء رأيتهم على شاشة التلفزيون، وعشاء مع نبيذ جيد، وتبادل حوارات متوترة مع طلاب غير آمنين. أما أكرم فلم يكن يخرج من المركز إلى الجامعة إلا لاستخدام مكتباتها. وبينما كان أكرم يركز على كتبه، كان المركز يخترق قلب المؤسسة البريطانية. وأصبح الأمير تشارلز راعياً للمركز بعد فترة وجيزة من زيارته، ومنحه لاحقاً ميثاقاً ملكياً. وفي نهاية المطاف، حصل مدير المركز على وسام الإمبراطورية البريطانية. وظل الشيخ محصنًا من أي إغراءات يمارس عمله في المركز، ثم يعود إلى منزله ليمارس عمله الحقيقي.

عندما كنت في الرابعة والعشرين، وجدت لامبالاة أكرم غير مفهومة. كنت طموحة وفق النمط المعتاد للأميركيين المتميزين ـ طموحة لنفسي، ولحياتي المهنية، ولخبرتي، أو أياً كان ذلك. في العمل، كنت أرتدي تنورتي قصيرة قدر الإمكان، متوهمة نفسي جريئة إلى حد ما لأنني أجلب العالم الخارجي إلى المركز. وعندما سألت عما إذا كان المسلمون الأكثر تقليدية قد يمانعون في وجودي في هذا المكان، بصفتي امرأة! أجابني مدير المركز ذو الشعر الفضي: "ستكونين جيدة بالنسبة لهم".

وبينما كنت أركض في أنحاء أكسفورد، سعياً لتشكيل هويتي، بدا أكرم راضياً بشكل غريب. لقد حيرني قبوله الهادئ لنفيه من لكناو. فإذا كان يفتقد ندوة العلماء إلى هذا الحد، فلِمَ لا يعود؟ بالتأكيد لم يكن المقصود من توجيهات شيخه أن يترك عائلته ويعاني من ألم الغربة؟ لا شك أن هناك وظيفة في انتظاره في الهند، إذا أراد. وسوف يكون أقرب إلى والديه، وتكون زوجته أقرب إلى والديها، وسوف يتمتع بروح الرفقة التي يعشقها في ندوة العلماء. ولأنني نشأت على مبدأ السعي إلى السعادة، فقد وجدت أن عدم رغبته في الانتقال أمر غامض تماماً.

وباعتباري ابنة رحّال أميركي، فقد تصورت أن الإنسان يستطيع دائماً أن يتحرر ويمضي قدماً إلى أن يجد الرضا. ولم أشك قط في مركزية الذات في حياة المرء. فعندما كنت طفلة صغيرة، كنت أردد أغنية شارع سمسم، بإيمان حقيقي: " أهم شخص في العالم هو أنت، هو أنت، وأنت بالكاد تعرف ذلك!". لقد غرس والدايَّ ومعلمي فيّ كم أنا مميزة بشكل كبير، تمامًا كما قيل لملايين الأطفال الآخرين إنهم مميزون أيضاً[٣٧].

ولم يكن أكرم من عُبَّاد نحلة التميز الأميركية. فقد طلب مني ذات مرة أن أساعده في كتابة خطاب توصية لطالب سابق في الندوة كان يرغب في إتمام دراساته العليا في اسكتلندا. وكانت لغة أكرم الإنجليزية بدائية إلى حد ما، لذا فقد اقترح أن يزودني بالمعلومات لأقوم بصياغتها كرسالة توصية. وكانت التفاصيل التي عرضها سطحية: فقد كان ذاك الطالب متفوقاً في دروسه في الفقه والحديث وغيرهما من المواد الدراسية. وقال أكرم: "كل الأشياء المعتادة. طالب جيد".

لقد أوضحت بجدية أن "الأشياء المعتادة" وحدها لن تبهر لجنة القبول. إننا بحاجة إلى الأصالة. أو على أقل تقدير، يتعين علينا أن ننقل لمحة عن المواهب الفكرية الفريدة التي يتمتع بها هذا الطالب، تلك التي من شأنها أن تبرزه من بين كومة كبيرة من المتقدمين. هل كان هذا الطالب، ربما، يتمتع بإدراك غير عادي للتيارات في الفلسفة الإسلامية؟ أو هل كان لديه شعور خاص بفقه العصور الوسطى؟ بدا أكرم في حيرة؛ فحاولت اتباع مسار آخر، فسألته: هل كان الطالب ربما سيثري ثقافة الجامعة، أو هل لديه هوايات مثيرة للاهتمام؟ أو هل لديه أي مهارات رياضية؟ ابتسم أكرم وهز رأسه. وذهبت غزواتي إلى أبعد من ذلك فقلت: إذا أتيحت له الفرصة، فهل سيساعد ربما في بناء جسور ثقافية بين المسلمين وغير المسلمين في اسكتلندا؟ أو هل تغلب على صعوبات معينة في حياته؟

لا شيء! لم يفهم أكرم الهدف من كل هذا البحث عن تفرد طالب ندوة العلماء، ولم تنجح محاولتي لرسم النقاط البارزة في حياة الطالب على الرسم البياني الصغير الأنيق للتميُّز على الطريقة الأميركية. بالنسبة لأكرم، كان الأمر بسيطاً للغاية: لقد أتقن تلميذه المنهج الدراسي. وهذا يكفي بالتأكيد للسماح له بمواصلة دراسته.

---

[٣٧] أغنية (شارع سمسم) هي جزء من البرنامج التلفزيوني التعليمي الشهير Sesame Street. والبرنامج معروف بمحتواه التعليمي الموجه للأطفال، حيث يستخدم الأغاني والموسيقى لتعليمهم مواضيع متنوعة مثل الأرقام والحروف والألوان والقيم الأخلاقية والاجتماعية الخاصة بهم. (المترجم)

ولكنني شعرت بأننا في حاجة إلى قصة من نوع ما. فقد كنت أعيش في عصر أوبرا وينفري[٣٨]. لقد كان شغفي بالسرد الشخصي طبيعياً مثل سهولة التنفس. فللحصول على وظيفة مرموقة، أو للالتحاق بمدرسة جيدة، أو لاكتساب التقدير، يتطلب منك تقديم شيء جديد وفريد للعالم. كنت أفكر في هذا ذات يوم مع زميلي السابق افتخار، الذي أرشدته أيام دراسته في جامعة شيكاغو إلى السعي الأميركي إلى الأصالة. ففي المدارس الدينية التقليدية، لم تكن البيئة الأكاديمية هي نفسها بيئة الأكاديميات، كما أوضح.

لقد كانت الثقافة الإسلامية تحرص على الاستمرارية والتسابق، وليس الانقطاع. وكان أغلب المسلمين يعتقدون أن أفضل القرون عصر النبي، وأن كل جيل من الأجيال التالية انحدر عن الجيل الذي قبله. ثم شرع في سرد قصة عن عالِم إسلامي انتهى أخيراً، وبعد سنوات من العمل الدؤوب، من إنهاء مشروعه الفكري الضخم، أعلن بفخر: "وإنَّ ما يزيد هذا العمل جمالًا، أنه لا يوجد فيه كلمة واحدة مبتكرة!".

* * *

كنت أتساءل، لماذا بحق السماء بقي أكرم في أكسفورد، يعاني من الوحدة والأمطار البريطانية ويعمل في وظيفة أهدرت مواهبه العلمية؟ لم أفهم السبب إلا بعد سنوات، عندما سمعت الشيخ يشرح سورة يوسف، وهي السورة التي تتحدث عن النبي يوسف في القرآن. ما كنت أعتبره في البداية نوعًا من السلبيةً ظهر لي أنه شيء أعمق غاية، إنه خضوع قوي لقدر الله. يوسف، أحد الأنبياء الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن، وهو ذاته في التوراة. كان لدي فكرة ضبابية عن قصته التي استقيتها من قرصDVD قديم لدوني أوزموند في فيلم "يوسف ومعطفه الملون المدهش"، وتتمثل في رجل يرتدي ملابس رائعة وإخوة سيئين للغاية. أما أكرم فقد قرأ القصة بشكل مختلف إلى حد ما. فقد وجد فيها الأدوات التي تمكنه من التحمل أينما وجد نفسه: التواضع والصبر والقدرة على التكيف.

[٣٨] تُعتبر أوبرا وينفري واحدة من أكثر الشخصيات تأثيرًا في الإعلام، بدأت حياتها كمذيعة أخبار محلية وتطورت إلى أن أصبحت سيدة أعمال ناجحة. وأسست شبكات تلفزيونية وشركات إنتاج خاصة. وغالبًا ما تتناول في برامجها تجارب حياتية حقيقية تلهم المشاهدين.(المترجم)

ألقى الشيخ ندوة عن يوسف في جامعة ليفربول. وفي انتظار بدء المحاضرة، تصفحت سريعًا سورة يوسف. ورأيت لماذا رأى "أندرو لويد" نجاحاً فيها. فقد عانى البطل النبيل الوسيم من تفكك الأسرة، والخيانة، ومخططات القتل، والشهوة، وتقلبات الحظ المفاجئة. ملخص السورة القرآنية: عندما كان يوسف صبياً صغيراً، رأى في منامه الكواكب والقمر والشمس تسجد له. وكانت الرؤية علامة، كما أدرك والده، على أن الطفل نبي. وبسبب الغيرة مما رأوه من محاباة والدهم ليوسف، حاول إخوته قتله، فألقوا به في بئر وزعموا أن ذئبًا افترسه. وأنقذت قافلة عابرة يوسف، وعندما وصلت إلى مصر، بيع كعبد لرجل ثري وقوي. ولفت العبد الشاب الوسيم انتباه زوجة سيده. وعندما حاولت إغواءه قاومها: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ". بدأت نساء المدينة في الثرثرة حول محاولة زوجة الرجل الغني إغواء عبد فقير. ولإنقاذ سمعتها، قامت بسجنه. وفي السجن، يفسر يوسف أحلام زملائه من السجناء، وعندما وصل خبر قدرته على تفسير الأحلام إلى القصر، طلب منه الملك تفسير حلم له، فأعجب الملك به ومنحه منصبًا رفيعًا في الحكومة. وفي نهاية السورة، يجتمع شمل يوسف بعائلته، ويغفر لإخوته ويعيد بصر والده الكفيف.

إن القرآن يروي القصة بشكل واضح، وخاصة المشهد الذي تحاول فيه زوجة السيد إغواء يوسف. بل إن هذا المشهد كان واضحاً إلى الحد الذي جعل أحد علماء المسلمين يحرم على النساء تعلمها. ولحسن الحظ، لم يوافق أكرم على هذا الرأي. فقد قال إن الفتوى ضد قراءة سورة يوسف غير سليمة، وشبهها بفتاوى أخرى صُممت لتقييد حقوق المرأة، مثل الفتوى التي تحظر على النساء تعلم الكتابة على أساس أنهن قادرات على كتابة رسائل غرامية، أو تحظر عليهن العيش في الطوابق العليا خشية أن يُشاهَدن مِنَ الخارج. وأكد وهو ينظر إلى الحشد: "لا شيء في القرآن مخصص للرجال أو للنساء. إنه مخصص للرجال والنساء على حد سواء".

فتحنا مصاحفنا. تأمل أكرم في كيفية انتقال يوسف من كونه عبدًا وسجينًا إلى أن أصبح الرجل الثاني في الدولة، وكل ذلك بسبب التقوى. على السبورة البيضاء بجانبه، رسم الشيخ خطًا، وبجانبه رسم دائرة. يمثل الخط مساحتك، أو البيئة التي تجد نفسك فيها. يمكن أن تكون المساحة في أي مكان – بئر، زنزانة، سجن، دولة يحكمها مستبد، دولة أجنبية. بعد ذلك، أشار إلى الدائرة، وقال: ترمز الدائرة إلى دورة عمل الإنسان واكتسابه الأعمال في ساعات الليل والنهار، التي تستمر طالما أراد الله أن يبقيك على هذه الأرض. قال أكرم إن المساحة أو الظروف التي وجدت نفسك فيها ليست تحت سيطرتك. أما الدورة التي تمثل عملك

واكتسابك فهي التي تكون تحت سيطرتك. لقد اختار الله ظروفك؛ فاستخدام ساعات أيامك لممارسة التقوى، أو حب الله وخشيته. "إن أي ظرف، حتى أسوأ ظرف في الحياة، سوف يؤدي إلى شيء أفضل إذا حافظت على استمرار اكتساب التقوى والعمل الصالح"، هكذا قال أكرم. "مهما كانت ظروفك: أنت في السجن، أنت عبد، أنت سيد، لديك والدان، أو ليس لديك والدان، أنت متزوج، أو لست كذلك، سواء كنت تتحدث الأردية، أو تتحدث الإنجليزية. مهما كانت المساحة التي أعطاك الله إياها، اشكره!".

فكر في يوسف، كما تابع. "كان في البئر. هل اشتكى؟ بيع كعبد، هل اشتكى؟ وُضِع في السجن، وما الذي قد يكون أسوأ من ذلك؟ لقد علَّمنا يوسف الصبر مهما حدث. عندما زُجَّ في السجن بتهمة ملفقة، هل كتب شيئًا في الصحف؟ هل ذهب إلى وسائل الإعلام؟

لتغيير وضعك، اعتنِ بالدورة، قاوم الإغراء، صلِّ لله... وبمجرد أن تفعل ذلك، سيتم تحويل أي مساحة لصالحك. ومن المؤكد أن التقوى تتطلب العمل، كما أضاف بصرامة: "إذا كنت تريد أن تأتي التقوى إلى منزلك، فلابدَّ أن تبذل الجهد. إنه ليس سحرًا. كل قيمة مرتبطة بالعمل. إذا عملت بجد، فستحصل على ما تريد ".

إذن، هنا تكمن بذور الهدوء السياسي والشعب المطيع، هكذا فكرت في نفسي وأنا أحاول نسخ سيل الكلمات التي تلفظ بها أكرم. كانت صيغة أكرم تبدو غريبة تماماً على إنسانة تربت على الاعتقاد بأنها سيدة مصيرها بشكل أو بآخر.

أخذنا استراحة لتناول الغداء، وذهبت لتناول شطيرة مع مجموعة من النساء من الحضور. كان معظمهن طالبات بريطانيات من أصل آسيوي وأفريقي، بنات آباء وأمهات هاجروا من جنوب آسيا أو شرق أفريقيا من أجل حياة أفضل في بريطانيا. كن شابات واثقات من أنفسهن، ومعظمهن يدرسن الطب أو طب الأسنان. كانت إحدى الطالبات، وتدعى عائشة، صينية انتقلت مؤخراً إلى الولايات المتحدة وكانت ترتدي جوارب ضيقة تحت شورت قصير ولا ترتدي حجابًا. كانت عائشة مبتهجة للغاية، وأكدت لي أنها تعشق ليفربول. وقالت إن العثور على الجمعية الإسلامية في الجامعة كان أمراً حيوياً. وعندما سألتها عما إذا كانت تشعر بالحنين إلى الوطن، هزت رأسها بعنف: "لا لا على الإطلاق ".

عند التفكير في الأمر، أدركت كيف يمكن لنموذج دورة المساحة التي اقترحها أكرم أن تريح المهاجر، سواء أكان يشعر بالحنين إلى الوطن أم لا. في العقود الأخيرة، اقترح محللو

الإرهاب أن الاضطرابات التي شهدتها تجربة المهاجرين في العقود الأخيرة ساعدت في خلق الظروف الملائمة للتطرف. فبسبب انتزاع المهاجرين من سياقاتهم وشبكاتهم الاجتماعية يصبحون في كثير من الأحيان عُرضة للتجنيد من قِبَل شبكات المتطرفين الإسلاميين. وبصورة مبسطة للغاية، تسير النظرية على النحو التالي: أبناء المهاجرين، الذين لا يشعرون بالانتماء لا في ثقافة وطن آبائهم ولا في الغرب، يجدون وطنًا ثقافيًا في المسجد. ويستهدف المتطرفون، الذين يدركون مدى ضعف هذا الجيل الوسيط، هؤلاء الشباب الضائعين كمرشحين للتجنيد[٣٩].

لكن هنا كان أكرم يقترح استجابة مختلفة تمامًا للتحديات التي يفرضها عالم مجزأ: الصلاة والقبول. وعند قراءة السورة، أدركت كيف أن صبر يوسف، وهو يُنقل من سوق النخاسة إلى السجن، كان يتحدث إلى ملايين المهاجرين المسلمين. فبالنسبة للعامل الهندي في دبي، أو العامل البنجابي في محطة البنزين في تكساس، أو حتى الشيخ اللكنوي الذي يفتقد مدرسته الدينية القديمة، كانت دورة التقوى تمنحهم السيطرة على الظروف. وكانت الممارسة الواعية للصبر والإيمان تمنحهم الكرامة والراحة والمعنى لحياة بعيدة عن الديار. فلأولئك الذين اضطروا إلى إقناع أنفسهم بأنه لن يمضي سوى عام واحد آخر في الغربة ويعودون إلى أوطانهم، كانت التقوى بمثابة محرك. ولأولئك الذين كانوا يَعِدون أنفسهم يومياً بالرحيل عن الخليج بعد موسم واحد آخر، وبعد كسب ألف دولار أخرى، فقد استمدوا القوة من التقوى. يقول أكرم: "في كل يوم تشرق فيه الشمس، فكر في الله. افعل ما يأمرك به. وسوف تتغير المساحة التي وُجِدت فيها".

وأضاف: "أما إذا عمل الإنسان بشكل مغاير، فسوف يجلب لنفسه خيبة الأمل. المشكلة التي يواجهها العديد من المسلمين اليوم هي أنهم منشغلون أكثر مما ينبغي بظروفهم العاجلة، ولا يهتمون بتقواهم بما فيه الكفاية. لفترة طويلة، كان المسلمون منشغلين جداً بالمساحة أو البيئة من حولهم. يعتقدون لو كان لديهم بيئة أفضل، لكان الأمر أفضل. ويعتقد المصلحون المسلمون، لو كان لدينا الخلافة، لكان الأمر أفضل. ولو حصلنا على دولة إسلامية، لكان الأمر أفضل. فهل هناك دول إسلامية؟"

هز الحضور رؤوسهم. "هل نحن أفضل؟" صمت.

---

[٣٩] ليس هذا صحيحا، فضياع الأبناء ناتج أولاً وأخيراً عن ضياع الأبوين والتفكك الأسري، وعدم تنشئة الأبناء نشأة صالحة.

قال الشيخ: "في مصر قال المسلمون إن كل شيء سيكون على ما يرام عندما يتولى الإخوان المسلمون السلطة، لكن كل شيء ليس على ما يرام في مصر بعد".

ثم قال، بنفس القدر من الصرامة، هناك مسلمون يفكرون في الهجرة. يشير المصطلح، إلى هجرة النبي من مكة إلى المدينة، في محاولة للعثور على مكان يمكن لأصحابه ممارسة عبادتهم بحرية. واليوم، يستحضر بعض المسلمين مفهوم الهجرة في حياتهم الخاصة، ويطمحون إلى الانتقال من البيئات غير الإسلامية إلى البيئات الإسلامية. يعتقدون أن الناس من حولهم، ليسوا مسلمين. نعتقد إذا ذهبنا إلى السعودية ستكون بلدًا أفضل بالنسبة لنا. اذهب إلى السعودية، وسترى أنه لا توجد حرية!"

وتابع قائلاً: "كل هذه الشكاوى، وكل هذه الاحتجاجات التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الماضي، كانت غير مجدية. كان مسلمو الهند يعتقدون أنهم سيكونون أفضل إذا حصلوا على مساحة خاصة بهم؟ حسناً، حصلوا على باكستان، وانظروا كيف انتهى الأمر. فبعد النضال العظيم الذي خاضه الهنود لإخراج البريطانيين، وبعد التقسيم المؤلم للأراضي من أجل إنشاء باكستان، ماذا فعل أبناء هؤلاء المناضلين من أجل الحرية؟ إنهم جميعاً يفرون! إنهم جميعاً يريدون مغادرة باكستان والعيش في بريطانيا!"

على الرغم من كل هذه الطاقة المستهلكة في البحث عن المكان المثالي لإنشاء الدولة الإسلامية المثالية، فإن المسلمين الذين يعيشون فيما يسمى بالدول الإسلامية يطمحون إلى الوصول إلى الدول الغربية. في العام الماضي فقط، الْتقيت بعالم من مكة المكرمة- مركز الحضارة الإسلامية- كان هدفه الكبير هو الذهاب للعمل في بريطانيا! "عندما تجد نفسك في المكان الذي أعطاك الله إياه، لا تشكو. فكر. تعلم كيف تستخدمه!" هكذا حث طلابه.

علاوة على ذلك، أضاف: "هل يمنعك العيش في الغرب من أن تكون مسلمًا صالحًا؟ "أخبروني"، تابع قائلاً: "هل هناك حكومة تمنعك من أن تكون متدينًا؟ عندما تكون في المسجد، هل هناك من يمنعك من أن تكون تقيًا؟ هل تحتاج حقًا إلى حكومة إسلامية لجعل بيتك متدينًا؟"

وبعد أيام من المحاضرة، عندما تحدثنا على الهاتف، واصل الحديث حول هذا الموضوع. وقال الشيخ إن المشكلة الحقيقية ليست في البريطانيين، بل في المسلمين أنفسهم. فبدون نقاء نية النبي وأتباعه، ستكون هجرتهم مجرد لفتة جوفاء. وقال إن مسلماً فرنسياً سأله قبل أيام عن

حظر الحكومة الفرنسية للحجاب في الأماكن العامة. وسأل أكرم: هل سيكون من الأفضل أن يهاجر المسلمون الفرنسيون إلى مكان يمكنهم فيه ممارسة دينهم بشكل صحيح؟ تنهد أكرم وقال: "هؤلاء الناس يُضَخِّمون الأمر من لا شيء. أسأل هؤلاء الناس: هل الحكومة الفرنسية تأتي إلى بيوتكم؟ إلى قلوبكم؟ هل تمنعكم من مخافة الله؟ هل تمنعكم من التقوى ؟".

بالنسبة لأكرم، كانت سورة يوسف دليلاً على كيفية العيش في حياة تركز على الله في عالم علماني. ومثل يوسف، الذي تمكن من البقاء طاهرًا حتى عندما كانت زوجة سيده تحدق فيه بطريقة غير لائقة. فالمسلمون الغربيون بحاجة إلى ممارسة البراجماتية الواعية. إن الحجاب مهم، لكن حتى لو تم حظره في مكتب أو مدرسة، كما هو الحال مع المسلمين الفرنسيين، فلن يتمكن أحد من حظر ما هو أكثر أهمية: إيمانك.

وعلى هذا الأساس، حاول أكرم أن يكون مرناً عندما كان الناس يلجأون إليه طلباً للفتوى بشأن الحياة في بريطانيا. لكي تكون مفتياً ماهراً، أو خبيراً شرعياً، فأنت بحاجة إلى صفتين. أولاً، عليك أن تتذكر أنه "إذا جاءك الناس يطلبون منك فتوى، فإنهم ليسوا مجرمين". لقد جاءوا إما للتوبة عن شيء فعلوه، أو لطلب التوجيه بشأن شيء يريدون القيام به. ويعتقد أكرم أن وظيفة المفتي هي تقديم الحلول، وليس العوائق. وقال: "إن قول "حرام" أمر سهل. يمكن لأي شخص أن يقول "حرام". والأصعب هو إيجاد الحلول".

إن العيش في بريطانيا ـ بل والعيش في أي مكان في العالم اليوم ـ يتطلب قدراً معيناً من المرونة فيما يتصل بالقوانين الإسلامية. على سبيل المثال قيادة السيارات، من الناحية الفنية، ليست حراماً، لكن ترى أغلب تفسيرات الشريعة الإسلامية أن تأمين السائقين مقامرة على المستقبل، وبالتالي فهو محرم. لكن القانون البريطاني يُلزم السائقين بالتأمين. لذا فقد جاءت فتواه على النحو التالي: يمكن للمسلمين البريطانيين بالفعل الحصول على التأمين مع بقائهم مسلمين صالحين. فطالما التزم المرء بدورة التقوى، فإن التنازلات الضرورية بشأن قضايا مثل التأمين لم تكن تشكل مشكلة كبيرة.

فالشيخ قليل الصبر مع المظاهر الدينية الاستعراضية. ففي كثير من الأحيان كانت الفتاوي الشرعية، وغيرها من التدابير الصارمة، مجرد استعراض للتدين وليس تديناً حقيقياً. وكانت الأنظمة المالية الإسلامية المعقدة التي تَعِد بتجنب الربا، أو الفائدة، مجرد تمارين لإيجاد الثغرات، وليس ممارسات للتقوى. فالمرأة التي ترتدي النقاب لكنها لا تتعامل بلطف مع

جيرانها فقد أخطأت في فهم جوهر الإسلام: الإيمان الحقيقي لا يأتي من الملابس المناسبة، بل من الاستسلام لله. إن تطهير القلب هو الأهم، وليس الإعلانات الصاخبة عن الهوية الإسلامية.

في حياته الخاصة، عمل الشيخ على تجنب الإفراط في المظاهر الاستعراضية. وحتى مع تزايد شهرته، رفض أكرم أي تلميح إلى الاستعراض، وهي سمة لافتة للنظر في عصر جعل التلفاز والإنترنت بعض العلماء من المشاهير. أخبرتني طالبة أكرم أرزو: "عندما يلقي شيوخ آخرون محاضرات، فإنهم يأتون غالبًا بتذاكر من الدرجة الأولى، برفقة حاشيتهم، ويقيمون في أفضل فنادق المدينة". لكن أكرم يأتي بمفرده، بالحافلة، أو بالقطار، أو يقود سيارته بنفسه. قالت بإعجاب: "إنه متواضع للغاية، لدرجة أنه يمر دون أن يلاحظه أحد تقريبًا". يرتدي العديد من العلماء ملابس متخصصة تميزهم كشيوخ – العمائم، أو الجلابيب ، أو المعاطف الطويلة وطواقي القراكول. لكن نادرًا ما يرتدي أكرم مثل هذه الملابس. فقد قال لي: "لا أحب ارتداء الملابس التي تميزني عن الناس". ولم يكن هذا مجرد قول فقط، بل كان يلتزم بعادة النبي محمد في ارتداء نفس الأقمشة الخشنة والبسيطة التي كان يرتديها أصحابه.

لقد اعتقد الشيخ أن كل هذه الطاقة المبذولة في إظهار الهوية الإسلامية، وفي الأحزاب السياسية الإسلامية، وفي القلق بشأن مقتضيات اللحى والحجاب، إن هو إلا دليل على مدى انحراف الكثيرين. وأوضح قائلاً: "عندما يبتعد الناس عن نقاء الدين، تصبح المظاهر الخارجية للدين هي الهوية. عندما يكون لديك تقوى، فلن تحتاج إلى فتاوى". غير نفسك! وليس النظام، كان ينصح. لا يهم حقًا أين أنت، سواء كنت في ليفربول أو لكناو. صلِّ. تواصل مع غير المسلمين. اعمل. ابتسم. لا تتذمر. استخدم بحكمة المساحة التي وجدت نفسك فيها، وسيتكفل الله بالباقي.

لقد بدت لي هذه الدعوة إلى الصبر مخالفة للثقافة السائدة، فقد تربيت في الغرب على السعي إلى المزيد والأفضل والجديد والآني. لكن أن تقبل ظروفك دون شكوى! لم تكن مثل هذه الفضائل رائجة منذ ما قبل الثورة الفرنسية. ففي موطني، كان ادعاء عدم الرضا عن الوضع الراهن هو شيء يفعله الجميع. "فكر بطريقة مختلفة!"، هكذا كانت تنصح إعلانات شركة آبل. "اعترض على السلطة!"، هكذا كانت تقول ملصقات السيارات.

عندما نزلت من القطار القادم من ليفربول وعبرت محطة كينجز كروس، رأيت شاباً ذكرني بأن المرء يمكنه أن يمارس التقوى ويقبل مكانه على الرغم من الملهيات الحديثة وعدم الرضا الغربي. كان الناس يتدفقون من القطارات نحو شوارع المدينة المزدحمة، إلى المطاعم وسلسلة المتاجر، بينما كان الرجل صامتاً، يقف جانبًا. وتحت قوس في زاوية من المحطة، وضع حقيبته الليلية، وبسط سجادة، وبدأ يصلي. كانت الحشود تمر من حوله، وكانت آلات بطاقات الائتمان تطنطن، وكان اصطفاق الكؤوس الزجاجية يُسمع في المقاهي القريبة، لكنه على سجادته، ومع صلواته، وجد سلاماً منفصلاً.

عندما شاهدت الشاب في كينغز كروس، أدركت كيف جعل أكرم من لكناو، ومن ثمَّ إنجلترا، وطنًا له. كانت الصلاة هي الوطن، حتى لو كنتَ بعيدًا عن وطنك، فلا بدَّ من العودة خمس مرات يوميًا، إلى الأصول، بغض النظر عن المكان الذي يجد المرء نفسه فيه في العالم.

الجزء الثاني

المنزل

(٦)

الحياة الريادية في أكسفورد

إنَّ البيت هو المكان الذي يبدأ منه الإنسان، كما قال تي إس إليوت والشيخ. يقول الشيخ إن البيت المسلم الجيد يؤدي إلى حياة مسلمة طيبة، سواء في لاس فيجاس أو لاهور. ومنذ عصر التوسع الإمبراطوري الغربي بشكل خاص، ظل البيت ربما الساحة الأكثر سخونة في الثقافات الإسلامية. فعلى مدى قرون، كانت هناك توترات بين المحافظين والمجددين تدور حول الحياة الأسرية، وأدوار النساء والرجال فيها. وفي كل الأحوال تقريباً، كانت القضية تدور حول حقوق المرأة. وقد تُشيِّد المجتمعات الإسلامية ناطحات سحاب براقة، وتخلع طغاتها، وتعيد صياغة قوانينها المصرفية والتجارية، لكن عاداتها وقوانينها المتعلقة بدور المرأة، تظل إلى حد كبير دون إصلاح. وسواء في المناقشات حول لباس المرأة، أو حقها في الذهاب إلى المدرسة، أو العمل، أو اختيار شريك حياتها، كانت المرأة في الخط الأمامي من الصراع بين التقليد والتغيير.

إن حماية شرف المرأة يشكل شعارًا عاطفياً للمحافظين، من طالبان إلى رجال الدين السعوديين المحافظين. وفي بعض الأحيان، استخدمت القوى الغربية القضية لصالح أجنداتها الخاصة، فجعلت من تحرير المرأة المسلمة، أثناء الحروب الأجنبية، أمراً بالغ الأهمية. وبالنسبة للمجددين والمحافظين على حد سواء، فإن وضع المرأة يعتبر مقياساً لعقلية البلد. ولطالما اعتبر المحافظون تحرير المرأة مستوردًا حديثًا من الغرب ـ أو ما هو أسوأ من ذلك، مؤامرة إمبريالية. وفي رأي إحدى الصحف الأسبوعية الصادرة في طهران بعد الثورة، فإن النساء هُنَّ الأسلحة الخفية للمستعمرين، أو "هُنَّ أفضل وسيلة لتدمير الثقافة الأصلية لصالح الإمبرياليين".

إن "تحفة الشيخ الرائعة" تحطِّم التناقض المزعوم بين حقوق المرأة والإسلام. فالمجلدات الأربعون من عمله "المحدثات: النساء العالمات في الإسلام" هي دليل على أن حريات النساء تشكل جزءاً جوهرياً من التقاليد الإسلامية، وأنها كانت كذلك منذ القرون الأولى للإسلام. وعلى غرار أعمال النسويات الإسلاميات، تؤكد اكتشافاته أن الثقافة الأبوية، وليس المبادئ الإسلامية، هي التي تقيد النساء في كثير من الأحيان.

كانت محادثاتي مع الشيخ حول أدوار الجنسين مطمئنة ومزعجة في الوقت نفسه. ففيما يتعلق بحقوق المرأة في الدراسة والعمل، وتعطيل الأدوار الجنسانية العتيقة للأعمال المنزلية،

كانت معتقدات الشيخ تكاد تتطابق مع معتقداتي. بل في بعض الأحيان، كانت حدود نظرته صادمة، لدرجة أجبرتني أحياناً على إعادة النظر في نظرتي. فإذا كانت قراءتي للقرآن قد أظهرت لي ما تسمح به التقاليد الإسلامية، فإن قضاء الوقت مع الشيخ وزوجته وبناته سمح لي برؤية كيف تعيش عائلة واحدة هذا التقليد بشكل عملي.

* * *

بطبيعة الحال، كان لزاماً علينا أن نأخذ معنا الهدايا، في اليوم الذي اصطحبت فيه ابنتَي لتناول الغداء في منزل الشيخ. لقد تعلمت هذا الدرس في جمداهان، حيث غمرني سخاء شقيقات الشيخ أنا وحقيبتي. لقد عدت إلى بريطانيا ومعي مجوهرات مرصعة بالماس، وشالات مطرزة، وأطقم من الشلوار والكاميز[٤٠]، لكن المعاملة بالمثل كانت صعبة. كنت أرغب في إرسال الألعاب إلى أبناء وبنات أخيه، لكنني لم أكن أرغب في مخالفة القيود الإسلامية في حظر الصور المجسمة. لقد جعل حظرُ عبادة الأصنام، قسمَ الألعاب في موقع أمازون بمثابة حقل ألغام. فأيُّ شيء يتضمن دمى متحركة محظوراً، وبدا كل شيء للأطفال في سن ما قبل المراهقة مشبعاً بالإيحاءات الوردية المزعجة. كنت متأكدة من أن الكبار في جمداهان سينظرون بعين السلبية إلى دمية "باربي" المتجددة. لذا فقد اخترت كتب التلوين ومجموعات الحرف اليدوية. وكما اتضح فيما بعد، لم يكن هناك داعٍ للقلق: فقد وجدت فيما بعد فتوى من شيخ معتبر، يزيل القيود المعتادة على الأصنام والتماثيل في حالة لعب الأطفال والدمى.

وعلى النقيض من أبناء عمومتهم في جمدهان، يتحدث أبناء الشيخ اللغة الإنجليزية، الأمر الذي جعل اختيار الهدايا أمراً سهلاً. وقد رأيت أصغر أبناء الشيخ، عائشة البالغة من العمر تسع سنوات، وهي تقرأ كتاباً من سلسلة "هنري الفظيع" أثناء محاضرات والدها. وكانت ابنتي نيك البالغة من العمر تسع سنوات من المعجبين بالكتاب، لذا أحضرنا لها بعض الكتب. كما أحضرت معي نسخة من كتاب "البيت الصغير في البراري"، ليس فقط لإزعاج الآخرين بما أحببته في طفولتي، ولكن لأن حياة الشيخ في أكسفورد تذكّرني كثيراً بحكايات لورا إنجلز وايلدر عن حياة الرواد الأميركيين. ومثل عائلة إنجلز، كان الشيخ وزوجته فرحانة خاتون

[٤٠] الكاميز: نوع من الملابس التقليدية في جنوب آسيا، وتحديداً في الهند وباكستان وبنغلاديش.

يربيان أسرة في منطقة مجهولة. وبطبيعة الحال، يفعل كل الآباء المهاجرين هذا، لكن القواعد الأخلاقية للزوجين جعلت أوجه التشابه أكثر وضوحاً.

ولم يكن الأمر ببساطة بسبب أن وسائل الترفيه التي كانت تستخدمها عائلة أكرم، سواء أكانت لعبة "أنا أرى بعيني شيئًا.."، أو صنع رقعة شطرنج من الورق المقوى والأزرار، تعود إلى القرن التاسع عشر. بل أيضاً بسبب أن كلاً من عائلتَي أكرم وإنجلز يتمتعان ببنية أخلاقية مبنية على الحرمان والعمل الجاد والتحمل، وفوق كل شيء الخوف من الله.

في اليوم المحدد، توجهنا إلى المنزل المبني من الطوب ذي الزخارف البيضاء، ومررنا بسيارة العائلة الفولكس فاجن، وقرعنا الجرس. كنت قد أبلغت جوليا ونيك في الحافلة أننا سنلتقي فقط بابنتي الشيخ الصغيرتين وزوجته. ولن يكون هناك ألعاب فيديو أو معكرونة على قائمة الطعام، وحدثتهما عن ضرورة التصرف بأفضل السلوك وإبداء محاسن الأخلاق.

ولقد فعلتا ذلك، بارك الله فيهما. ولم يكن الخطأ الوحيد الذي لاحظته نابعاً من الوقاحة، بل من فرط الحماس. ففي اللحظة الأخيرة، قررت نيك أن تحضر هدية خاصة بها لبنات الشيخ: تمثال ثعبان بحجم راحة اليد فازت به في اليوم السابق في لعبة من فئة البنسين في صالة الألعاب في برايتون. وعندما دخلنا من الباب، أخرجته من جيب بنطالها الجينز ودفعته نحو عائشة التي بدا عليها الارتباك. صاحت نيك: "هذا لكِ! ولقد حصلت عليه من القمار!" وقد رفعت ذراعيها ووضعت ساقيها في وضعية البطل المنتصر.

لقد شعرت بالانزعاج. فالقمار حرام، والقرآن يحذر صراحة: "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ". ولكن ها هي نيك، وهي بالكاد تخطو من عتبة الباب خطوة أو خطوتين، تتفاخر بأرباحها وكأنها جزء من طاقم فيلم "أحد عشر محيطاً". والتفاخر أيضاً ليس من الإسلام، وقد حذر القرآن: "ولا تمشِ في الأرض مرحًا، إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك، واغضض من صوتك".

ولحسن حظي، لم تلاحظ عائشة وفاطمة ذلك، أو ربما كانتا مهذبتين للغاية بحيث لم تعلقا. فضلاً عن ذلك، سرعان ما طغى إعجابنا بالمنزل على صخب نيك. أما ابنتي جوليا، البالغة من العمر إحدى عشرة سنة، فقد كانت تتسم بأدب شديد، مثل زوجة كاهن فيكتوري مفعمة بالحيوية. فصاحت: "كم هناك من الضوء! كم هو جميل! ولديكم حديقة! أليس هذا رائعًا؟"

ولقد كان الأمر كذلك حقاً. فقد أعادوا تصميم غرفة المعيشة منذ آخر زيارة لي، وكان التأثير أنيقًا دون قصد. وتم استبدال السجاد الباهت بألواح خشبية أرضية. وكانت فناجين الشاي تتدلى بشكل أنيق على خطافات في خزانة خزفية. وكان لون الجدران الناصع يتوهج تحت ضوء الشمس، مما جعل الزخرفة الوحيدة في الغرفة، كلمة "الله" بخط عربي أنيق، تبدو بسيطة وساحرة.

وفي وقت لاحق، قالت جوليا بحماس: "كان بيتهم نظيفاً جداً! ومرتباً للغاية!". هكذا تحدثت طفلة كانت تعيش في منزل مليء بالفوضى الصاخبة، حيث الأثاث مزيج من السجاد الشرقي والنحاس المصري والمرايا الباكستانية.. كل هذا جميل، لكنه يعكس الميل الذي ورثته من والدي في جمع الأشياء. لقد صُدِمتْ جوليا من بساطة منزل الشيخ. إذْ عكس ذلك البيت حسّاً عميقاً من الوضوح، وكأن الروح التي تسكنه منظمة ومختصرة، كما لو كان مجلة مكرسة لتبسيط الحياة، أو متجرًا لبيع أدوات تنظيم المنزل والمطبخ. وقد كانت نظرة الشيخ للعالم تبشر بوعد جذاب بالنظام.

عندما نظرت إلى كلمة "الله" المضيئة على الحائط، تذكرت أن هذا النظام بني فقط من الكلمات. وفي أوساط غير المسلمين، من الشائع أن نقول إن الكاتب أو الشاعر منغمس في اللغة بشغف وعاطفية. لكن العلاقة الدنيوية بالكلمات، مهما كانت عاطفية وشغوفة، لا ترقى إلى حياة أكرم. فحياته مبنية على الكلمات. والكلمات الإلهية القرآنية تشكل الأساس لوجوده. ولأنه نشأ في قرية لا يوجد بها تلفاز، أو أفلام، أو لوحات دعائية، أو متاحف، فقد تلقى كل معلوماته عن العالم الخارجي شفهياً، إما من خلال الراديو أو من صفحة كتاب. وكصبي صغير، استمد أكرم معلوماته عن العالم من القرآن، ثم من كتب الشعر الفارسي. وعندما ذهب إلى ندوة العلماء، ازداد انغماسه في الكلمات، من خلال دراسته لقواعد اللغة العربية الكلاسيكية. وهي مادة أساسية في أي مدرسة دينية، تزود الباحث الإسلامي بالأدوات اللازمة لتحليل معنى كلام الله.

كان الشعر هو متعته الفنية الوحيدة، فهو له بمثابة "حرب النجوم، والمواطن كين، والرقيب بيبر، والموناليزا..." بالنسبة لنا. وقد كانت ذاكرته تختزن كميات هائلة من الشعر، لذا كان كثيراً ما يزين محاضراته بأبيات شعرية من سعدي، أو بمقاطع غزلية من حافظ، لتوضيح

فكرة أو لجذب الانتباه. وكان يسمح لنفسه يومياً، بعد صلاة الفجر، ببضع دقائق لقراءة قصيدة أو قصيدتين. وقد قال لي ذات مرة: "الشعر يلين القلب، عندما يُقرأ في الصباح".

* * *

كانت زوجة الشيخ فرحانة في الأربعينيات من عمرها، ووجهها مستدير كالقمر. وقد بدت لي وكأنها تتمتع بجسم صلب كجسم امرأة رضيت بنصيبها في الحياة ومضت دون تذمر. كانت تتحدث القليل من الإنجليزية، لذا اعتمدنا على فاطمة البالغة من العمر أربعة عشر عامًا للترجمة. بعد وصولنا، ظهرت فرحانة لفترة وجيزة، وعانقتني، ثم سارعت إلى المطبخ لإعداد الغداء. جلسنا على الأرائك مقابل فاطمة وعائشة، كلتاهما ترتديان ملابس وردية اللون، وتركتا شعرهما الطويل مكشوفًا، حيث لم يكن هناك رجال حولهما. أنا وجوليا تحدثنا وضحكنا وسألنا. نعم، لقد كانتا تستمتعان بإجازتهما. نعم، كانت عائشة تحب كتب جاكلين ويلسون، تمامًا مثل جوليا.

ولغرس التواضع في نفوس أبنائه، كان الشيخ مقتصدًا في مدحه لبناته. فعندما كنّ يأتين إلى المنزل بدرجات جيدة، كان يخبرهن أنهن قمن بعمل جيد، لكنه كان يسألهن دائماً: "هل هناك من هو أفضل منكن؟" لم يكن يسعى من منطلق تنافسي كأحد الآباء المهووسين، بل كان ذلك مدفوعاً بالحرص على التقوى والتواضع الذي تتطلبه. وكان ينصحهن: " لا تفتخرن أبداً. إذا نجحتن، فقلن: "يا الله، لقد مننت عليَّ بهذا. كل شيء منك على كل حال".

كانت طاولة الغداء هادئة؛ لم يكن هناك سوى صوت ارتطام الأطباق وأدوات المائدة. كانت فرحانة قد ملأت طاولة الطعام بأطباق من السمك بالكاري والأرز البرياني والبيتزا الصغيرة. جلست على رأس الطاولة، ولم تأكل حتى رأت أننا بدأنا نأكل. أثناء مراقبتي لها، فكرت في ملاك المنزل، الزوجة الفيكتورية المضحية بنفسها التي استحضرتها فرجينيا وولف: "إذا كان هناك دجاج، فإنها تأخذ الساق، وإذا كان هناك مكان بارد، غير مريح، فإنها تجلس فيه وتترك للآخرين الأماكن المريحة". وعندما صعدت ابنتاي إلى الطابق العلوي مع عائشة لرؤية الهامستر[٤١] العائلي، حاولت معرفة المزيد عن فرحانة، بمساعدة فاطمة كمترجمة.

[٤١] الحيوان الأليف الذي تربيه العائلة

نشأت فرحانة في قرية تبعد حوالي نصف ساعة عن جمدهان. سألتها: "ما الذي كان يفعله والدكِ لكسب العيش؟ هل كانوا أصحاب متجر، مثل عائلة أكرم، أم مزارعين؟"

" مزارعين "

" وهل ذهبت إلى مدرسة دينية مثل زوجك ؟"

" لم يكن في بلدتها مدرسة، وتوقفت المدرسة عند السنة الرابعة " ترجمت فاطمة.

وهذا يعني أن تعليمها انتهى في سن التاسعة. "كم كان عمرك عندما تزوجت ؟"

رفعت عشرة أصابع، ثم ستة أخرى. لم تر الشيخ قط قبل يوم زفافها؛ فقد رتب كبار العائلة الأمر.

لقد بدأت حياة فرحانة في قرية، ثم امتدت عبر الأرض. ولم تكن قصتها مختلفة عن قصص مئات الملايين من البشر في العصر الحديث. ولكن ذلك لم يقلل من فداحة ترك حقول جمدهان الخضراء، وركوب الطائرة، والخروج إلى صخب مطار هيثرو. فكرت في البطولة الفردية التي تطلبها ترك حياتها في ساحة جمدهان والعيش وحدها في أكسفورد الرمادية، لتربية بناتها في ثقافة غريبة لا تتحدث لغتها.

حاولت من زاوية أخرى فقلت لها: إنني سمعت أن نساء القرية في جمداهان كنّ يذهبن للزيارة بعد حلول الظلام، عندما لا يراهنّ أحد، وذلك بالتسلل من بيت إلى آخر فوق أسطح المنازل. ومع ذلك فإنني أعتقد أن أوكسفورد بدت موحشة بعض الشيء في البداية؟

لقد كان سؤالاً استفزازياً، كنت أعلم ذلك، ولكنني كنت أبحث عن المزيد. فسألت: ما أكثر شيء تفتقدينه هنا؟

وجاء جوابها سريعًا ومؤكدًا: "والديَّ"، ثم قالت بهدوء "أخي ".

لقد توفي الوالدان الآن، وكان شقيقها في المملكة العربية السعودية.

" آه،" قلت، مسرورة بهذه المعلومة الثمينة: "ماذا يفعل في السعودية؟"

نظرة مستغربة!

" أعني، ما عمله ؟"

ردة فعل سريعة بالأردية. قالت فاطمة: "لم تسأله من قبل".

هل كان تحفظ فرحانة ثقافياً أم شخصياً أم كلاهما؟ أياً كان، فإن فضولي حول حياتها قد بدا لها على الأرجح وكأنه تجسيد للفضول غير اللائق. إظهار المرء لأجزاء من نفسه كمعروضات، والسماح لزائر عابر بالعبث بذكرياته، كان تلك ثقافة فردية غريبة عليها. على أمل أن تبدأ بالحديث عن طفولتها، سألت عن الألعاب التي كانت تلعبها عندما كانت صغيرة. فنظرت إليّ بحذر.

"هل سيكون هذا في الكتاب؟" سألت وهي تبتسم بانزعاج لطيف.

" أمم، كلا، إذا لم ترغبي بذلك ".

كنت أعلم أن عليّ إنهاء الحوار، لكنني لم أستطع مقاومة سؤالها عن المحاضرات المفضلة لها لزوجها، والتي أثرت فيها بشكل أعمق.

"هي لا تفهمها جيداً"، قالت فاطمة. "كلها بالإنجليزية"

غادرت الغداء ومعي صورة مؤطرة بشكل أنيق لزواج أكرم وفرحانة. كنت قد قرأت قصص الأخبار عن الجيل الأول من نساء جنوب آسيا في بريطانيا، اللواتي أرهقتهن العزلة والتقاليد. كنت على يقين من أنني أعرف ما يجري هنا: زوج مشغول مع زوجة معزولة عن وطنها وثقافتها؛ تعاني من بؤس المنفى، مثقلة بالأعمال المنزلية، وسجينة بالتقاليد.

هكذا كانت محاولتي لحشرها في سردية ثقافية كبرى، ولم يمضِ وقت طويل حتى أدركت أن رؤيتي لها كملاك البيت لفيرجينيا وولف كانت ضربًا من الخيال.

اتضح لاحقاً أنها كانت تشعر بصداع في ذلك اليوم. وسأعرف لاحقاً أنها لم تكن الزوجة المنزلية المطيعة التي تخيلت. كانت عضواً نشطاً وموضع احترام في المجتمع الإسلامي، تعمل في الأعمال الخيرية، وتدير عملها الخاص في الخياطة، وتتمتع بروح دعابة ذكية.

ولكن في النهاية، لو كنت أتحدث الأردية، لكنت قد استمتعت بذكائها السريع. (قال لها أحد ضيوف الغداء ذات مرة: "ممم، هذه المعكرونة لذيذة، من الذي طبخها". فقالت: "الشيخ". فقال الطالب: "حقا؟". فقالت فرحانة مازحة: "لا، ليس حقا!". فقالت: "هل تعتقد أن الشيخ يطبخ هذا ؟".

في المرة التالية التي أتيت فيها للإقامة، أشرق وجه فرحانة. كان وجهها طفوليًا تمامًا. كانت تضحك وهي تداعب أحفادها، وتكافئهم على حسن سلوكهم بقطع معدنية من فئة عشرة

بنسات من محفظتها. كنت سأبيت الليلة، لذا عندما قمت بفتح حقيبتي وأريتها البيجاما الجديدة التي تلقيتها للتو في عيد ميلادي، أصرَّت بأن أرتديها كي تراها.

* * *

لقد كان لزاماً عليّ أن ألتقي بسُمية، الابنة الثانية لأكرم وفرحانة، لكي أدرك مدى قوة الشجاعة التي تحلت بها فرحانة لتربية أطفالها الستة في بريطانيا. فعندما كانت سمية شابة، كانت فرحانة هي التي تأخذ الفتيات إلى المدرسة، وتنتظرهن في المنزل عند عودتهن، وتتولى إعداد وجباتهن، وغسل ملابسهن، وتأديبهن. تقول سمية: "لم يكن عمل أبي ليتم لولاها، ولم يكن ليحظى بوقت كافٍ لكتابة الكتب، أو السفر إلى الخارج، أو التدريس، أو إلقاء المحاضرات. لقد قدمت الكثير من التضحيات".

كانت سمية، وهي امرأة واثقة من نفسها في أواخر العشرينيات من عمرها، دليلاً على أن التضحيات التي قدمتها فرحانة كانت مثمرة للغاية. فقد تزوجت سمية من طالب طب، وكانت أماً لصبي يبلغ من العمر تسعة أشهر اسمه عاصم. وعندما ذهبت لزيارتها في منزل العائلة في ضاحية لندن، كانت تداعب عاصم أثناء طهي الغداء متعدد الأصناف، بعد أن أعدت وجبات الطعام لأقارب زوجها المرضى. وكل هذا بينما كانت تساعد والدها في تنظيم المحاضرات، وتناقشه في العروض المقدمة لها للحصول على درجة الماجستير في كليتين مرموقتين في لندن، واحدة لدراسة اللغة العربية، والأخرى لدراسة التاريخ.

ورغم أن الشيخ كان له ست بنات، فلم يكن هناك أي شك في أن طموحاته في تعليمهن تضاءلت لكونهن فتيات. وكان يقول لطلابه: "لم يحب النبي قط أي شخص يعامل النساء بشكل مختلف عن الرجال". ثم كان يحكي لهم عن مشاهدة محمد لرجل يستمع إلى خطبته مع طفليه. فلما وضع الرجل ابنته على الأرض، وأجلس الصبي في حجره، ذهب النبي إلى الرجل وسأله بشكل واضح: "لماذا لم تعاملهم على قدم المساواة ؟".

بدأ الشيخ بتعليم البنات المواد الإسلامية وهن في المرحلة الابتدائية. في الصباح كنَّ يدرسن اللغة العربية لمدة ساعة، وفي المساء كن يدرس الحديث والقرآن لمدة ساعتين أو ثلاث، بالإضافة إلى واجباتهن المدرسية المعتادة، كان الشيخ يجلس معهن من الخامسة إلى الثامنة مساء كل يوم أثناء قيامهن بواجباتهن.

وقد ساعده في ذلك عودتهنَّ دائمًا إلى المنزل مباشرة في نهاية اليوم الدراسي. كان أكرم ينظر إلى المدرسة كمكان يذهب إليه المرء للتعلم، وليس مكانًا للتسكع في النادي الرياضي أو نادي الدراما. لم تكن هناك حفلات أعياد ميلاد لبنات أكرم. فإقامة حفل لمجرد مرور عام إضافي من الحياة هو جزء من إرادة الله ونظامه الإلهي، وليس إنجازًا حقيقيًا يستحق الاحتفال. لذلك كان يرفض تنظيم حفلات لهذه المناسبة لأنها تعني ضمنياً نسبة الفضل للبشر على ما هو من شأن الله. لذا تم الاحتفال بالإنجازات الحقيقية، فحصلت الفتيات على حفلات في الفناء الخلفي عندما انتهين من ختمة القرآن. لقد أتمت عائشة، أصغر أبناء الشيخ، ختمة القرآن في سن صغيرة بشكل غير عادي في سن الخامسة، لذلك تميز حفلها بلعبة القفز الهوائية وكعك. وشاركتها في الاحتفال فاطمة، التي تكبرها بست سنوات: "نعم، كانت تقرأه، وأنا كذلك، وعندما سمعت أنها انتهت منه، فكرت أنني يجب أن أتعجل"، ابتسمت فاطمة. "قال الجميع إن الحفلة كانت لنا نحن الاثنتين، لكن..." وجه فاطمة كان يوحي بأنها كانت تعرف أفضل.

في عطلات نهاية الأسبوع، كانت الأسرة تختار مكانًا من طريق أطلس إلى بريطانيا وتستقل السيارة لاستكشافه. كانت هناك نزهات، وفي إحدى المرات، كانت الأسرة تمارس ركوب الخيل. وفي الصيف، بعد صلاة الفجر، كانت الأسرة تمشي إلى الحديقة المحلية للعب تنس الريشة أو لعبة المطاردة. وفي المساء، كانوا يخصصون وقتًا للدردشة، حيث كان أكرم وفرحانة يحتسيان الشاي وتنزل الفتيات من غرفهن للانضمام إليهم. لفترة من الوقت، كان هناك تلفزيون، وكان الأطفال يشاهدون الرسوم المتحركة وكانت فرحانة تشاهد المسلسلات الهندية. وبعد فترة، بدأ أكرم يقول بصوت عالٍ "لا أحد لديه وقت للتحدث مع الآخر، أو معه". تقول سمية: "ذات ليلة، بعد إحدى هذه التعليقات، أخرجت والدتي التلفزيون وقررت التخلص منه". ووضعته بالخارج مع القمامة.

في صباح اليوم التالي، فكرت فرحانة في الأمر بشكل أفضل، فذهبت لاستعادة التلفزيون، لكنه كان قد اختفى. ضحكت سمية قائلة: "كما هو الحال دائمًا، حصل والدي على ما يريد دون أن يضطر إلى قول أو فعل أي شيء بشكل مباشر".

كانت حادثة التلفزيون هي أسلوب الشيخ في العمل: اقترحْ ولا تطلبْ. وتذكّرتْ قائلة: "لم يكن يصرخ أبدًا". "كان يصمت، وهذا أسوأ. ولم يطلب منا أبدًا أن نفعل الأشياء بشكل مباشر، ولكن بطريقة ما كان ينتهي بنا الأمر إلى القيام بها على أي حال".

في تربية الأبناء، كما في أمور أخرى، كان شعار الشيخ هو الصبر. قال لي: "لا ينبغي للناس أن يتوقعوا ما يريدونه في اللحظة التي يريدونه فيها. يجب أن تحدث الأمور في اللحظة التي يريدها الله. إذا كنت أريد لأطفالي أن يتصرفوا بشكل لائق، حتى لو شعرت بالانزعاج، فعلي أن أفكر، "حسنًا، إذا لم يكن اليوم، فغدًا، وإذا لم يكن غدًا، ففي وقت ما". يجب أن تأتي الثمار عندما يريد الله. إذا كنت تستطيع التحكم في رغبتك، فستحصل على ما تريد".

لم تكن هناك تمردات حقيقية على أية حال. "لم نمر أنا وأخواتي بمرحلة المراهقة"، هكذا قالت سمية، التي ربما كانت تعتقد أنها ربما أغلقت الباب عدة مرات. ففي المدرسة، لم يكن لدي أي فكرة عما كان يحدث. عندما كانت الفتيات يتحدثن عن خروجهن في الليلة السابقة إلى أحد النوادي، اعتدت أن أسألهن فقط، "كيف سمح لهن والداهن بذلك؟". وعندما كن يخبرنني أن والديهن لم يسمحا لهن بالخروج وأنهنَّ تسللن، كان ذلك صادمًا لي. كنت أقول، "لكن والديكما كانا قلقين عليكنَّ كثيرًا! لا بد أنهما كانا ينتظرانكنَّ!" كان ردهنَّ: "من الطبيعي ألا تخبري والديكِ بمكانك!".

ولم يكن هناك أي مجال لخروج بنات أكرم إلى النوادي أو في مواعدات، لكن الشيخ كان يؤمن بأن الأطفال بحاجة إلى بعض الحريات. فكما أن الحكومات الإسلامية ستفشل حتماً عندما تحاول تشريع التقوى في شعوبها بقوانين الشريعة، فإن الآباء لن يربوا أطفالهم على الأخلاق بالتشدد والصرامة. "وأوضح قائلاً: "يجب أن يكون للناس الحق في الخطأ. "عليك أن تعطي الأطفال مساحتهم، وأن تعلمهم جيدًا. والأمر متروك إليهم فيما إذا كانوا سيحسنون التصرف أم لا".

عندما تخرجت سمية من الجامعة، بدأ والداها في الإشارة إلى شاب يحضر دروس الحديث مع والدها في عطلة نهاية الأسبوع. قالت سمية ضاحكة، "أخبرني والدي نوعًا ما أن أنظر إليه. وكل يوم أحد، كانت أمي تقول: اذهبي وانظري كيف يبدو! لحيته بهذا الطول! ونظارته هكذا. وكنت أقول لها: "لا يهمني ما رأيكِ فيه يا أمي!"

تزوج الزوجان منذ خمس سنوات. تقول سمية: "لا أعتقد أن أي شخص آخر يمكن أن يكون أفضل لي". لو كانت مخطوبة في جمداهان، لكانت محظوظة لو سُمِح لها برؤية عريسها لمرة واحدة قبل الزفاف: فوالداها لم يلتقيا قبل زفافهما. أما هي فقد سُمح لها ببعض اللقاءات برفقة

مرافق قبل الخطوبة، حيث لم تجد أي سبب لرفضه: "لقد انتهى بنا المطاف معاً على أساس: "كيف يمكنني أن أرفض؟".

بالطبع، كان بإمكانها أن ترفض. فالإسلام لا يسمح بالزواج القسري. ومثل والدها، كانت سمية تعتقد أن لكل فرد الحق في اتخاذ خيارات شخصية. ولكنها مثله، كانت تدرك أن الناس بحاجة إلى حدود، وكانت متشككة في ثقافة الفردية التي تهيمن على الحياة الغربية. وتبدأ هذه الثقافة في وقت مبكر للغاية، حتى أنها قالت متعجبة: "حتى في الحضانة، في عرض شيء ما أمام الأصدقاء، هناك شعور "انظر ماذا أملك". فهناك تركيز على حقيقة أنه شيء يخصك وتفخر به".

لم أكن أتصور قط أن عرض الأغراض للأصدقاء في المدرسة يشكل اللبنة الأولى لبناء الفردانية لدى الطفل. لكن عندما نظرت إليه من خلال عيني سمية، بدا الأمر فجأة وكأنه استكشاف مبكر لثقافة الذات: المناشف المنقوشة بالأحرف الأولى، ولوحات السيارات الخاصة، وحقائب اليد التي تحمل الشعارات ـ كل هذا استعراض دائم لعرض تميز الفرد. فإذا كانت الثقافة الغربية لها أهداف جديرة بالثناء، تتمثل في التعبير عن الرأي والتميُّز، فإن هذه القيم تجلب أيضاً أضراراً جانبية: عبادة التخصيص.

تقول سمية: "في هذا البلد، يتم تلقيننا باستمرار: "هذه حياتك، وافعل بها ما تريد". عندما كانت في المستشفى أثناء ولادتها لعاصم وأراد الأطباء موافقتها على إجراء عملية جراحية، ظلوا يقولون: "نحن بحاجة إلى موافقتك". وفي منتصف المخاض "لم تكن في حالة ذهنية تسمح لها بمناقشة الإيجابيات والسلبيات!" - أحالتهم إلى زوجها. "لكنهم ظلوا يقولون: "إنها رغبتك". فقلت: "أريدكم أن تسألوا زوجي! لكنهم رفضوا: كانوا بحاجة إلى موافقتي! كيف يمكن أن تكوني امرأة في المخاض، تحت تأثير التخدير، شخصًا يصلح للرد؟ ومع ذلك يطلبون موافقتك!".

بالنسبة لسُمية، أظهرت الحادثة الهوة بين النظرة العلمانية الغربية للعالم ونظرتها الخاصة. لقد حيرتها فكرة أن أي شخص يعتقد أنه يمتلك مصيره، أو حتى يمتلك جسده بالكامل. فكل شيء ملك لله. وقالت: "لا ينبغي لك أن تتبنى هذا الموقف القائل بأنني أفعل ما أريد، لأن

هذه حياتي، لأن أول شيء تعلمته هو أن هذه ليست حياتك. نحن نؤمن بأن الله أعطاك هذا الجسد لتحافظ عليه".

لكن هذا لا يعني أن سمية لا تجري تعديلات مؤقتة على الجسد الذي تم تكليفها به. مؤخرًا، أرادت أن تصبغ شعرها، وهو أمر قال والدها عندما سألته إنه يفضل ألا تفعله. ومع ذلك، كانت سمية، كأي مسلم، حرة في البحث عن رأي أي عالم تختاره، فذهبت لرؤية شيخ يتبنى نظرة أكثر مرونة حول صبغ الشعر. وبعد الحصول على فتواه، قامت بصبغ شعرها.

* * *

كان عاصم جالساً يعض قبضته، وكان يقرقر. لقد كانت سنته الأولى صعبة على سمية. كان طفلًا جميلًا بعيون واسعة وخدود ممتلئة، لكنه كان كثير البكاء، مما يعني أن سمية لم تنم كثيرًا طوال عام مضى. قالت: "تقول أمي إنها لم ترَ طفلًا مثله من قبل، إنه يبكي باستمرار، لا يبدو أن علاجًا ينفع معه". في بعض الأحيان، كانت تضع تسجيلاً لأبي بكر الشاطري، قارئ القرآن المفضل لديها، والذي بدا أنه يهدئه. كانت سمية نفسها تجد سلامها عندما تقرأ سورة "الرحمن" المفضلة لديها. قالت: "عندما أكون متوترة، تذكرني السورة بمدى ما لدي من نِعم". وخلال ذلك العام الذي كانت قضته سمية مع طفلها الرضيع في إحدى ضواحي لندن، كانت السورة من خلال تفصيل خلق الكون تفتح أمامها آفاقًا أوسع، وتبعد نظرها عن زجاجات الأطفال وعلاجات المغص. ثم قالت بحسرة: "لكن نظرًا لأسلوب حياتنا هنا، فإننا غالبًا لا نرى السماء لنتفكر فيها".

" مع كل هذه التكنولوجيا الحديثة، ننسى أحيانًا الأشياء الأصلية. إذا انقطعت الكهرباء، فإن أوروبا ستتوقف عن الحركة. لكن الاستماع إلى سورة "الرحمن" تذكرنا بما لدينا من النعم العظيمة". لكن من السهل أن نتذكر هذه الوفرة من النعم في جمداهان، حيث تكون الشمس حارة، وجدول اليوم يتماشى معها، سواء أكنت جالسًا في الفناء، أم تشاهد الشروق أو الغروب من على السطح.

عندما عدت إلى المنزل من بيت سمية، فتحت سورة "الرحمن" التي يعكس إيقاعها الثابت منطقها الصارم:

وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(الرحمن:١٠-٢٥)

يُعرف القرآن الكريم بأنه "كتاب الآيات". وتعني كلمة "آية" في اللغة العربية "آية قرآنية"، لكنها تعني أيضًا "العلامة"، فكما أن كل آية في القرآن هي علامة، كذلك الطبيعة. فمجرة درب التبانة، وشجرة البتولا، والنسيم، كلها وجدت لهداية البشر نحو الإيمان. إن قراءة هذه الآيات ليست فقط للإيمان، بل للتدبر، تمامًا كما طلبت سورة "الرحمن".

أثناء قضاء الوقت مع الشيخ وعائلته، شعرت بمدى امتنانهم للأشياء الصغيرة، ومدى تكرارهم لذلك. ولم أرَ في سمية وأخواتها أي شيء من عدم الرضا الغامض الذي رأيته يتنامى حولي ـ بل أيضاً وفي نفسي أثناء نشأتي. وبصفتي أحد أفراد الطبقة الوسطى الأمريكية، فقد نشأت في أمة من المكافحين، أمة تأسست على الحق في السعي وراء السعادة. وكان عدم الرضا لدينا مثمرًا في إنجاز الأمور. فالدافع إلى تحقيق الأفضل يدفعك إلى الدراسات العليا والارتقاء في السلم الوظيفي، والاهتمام باللياقة البدنية، وإتقان مفاوضات زيادة الرواتب. لكن حياةً من الحسنات اللامتناهية لم تسفر عن نتائج موثوقة. فحياتي العلمانية التي تعتمد على الذات لم تعتد أن تكون شاكرة لأشجار النخيل والأعشاب العطرية والبحار!

كان شعور الشيخ بالامتنان أكثر قوة، ربما لأنه كان لديه مكان يذهب إليه. كان وعيه بالله كخالق يرتقي به إلى مستوى جديد تمامًا، شامل في اتساعه الدائم، وشبه ثابت في حضوره. كان أكرم رجلًا يمكنه العثور على الله في إعداد كوب من الشاي. قال: "يقول الجميع يمكن لأي طفل أن يصنع كوبًا من الشاي، لكن كل كوب شاي يعتمد على وجود الكون بأكمله. لكي

يوجد الشاي، فهو يحتاج إلى الشمس والقمر. ويحتاج إلى وجود الأرض. لقد خلق الله الماء، وأوجد الوعاء الذي يحمله، وجعل الأوراق تنمو. وعندما ولدنا، كان كل شيء موجودًا، فقط بانتظارنا. إن كل كوب شاي يعتمد على الكون بأسره".

لم أستطع أن أقرر ما إذا كان هذا المنطق قمعيًا أم ملهمًا. كنت أعتقد أنه كان كلاهما، مثل الألم الممتع بعد جلسة محدودبة على الكمبيوتر المحمول.

لقد كنت أدرس مع رجل رأى كل شيء من أوراق الشاي إلى علم الجبر والرياضيات كهدايا من الله. ولقد أصابني شعور جديد بالامتنان سرى في عروقي. كنت أخرج من الدرس ليس بالإيمان، بل بشيء آخر جديد قد يسميه مُعلمٌ عصري "اليقظة الذهنية". وفي رحلة العودة بالحافلة إلى المنزل، وخاصة عندما تضيء الشمس التلال الخضراء بجانب الطريق السريع، وجدت نفسي لوهلة، أراها كما قد يراها الشيخ: ليس كشيء جميل، أو كعقار باهظ الثمن، أو كمسافة بيني وبين لندن، ولكن كارتباط بشيء أكبر. كانت هناك لحظات، بينما كنت أقرأ سورة، أو أقود الأطفال إلى المدرسة، أو أقطّع بصلة، أشعر فيها بما يجب أن يكون عليه هذا الامتنان الجذري: تذكير دائم بأنك حيٌّ، ولكن فقط للحظة.

* * *

ولم يكن امتنان الشيخ سبباً في كسله، سواء له أو لبناته. بل على العكس من ذلك تماماً. فقد كان يتوقع دوماً من الفتيات أن يعملن بجد، سواء في تعليمهن الدنيوي أو الديني، ولم يزده اكتشافه لإنجازات العالمات عبر التاريخ الإسلامي إلا زيادة في توقعاته. تقول سمية: "لقد رأى العديد من النساء يَقُمن بالعديد من الأشياء. إنه لا يستطيع أن يفهم لماذا لا نستطيع أن نفعل مثلهن. هؤلاء النساء العالمات كان لديهن أسر. وأطفالهن يعانون من المغص. وكان عليهن رعاية المرضى. وكان لديهن مشاكل مالية. ومع كل هذا، أنجزن الكثير، لذا فهو لا يرى أي سبب يجعلنا نتخلف عن الركب".

إن العديد من المسلمين التقليديين يعلمون بناتهم، لكن عندما تصل الفتيات إلى سن البلوغ، فإنهم غالباً ما يرسلونهن إلى مدارس دينية، بدلاً من المدارس التقليدية. في البداية، فعل الشيخ الشيء نفسه مع بناته، فأرسل بناته الثلاث الكبريات إلى الشمال للدراسة في مدرسة دينية

للبنات في برادفورد. وقال: "لكنني اكتشفت أنها لم تكن جادة في التعليم. فمعظم الناس يرسلون بناتهم إلى المدارس الدينية فقط لحمايتهن من ...".

" الأولاد، والنوادي الليلية؟" قلت بمرح.

أومأ برأسه موافقاً. وبعد مناقشة الأمر مع شيخه في لكناو، قرر إرسال بناته إلى المدرسة المحلية في أكسفورد وتعليمهن الدراسات الإسلامية بنفسه. وقال لي: "في كثير من الأحيان، لا تتمتع مدارس الفتيات الدينية بتعليم جيد. كثير من الناس لا يريدون أن تدرس بناتهم على أيدي رجال". وبما أن الرجال كانوا يتمتعون تقليدياً بتعليم أفضل، فإن الفتيات يحصلن على مدرسين من الدرجة الثانية.

ويأمل أن يتغير هذا الأمر تدريجياً. فقبل أيام قليلة من حديثنا، أقام حفل تخرج لخريجي دورة ندوة العلماء في العلوم الإسلامية التي كان يُدرّسها في أكسفورد. ومن بين الخريجين الستة، كانت هناك أربع نساء ـ أرزو ومهرون، وابنتاه هالة وحسناء. وهناك أيضاً خطط لافتتاح مدرسته الخاصة في المملكة المتحدة في غضون بضع سنوات، عندما ينتهي فريق كامبريدج من جمع التبرعات اللازمة لذلك. وحينئذ سوف يتم تدريس النساء والرجال معاً.

في المرة التالية، عندما قابلت بناته بعد الغداء العائلي، أخبرنني أن العائلة بأكملها جلست في غرفة المعيشة تختبر بعضها البعض في الألغاز الموجودة في كتاب النكت الذي أعطته نيك لعائشة. كان الشيخ، بطريقة غامضة، يعرف جميع الإجابات. وعندما سُئل كيف عرف ذلك، ابتسم وقال: " كان الأمر في غاية السهولة. لكنني انتظرت حتى النهاية، وكنت آخر من يتم اختباره". وبحلول ذلك الوقت، كانوا قد انتهوا من الكتاب بأكمله.

بهدوء بينما كانت الإجابات تتكشف، ترك الشيخ بناته يختبرن إجاباتهن. ثم عرض إجابته الخاصة.

(٧)

تسعة آلاف امرأة مخفية

في عام ١٩٩٨، سافرت إلى أفغانستان لإعداد تقرير عن حياة النساء في ظل حكم طالبان. وخلال حكمهم الذي دام خمس سنوات في كابول، كان قرار طالبان الرئيسي يتمثل في حظر أي شيء يعتبرونه غير إسلامي: موسيقى الفلوت، والطائرات الورقية، وطلاء الأظافر، والكشف العلني لوجوه النساء. لكن أشد قرارات طالبان تدميراً كان حظر تعليم النساء. فعندما زرت أفغانستان كان من غير القانوني للفتيات فوق سن الثامنة الالتحاق بالمدارس. وقال زعماء طالبان إن مدارس البنات أغلقت لوقف فساد التعليم العلماني. وقد التقيت بنساء تحدين الحظر من خلال إدارة فصول دراسية سرية، وخريجات جامعيات كن خائفات للغاية من اكتشاف طالبان لشهاداتهن لدرجة أنهن سافرن وهن يحملن الوثائق تحت البرقع، بجانب جلودهن. وقالت إحدى خريجات كلية الحقوق في كابول إنها كلما رأت كتبها القديمة أصيبت بالصداع ونوبات القلق، لذا اضطرت إلى إخفائها. وفي إحدى المرات أثناء رحلتي سألت والد فتاة في العاشرة من عمرها عما إذا كانت تخرج من المنزل أحيانًا. فكان جوابه: إلى أين؟

وفي السنوات التي كان فيها طالبان مشغولين بحماية الإسلام من خلال إبقاء النساء في البيوت دون تعليم، كان الشيخ أكرم يكتشف نسخة مختلفة تمامًا من التراث الإسلامي. وكان من بين أعلامها نساء مثل أم الدرداء، وهي فقيهة وعالمة من القرن السابع الميلادي كانت تدرّس الفقه في مساجد دمشق والقدس. وكان طلابها من الرجال والنساء، وحتى الخليفة. وهناك امرأة أخرى في اكتشافات أكرم البحثية هي: العالمة السورية فاطمة البطائحية، التي تعود للقرن الرابع عشر، والتي كانت تدرّس الرجال والنساء في المسجد النبوي في المدينة المنورة، وتجتذب الطلاب من أماكن بعيدة مثل فاس. وقد كانت تتكئ على ضريح النبي أثناء تدريسها، وقد علّق أحد طلابها المذهولين، على ذلك بقوله: أنها كانت تتكئ على أكثر البقاع قداسة: بجانب رأس النبي مباشرة.

وكنت قد سمعت لأول مرة عن اكتشافات الشيخ أكرم في طريق عودتي من كابول؛ عندما قال لي أثناء تناول الشاي في أحد المتاجر الكبرى في أكسفورد: "أنا أعمل على شيء قد يثير اهتمامك. إنه يتعلق بالنساء".

" النساء؟" أجبت.

لقد بدأ الأمر بالصدفة، كما أوضح. فبينما كان يقرأ النصوص الكلاسيكية عن الحديث، كان يمر بأسماء نساء كنّ يعتبرن مصادر موثوقة للحديث. فبدا له أن يقوم بتأليف معجم للسير الذاتية، يضم كل المحدثات من النساء.

" كتاب قصير إذن؟" قلت مازحة. أثناء بحثي في الأطلس الموجود في المركز، كنت قد بحثت بجد في بعض المعاجم التي تتحدث عن سيرة العلماء، من الغلاف إلى الغلاف، فوجدها تتحدث كلها عن الرجال.

" هذا ما كنت أظنه أيضًا"، قال أكرم. "كنت أتوقع أن أجد عشرين أو ثلاثين امرأة فقط، وكنت أخطط لنشر كتيب، لكن يبدو أن هناك المزيد".

" حقا؟" كم عددهن إذن؟ ألف؟

"آلاف". مَنْ كان يعلم ذلك؟

بالطبع، كانت النساء المتعلمات معروفات على مر التاريخ، بدءًا من زوجة النبي عائشة. وقد كتب اثنان من المؤرخين عن النساء المُحدِّثات. لكن الاعتقاد السائد كان أن المعرفة الإسلامية لدى النساء تُعتبر نشاطًا محدودًا وغير رسمي، يُمارَس على نطاق ضيق وبأسلوب غير مؤسسي. فإذا دَرَسَتْ النساء، كنَّ غالبًا ما يفعلن ذلك في عزلتهن داخل بيوتهن. وإذا عَلَّمن، كنَّ يُعلمن النساء فقط.

إنَّ عمل أكرم حول "المحدثات: النساء العالمات في الإسلام"، سيتحدى هذه الأساطير. فبعد عقد من الزمان من بدء عمله على "كُتَيِّبه"، أصبح لدى أكرم معجم يمتد لأربعين مجلداً ويحتوي على ما يقرب من تسعة آلاف امرأة، ويمتد من عصر النبي إلى القرن العشرين. ويمثل عمله هذا رداً على الفكرة التي تم ترويجها من كابول إلى مكة، وهي أن العلم الإسلامي منوط بالرجال. وكتب أكرم : "لا أعرف ديانة أخرى- غير الإسلام - منذ تاريخ تأسيسها، كانت فيها المرأة محورية وحاضرة ونشطة إلى هذا الحد".

فمثلاً في اليهودية التقليدية، لم تتعلم النساء التوراة، ولم يُعَلِّمنها، وعلى الرغم من أن الدراسات النسوية تكشف الآن عن حقيقة مفادها أن النساء كان لهن دور في التاريخ المسيحي

المبكر أكبر مما كان يُعتقد سابقًا، فإن رجال الدين المسيحي كانوا حتى وقت قريب جميعهم من الرجال.

وفي موريتانيا في العصور الوسطى، وجد الشيخ أدلة على أن مئات الفتيات كنّ يحفظن عن ظهر قلب، كتاب (المدونة)، وهو كتاب فقه مشهور. وفي مصر في القرن الثاني عشر، أشاد طلاب إحدى النساء العالمات بحفظها "حمل بعير" من النصوص الدينية. وفي سمرقند خلال العصور الوسطى، كانت فاطمة السمرقندية- التي تلقت دروس الحديث والفقه على يد والدها- تحكم في القضايا في المحاكم. كما أصدرت الفتاوى ــ وقدمت المشورة لزوجها الأكثر شهرة بكيفية إصدار الفتاوى. ففي عصر لا تدخل فيه العديد من النساء المساجد، ناهيك عن التدريس فيها، من الممتع أن نقرأ عن هؤلاء العالمات التاريخيات اللاتي يتمتعن بمثل هذه الحريات. بل ويتلقى القضاة والأئمة العلم على أيديهن، ويصدرن الفتاوى، ويسافرن إلى مدن بعيدة على ظهور الخيل والجمال للتباحث مع العلماء، ويقمن بجولات دراسية عبر الشرق الأوسط، مثل الفقيهة البغدادية من القرن العاشر التي سافرت لتدريس النساء في سوريا ومصر، أو العالمة المكية في القرن الخامس عشر التي درّست في جميع أنحاء الجزيرة العربية. أو فاطمة بنت يحيى، الفقيهة في القرن الثالث عشر والتي كان زوجها، وهو فقيه أيضاً، يستشيرها في قضاياه الأصعب. وكان طلابه يقولون له عندما يعود بفتواها: "هذا ليس منك. هذا من وراء الستار".

وكالشيخ نفسه، عاش العديد من المحدثات حياة مترحلة ومليئة بالتجارب. ومن بين المفضلات لديّ كانت العالمة فاطمة بنت سعد الخير التي عاشت في القرن الحادي عشر، والتي تستحق رحلاتها في آسيا كتابًا بحد ذاته. فقد وُلدت لأب إسباني مسلم في غرب الصين، وكانت طالبة متنقلة، تنقلت بين المدارس الدينية في بخارى وسمرقند، ودرست على يد عالمة أخرى مشهورة في أصفهان، واستقرت لفترة في بغداد، ودرّست الرجال والنساء في كل من دمشق والقدس، وتوفيت في القاهرة عن عمر يناهز الثامنة والسبعين.

وللعثور على مثل هؤلاء النساء، بحث الشيخ في هوامش التاريخ الإسلامي. فوجد آثارهنَّ مخبأة في معاجم السير، وكتب الرحلات، والرسائل الخاصة، وسجلات المساجد، والمدارس الدينية. وكان التاريخ المفقود الذي بحث عنه متناثراً عبر القارات والأجناس واللغات. وكان الأصدقاء والزملاء الأكاديميون يرسلون له نسخاً من المخطوطات من

مكتبات تركيا وباكستان والسعودية. ولكي يكتب الشيخ مدخلاً واحداً، كان لا بد أن يبحث في نصف دزينة من النصوص، بعضها بالأردية، وبعضها الآخر بالفارسية، أو العربية. وكالحرفيين الذين زيّنوا مساجد الإسلام بقطع صغيرة من الموزاييك، جمع أكرم تلك الشذرات المبعثرة ليكشف عن نمط باهر.

كان العمل بطيئًا بشكل مؤلم، ولم يُعترف به لعقد كامل. وفي وظيفته اليومية، قوبل المشروع باللامبالاة على أحسن تقدير. وبدا مدير مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية أكثر حرصًا على التركيز على مشروع الأطلس ومهام أخرى مثل ترجمة رسائل الأعمال إلى اللغة العربية. وعلى غرار العالمات اللاتي كان يؤرخ لهن، دُفع البحث إلى الهامش؛ فكان مشروع الشيخ عن المحدثات، محصورًا في أمسياته وعطلات نهاية الأسبوع.

وبمعايير السير الذاتية الحديثة، كانت الحقائق التي اكتشفها أكرم بسيطة جدًا: قوائم جافة بالكتب والمعلمين، وتدوينات مقتضبة عن فضائل العالمات. على سبيل المثال تم تدوين حياة عالمة الحديث البارزة من القرن الحادي عشر، أم الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية، في كتاب المحدثات بتفاصيل موجزة محيرة. هذا مع العلم بأنها كانت راوية مشهورة لكتاب صحيح البخاري، عاشت في مكة وتوفيت عن عمر يناهز المئة. وقد جاءها الطلاب، للدراسة على يديها، من كل حدب وصوب، ومنهم الأئمة الكبار والمؤرخ الشهير الخطيب البغدادي. وقد سافرت "في سبيل العلم" إلى مدينتي سرخس وأصفهان الإيرانيتين، وإلى القدس.

بالنسبة لأكرم، كانت هذه التفاصيل الصغيرة تشكل كنزًا من المعلومات، مثلما كانت مجرد كلمة مقتضبة من قبيل "الجانب الشرقي من المدينة، قبل الحرب" أو "فريق لاكروس، جامعة هارفارد" تحكي عوالم كاملة بالنسبة لشخص أمريكي. كذلك "في الإسلام، يعتبر البخاري أهم كتاب بعد القرآن، وهو أحد أهم كتب السُّنة الستة. فإذا كانت تلك المرأة تدرّس البخاري، فلك أن تتخيل مدى عظمتها. وفي أي مدرسة في الهند أو باكستان، يعتبر أستاذ الحديث أهم الأساتذة، إذ يعدّ مصدر الشريعة ومصدر الحياة".

في البداية، افترضت بسذاجة أن أسماء هؤلاء النساء قد نُسيت بنفس الطريقة التي نُسيت بها حياة النساء في الغرب. فقد كتب الرجال تاريخ الغرب، وكتبوا ما يعرفونه. وقبل أن تبدأ

المؤرخات النسويات بكشف إنجازات النساء بعد الستينيات، كانت مساهمات النساء غير معترف بها.

بيْد أنَّ تهميش المرأة كان أكثر تعقيدًا في سياق الثقافة الإسلامية. فقد أوضح أكرم ذات يوم عبر الهاتف: "يقدس المجتمع الإسلامي الحياء لدى النساء. وتقليديًا، لم ترغب العديد من العائلات المسلمة نشر أسماء زوجاتهم وبناتهم". لذا كان إبعاد أسماء النساء عن سجلات الفصول الدراسية، أو المدارس الدينية، أو المساجد، مجرد تفسير واسع لمفهوم الحجاب. وهذا المصطلح الذي يُستخدم عادةً للإشارة إلى أغطية الرأس، في الواقع يشير إلى الحياء المطلوب من الرجال والنساء على حد سواء. وفي محاولة لإبقاء النساء محجوبات عن الأنظار العامة، تُرِكت حياة وأعمال النساء العالمات دون توثيق".

وأضاف أكرم: "إن التفسير الواسع لمفهوم الحجاب لا يزال مستمرًا حتى اليوم. فبعض الناس لا يرغب في طباعة أو ذكر أسماء زوجاتهم وبناتهم في الأماكن العامة. ذات مرة، كتبت مقالة عن الحج لإحدى الصحف الأردية، لتضمين أسماء الأشخاص في مجموعة الحج الخاصة بي، لكن جميع الرجال طلبوا مني عدم كتابة أسماء النساء في أسرهم".

" فكيف أشرت إليهم إذن ؟"

" باعتبارها "زوجة فلان" و"ابنة فلان".

ولقد تذكرتُ أنا أيضًا: قبل جيل واحد، كانت والدتي تفعل الشيء نفسه. كانت عناوينها في الستينيات مكتوبة باسم "السيدة ريتشارد دبليو باور". ثم جاءت الحركات النسوية، وألقت العناوين في الدرج. وبحلول الثمانينيات، سألتها إحدى طالباتها، بكل جدية، عما إذا كانت قد اختارت اسم "هيلين باور" كتقدير نسوي لهيلين طروادة؟[٤٢]

لذلك في ظل تقليد المرأة غير المسماة، من المحتمل أن التسعة آلاف عالمة التي وجدها الشيخ ليست سوى جزء بسيط من العالمات المسلمات عبر التاريخ. يقول أكرم "فإذا كنت قد وجدتُ تسعة آلاف منهن، فهذا يعني أن هناك الكثير غيرهن". وفي نهاية كل مجلد من العالمات

[٤٢] هيلين طروادة، أو هيلين الأسطورية، هي شخصية من الأساطير الإغريقية تُعرف بجمالها الفائق، وكانت زوجة مينلاوس، ملك أسبرطة، إلا أن باريس، أمير طروادة، اختطفها وجلبها إلى طروادة، مما أدى إلى اندلاع حرب طروادة الشهيرة. (المترجم)

المحدثات، كان الشيخ يستشهد بمراجع لعشرات، وأحيانًا لمئات النساء اللواتي لم يتم ذكر أسمائهن في المصادر، بل وُصفنَ باختصار مفجع كـ"أخت" أو "زوجة" أو "ابنة".

ولم يعثر أكرم على أعداد كبيرة من العالمات فحسب، بل عالمات يتميزن بجودة علمهن. وأشار بحماس إلى أن النساء المخبوءات في المصادر كن محدثات بارعات. يقول أكرم: "لم تُتهم امرأة قط في تاريخ العلوم الإسلامية بتلفيق الحديث أو نقله بشكل غير دقيق".

ضحكت وقلت: "لا أصدق ذلك! هذا، على الرغم، من أنني أحب أن أصدق التفوق الأخلاقي للمرأة على الرجل، إلا أنني لا أستطيع أن أصدق ذلك! لكن كيف يمكن أن يكون ذلك ؟". سألت أكرم.

أوضح أكرم " لم تكن النساء في حاجة لاختلاق الأحاديث، فمصدر رزقهن لم يعتمد على الحديث، ولم يفعلن ذلك من أجل الشهرة. وعندما قررن التعلم، كانت دوافعهن هي التعلم في حد ذاته". وزعم أكرم بأن الحجاب أبقى علمهن نقيًا. لأن العلم للنساء، كان بمثابة حاجة روحية وليس مهنة.

أما الرجال، فقد كانوا بحاجة لكسب قوتهم. وكانت الحياة في بلاط الحكام تعني أنه كان عليهم تقديم علمهم بما يناسب أصحاب السلطة. يقول أكرم: "في كثير من الأحيان، كان علماء الدين في بلاط الملوك يخترعون الأحاديث، لمغازلة الحاكم أو مساعدته". وقد تمكن أحد علماء آسيا الوسطى من "العثور" على حديث يفيد بأن النبي محمد قال إن أنهار آسيا الوسطى من أنهار الجنة. كما اكتشف عالم بلاط آخر ماهر- عندما رأى الخليفة يهتم بالحمام- حديثاً يفيد بأن من يعتني بالحمام له مكان في الجنة. ولقد أدرك الخليفة الورع هذا التملق المزيف، فقام بذبح كل حمامه على الفور".

وبعد القرن السابع عشر، ومع صعود الحكم الاستعماري الأوروبي في العديد من البلدان الإسلامية، تراجعت مكانة المرأة العلمية. وقد فسر الشيخ تراجع مكانتها العلمية جزئياً بالانحدار العام في ثقة المسلمين الفكرية[٤٣]. فقد تدهور نظام المدارس الدينية، وملأت العادات الذكورية الفراغ الذي خلَّفه هذا النظام. ولقد أدى ترك علماء الدين- الذين تحول العديد منهم

[٤٣] هذا التفسير غير مقنع، لأن تراجع مكانة المرأة العلمية خلال الحقبة الاستعمارية في البلدان الإسلامية كان نتيجة خوف المسلمين من تحرش المستعمرين بنسائهم عند خروجهن لتلقي العلم. لذلك، فرضوا عليهن الحجاب وقيّدوا خروجهن من المنازل حفاظًا على أعراضهن.

إلى السياسة بدلاً من العلم- المسلمين جهلاء بتاريخهم. وقد قال لي الشيخ ذات مرة: "لقد ضعفت تقاليدنا، وعندما يضعف الناس، يصبحون أكثر حذراً. وعندما يكونون حذرين، فإنهم لا يمنحون النساء حرياتهن ".

لقد جعل انعدامُ الأمن، قضيةَ المرجعية الدينية محفوفة بالمخاطر. بشكل خاص، اعتبر بعض العلماء أن رفع صوت المرأة في الأماكن العامة حرام. وبالنسبة لهؤلاء الرجال، فإن حديث المرأة عن الدين بشكل رسمي يعتبر إهانة. لكن عندما تأتي امرأة إلى المسجد بأمر من الحكومة المحلية للتحدث عن أمور دنيوية، مثل لقاحات الإنفلونزا أو العلاقات المجتمعية، فإن الرجال يستمعون إليها، لكن إذا كان الأمر يتعلق بالعلم الديني، يقولون "أوه، صوت المرأة حرام، وكذا وكذا.. لأن هذا مجالهم!".

إن تشبث الرجال، بما يرونه من تقاليد خاصة بهم، يعني أن النساء غالبًا ما يعانين. كان أحد أصدقاء الشيخ مسافرًا مع زوجته في إنجلترا، وعندما حان وقت الصلاة، توقف الزوجان في المسجد المحلي. بيد أن الإمام رفض السماح للزوجة بالصلاة في المسجد، مدعياً أنه لا يُسمح للنساء بالصلاة في المساجد، حتى وإن كنّ بعيدات عن البيت. فمن الذي أفسح المجال للمرأة أخيرًا لأداء الصلاة؟ تاجر هندوسي فتح متجره ليسمح لها بالصلاة هناك!"[٤٤].

كما قال أكرم إن حرمان النساء من دخولهن المسجد، مثل حرمانهن من حقوق أخرى، هو تمسك بالعادات، وليس بالدين. وفيما يتعلق بالتعليم، ذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ قال: إن منع النساء من طلب العلم، يشبه دفن البنات أحياء في الجاهلية. وإن كبح إمكانياتهن يجعل وضعهنَّ الحالي ليس بأفضل من الجاهلية، فقد منح الله الفتيات مواهب وقدرات، إذا لم يُسمح لهن بتطويرها، وإذا لم يتم توفير الفرص لهن للدراسة والتعلم، فهذا في الأساس بمثابة دفنهن أحياء".

ومن خلال النبش في التراث المدفون للنساء العالمات، مهد أكرم الطريق من أجل تغيير اجتماعي جذري. فبالنسبة للمسلمين، لا يشكل التاريخ الإسلامي مصدراً لاهتمام المؤرخين فحسب، بل يشكل أيضاً نموذجاً للحاضر. فالحرْفية، وليس التجديد، هي التي توجه المتدينين

---

[٤٤] في الحقيقة، رواية هذه الحادثة بهذه الطريقة ليس إنصافًا. فدخول امرأة مجهولة إلى مسجد غير مجهز بأماكن خاصة لوضوء النساء وقاعة للصلاة، ومن ثم الصلاة أمام الرجال، أمر غير لائق. وبدلاً من الصلاة في دكان رجل هندوسي، كان الأحرى بالمرأة أن تقضي صلاتها في بيتها؛ إذ كانت مسافرة ولديها رخصة. فالمتشدد في هذه الحالة ليس الإمام، بل المرأة.

اليوم، إلى كيفية العيش والتصرف. وعلى هذا فإن اكتشاف أكرم لهؤلاء النساء العالمات ليس مجرد جزء مثير للاهتمام من التاريخ المدفون منذ زمن طويل، بل إنه يشكل حجة بليغة هادئة لضرورة تغيير الوضع الراهن.

تقول أسماء سعيد، أستاذة التاريخ في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس ومؤلفة كتاب "المرأة ونقل المعرفة الدينية في الإسلام": "إن ما يفعله أكرم ثوري- وهي كلمة غريبة ربما لاستخدامها مع عالم تقليدي". فبينما يشكك مسلمون آخرون، من التقدميين والحركات النسوية، في الهيمنة الذكورية الإسلامية بشكل أكثر قوة، فإن الشيخ يهدمها من داخل تقاليده. إنه رجل متعلم في المدارس الدينية، محافظ، اهتم بالنساء العالمات من خلال التقاليد نفسها، فهو قد بدأ من خلال عدسة الحديث وليس من منظور الجنسين.

إن ما توصل إليه من نتائج جعله عن غير قصد بمثابة المتحدث باسم تحرير المرأة. فعندما ظهرت أخبار "النساء المحدثات العالمات" تناقلته النساء المسلمات عبر البريد الإلكتروني. قالت لي إحدى النساء: "كنا نتصل ببعضنا البعض صباح ذلك الأحد الذي ظهرت فيه قصة النتائج التي توصل إليها الشيخ، قائلات لبعضنا: "هل يمكن تصديق ذلك؟ وفجأة، أصبح اسم الشيخ يتداول على مدونات غير متوقعة مثل "مسلمات مشاكسات" و"نسويات منذ الولادة"[٤٥]. (للحق: لم يكن الشيخ مهتمًا بنشر بحثه. لكنني فعلت. ولم ينتشر خبر عمله على نطاق واسع إلا عندما كتبتُ مقالاً عنه لمجلة نيويورك تايمز، مما جعل الشيخ يلومني بأنني السبب في شهرته المتزايدة). والآن دعته مجموعات من نيويورك إلى كوالالمبور للتحدث عن المرأة. ويأتي طلاب الدراسات العليا المسلمين إلى "أسماء سعيد" في مكتبها في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس متحمسين لكتابة أطروحاتهم حول تاريخ النساء في الإسلام، مستشهدين بكتاب الشيخ كمصدر إلهام.

في إحدى الليالي، ألقى الشيخ محاضرة في مكتبة "آيديا ستور" العامة في منطقة كاناري وارف، مركز المال في لندن. وكان جمهور الحاضرين من النساء إلى حد كبير. ومع هواتفهن الـ"بلاك بيري" التي ترن، وحقائبهن الصغيرة على ظهورهن، وحقائب العمل إلى جانبهن، كان يبدو الجلوس في غابة من ناطحات السحاب التي تحتضن أكبر بنوك العالم، والاستماع إلى علماء الدين الإسلامي أمراً غير متجانس (فقط بالنسبة لغير المسلمين). والواقع إن موضوع

[٤٥] أسماء المدونات كما ذكرتها الكاتبة هي: Badass Muslimahs و The Fatal Feminist

الأمسية كان هو السيولة، وتنوع الأدوار، والأماكن المتاحة لعالمات الدين المسلمات. وقد رسم أكرم وزميلته المشاركة في تقديم المحاضرة، الباحثة عائشة بيولي، تاريخاً يتناقض مع ما تعيشه الكثير من النساء المسلمات المعاصرات. ففي العصور الوسطى، كانت صاحبات المتاجر من النساء يعقدن دروساً في متاجرهن. وكانت بعض النساء المتعلمات يلقين دروسًا في الحدائق. وذكَّر الشيخ مستمعيه بالمرأة التي تجرأت علناً على تصحيح خطأ أحد الخلفاء. وعندما أخبرهم عن فاطمة البطائحية[٤٦] العالمة التي كانت تُدَرِّس وهي متكئة على قبر الرسول، شهقت النساء دهشة. فقالت إحدى الشابات بجانبي، وهي تهز رأسها غير مصدقة: "وَاوْ! متكئة على قبر الرسول!"[٤٧].

وعلى الرغم من الحماسة التي كانت تملأ المكان ، فإن تفاصيل أغلب النساء اللاتي بحثهن أكرم، والبالغ عددهن تسعة آلاف امرأة، لا تزال مدفونة. وباستثناء مقدمة من مجلد واحد نُشرت باللغة الإنجليزية، فإن أبحاثه لازالت راقدة في القرص الصلب لجهاز الكمبيوتر الخاص به. وقد قال ناشروه المعتادون في دمشق وبيروت ولكناو: إن أربعين مجلدًا ستكون باهظة الثمن. وعلى الرغم من توسلات طلابه، إلا أنه يريد أن يراه كتاباً ورقياً قبل أن يتم نشره على الإنترنت.

ولقد أبدى الأمير تركي الفيصل، السفير السعودي السابق في واشنطن، اهتمامه بالمشروع لفترة من الوقت. كما أعرب الشيخ يوسف القرضاوي، الذي ساعدته خطبه التليفزيونية على قناة الجزيرة في أن يصبح واحداً من أشهر علماء السنة في العالم، عن إعجابه بالمشروع. وقد أنشأ بعض طلابه صندوقًا للنساء المحدِّثات في محاولة لجمع الأموال للنشر. لكن البحث ما زال غير منشور، ويرجع ذلك جزئيًا إلى عدم طموح الشيخ الدنيوي. فقد قال لي ذات يوم في حديث عابر: "اتصل بي رجل من الأمم المتحدة. وقال لي إنهم يريدون مساعدتي في عملي". لكن الشيخ نسي اسم المتصل ورقمه، وعندما ضغطت عليه، لم يستطع تذكر اسم القسم الذي يعمل فيه. ولم يكن مهتماً فقال: "سوف يتصل مرة أخرى".

---

[٤٦] ربما لهذا السبب لُقبت بالبطائحية المشتقة من كلمة "مبطوح" وتعني مستلقيا أو ممددًا.

[٤٧] في الحقيقة، إن صحت هذه الحادثة تاريخياً فهي تعبر عن سوء الأدب والجرأة مع الله ورسوله.

وإلى أن يتصل الرجل مرة أخرى، ينشر أكرم أخبار بحثه من خلال إلقاء المحاضرات أمام مجموعات النساء وفي الجامعات. لكن الفجوة بين نتائج بحثه والعادات المعاصرة واسعة ومحبطة. ففي اليوم الذي ألقى فيه محاضرة عن النساء في جامعة الأزهر في القاهرة، أقدم جامعة سنية في العالم، والتي تضم طلابًا وطالبات وحتى أستاذات، كان الحضور من الرجال فقط[٤٨].

في لحظات كهذه، كان أكرم يأسف لأن التغيير يأتي ببطء شديد. وكان يقول وهو متجهم "كلها ثقافة.. كل شيء ثقافة". فالعلماء العظام مثل أبي حنيفة ومالك، مؤسسي المدارس الفقهية، لم يواجهوا أية مشاكل مع النساء! كانوا يتعلمون منهن!". وذات مرة اقتبس وصف الشاعر الإنجليزي توماس غراي في قصيدته "مرثية مكتوبة في باحة كنيسة ريفية" والتي ترثي الفلاحين الإنجليز الذين دفنوا في مقبرة ريفية، وكانت آفاقهم محدودة بسبب حياة القرية التي حرمتهم من التعليم وتطوير مواهبهم.

يقول غراي: إن الفلاحين المدفونين هنا كان يمكن أن يكونوا مثل الشاعر العظيم "ميلتون" لو حصلوا على التعليم المناسب. وكذلك كان أكرم يقول: "والأمر ينطبق على النساء المسلمات أيضًا. فربما كان هناك الكثير من الميلتونات[٤٩]".

---

[٤٨] لست ما أدري سر هذه المصادفة الغريبة لشعور علماء الهند المسلمين بالإحباط عندما يحاضرون في مصر، وهذا ما حدث مع الشيخ أبي الحسن الندوي عندما ألقى محاضرة عن العقاد في جامعة القاهرة. وقد ذكرت تفاصيلها في كتابي (حياة سيد قطب).

[٤٩] جون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤) هو شاعر وكاتب إنجليزي بارز، يُعد من أعظم شعراء اللغة الإنجليزية. اشتهر بقصيدة "الفردوس المفقود" التي تُعتبر من أهم الأعمال الأدبية في الأدب الإنجليزي. وتميّزت أعماله بأسلوبها الشعري الرفيع وتعمقها الفلسفي والديني، وكان له تأثير كبير على الأدب الإنجليزي.

(٨)

" الحمراء الوردية الصغيرة "

إن كان هناك دليل على أن المرأة المسلمة المتدينة لا ينبغي لها أن تكون زوجة وأماً مطيعة وخاضعة وخانعة، فإنك تجد هذا الدليل في حياة عائشة، ثالثة زوجات النبي الإحدى عشرة. والتي كانت أكثر زوجات النبي إثارة للجدل، وقد انقسمت الآراء حولها منذ القرن السابع، بين المسلمين وغير المسلمين على حد سواء. فهي عالمة إسلامية بارزة، وملهِمة لدعاة حقوق المرأة، وقائدة عسكرية تمتطي ظهور الإبل، وفقيهة تصدر الفتاوى. وقد وسّعت عائشة من دور زوجة القائد إلى ما هو أبعد كثيراً من الوصف الوظيفي المعتاد للأنوثة واللياقة. وبمعايير عصرنا وعصرها، كانت مكانة عائشة الفكرية وسلطتها الدينية مذهلة.

وقد كانت عائشة تَعْلم ذلك أيضًا. فقد قالت إن عشرة أشياء تميزها عن زوجات النبي الأخريات. وهاك مقتطف من رواية إسلامية مبكرة من كلماتها: "لم يتزوج بِكْراً غيري.. كان الوحي يأتيه وهو عندي.. ولم ينزل عليه الوحي وهو عند أحد من أزواجه غيري.. قبض الله روحه وهو على صدري"[٥٠].

إن عائشة ليست الزوجة الوحيدة لمحمد التي حطَّمت مفاهيم ما يشكل المرأة المسلمة "التقليدية". فقد كانت خديجة أيضًا، وهي المرأة التي تزوجها النبي أولاً وأحبها بعمق حتى وفاتها، تدير شركة قوافل في مكة. وكانت تاجرة ثرية وناجحة، وكانت أيضاً أماً عزباء ترملت مرتين، وكانت أكبر من محمد بخمسة عشر عاماً، وكانت رئيسته في العمل. وكان عرضها للزواج من نبي المستقبل صريحاً: "لقد أحببتك لقرابتنا، وسمعتك الطيبة بين قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدقك".

إن خديجة تبرز كحضور مثير للإعجاب، لكن عائشة هي التي تتألق، نابضة بالحياة، في صفحات التاريخ الإسلامي المبكر. فقد وصل صوتها إلينا عبر القرون، من خلال ٢٢١٠

---

[٥٠] الرواية تقول: (قد أُعْطِيت تسعاً ما أُعْطِيَتْهُنَّ امرأة: نزل جبريل بصورتي في راحته، حين أمر عليه الصلاة والسلام، أن يتزوجني، وتزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري، وتوفي، عليه الصلاة والسلام، ورأسه في حِجْري، وقبره في بيتي، وينزل عليه الوحي وأنا في لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذري من السماء، وخُلقت طيبة عند طيب، ووُعدت مغفرةً ورزقاً كريماً).

أحاديث محفوظة. ويا له من صوت! واضح وشجاع، يمكن سماعه، إذا اخترنا الإنصات، وهو ينطق بتعاليم الإسلام في مسائل تتراوح من الصلاة إلى التجارة وحتى العلاقات الزوجية. إننا نعرف الكثير عن عائشة مقارنة بخديجة، ويرجع ذلك إلى التوقيت: فمعظم حياة خديجة سبقت الإسلام، لذلك لم يتم تأريخها بنفس العناية التي تم تأريخ حياة عائشة. فقد وُلِدت عائشة بعد أربع سنوات من نزول الوحي الأول على محمد، وترعرعت بينما كانت آيات القرآن تنزل على النبي. ونحن على اطلاع على تفاصيل استثنائية من حياة زوجته الأصغر على مدار حياتها التي امتدت ستين عاماً: ميلها إلى ارتداء اللون الأحمر، وموهبتها في الشعر، ومعرفتها بالطب. وقد سمعنا عن مناقشاتها الحيوية مع شخصيات فكرية أخرى، وفتاويها حول مواضيع تتراوح من الرضاعة إلى الميراث. وبعد وفاة النبي، حظيت فتاويها باحترام كبير، وما زالت تشكّل ركيزة أساسية في الشريعة الإسلامية حتى اليوم.

وبعد حوالي أربعة عشر قرنًا، تظل عائشة ليست قدوة يُحتذى بها فحسب، بل أيضًا إنسانة نابضة بالحياة، تجمع بين ما يُثني عليه وما يُطَمْئِن بعيوبها البشرية. فنحن نراها توزع آخر قطعة طعام في بيتها ـ وهي تمرة ـ على متسول، لكننا نسمع أيضاً عن غيرتها من زوجات النبي الأخريات. وهذه هي روايتها الواضحة عن شجارها مع صفية، زوجة النبي العاشرة، وهي يهودية اعتنقت الإسلام: "اسْتَبَبْتُ أنا وصفية، فَسَبَبْتُ أباها، فَسَبَّتْ أبي ".

لقد شعرتُ بالغبطة عندما قرأت عن عائشة ـ كيف كانت تتضايق من طول مكث النبي في الشمس، أو كيف كانت تنشد عشرات الأبيات الشعرية من ذاكرتها. لقد كان قدر كبير من حياة عائشة سبباً في سد الفجوة بين التقاليد الإسلامية للمرأة وحساسيتي النسوية.

ففي عائشة نجد امرأة، وتفسيرات امرأة، في صميم التقاليد الدينية: "خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء[٥١]" [الحمراء الوردية الصغيرة]، هكذا نصح محمد أصحابه، مستخدماً كنيته لعائشة ذات البشرة البيضاء. تقول ليلى أحمد، في كتابها الموثوق (المرأة والنوع الاجتماعي في الإسلام[٥٢]): "إن مكانة المرأة في النصوص الإسلامية الأساسية تميز الإسلام عن الديانات التوحيدية الأخرى. فكم من ديانات العالم الرئيسية تُدْرج روايات النساء في نصوصها المركزية، أو تسمح بشهادة امرأة لتصحيح قراءة كلمة واحدة من نص مقدس لتؤثر في القرارات؟"

---

[٥١] رواه الإمام مسلم في صحيحه

[٥٢] Women and Gender in Islam

لكن في حين أظهرت عائشة قرب معتقداتي من معتقدات الشيخ، فقد أظهرت أيضًا بُعدهما. لقد كان موضوع حياة عائشة هو الذي قادنا إلى أكثر محادثاتنا إزعاجًا. فقد خُطبت في السادسة أو السابعة من عمرها. وحسبما وصفت نفسها، كانت تلعب في الخارج غير مدركة، عندما حدث الزواج. تتذكر قائلة: "تزوجني رسول الله وأنا ألعب مع البنات. لم أكن أعلم أنه قد تزوجني حتى أخذتني أمي وأجلستني في الغرفة بدلاً من البقاء في الخارج. حينها أدركت أنني متزوجة".

إذن لقد كان زواجًا، لكنه لم يظهر في البداية كالزواج الذي نعرفه: فلم تعش مع النبي حتى بلغت التاسعة. تقول: "كنت ألعب على الأرجوحة وقد تشعث شعري، ثم أُخذت وهُيِّئتُ وأُحضرت إليه. وعُرِضَتْ عليه صورتي في حرير". ظهرت الصورة الحريرية للنبي في حلم، حيث ظهر له جبريل وهو يحمل الصورة قائلاً: "تزوجها، فهي زوجتك".

ولقد كان الزواج سعيداً للغاية، مليئاً بالمرح والنقاش الفكري. لقد كان حب محمد لعائشة "مثل عقدة قوية في حبل"، كما قال لها ذات مرة، حباً ثابتاً لا ينقطع. وحتى اليوم، تُعرَف عائشة بلقب "حبيبة حبيب الله". ومع ذلك، فقد أزعجني وصف عائشة للطريق القصير من لعبة الأرجوحة إلى الصورة الحريرية[٥٣]. وكانت ردة فعلي عند قراءتها أن أغلقت سيرتها بامتعاض. ولقد فعل منتقدو الإسلام ذلك لقرون؛ إذ نظروا إلى الزواج بين محمد ذي الخمسين عامًا والفتاة الصغيرة على أنه نوع من الاعتداء. لكن إغلاق الكتاب عند هذا الفصل، إذا جاز التعبير، من شأنه أن يختزل عائشة في كونها مجرد عروس فقط. ومن ثمَّ، فإن التركيز على سنها عند الزواج- وليس على ما جاء بعده- سيجعلني أفوِّت أفضل أجزاء القصة، تلك التي تضيف بُعدًا وعمقًا ليس فقط للزواج، بل لعائشة نفسها.

فقد نضجت العروس الصغيرة لتصبح بطلة للكبار. وبعد وفاة النبي، عندما بدأت المناقشات حول ما قاله وفَعَله محمد، أثبتت عائشة أنها مناظِرة بارعة في مواجهة كراهية النساء. فعندما زعم أحدهم أن النبي قال: إن الصلاة تبطُل إذا مرّ أمام المصلي "كلب أو حمار أو

---

[٥٣] هنا خلط لدى الكاتبة إذ اعتقدت أن النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة زواجه من عائشة ذكر لها رؤيا صورتها في قطعة حرير، لكن الصواب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد رأى الرؤيا قبل زواجه بزمن طويل. يقول الامام الذهبي: (عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أريتك في المنام مرتين أرى أن رجلا يحملك في خرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فأكشف فأراك فأقول: إن كان هذا من عند الله يمضه. ولما ماتت خديجة رضي الله عنها جاءت خولة بنت حكيم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ألا تزوج؟ قال: ومن؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا. قال: من البكر ومن الثيب. فقالت: أما البكر فعائشة بنت أحب خلق الله إليك. وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك).

امرأة"، ردّت عائشة قائلة: "لقد شبّهتمونا [نحن النساء] بالحمير والكلاب" وأضافت: "والله! لقد رأيت النبي يصلي بينما كنت مستلقية على السرير بينه وبين القبلة".

أما على الساحة السياسية، فقد جاء موقفها الأكثر جرأة بعد مقتل عثمان، الخليفة الثالث. عندما طالبتْ القائدَ الجديدَ "علي بن أبي طالب" بالبحث عن قتلة عثمان. وعندما رفض، خاضت معركة الجمل، التي سميت بذلك لأنها كانت تقود الجند من على ظهر جمل. لقد خسر فريقها المعركة، لكنها ذهبت إلى البصرة القريبة لتعليم النساء من الجانبين، الخاسر والمنتصر، عن الإسلام. قرأ بعض العلماء خسارة معركة الجمل كدليل على أن النساء لا يجب أن يكن قائدات. أما الشيخ، فقد استنتج درسًا آخر من إصرار عائشة وتوسّعها لتعليم نساء المنتصرين: "عندما ترتكب خطأً، تجاوز الأمر واستمر في المضي قدمًا!".

* * *

في إحدى الأمسيات في لندن، انطلقت للاستماع إلى الشيخ وهو يلقي محاضرة عن عائشة. وكان من المقرر أن تُعقد المحاضرة في إمبريال كوليدج، إحدى أبرز الجامعات البريطانية في مجال العلوم والهندسة. وبالنسبة لأمسية في منتصف الأسبوع، كان الحضور ضخمًا، وكان الشيخ يتوقع ذلك. وكما أخبرني لاحقًا، فإن موضوع عائشة دائمًا ما يجذب حشودًا كبيرة، خاصة في الجامعات. فهي دائمًا ما تقود النقاش نحو الزواج، ذلك الموضوع الأثير لدى الطلاب. تأخر الشيخ بسبب الزحام المروري، وبينما كنت أنتظر، أخذت أتأمل القاعة من مكاني في الخلف، في قسم "الأخوات". لم يكن الشيخ يؤمن بضرورة الفصل بين الطلاب والطالبات في محاضراته، لأنه لم يكن هناك فصل بين الجنسين في زمن النبي محمد. ومع ذلك، غالبًا ما يقوم منظمو محاضرات الشيخ بتقسيم الرجال والنساء. وكان التقسيم يتم بطرق إبداعية متنوعة. أحيانًا يكون هناك ستارة بلاستيكية بيضاء، أو قطعة قماش معلقة، تمتد في منتصف القاعة. وأحيانًا، حتى بدون تقسيم رسمي، كان الرجال والنساء يتجهون تلقائيًا إلى جوانب متقابلة في القاعة. وسواء أكان التقسيم مرئيًا أم غير مرئي، فإنه يخلق تحولًا في الجو، مثل تغيير ضغط الهواء في طائرة. فالتقسيم يمنح القاعة مجموعة خاصة من القواعد، تتعارض مع تلك التي تحكم الشارع في الخارج.

في تلك الليلة، كان التقسيم مبتكراً: مكتب به زجاجات بيبسي وأكواب بلاستيكية، جعل الرجال في المقدمة والنساء في الخلف. لم يزعجني هذا فقط لأنه يبعث برسالة تشي بأن النساء مواطنات من الدرجة الثانية، بل لأنه جعل من الصعب على جهاز البلاك بيري الخاص بي أن يلتقط كلمات أكرم بوضوح. بالطبع يمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك؛ ففي العديد من المساجد، لا يُسمح للنساء حتى بدخول القاعة الرئيسية مع الرجال. وذات مرة حُشرتُ في الأقبية الرطبة مع النساء الأخريات، في محاولة لسماع خطبة للشيخ وسط هدير الأطفال وقرقعة مكبرات الصوت.

في تجربتي، نادراً ما يبدو أن هذا الفصل بين الجنسين يؤدي الغرض الذي صُمم من أجله، وهو تحويل أفكار المرء بعيداً عن الجنس الآخر أثناء المحاضرات. فقد ذكرتْ والدتي ذات مرة، بعدما عادت من حفل زفاف يهودي أرثوذكسي، حيث جلس الرجال والنساء على جوانب منفصلة: "إن الحواجز بدت وكأنها تزيد من وعي المرء بالجنس الآخر، بدلاً من إخماده". أتذكر أنني سمعت قصة عن عالم باكستاني سُئل عن السبب وراء إصرار الثقافات الإسلامية على الفصل بين الرجال والنساء. فقال: لزيادة معدل المواليد، طبعًا!"

وبينما كنا ننتظر وصول الشيخ، تحول المشهد إلى حفلتين متوازيتين، إحداهما للرجال، والأخرى للنساء. ولا شيء يدفع الناس إلى التفكير في الجنس أكثر من الفصل بين الجنسين. فكرت في ذلك وأنا أشاهد شابًا يرتدي قميصاً منقوشاً ينظر خلسة إلى قسم النساء من تحت رموشه الكثيفة.

أخيرًا وصل الشيخ بعد أن شق طريقه عبر حركة المرور في لندن. وبعد أن اعتذر للحضور عن التأخير، بدأ الحديث عن عائشة، فقال: إن النبي عرف عائشة كطفلة وزوجة، لذا فإن حياتها تشكل دليلًا للمسلمين الصالحين حول كيفية تربية الأطفال المتدينين، وكيفية بناء زواج سعيد. فالزوجات والأطفال، على حد قوله، محتاجون إلى حرية الاستكشاف والتعلم والسعي نحو السعادة.

كانت عائشة تتمتع بحريات أكبر كثيراً من تلك التي تتمتع بها العديد من النساء المسلمات في القرن الحادي والعشرين. فقد كانت تناقش الرجال، وتذهب إلى المسجد، وإلى المعارك. وفي إحدى المرات، عندما تلقى محمد دعوة للعشاء لم تشملها، رفض الدعوة ثلاث مرات، حتى وافق المضيفون على ضمها إلى الدعوة أيضاً. وعندما رغبت في مشاهدة حدث رياضي عام،

رفعها كي تتمكن من المشاهدة، رغم أن "النبي لم يكن مهتماً كثيراً، لأنه كان كبير السن". أكثر من ذلك، كان الزوجان يتسابقان أحيانًا، وقد فازت عائشة في بعض تلك السباقات.

قال الشيخ للجمهور: "هل يمكنكم تخيل أي محدِّث، أو فقيه، أو شخص مثلي يجري سباقاً مع زوجته؟ زوجته الشابة؟" ضحكات التأييد تعالت من الجمهور. "لقد تسابقا، فسبقته! ولم يمانع! لكن، لا أحد يفعل هذا الآن! لماذا لا نحذو حذوهما؟"

لقد أثارت هذه القصص مشاعر مختلطة في نفسي. فقد كانت توحي باتحاد رقيق ومحترم. لكن حكايتها عن سباق الجري، وحماسها لمشاهدة حدث رياضي، وأسئلتها الجريئة، بدت وكأنها تؤكد حقيقة لا يمكن إنكارها: وهي أن عائشة كانت صغيرة السن للغاية.

لكن أكرم كان يفسرها بطريقة مختلفة. فبالنسبة له، كانت حياة عائشة توحي بشيء كثيراً ما يغفل عنه الناس: وهو أن السعادة تشكل أهمية بالغة بالنسبة للأسرة المسلمة الصالحة. فالناس عندما يتزوجون لا يريدون إسعاد زوجاتهم. وعندما ينجبون أطفالاً لا يريدون إسعاد أطفالهم". وتساءل الشيخ: "لماذا لا يفعلون ذلك؟ اجعلوهم سعداء!. عائشة كانت تشارك النبي مع نساء أخريات، ومع ذلك، كما أشار، استطاع النبي أن يجعل جميع زوجاته سعيدات. بالطبع، لم تكن كل لحظة مثالية. ففي إحدى المرات، بدأت زوجات النبي بالتذمر من ميله إلى توزيع طعام الأسرة على الفقراء. وأشار الشيخ إلى أن "الزوجات كن يقلن: لماذا تعطي الآخرين ولا تعطي أسرتك؟". هذا التذمر جعل النبي ينام بعيدًا عن زوجاته لمدة شهر، ثم تلقى وحياً في القرآن يأمره بأن يخيرهُنَّ بين البقاء مع النبي في حياته البسيطة، وبين أن يتركنه ويصبحن نساء ثريات:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً.
وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ
فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا.

(الأحزاب ٢٨-٣٠)

قال أكرم إن هذه الآية ردت على أي شخص قد يعتقد أن النبي كان يجبر عائشة على الزواج منه. هناك الكثير من الناس الذين يعتقدون أن عائشة أُرغمت على الزواج من محمد، لكن عندما نزل الوحي قالت: لقد اخترتك".

وأطال الشيخ في الحديث عن أشهر حكاية في حياة عائشة، وهي من الأهمية بمكان لدرجة أنها وردت في القرآن. فقد أحدثت ما يسمى بـ "حادثة الإفك" أزمة زوجية بين الزوجين، وتوترات سياسية في المجتمع المسلم الفتي، ووحيًا يعلن براءة عائشة. كان النبي وأتباعه عائدين إلى المدينة من حملة ضد قبيلة معادية. وعندما توقفت القافلة، نزلت عائشة ذات الأربعة عشر عامًا عن ناقتها لتقضي حاجتها. وفي طريق عودتها، وعند اقترابها من ناقتها، رأت أنها قد فقدت قلادتها، فقررت العودة على آثارها قصصًا. وبما أنها كانت خفيفة الوزن، ولم يتم فتح الستائر في مقعدها المغطى على الجمل، لم يلاحظ أحد غيابها عندما تحركت القافلة. وعندما اكتشفت عائشة أنها تُركت خلف القافلة، انتظرت أن يعود أحد ليصطحبها إلى القافلة. لكن لم يفعل أحد ذلك، ومرَّ شاب فوضعها على راحلته، وقادها إلى المدينة.

وعندما عادا إلى المدينة، بدأ الثرثارون يتهامسون. وكان منقذ عائشة وسيماً للغاية، وكانت هي مرحة وجميلة[٥٤]. فما الذي يمكن أن يكون قد حدث هناك في تلك الكثبان الرملية المنعزلة؟ حتى النبي نفسه أصبح غير متأكد مما حدث في ذلك اليوم في الصحراء.. وأصبح بعيداً بعض الشيء عن عائشة، وباردًا في عواطفه نحوها، وتوقف الوحي. وكانت عائشة نفسها قد مرضت بعد الحادثة وعادت إلى منزل والديها للتعافي. وفي النهاية، واجهها النبي. وكان والداها يبكيان، وكانت هي أيضاً تبكي. وتابع الشيخ: "قال النبي: يا عائشة، اسمعي، إذا كنت قد فعلت هذا الشيء، فهو خطيئة. لذا توبي إلى الله، وسوف يغفر لك". ومع ذلك، ظلت عائشة مصممة على موقفها. وقالت في وقت لاحق: "كنت فتاة صغيرة في ذلك الوقت، ولم أكن قد قرأت الكثير من القرآن". ولكن بعد أن رأت أن النبي يعتقد أن الاتهامات قد تكون صحيحة، لم تُجب إلا بقولها: " إذا قلت لكم إني بريئة- والله يعلم أني بريئة- لا تصدقونني. أما إذا اعترفت بالاتهامات، في هذه الحالة، ستعتبرونني صادقة!". في هذه الحالة قررت أن سبيلها الوحيد هو الصبر وطلب العون من الله. فأدارت رأسها بعيدًا عنهم، واضطجعت على فراشها.

---

[٥٤] من أي مصدر اقتبست الكاتبة هذه الأوصاف؟ أنتم ترون جموح خيال الكاتبة. وعلى افتراض صدق وصفها، فهل لدى امرأة ترتكب الفاحشة الجرأة لتدخل المدينة مرحة ونشطة أمام سمع الناس وبصرهم؟

تقول عائشة: فما لبث النبي أن بدأ يتعرق، وبدأت قطرات العرق تتساقط من جسده كاللؤلؤ، على الرغم من أن اليوم كان شتاءً. وسقط في حالة أشبه بالغيبوبة[٥٥]، وبدأ يتلقى الوحي. وكانت الكلمات التي نزلت تدين النميمة باعتبارها افتراءً وتصف النمامين بالخاطئين. ولم تؤكد الآيات براءة عائشة فقط، بل نصّت أيضًا على أنه إذا اتهم زوجٌ زوجته بالزنا وأنكرتْ التهمة، فيجب تصديقها. كما وردت لاحقًا في الآية مقاطع قرآنية رئيسية لقوانين الزنا في الإسلام، متضمنة الشهادة "بأربعة شهود" على الفعل الجنسي لإثبات الجريمة:

لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ.

لَوْلا جَاؤُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ

(النور:١٢-١٣)

قال أكرم: "فارتاح محمد ارتياحًا كبيرًا، وفرح فرحًا شديدًا، وأشرق وجهه. وقال: "يا عائشة، لقد نزلت براءتك من السماء". فأخذت أمُّ الفتاة تحثها على شكر زوجها حالاً. فأبت عائشة! فقال أكرم بإعجاب: "قالت: لا. لن أشكره. سأشكر ربي". لا شك أنها كانت ذكية جدًا، ولا شك أنها تعلمت أن الإسلام هو علاقة بين الإنسان وربه، وأن كل كلمة وكل عمل يجب أن يكون لإرضائه. فالزوج، حتى ولو كان نبيًّا، فليس هو مصدر النعمة. بل الله.[٥٦]

وهنا وضع أكرم مبدأ قوياً، مبدأً يواجه الهياكل السلطوية البشرية منذ بداية التاريخ الإسلامي. بغض النظر عن هويتك أو وضعك، يمنحك الإيمان بربك كرامة ضمنية. فالتقوى والإيمان يجعلانك خاضعًا ليس للقوى المحيطة بك، بل لقوة أعلى. فهل يمكنكِ أن تكوني

---

[٥٥] الوصف فيه تزيد هنا وقد يوحي بمعان أخرى، أما النص الوارد في كتب السنة فهو: (فواللهّ ما برح رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم من مجلسه حتى تغشَّاهُ منَ الله ما كان يَتَغَشَّاه فسجِّي بثوبه. ووضعت له، وسادة تحت رأسه. ثم سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وإنه ليتحدر منه مثل، الجمان في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: "أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك..)

[٥٦] واضح أن الكاتبة متعاطفة مع السيدة عائشة. وهذا شيء يحمد لها. ومن أجمل المواقف الواردة في السيرة حوار زوج مع زوجته، عندما قالت له: " يا أبا أيوب؛ ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال بلى، وذلك الكَذبُ، أكنت فاعلةً ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت أفعله، قال: فعائشة خيرٌ منك، فكيف تفعله؟

عروسًا شابة وترفضين الخضوع لنميمة البلدة الصغيرة، أو لتوسلات والديكِ، أو حتى لشكوك زوجكِ، الذي تصادف أنه رسول الله على الأرض؟ إيمان عائشة أعطاها هذه القوة لتحمّل مثل هذه الضغوط، والتحول عن هياكل السلطة الدنيوية لصالح شيء أكبر بكثير.

كان أكرم يستقطب ضحكات عميقة وموافقة من قسم النساء كلما ذكر النصيحة التي كان يقدمها للنساء اللواتي يفكرن في الطلاق: "أنا دائماً أقول للنساء اللاتي يعانين من مشاكل مع أزواجهن: هل تعتقدين أن الحياة هي الحياة الزوجية فقط؟ يمكن للأزواج أن يأتوا ويذهبوا، لكن ربك موجود دائماً". رؤية أكرم للتقوى كانت أيضًا مفتاحًا لمكافحة الظلم في الحياة الزوجية. ثم توجه الشيخ قائلاً للأزواج الحاضرين الذين قد يميلون إلى إساءة معاملة زوجاتهم: "أنت لا تملكها! أنت لم تخلقها! إذا كانت زوجتك سعيدة، فاشكر الله وكن سعيدًا. نحن لم نخلق زوجاتنا، ولم نخلق أزواجنا. الله هو الذي فعل ذلك".

كان منطقه مؤطراً بلغة الخضوع لله وحده: "لا ينبغي لأي إنسان أن يتحكم في أي شخص آخر". بدا هذا الكلام مفعماً بالحيوية والتحرر، ومجرداً من الرومانسية اللزجة مثل أي نص نسوي من الموجة الثانية.

* * *

وبعد أن أنهى أكرم حديثه عن عائشة، فتح المجال للأسئلة. جاءت الأسئلة من الرجال حول الزواج. فطلب شاب نصيحة "للإخوة الموجودين الذين يبحثون عن زوجات": ما الذي ينبغي أن يبحثوا عنه في الزوجة؟ فقال أكرم: "ليست جارية منزلية". إن من واجب الرجال أن يعتنوا بالبيت. على الرجال أن يطبخوا الطعام! على الرجال أن ينظفوا!. فالنبي، كان يكنس الأرض، ويرقع ملابسه بنفسه، ويصلح نعله بنفسه.

ومن قسم النساء، تعالت تصفيقات. ومن قسم الرجال، تعالت ضحكات متوترة. وتابع أكرم: "إن وظيفة الزوجة هي تربية الأطفال. لذا فإن المعيار الأساسي الذي يجب البحث عنه

في الزوجة هو البحث عن زوجة متعلمة"[٥٧]. وتابع أكرم حديثه وهو يسترسل في موضوعه: في المجتمعات الإسلامية اليوم، نادراً ما تحظى المرأة بالاحترام الذي تستحقه. ويوضح القرآن الكريم والحياة المبكرة للنبي مدى السلطة التي منحها الإسلام للمرأة. فالمسلمون المعاصرون بحاجة إلى العودة إلى هذه المصادر الأساسية، ليعترفوا بكل الحقوق التي فقدوها[٥٨].

ثم جاء السؤال الذي كنت في أمس الحاجة إلى معرفته ولكنني كنت سعيدة لأنني لم أكن مضطرة إلى طرحه.

سأل شاب: كيف يجيب الشيخ على مسألة صغر سن عائشة عندما تزوجت؟

"حسنًا، رد أكرم، كانت عائشة الزوجة الوحيدة للنبي التي كانت عروسًا صغيرة؛ كل زوجاته الأخريات كن نساء ناضجات، أرامل أو مطلقات عندما تزوجهن. كانت عائشة استثناءً. بالفعل ذهبت عائشة إلى بيت النبي عندما كانت في التاسعة، لكن الناس يختلفون حول النضج في أعمار مختلفة. فبعض الفتيات، منذ البداية، يكنّ ذكيات جدًا، لامعات للغاية. وهن ينضجن بسرعة. بعض الفتيات مختلفات عن معظم الناس... الله خلق بعض الناس هكذا. هناك أشخاص آخرون في الثلاثين أو الأربعين ، لكنهم ليسوا ناضجين".

اعتقدت أنني سمعته خطأً. آمل أن أكون قد سمعته خطأً.

قال الشيخ: لم يرد أي حديث يشير إلى أن عائشة كانت غير سعيدة. ومثل باقي زوجات النبي، أعطيت عائشة الخيار بالبقاء أو مغادرة بيت النبي، وقررت البقاء. كما أن لدينا شهادة من عائشة نفسها عن سعادتها في الزواج، إذ أن روايتها هي التي تم تناقلها عبر الأجيال. وعلى عكس العديد من النساء، حصلت عائشة على فرصة لسرد قصتها.

شعرت بضيق في صدري. كنت أتوقع بشدة – وأتمنى الآن – أن يأخذ الشيخ أكرم مسار النسبية الثقافية. أردته أن يقول إن الأمور كانت مختلفة في جزيرة العرب في القرن السابع. فقد كانت الحياة قصيرة، وكانت الفتيات ينضجن بسرعة – ليس فقط في المجتمع الإسلامي، بل

---

[٥٧] أين هذا القول من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فاظفر بذات الدين تربت يداك)، فقد كان من المفترض أن يقول الشيخ "زوجة متدينة ومتعلمة". فالزوجة المتعلمة ليست بالضرورة تسعد زوجها وتخرج أسرة ناجحة، والدليل على ذلك الشيخ نفسه الذي تزوج امرأة لم تصل في مستواها التعليمي إلا للصف الرابع الابتدائي وكانا سعيدان معًا، وكونا أسرة صالحة وناجحة ومتدينة.

[٥٨] الملاحظ أن بعض الشيوخ يتملقون النساء أثناء محاضراتهم ودروسهم، وربما يقدمون نصائح تجلب الضرر على الأسرة، وتزرع بذور الشقاق بين الزوجين وليس الوفاق. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

بين اليهود والمسيحيين أيضاً. أحد التقاليد اليهودية يشير إلى أن رفقة تزوجت إسحاق عندما كانت في الثالثة من عمرها؛ ويقدر العلماء أن مريم أنجبت المسيح وهي في حوالي الثانية عشرة. بالإضافة إلى ذلك، علينا أن نعيد تعريف معنى الزواج: كان الزواج عبر الشرق الأدنى غالباً تحالفات سياسية لربط الأسر والقبائل – وهي عادة استمرت لعدة قرون في أوروبا أيضًا.

هكذا كنت سأضع المسألة في إطارها، وهكذا تفعل الكثير من النسويات المسلمات.

ثم أردت أن يقول الشيخ: "انظر، يمكننا أن نعترف بأن زواج عائشة كان مناسباً لزمانه ومكانه، وأنه بفضل الشخصيات الاستثنائية المعنية، سارت الأمور بشكل جيد للغاية. ولكن هذا لا يعني أننا لا ينبغي لنا أن ندين زواج الفتيات الصغيرات اليوم". أردت منه أن ينتقد زواج الأطفال في الأماكن التي لا يزال منتشراً فيها، مثل الهند واليمن، وأن يصفه بأنه أحد أكبر العوائق التي تواجه المجتمع الإسلامي اليوم. أردت منه أن يشير إلى الكيفية التي يدمر بها صحة المرأة، ويخنق تعليمها وفرص عملها، وينذر بالسوء لمستقبل أبنائها[٥٩].

بالنسبة للمسلمين، أتباع دين يهتم بالعدالة، يجب أن يكون زواج الأطفال اليوم شيئًا مرفوضًا، كما يجب أن يكون كذلك لكل إنسان على وجه الأرض.

هذا ما أردته أن يقوله، وأن يندد به بصوت عالٍ.

لكنه للأسف لم يقل ذلك الآن. ولم يقله فيما بعد، عندما أثار طالب آخر، شاب في المقدمة، المسألة مرة أخرى، فقال: ألم تطرح تلك الأحاديث مسألة موافقتها لأنها لم تُسْتَشر عندما كانت تلعب بالدمى والأراجيح؟

قال أكرم: "كانت طفلة، لكنها كانت طفلة ذكية جدًا، ذكية للغاية". في الفقه الإسلامي، قضايا الموافقة تثار فقط عندما يقوم بتزويج الفتاة شخص آخر غير والدها: "الآخرون ليس لديهم الحب، لكن الأب لديه الحب. لديه الحكمة الكاملة، والحب الكامل".

تساءلت: وأين الأم في كل هذا؟

بالطبع، تابع قائلاً، إذا كانت الابنة لا تريد الزواج، فلا ينبغي أبدًا إجبارها. ذات مرة طرقت فتاة باب عائشة، تبكي لأن والدها يريد تزويجها رغماً عنها. أخذت عائشة الفتاة إلى الداخل، وعندما سمع النبي شكوى الفتاة، أعلن أن الزواج باطل.

---

[٥٩] في الحقيقة هذا شيء يُحمد للمؤلفة عندما تلقن المسلمين كيفية رد الشبهات والافتراءات عن الإسلام

كان ذلك مهدئًا. ومع ذلك، ظلت الأسئلة تتوالى حول عمر عائشة ـ أسئلة مهذبة، لكنها ملحة .

سألت شابة: كيف يجب أن نشرح زواج عائشة لغير المسلمين؟ كان هذا أحد الأمور التي يسألون عنها دائمًا. وعندما يسألون، قالت محتارة، "لا أعرف بماذا أجيب".

قال الشيخ: دعك من الدفاع عنه أمام غير المسلمين، يجب أن تكوني مقتنعة أنتِ أولاً، فإذا كنتِ تؤمنين أن الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا القدر من التقوى والطهارة، فيجب أن تعلمي أن الزواج كان كذلك أيضًا. لا يمكن لثقافة أن تفهم ثقافة أخرى، ما لم تفهم الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه هذه الثقافة. إن غير المسلمين، الذين قد لا يعرفون صدق النبي ونقائه، قد لا يتمكنون أبداً من فهم بعض أفعاله. وعندما تقرأ القصة في ضوء عصرنا، تبدو سيئة، لكن عندما تقرأها في ضوء النبي، تصبح مفهومة".

بعد فترة وجيزة، ذهبت إلى حفلة وصادفت هانز، المفكر الذي رفض حججي حول ضمان الإسلام لحقوق الإنسان نفسها التي تكفلها العلمانية. سألني وهو يعيد ملء كأسي بالشمبانيا: كيف تسير الأمور مع الكتاب، والدروس مع الشيخ ؟

أخبرته ببعض ما تعلمته، وكيف كانت الدراسة مع الشيخ تفاجئني باستمرار، ثم غيرت الموضوع بسرعة.

* * *

بالطبع، لم أكن لأتجنب الحديث عن زواج عائشة حين التقيت بأكرم في محاضرة أخرى. فقد أشاد به أحد الحاضرين في محاضرة عائشة لشجاعته في "عدم التهرب من قضية الزواج"، ولم أستطع أن أتجاهله أنا أيضاً.

قلت له: "انظر، أنا أفهم أن زواج فتاة صغيرة جدًا في القرن السابع أمر مختلف تمامًا حينذاك. لكنني لم أفهم تمامًا ما إذا كنتَ تعتقد أن هذا السلوك مقبول في عصرنا الحالي. هل يمكن أن توضح لي ذلك؟"

وافق الشيخ على أن السياق كان مهماً. فقد ذكره بقول للمهاتما غاندي تعلمه في ندوة، وهو: "إذا لم تكن في موقف ذلك الشخص، سيكون من الصعب تخيل الموقف بالكامل، ومن الصعب أن تحكم بدقة وحِكمة".

سألته: "وما هو السياق؟"

حسنًا، في العالم الغربي الآن، هناك تعليم جامعي، ولا يستطيع الناس التخطيط للزواج إذا لم يكن لديهم وظائف. لكن تخيل أوروبا، قبل ثلاثمائة أو أربعمائة عام. تخيل منزل مزارع- كما تعلمين، هؤلاء الناس ليس لديهم ما يفعلونه سوى الزواج. صبي مزارع وفتاة مزارعة، لا يوجد ما يمنعهم من هذه الأمور، حتى في سن صغيرة جدًا.

"لكن الآن، في العالم الحديث، يرى الناس أن زواج الأطفال بمثابة إساءة للأطفال!"

" إن الإساءة تحدث أيضًا في العالم الحديث، وسوف نرى الإساءة"، قال وهو يهز رأسه بتأنٍ. "لكن ليس كل من يتزوج بهذه الطريقة يفكر في إساءة معاملة الأطفال. إذا نشأتَ في سياق معين، وكان تفكيرك موجهاً نحو طريقة واحدة، لا يمكنك التفكير في هذه الأمور بطرق أخرى"

كان من دواعي فخري، كصحفية ومؤمنة بالتعددية، أن أحاول رؤية الأشياء من وجهة نظر ثقافية أخرى. كنت أرى أن عائشة كانت استثناء، ويمكنني أن أقبل أن الجزيرة العربية في القرن السابع كانت تحتوي على مجموعة مختلفة تماماً من القوانين. لكن عدم رغبة الشيخ في إدانة زواج الأطفال بشكل شامل أزعجني. صحيح أنه لا يعتقد بضرورة زواج الأطفال، لكنه مع ذلك لم يطعن في حقيقة أن التفسيرات التقليدية للشريعة الإسلامية تسمح بذلك، مثلها كمثل التفسيرات الهندوسية واليهودية.

بالنسبة للشيخ، كان الزواج، حتى لو كان في سن مبكرة نسبيًا، أفضل بكثير من الظاهرة الغربية للأمومة في سن المراهقة بدون زواج. "بدون زواج، تُنجِب الفتيات أطفالاً في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، ومن ثم تُترك الفتاة بمفردها. فهذا أسوأ، بالتأكيد!"

عقلياً، استطعت أن أفهم وجهة نظره في المجتمعات التقليدية حيث تكون المرأة العزباء منبوذة. لكن عاطفياً، لم أتمكن من قبولها، خاصة بسبب ذاكرتي عن نُجود التي كانت تبلغ العاشرة عندما قابلتها في صنعاء، اليمن. أُرسلت من قبل مجلة أمريكية لإجراء مقابلة مع الفتاة، التي جعلتها شجاعتها في مواجهة الثقافة المحلية أشهر مطلقة في اليمن. فقد تزوجت الطفلة

التي كانت مولعة برسوم توم وجيري في سن التاسعة وطلقت في العاشرة. بعد أن اختُطفت إحدى أخواتها وتعرضت أخرى للاغتصاب، اعتقد والدها العاطل، الذي كان لديه ستة عشر طفلاً وزوجتان، أن الزواج المبكر من شأنه أن يوفر لنجود الطعام والأمان. وفي يوم زفافها، حصلت على خاتم بقيمة عشرين دولاراً، وثلاثة فساتين، وحجابين، ولكن الإثارة تلاشت بحلول المساء، عندما اغتصبها زوجها البالغ من العمر ثلاثين عاماً، على حد قولها. وبعد عام واحد، صنعت نجود تاريخ اليمن عندما استقلت سيارة أجرة إلى وسط المدينة إلى المحكمة وطالبت بالطلاق. وعندما سألها محاميها المستقبلي عن السبب، أجابت: "أنا أكره الليل ".

تصدرت قضية نجود عناوين الصحف في مختلف أنحاء العالم. وعندما صدر قانون في اليمن برفع السن الأدنى للزواج إلى سبعة عشر عامًا، قوبل بمعارضة شديدة من المحافظين وتم إلغاؤه. وفي عام ٢٠١٠، ذكرت وكالة أسوشيتد برس أن القادة المسلمين في اليمن أصدروا بيانًا يعلنون فيه أن المؤيدين للقانون الجديد سيتم وصفهم بأنهم غير مسلمين ومرتدون. واستغرق الأمر حتى عام ٢٠١٤ لبدء حملة منظمة لتمرير قانون يحظر زواج الأطفال.

* * *

في الدروس، كان الشيخ يحث طلابه على عدم "إعادة تغليف" الإسلام لجعله أكثر قبولاً لدى الغربيين. كانت محاضراته عن عائشة – ومسألة تعدد الزوجات – دليلاً على أنه كان يمارس ما ينصح به.

فقلت له ذات يوم: يا شيخ، ما أفهمه أنه يُسمح لك بزوجتين فقط طالما أنك تعاملهما بالعدل".

كنت أتحدث عن الآية التي تحدد حقيقة أنه يمكنك أن تتزوج من تشاء من النساء، مثنى وثلاث، ورباع، فإن خفت ألا تعدل فواحدة:

"فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً".

وقد أشارت النسويات المسلمات إلى أنه من المستحيل تحقيق العدل في شئون القلب والبيت على حد سواء. وجادلن بأن الآية في واقع الأمر تثبط، بدلاً من أن تشجع، تعدد الزوجات التي كانت سائدة قبل الإسلام.

لكن الشيخ أثار استيائي عندما أجاب بالنفي: "كلا. يمكن للرجل أن يكون لديه زوجتان أو ثلاث أو أربع طالما أنه يوفر لكل منهن سكنًا ونفقات منفصلة. وليس بالضرورة أن يُحبهنَّ بالتساوي. لأن التحكم في القلب شيء صعب".

"لكن ألم يكن الوحي بشأن تعدد الزوجات في الحقيقة يتعلق برعاية الأرامل بعد المعارك؟" سألته، على أمل أن يوافق على تفسير ناشطة مسلمة التقيت بها ذات مرة. قالت إن الآية نزلت بعد أن واجه النبي ورفاقه خسائر عسكرية، مما ترك العديد من الأرامل خلفهم. وأشارت إلى أن جوهر الشريعة لم يكن يهدف إلى الدعوة للزواج من زوجة ثانية أو ثالثة- شابة وجميلة - من أجل المتعة. بل جاءت الشريعة لتوفير الحماية والرعاية للنساء الأكبر سنًا، اللواتي كنّ في أمس الحاجة للدعم في مجتمع ذكوري كان يفرض هيمنته في القرن السابع بالجزيرة العربية.

"إذن الأمر لم يكن يتعلق بحماية الأرامل والأيتام في الواقع؟"

" لا، ليس هذا فقط. بعض المسلمين يريدون إظهار الشريعة الإسلامية على أنها مقبولة لدى جمهور واسع".

في مسألة تعدد الزوجات لا أستطيع أن أتهم الشيخ بذلك.

لكن الشيخ رأى في تعدد الزوجات شيئاً آخر أيضاً: اعترافاً بضعف الرجل، ونظاماً فعالاً لتقليل أضراره إلى أدنى حد. وقال: "الكثير من الرجال يخونون، ومن السهل عليهم خداع امرأة، ثم تركها، ربما مع طفل". وأوضح أن الزواج بزوجة ثانية يهدف إلى منح النساء الحماية والاستقرار، حيث تكون العلاقة معلنة ومبنية على أسس واضحة من المسؤولية والالتزام. يتحمل الرجل واجب إعالة المرأة وتوفير احتياجاتها، مما يجعل الزواج الثاني أفضل لها في بعض الحالات، إذ تضمن من خلاله مأوى كريمًا ونفقات توفر لها حياة مستقرة.

في إطار النظرة التقليدية للشيخ، كنت أستطيع أن أرى منطق المؤسسة. لكن نظرتي للعالم لم تكن قادرة على أن تكون امتدادًا لنظرته، فأنهيت المكالمة مكتئبة. وباعتباره مدافعاً عن حقوق

المرأة ضمن سياق إسلامي محافظ، كان الشيخ يرى أن مثل هذه الترتيبات منطقية. أما أنا، فقد رأيتها باعتبارها نوعًا من النظام الأبوي الذي لم يكن راغباً في المساس به.

في الحقيقة، كنت قد قللت من شأن رأي الشيخ، عندما افترضت أنه لن يراجع مواقفه بشأن زواج الأطفال. بيْدَ أنَّ "أرزو" و"مهرون"، زميلتي السكن في أكسفورد اللتين تدرسان مع الشيخ لتصبِحا عالمتين إسلاميتين، تمكنتا من جعله يعيد النظر في موقفه من زواج الأطفال. ففي أحد أيام الأحد، في دورة متقدمة في الفقه في أكسفورد، كان الفصل يتناول نصًا فقهياً للإمام الكاساني، في فصل بعنوان "زواج القاصرات". تتذكر أرزو: "كان هناك حوالي أربعين رجلاً في الغرفة، وعدد قليل من النساء. ومع تقدم اليوم، وبينما كان الفصل يدون بهدوء ملاحظات حول النقاط الفقهية الدقيقة لزواج الأطفال، قالت أرزو: "تحولت المرأتان إلى اللون الوردي والأرجواني والأزرق من الغضب".

وبصفتها طبيبة ومستشارة للصحة العامة، عملت مهرون في كينيا وزامبيا، وشاهدت عن كثب الآثار المدمرة لهذه الممارسة. لقد كانت على وشك الانفجار"، تقول أرزو. "كلما ازددت ضيقًا، كلما أصبحت أكثر صمتًا".

قالت مهرون: "لم أستطع فهم كيف يُتوقع من طفلة في الثامنة أن تدافع عن نفسها أمام الكبار وتشرح للمحكمة ما هي مصلحتها. كنت مشوشة للغاية لأسأل الأسئلة بنفسي، لذا دفعت أرزو.

رفعت أرزو يدها وسألت الشيخ كيف يمكن للشريعة الإسلامية أن تتسامح مع أي شيء يؤدي إلى مثل هذه المعاناة. وتحدثت عن الفتيات اليمنيات؛ وعن الآباء الذين يزوجون أطفالهم طمعًا في المال بدلاً من الحماية؛ والنزيف الداخلي، وهبوط الرحم، تلك النتائج الشائعة جدًا للجماع بين القاصرات وإنجاب الأطفال في مرحلة مبكرة. وتابعت أرزو قائلة إنها تعلم أن الفقهاء قالوا إن الفتاة يمكنها رفض الزواج، ولكن كيف، سألت، وهي تلهث قليلاً: كيف يمكن للمرء أن يتوقع من فتاة صغيرة أن تتحدى والديها بهذه الطريقة في محكمة قانونية، أو حتى أن تعرف ما تريده بالضبط؟

استمع الشيخ وأومأ برأسه موافقًا. فبدون العقلية السليمة، والمراقبة من الدولة، ستكون مثل هذه الممارسات شائعة، وغير عادلة، وغير إسلامية. ولن يقبل الإسلام أبدًا أن تتزوج فتاة وتتم المعاشرة معها دون موافقتها.

وعلى مدى أسابيع، واصلت النساء مناقشة المسألة مع أكرم، وراقبن تطور موقفه. في البداية، قال الشيخ إنه على الرغم من أن زواج الأطفال جائز، إلا أنه يجب على الوالدين أن يضعوا في اعتبارهم المصالح الفضلى لبناتهم – وعلى الحكومة أن تراقب مثل هذه الترتيبات لضمان عدم إساءة الوالدين أو الزوج للفتاة. كما لم يتمكن من العثور على أي دليل على أن الزواج يمكن أن يتم قانونيًا قبل البلوغ، وقال إنه لا ينبغي ممارسة الجنس قبل أن تبدأ الفتاة في الحيض. فالمطلوب هو العقد، وليس الدخول" .

واستمرت مثل هذه المناقشات لأسابيع، حيث تقدم أرزو الحجج القانونية، ومهرون تخبر الشيخ عن الأطفال اللواتي عالجتهن في أفريقيا. ثم في درس الحديث الصباحي يوم الأحد، قال الشيخ للمرأتين: "احرِصنَ على حضور درس الفقه اليوم، وأكد على أهمية ذلك الدرس".

ولقد كان كذلك بالفعل، ففي ذلك الدرس أعلن عن أمر "قد رفعنا إلى السحاب ". كما قالت مهرون.

قال الشيخ: "لقد تحدثت مع "أرزو" و"مهرون" على مدى الأسابيع القليلة الماضية حول قضية "زواج القاصرات"، وأعلن الآن أنني قد راجعت موقفي، بعد سماع حججهما ضد زواج القُصّر، وعدت إلى المصادر الفقهية، فوجدت قاضيًا وفقيهًا من القرن الثامن، هو ابن شبرمة، لديه فتوى سليمة ضد ممارسة زواج الأطفال. وقد احتج ابن شبرمة بأن القضية تعتمد على استقلالية المرأة. وعندما تصل الفتيات إلى سن البلوغ، يمكنهن اختيار من يتزوجن. أما الزواج في مرحلة الطفولة، فإنه يحرمهن من هذا الاختيار.

وأضاف أكرم إلى هذه الحجة، بأن القمع والظلم الذي يحدث في زواج الأطفال اليوم يؤكد على الحاجة إلى معارضته على المستوى الفقهي. فالرأي الفقهي القديم لابن شبرمة، والمدعوم بالأمثلة الحديثة للظلم التي لفتت انتباهه إليه أرزو ومهرون، غيرت رأيه: "لقد تعلمت من هؤلاء الفتيات"، كما قال.

ذُهِل الحشد الذي كان معظمه من الذكور. فمن غير المألوف أن يعلن شيخ تغيير رأيه. بل، ويفعل ذلك بعد مناظرة مع طالبتين؟

تقول مهرون ضاحكة: " صُدِم الأولاد "، وارتفعت أيدي الشباب على الفور، ولم يقل أحد منهم شيئًا خلال دروسنا لمعارضة حججنا. والآن فجأة، حفزهم ما جرى، وسارعوا إلى تشكيل جبهة معارِضة، رغم أن أحدًا منهم لم يكن قد مارَسَ زواج القُصَّر في حياته، أو حتى أبدى موافقته عليه. لكنهم شعروا بأن هذا كان هجوماً على دورهم كرجال، وقدرتهم على اتخاذ القرارات لأطفالهم".

تقول مهرون: "ردود أفعالهم حفزتني أكثر".

وقال الشيخ للطالبتين: إن السعي لتحقيق العدالة يحتاج إلى الاستنارة بأصوات النساء وتجاربهن. ولا ينبغي للمسلمين أن يكتفوا بالنظر فقط في النصوص القديمة لفهم دينهم. بل يجب على العلماء في هذا العصر أن يكتبوا كتباً جديدة، آخذين بعين الاعتبار وجهات نظر النساء بشأن الروح الحقيقية للقرآن والسنة.

وحثَّ أرزو على كتابة كتاب. وأضاف: "لم تكن النساء حاضرات عندما كُتِبتْ هذه الآراء الفقهية. يجب أن تكتبي كتاباً ".

كم هو أمر مثير للسخرية، كما تأملت فيما بعد، أن الكثير، من غير المطلعين على الإسلام، يرونه مسألة قواعد جامدة، وفتاوى ملزمة، ومحظورات صارمة. ومع مرور العام، فوجئت مرارًا وتكرارًا باتساع إطاره الفكري. هذه المرونة الجوهرية يمكن استخدامها في الخير والشر على حد سواء: فالقوانين الإسلامية بإنسانيتها من صنع المسلمين الذين يفسرونها.

(٩)

الحجاب والسفور

في الصباح، نزلت سمية أكرم إلى سيارة العائلة لتقلها إلى المدرسة، وهي ترتدي النقاب لأول مرة. كانت مغطاة تمامًا، لا يظهر منها سوى شق ضيق لعينيها. صُدم والدها عند رؤيتها، إلى حد أنه رفض تشغيل السيارة. جلست سمية تتذكر اللحظة وتقول: "اعتَقدَ والدي أنني فقدت عقلي. جلس هناك ينتظرني أن أعود إلى المنزل وأغير ملابسي، رافضًا تمامًا تشغيل السيارة".

فعندما رأى الشيخ النقاب لأول مرة، اعتقد أنها وقعت تحت تأثير مجموعة متشددة. كان قلقًا من أنها لم تتخذ قرارًا بارتدائه من أجل نفسها. هل من الممكن أن يكون شخص ما قد أثَّر عليها؟ قال: "كنت أفكر أنها ربما تكون قد تأثرت بأحدهم. أو أنها تريد تقليد شخص ما ".

كان ارتداء النقاب من اختيار سمية بالكامل، رغم أنها لم تكن متأكدة تمامًا ما الذي دفعها لارتدائه. كانت يومذاك في السادسة عشرة، لذا هناك أمور عاطفية لابد أن تؤخذ في الحسبان، سواء الخاصة بها أو الخاصة بالآخرين. وعندما كانت مراهقة، شعرت أنها لا ينبغي لها أن تنظر إلى الرجال، ولا ينبغي للرجال أن ينظروا إليها. قالت: "اعتقدت أن الحجاب قد يكون بمثابة تذكير دائم لي، للمساعدة في السيطرة على الإغراءات". لكن بعد مرور عقد من الزمان، ظل قرارها غامضًا إلى حد ما، حتى بالنسبة لها. قالت وهي تفكر: "لا أعرف ما هو. فكرت فقط في تجربته".

عندما شاهدت هذه المرأة التي تتحدث بصراحة، وتتمتع بثقة عالية بالنفس، وهي تتجول في غرفة المعيشة في ضاحية شرق لندن، تساءلت إلى أي مدى كان نقابها شكلاً حلالاً من أشكال التمرد الشبابي. هل كان نوعًا من تسريحة الشَّعَر القوطية، أم وشماً على شكل قلب؟ أم كان إعلاناً عن الذات، أو ضغطاً طفيفًا على حدود طفولتها؟

لكنني بعد أن راجعت نفسي، أدركت أن تسطيح النقاب ليصبح مجرد موضة شبابية يجرده من أي شيء مقدس. فليس كل حجاب يوحي بالخضوع لله. فالحجاب المزين بالعلامة

التجارية "كالفن كلاين" يوحي بالخضوع للسوق. والنساء اللواتي يرتدين الحجاب مع الجينز الضيق، قد يعبرن عن أسلوب شخصي أكثر مما يعبرن عن الحشمة.

لكن النقاب شيء مختلف. إنه "اختيار" على غرار ما يحدث في الاقتصاد الاستهلاكي[٦٠]. إن النقاب الأسود البسيط بمثابة محو بصري للذات، ورفض للانخراط في أساليب التعبير اليومي عن الذات. والمرأة التي ترتديه تفعل ذلك لأنه يربطها بشيء أكبر من الذات. قد يكون الله. أو قد يكون الهوية الإسلامية. لكنه لم يكن مجرد زيٍّ شبابي، وهذا أمر مؤكد.

أيًّا كان السبب الذي دفع سمية إلى ارتداء النقاب في عام ٢٠٠٥، فقد تطلب الأمر شجاعة. كان نقاب سمية من بين النقابات الأولى في أكسفورد. علاوة على ذلك، التحقت بمدرسة ثانوية لا يوجد بها الكثير من المسلمين، لذلك لم تكن تحظى بدعم من أقرانها. لاحظت سمية بوضوح أن زملاءها في الفصل ربما كانوا يتوقعون منها "أن تفجر الفصل أو شيئاً من هذا القبيل". سألتها معلمتها المفضلة عما إذا كان هناك مهرجان من نوع ما؟ أجابت سمية: "هذا أنا من الآن فصاعدًا". لم تذكر المعلمة الأمر مرة أخرى: وكان الأمر كذلك.

لم يكن غير المسلمين يميلون إلى التعليق على زيها الجديد. "فالإنجليز متحفظون للغاية". وكان المسلمون هم الأكثر انزعاجاً من هذا الإعلان الجريء عن التقوى، وكانوا يميلون إلى إبقاء مسافة بينهم وبينها في الصف. "بالنسبة لبعض أساتذتي، لابد أن الأمر كان يتلخص في: ماذا نفعل مع هذه الفتاة الآن؟" لكنها حرصت على البقاء "طبيعية"، ومواصلة المشاركة في الفصل، والجلوس حيث كانت تجلس دائماً، والحفاظ على درجاتها مرتفعة كما كانت دائماً.

أما والدها فقد تتقبل النقاب فور أن فهم أن ذلك كان اختيارها وحدها. فالمسلمون رجالاً ونساءً يجب أن يتحلوا بالحياء. وقد اتفق أكرم وابنته على ذلك. واتفق كلاهما أيضاً على أن النقاب اختياري وليس إلزامياً. ومثل العديد من العلماء الكلاسيكيين، كان الشيخ يعتقد أن المرأة يجب أن تغطي رأسها وذراعيها وساقيها وترتدي ملابس فضفاضة حتى لا تلفت الانتباه إلى شكلها. لكن وجهها وكفيها لا يحتاجان إلى تغطية. وإذا أرادت المرأة ارتداء النقاب، فهذا اختيارها. وإذا أرادت أن ترتدي قفازات سوداء معها، كما تفعل بعض المنقبات، فهذا خيارها أيضاً.

---

[٦٠] تقصد الكاتبة بأن النقاب كالاقتصاد الاستهلاكي كلاهما ينبعان من قرارات فردية تخضع لتأثيرات بيئية أو ثقافية، حيث يكون للفرد حرية الاختيار بما يتوافق مع هويته وأولوياته.

لكن في رأي الشيخ، لا يُشترط أيٍّ من هذين الأمرين. فبالنسبة للشيخ، لا يعني الحجاب الإسلامي المحتشم أن تكون المرأة غائبة أو غير مرئية، بل "أن تكون حاضرة ومرئية، مع إطفاء قوة اشتهائها الجسدي".

* * *

قليل من الملابس التي أثارت جدلًا بحجم الجدل الذي أثاره الحجاب الإسلامي. فالملالي يتحدثون ببلاغة حول مدى ملاءمته وطوله وأسلوبه. والحكومات، سواء الإسلامية أو الغربية، استخدمته كعنصر في استراتيجيات السياسات. حتى استخدام كلمة "الحجاب" يمكن أن يكون مثيرًا للجدل، إذ قد يثير صورة خيالية استشراقية عن فتيات الحريم المغريات. ومع ذلك، اخترت استخدام مصطلح "الحجاب" في هذا الفصل، ليس لتعزيز صورة "الشرق الغامض"، بل لأنه أوسع مصطلح وجدته لوصف مفهوم تغطية النساء المسلمات، التي يمكن أن تتراوح بين أوشحة رأس خفيفة إلى الجلباب الذي يغطي الجسد بأكمله.

هناك جدل بين المسلمين حول ما إذا كان القرآن ينص صراحة على أن المرأة يجب أن تغطي رأسها. والآيات التي يتم الاستشهاد بها بشكل متكرر كحجج لصالح الحجاب تظهر في سورة النور:

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ.

النور (٣٠-٣١)

إن صياغة الآية غامضة إلى الحد الذي جعلها بمثابة ذخيرة لكل من أنصار الحجاب ومعارضيه. يعتقد أكرم والعديد من الفقهاء الكلاسيكيين أن السطر الذي يسمح للنساء بإظهار الزينة "وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا" يعني أن النساء يمكنهن إظهار وجوههن

وأيديهن. ويقول آخرون إن الآية تشجع فقط على ارتداء ملابس محتشمة. حتى أن البعض قرأوا الآية على أنها تحذير بسيط من التلميحات الجنسية في الحوار بين الجنسين، الذي كان شائعًا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام كما يقول المؤرخون. قرأ بعض المحافظين الآية على أنها توصي بارتداء النقاب. وهناك مترجم مثير للجدل يترجم الآية لتفيد أن المرأة يجب أن تُظهر فقط كفَّيها مع عين واحدة أو كلتيهما للضرورة.

ومن سمات أكرم أنه مدرك لتنوع القراءات ويحترمها جميعًا في الوقت نفسه. فقال دبلوماسياً حين سئل: "هناك رأي مفاده أن تغطية الوجه بالنقاب واجب على كل امرأة. لكننا نعلم أن زوجات النبي لم يكن يغطين وجوههن عادة، استنادًا إلى قصة عن عائشة. فحينما سمعت زوجات النبي، صلى الله عليه وسلم، عن امرأة جميلة عرضت نفسها للزواج من النبي، حَثَثْنَ عائشة على الذهاب لمعاينة جمال المرأة. ولكي لا تُعرف، ارتدت عائشة النقاب.

وعلاوة على ذلك، كانت زوجات النبي أكثر تسترًا من سائر نساء المسلمين في المجتمع. وقد أمر القرآن بذلك، في الآية التي تسمى أحيانًا "آية الحجاب"، والتي يُقال إنها نزلت بعد إحدى زيجات النبي. وبعدما انتهت الاحتفالات، تأخر بعض الضيوف في غرفة العروس لفترة أطول مما ينبغي. فنزلت الآية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ
وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا
وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ. إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ.
وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ
ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (الأحزاب:٥٣)

إن الجزء الخاص بمخاطبة زوجات النبي من "وراء حجاب" كان يتحدث عن وضع خاص في بيت محمد، حيث كانت مكانته في المجتمع تعني تدفق الزوار باستمرار. وكلما زاد عدد الأشخاص الذين يأتون لرؤية النبي، زادت الحاجة إلى إيجاد طرق لتوفير الخصوصية لزوجاته. والحجاب المذكور في الآية سمح بذلك. وخلال حياة النبي، كان الحجاب، مثل

العزلة، يُمارس فقط من قبل زوجاته، وفقًا للمؤرخة ليلى أحمد. أما انتشار الحجاب في المجتمع الإسلامي، فقد جاء لاحقًا.

قد يكون الحجاب انتشر جزئيًا، وفقًا لتكهنات ليلى أحمد، نتيجة تقليد زوجات النبي، أو بعد انتشار الإسلام في مناطق مثل سوريا وفلسطين، حيث كان الحجاب عادة أرستقراطية. وفي وقت لاحق، حوَّل علماء العصور الوسطى هذه العادة إلى قانون.

كان الشيخ يعتقد أنه لا ينبغي لأحد أن يجبر النساء والفتيات على تغطية رؤوسهن. فالحياء، مثل التقوى، يجب أن ينبع من الداخل، لا أن يُفرض من الخارج. وقال إن القوانين لا تجعل الناس أتقياء. بل تحمي التقوى عندما يكون موجودًا بالفعل. ولا تستطيع الحكومات فرض التقوى على شعوبها بالقوانين: وقد أثبتت إيران والسعودية ذلك.

كما أن محاولة فرض الشريعة لن تجعل الناس مسلمين صالحين، وفرض الحجاب لن يحقق الحياء تلقائيًا. وبدون خشية الله وخضوع حقيقي له، فإن هذه المظاهر الخارجية للهوية الإسلامية ستكون مجرد استعراض للهوية، وليست دليلًا على الإيمان. وأضاف: "قد يكون هناك أشخاص يلتزمون بالشريعة، لكنهم ليسوا مؤمنين. وقد يكون هناك أشخاص لا يغطون رؤوسهم، لكنهم مؤمنون"[٦١].

إن تغطية الرأس تتطلب التزامًا حقيقيًا لكي تؤتي ثمارها. وقد قال لطلابه: "إن الملابس لا تجعلك متديناً. لكن إذا كنت متديناً فإن الغطاء يمكنه أن يحميك. لكن إجبار النساء على البقاء في المنزل، أو ارتداء الحجاب لن يجعلهن متدينات". ولا يمكن لأحد أن يجرؤ على الحكم على معنى غطاء الرأس الذي ترتديه امرأة بعينها. فالحجاب، مثله كمثل المظاهر العامة الأخرى للإيمان الإسلامي، لا يعني الكثير بدون الإسلام الحقيقي. وبالنسبة للشيخ، فإن قضية الحجاب كانت خارج الموضوع إلى حد ما، مقارنة بالمسألة الأكثر إلحاحاً وهي التقوى الحقيقية. وفي هذا يتفق مع نوع مختلف تماماً من المفكرين المسلمين، وهي الناشطة النسوية الأميركية من أصل أفريقي أمينة ودود، التي قالت: "إذا كنت تعتقد أن الفرق بين الجنة والجحيم هو خمسة وأربعون بوصة من القماش، فسوف تُصدَم يا فتى". واستشهدت بآية من القرآن: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ).

---

[٦١] في الحقيقة في هذا الكلام مغالطة واضحة، فعدم تحصيل المرأة للتقوى لا يعني أن تبقى بلا حجاب حتى تحصله. إنما يجب أن تلتزم المسلمة بالحجاب متى بلغت السن المعتبرة شرعًا، فإذا حصَّلتْ التقوى فبِها ونِعْمَت، وإذا لم تحصِّله فذنبها على جنبها وحسابها عند الله.

ولما كان الشيخ يعلم أن التقوى لا يمكن أن تُفرض، ترك لبناته حرية اختيار ملابسهن. وعندما بلغت بناته الصغار سن البلوغ، وهو السن الذي تبدأ فيه العديد من النساء المسلمات بارتداء الجلباب، ذلك الثوب الطويل الفضفاض، سألن عما إذا كن في حاجة إلى ارتدائه، وكان رد أكرم لطيفاً. تتذكر سمية أنه قال لها: "لن أجبرك على ارتدائه. أعتقد أنه ينبغي أن تفعلي. لكنَّ الأمر متروك لكِ". فقالت وهي تهز كتفيها: "لأنه لم يجبرنا، بقي الجلباب ".

ولقد كانت سمية تحرص على الحياء والاحتشام. وكانت قرارات سمية بشأن ما يشكل الحياء تختلف من يوم إلى آخر. فهي لم تكن منتقبة بشكل دائم، بل كانت تختار كيف تغطي نفسها. ففي بعض الأيام كانت ترتدي النقاب، وهو الاختيار الذي كان يتوقف في كثير من الأحيان على الموقع الجغرافي. فعندما انتقلت هي وزوجها إلى حي في شرق لندن، وجدت أن المزاج السائد هناك "معادي للإسلام إلى حد كبير". ولم يكن الأمر واضحاً، ولكنها لم تستطع إلا أن تلاحظ أشياء صغيرة: إيماءات باردة في الشارع، وملاحظات مقتضبة تركت على عتبة الباب لتذكير الزوجين بقص العشب في منزلهما. وعندما انتقلت هي وزوجها إلى الحي، اشتكى أحدهم إلى السلطات الحكومية المحلية من وجود أثاث على الرصيف. وتنهدت سمية قائلة: "بالطبع كان أثاث هناك بالخارج. فقد كنا ننتقل للعيش هناك!".

وسواء أكان جيرانها يكرهون الإسلام، أم يتصرفون بوقاحة فحسب، فقد قررت سمية التخلي عن النقاب في حيِّها لصالح الحجاب البسيط. لكنها كانت ترتدي النقاب عندما تذهب إلى مناطق أكثر تقبلاً للمسلمين في لندن. وفي اليوم الذي تحدثنا فيه عن الأمر، لم تكن متأكدة مما إذا كانت سترتدي النقاب أثناء دراستها في الدراسات العليا أم لا؛ فقد توقفت عن ارتدائه عندما كانت طالبة جامعية، ولم تستأنف ارتداءه إلا بعد مغادرة الجامعة. وقالت: " أشعر براحة أكبر عند ارتدائه، مقارنة بعدم ارتدائه".

* * *

في أحد الأيام، أثناء ندوة للشيخ عن الآداب، نظرت لأرى امرأة منتقبة تصل متأخرة، وتدفع عربة أطفال أمامها. أومأت برأسي وابتسمت، ثم حركت حقيبتي حتى تتمكن من الجلوس، ثم عدت إلى المحاضرة. وكزة وهمسة: "مرحبًا كارلا" – وربما، حسبما استنتجت من عينيها الدافئتين، ابتسامة. أصبحت سمية الآن صوتًا وحضورًا بدلًا من وجه. لاحقًا، خلال

استراحة الغداء، راقبت ابنها عاصم وهو يلعب بنقاب الوجه. قالت: "إنه معتاد عليه. يحب أن يلعب معه لعبة الغمّيضة".

لعدة قرون، كان القادة الذكور يلعبون "لعبة الغمّيضة" مع الحجاب. لكن لعبتهم لا تتعلق بالملابس بقدر ما تتعلق بالسلطة. وقد كتبت الكاتبة النسوية المغربية فاطمة المرنيسي: "كل المشاكل التي واجهها المسلمون في العقود الأخيرة هي مشاكل حدود بشكل أو بآخر".

في العالم الإسلامي على مدار القرنين الماضيين، كانت أكبر الحدود التي تم تجاوزها هي الحدود الإقليمية، من قِبل الاستعمار الغربي. لكن هذه التعديات على الأراضي الإسلامية أدت في كثير من الأحيان إلى مناوشات حول حدود أكثر حميمية: تلك المتعلقة بالنساء، وكيف كنّ يغطين، أو لا يغطين، أجسادهن. فمن الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر إلى الأميركيين في أفغانستان في القرن الحادي والعشرين، كانت الغزوات العسكرية الغربية للدول الإسلامية مصحوبة بخطاب حول تحرير النساء المسلمات من حجابهن. إن "تغريب" دولة أو إخضاعها يعني الكشف عن نسائها. وقد قال الجنرال بيجو، المسؤول الفرنسي عن الجزائر في أربعينيات القرن التاسع عشر: "إن العرب يتملصون منا، لأنهم يخفون نسائهم عن أعيننا". وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفي الفترة التي سبقت الغزو الأميركي لأفغانستان، ربط الساسة والخبراء بين تحرير البلاد من حكم طالبان وتحرير النساء من النقاب. وفي الأشهر التي أعقبت سقوط طالبان، سارعت الصحافة الغربية إلى تصوير النساء وهن يخلعن حجابهن. وبدا الأمر كما لو كان هذا الانتقال، من المرأة المحجبة إلى المرأة السافرة، أسطورة بجماليون القرن الحادي والعشرين: نفخة روح في الشعب الأفغاني.

ولطالما كان مدى تحجّب -أو عدم تحجّب- نساء بلد مسلم بمثابة اختبار حاسم لعلاقته بالغرب. فبالنسبة للطغاة في الشرق الأوسط، كان إجبار النساء على خلع حجابهن وسيلة رخيصة وسهلة لإثبات أنهم يتحركون نحو "التقدم" على النمط الغربي. وعندما حظر الدكتاتور الإيراني رضا شاه، والد آخر شاه في إيران، ارتداء الحجاب كجزء من حملته التغريبية في عام ١٩٣٦، أمر الشرطة بتمزيق الحجاب عن رؤوس النساء إذا أصررن على ارتدائه. وسرعان ما أعقب هذا المرسوم نوع من "رقصة الحجاب" الإقليمية. إذْ شجع الحكام من أفغانستان إلى تركيا النساء على كشف رؤوسهن؛ وقاوم المحافظون هذا، في المساجد والشوارع ومن داخل البرلمانات. وكان إجبار النساء على خلع الحجاب بمثابة إشارة إلى التوجه نحو

العلمنة أو التغريب، بينما كانت الأوامر بارتدائه تبعث برسالة مضادة، تبشر بالالتزام بالتقاليد والاستقلال عن الغرب.

إنها معركة ملحمية مستمرة حتى يومنا هذا، ليس فقط في البلدان ذات الأغلبية المسلمة ولكن أيضًا في أوروبا. فالأوامر بارتداء الحجاب أو عدم ارتدائه، تنهال على النساء والدول على حد سواء. ففي كثير من الأحيان يُفهم معنى الحجاب على أنه واضح لا لبس فيه، أشبه بمفتاح تشغيل وإيقاف، أو كرمز ثنائي صارم: المرأة المسلمة "تقليدية" إذا ارتدت الحجاب، و"عصرية" إذا نزعته. "مضطهدة" إذا اختارته، و"متحررة" إذا خلعته. "متدينة" إذا تغطت به، و"معتدلة"، أو ربما "علمانية" إذا كشفته. أو من يدري؟

ومثل جهودي لتحديد اتجاه الشيخ على طيف نموذجي يعتمد على المعايير الأمريكية من اليسار إلى اليمين، فإن مثل هذه التصورات محكوم عليها بالفشل. فثقة سمية بنفسها ملموسة – بل لقد ازدادت بالفعل – تحت النقاب الذي اختارت أن ترتديه.

في كابول تحت حكم طالبان، لم يكن النقاب خيارًا، بل كان خضوعاً. ففي ظل حكم طالبان، كانت النساء يلتصقن بالجدران عندما تمر دوريات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشاحناتها الحمراء من نوع تويوتا. وفي أثناء وجودنا هناك في عام ١٩٩٨، ارتديت أنا والمصورة "نينا بيرمان" النقاب حتى نتمكن من التسلل إلى المنازل الأفغانية دون أن يتم اكتشافنا كأجنبيات. لكن النقاب لم يكن قادراً على إخفاء عدسات كاميرات نينا، أو عرقلة خطواتها. وحتى وهي مغطاة، كانت تبدو كما هي: امرأة من مانهاتن سريعة الخطى في عجلة من أمرها. فقلت لها بصوت خافت من تحت النقاب: "خطوات صغيرة!". "تذكري، أنتِ مضطهدة!"

في المجتمعات التي تتمتع فيها النساء بحرية اختيار ما يرتدين، يمكن أن يتخذ الحجاب دلالات متنوعة. فقد يكون تعبيرًا عن علاقة المرأة بالله، أو استجابة لضغوط اجتماعية. وقد يعكس طاعتها لدولة أو انسجامها مع ذاتها، أو قد يكون ببساطة خيارًا عمليًا في يوم سيئ لشعرها. وفي القاهرة، قد ترتدي المرأة الحجاب لتجنب التحرش في الحافلات المزدحمة. أما القروية اللبنانية، فقد تختاره لإبراز هويتها الدينية كمسلمة، في مقابل الطابع المسيحي لمحيطها. وفي المقابل، ترتديه المسلمة النسوية الأمريكية كرمز لتحدي الثقافة الاستهلاكية. وقد تفضل أختها حجابًا يحمل شعار "نايكي"، انسجامًا مع أسلوب عصري.

أما سميه، فقد رأت في النقاب وسيلة لمقاومة الإغراءات الجنسية، بينما صرّحت امرأة أخرى بأنها شعرت وكأنها "عاهرة مثيرة" حين ارتدت نقابًا مزينًا بالأحمر والأبيض. هكذا، يتجاوز الحجاب كونه مجرد غطاء، ليصبح أداة تعبير تعكس مزيجًا معقدًا من المعتقدات والاختيارات الشخصية.

* * *

كنت في الخامسة فقط عندما اشترى لي والداي أول تشادُر في إيران، لكنني ما زلت أتذكر شعور الإثارة الذي كان ينتابني كلما ارتديته. كان "بوليستر" التشادُر الناعم يُضفي عليه دفئاً طريفًا وتمدداً. وكان ارتداؤه يعني وقوعي في عناق شديد النعومة والقرب: دافئ ولكنه خانق، مثل عناق جدتي الرطب. وقفت بجانب والدتي في كشك تاجر في البازار الكبير بطهران، وانتهيت أخيرًا إلى اختيار تصميم أخضر بطبعات الطاووس الملتفة بزخارف البيزلي. كنت حائرة بين مئات الأقمشة المكدسة من الرمادي الحمامي الباهت إلى البرتقالي الناري. وما زلت أتذكر صوت "كليك كليك" لشفرتي المقص عندما قطع التاجر القماش، ومتعة رؤيته وهو يطويه في حزمة طرية، ملفوفة بورق بني. حتى في ذلك الوقت، كنت أعرف أن قطعة قماش قد تكون أكثر من مجرد قطعة قماش. كان الحجاب شيئًا مميزًا، رمزًا قويًا لشيء ما عن البلوغ ومخاطره.

بالنسبة لطفلة تمتعت برفاهية عدم الاضطرار لارتداء الحجاب، كان تشادُر يعني القوة وليس الخضوع. كان في انسيابه جاذبية، وفي طياته إثارة. لقد شاهدت فيلم "الجمال النائم" وأدركت ما تعنيه الأنوثة الحقيقية: الملابس الفضفاضة، وإذا لم يكن نومًا عميقًا، فعلى الأقل صمت غامض. وعندما كنا نمضي أنا وصديقتي تارا فترة ما بعد الظهيرة في لعب دور السيدات الإيرانيات، ندلل دمى أطفالنا ونحن متدثرات بـالتشادُر ، كان هناك اتفاق ضمني على أن النساء المرتديات للتشادُر يتمتعن بإمكانات درامية أكبر بكثير من أمهاتنا الأمريكيات. فالجينز والشعر المكشوف، جعل النساء الأمريكيات يفتقرن إلى الحقل المغناطيسي للأنوثة الذي تمتلكه النساء الايرانيات في تشادُر . وفي عام ١٩٧٢، عندما تخلت أمهاتنا النسويات عن الكعب العالي وأحمر الشفاه، كانت الإيرانيات المحجبات هن من يجسدن رؤية طفلة في الخامسة لمعنى أن تكوني امرأة.

كنت آنذاك طفلة، ومنذ ذلك الحين تخليت عن كل ما هو طفولي. لكن عندما يتعلق الأمر بهوس الحجاب في الغرب، فإن الكثيرين لم يفعلوا ذلك. لماذا يستحوذ الحجاب على اهتمام غير المسلمين إلى هذا الحد؟ أليس من المفترض أن يطلق الرجال المسلمون اللحى؟ لكن تغطية الذقن والخدين نادراً ما توصف بأنها انتهاك لحقوق الإنسان. وفي ظل حكم طالبان كان رجال كابول، ينفشون لحاهم خوفاً من دوريات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعدم استيفائها المعايير المطلوبة "قبضة ونصف".

لكن الحجاب هو الذي يحظى بكل هذا الاهتمام، ويثير هوسًا محمومًا من قِبل المتعصبين الدينيين والمعلقين الإعلاميين الغربيين على حد سواء. ولا شك أن التصريحات المثيرة التي يطلقها علمانيون راديكاليون مثل الفرنسيين، أو متعصبون دينيون مثل طالبان، تجعل من الحجاب مادة للأخبار. لكن الأمر الأكثر جوهرية هو أن الحجاب يربك المفهوم العلماني التقليدي حول ما يُعتبر خاصاً وما يُعد عاماً: فعندما ترتدي المرأة الحجاب، يتحول رأسها فجأة إلى رمز للإثارة. ويتحول الدين– الذي كان يُعد في كثير من المجتمعات الغربية شأناً خاصاً– إلى أمر عام، بينما تتحول الحرية التي كان يراها المجتمع العلماني عامة للجميع إلى أمر خاص وشخصي. وكما لاحظت الناشطة النسوية المغربية فاطمة المرنيسي، بأن التوترات الحديثة بين المسلمين وغير المسلمين تتعلق بانتهاك الحدود.

ذات مرة، عندما كنت أعمل في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، دخلت دون قصد على زميلي الباكستاني افتخار أثناء صلاته. شعرت بالخجل الشديد وأدرت ظهري سريعًا وغادرت، مغلقة الباب خلفي. لاحقًا، رد بابتسامة مبددًا اعتذاري. قال وهو يلوح بيده باستخفاف: "هذا هو الفرق بيننا. أنتم الغربيون تمارسون الحب في العلن وتصلون في الخفاء. أما نحن المسلمون، فنفعل العكس تمامًا".

* * *

في محاضرة للشيخ في مانشستر، شعرت أنني أبدو باهتة وسط بحر من النساء المحجبات. لا يمكن لشَعَري أن ينافس. لقد جعلتني قصة شعري البنية القصيرة غير مرئية مثل أي نقاب، حيث كنت محاطة برؤوس ملفوفة بأوشحة ملفوفة بعناية مثل فساتين شانيل، مع قماش مغطى بطبعات جلد النمر، والورود، والمربعات الزاهية. وكانت مشابك اللؤلؤ والماس التي تثبت

الحجاب، بعضها مطوي بشكل مثير كأنه تيجان قماشية. لم يفوت الشيخ المفارقة في موضة الحجاب الباذخ. قال لي لاحقًا بابتسامة حزينة: "تصنع العديد من النساء المسلمات الحجاب حتى يصبحن أكثر جاذبية! وهذا ليس الغرض منه. فالإسلام يريد تطوير بساطة ملابس المرأة. لا يمكنكِ وضع الحجاب على رأسك وأنت ترتدين الجينز الضيق. يجب أن ترتديه ليعكس نقاءكِ".

لكن من باب الإنصاف، لم تكن النساء فقط هن من انخرطن في التبرج قبل المحاضرة في ذلك الصباح في مانشستر. فبينما كنت أستقل المصعد إلى القاعة، رأيت شاباً يمرر أصابعه بين لحيته، ويداعبها ويشدها إلى أقصى حد ممكن. كان موضوع الشيخ في ذلك اليوم هو كيفية خلق زواج إسلامي ناجح. وقد اجتمع في قاعة المحاضرات حشد من الشباب، معظمهم من العازبين، وامتلأت القاعة بجو من الترقب. وقد اختار الشيخ كلماته لتهدئة أي أوهام رومانسية في الغرفة. فبدأ حديثه قائلاً: "غالبا ما يعتقد الناس أنهم وقعوا في حب شخص ما. لكن في كثير من الأحيان، يتبين أنه ليس حبًا، بل مجرد شهوة. وقد وضع الله الشهوة الجنسية في قلوب البشر من أجل استمرار تكاثر جنسنا البشري. فالرغبة الجنسية، مثلها كمثل الغرائز الإنسانية الأخرى، لا تدوم. وبمجرد إشباعها فإنها تخبو. فإذا تزوجت بسبب الشهوة الجنسية، فإن رغبتك سوف تخبو، تمامًا مثلما تشعر بالجوع ثم تأكل، فتخبو رغبتك في الطعام. فالشهوة بطبيعتها تتضاءل، أما الحب فإنه بطبيعته ينمو".

الزواج الذي ينشأ عن الشهوة مصيره الفشل. أما إذا تزوجت امرأة لأنها تتحلى بأخلاق فاضلة، فسوف ترى المزيد والمزيد من الفضائل. وإذا تزوجت امرأة بسبب الشهوة، فإن الزواج سيفشل. وإذا تزوجت امرأة لأنها في العشرين، فماذا سيحدث؟ في اليوم التالي، ستكون قد تجاوزت العشرين".

قال الشيخ بحزم إن الفرق بين الشهوة والحب؟ يشبه الفرق بين وجبة في مطعم للوجبات السريعة ووجبة منزلية. فالرجل الجائع الذي يمر بمطعم ماكدونالدز قد يأكل، لكن ذلك سيكون له عواقب سيئة. فمن الأفضل أن يتجاهل البرجر ويعود إلى منزله ويتناول طعامًا صحياً تم إعداده بعناية. لذلك "اجعل رغبتك تستمع إليك!". فإذا أطاع الناس شهواتهم فقط، فإنهم سيدمرون صحتهم. وإذا تزوج الانسان لمجرد الشهوة، فلن يدوم هذا الزواج أبدًا. عندما تأتي الشهوة، لا تتسرع. فكر بشكل صحيح: "هل أنا مستعد للزواج حقًا؟"

عند عودتي إلى المنزل من المحاضرة، مررت بمحطة فيكتوريا. سمعت ضجيج الرجال الذين يرددون الهتافات، وهم يترنحون في مجموعات بعد مباراة كرة الرجبي، وتنبعث منهم رائحة البيرة والذكورة. وكانت حفلة زواج تنطلق من قطار الضواحي، والعروس ترتدي وشاحًا ورديًا سميكًا مكتوبًا عليه كلمة "عروس". كانت صديقاتها يهرولن خلفها مرتديات أحذية بكعب عالٍ، وفساتين ذات ياقات واسعة تكشف عن جزء من صدورهن وأكتافهن. وفوقي، كان هناك ملصق لثديين، وخلفهما صاحبتهما تروج لنوع من البيرة. تساءلت بدهشة: كم هو غريب، أن العديد من الغربيين يعتقدون أن المسلمين هم وحدهم مَنْ يميزون بين الجنسين، من خلال الفصل والحجاب. ففي محاضرة الشيخ في ذلك اليوم، كان الرجال والنساء متواضعين للغاية لدرجة أن الاختلافات بينهم بدت باهتة ومخفية. كان الجميع محتشمين للغاية لدرجة أن الجنسين بدا وكأنهما يندمجان.

صاح الشيخ بسعادة عندما أخبرته: "هذا بالضبط هو المغزى. إن السفور يجعل من الواضح من هم الرجال والنساء. وعندما يخفون اختلافاتهم، يصبحون أكثر تشابهًا".

كانت القضية الكبرى هي ما إذا كانوا في المنزل أم في الأماكن العامة. قال الشيخ: "لقد خلق الله الرجل والمرأة كبشر، لكن مع بعض الاختلافات. فداخل منازلهم، يمكنهم الالتقاء كرجال ونساء، وفي الشارع، يجب أن يلتقوا كبشر. وإن إخفاء هذه الاختلافات يساعد الناس على أن يتم التعامل معهم كبشر".

* * *

عندما كنت أتحدث مع أكرم وزوجته، لاحظت أن الستار يبدو وكأنه يتحرك باستمرار. فجأة، ينزل الستار الذي يفصل بين العام والخاص، مخفيًا وراءه مواضيع كنت أفترض أنها مناسبة تمامًا للنقاش: ألعاب الطفولة التي تعتبرها فرحانة محظورة خارج حدود النشر. كما لم أتمكن من دفع أكرم للتحدث بتفصيل دقيق عن انتقاله من الهند إلى بريطانيا. لكن في بعض الأحيان، وبنفس السرعة، كان الستار يُرفع، كاشفًا عن حقائق مدهشة. ولم يكن هذا الستار يُرفع عن أي موضوع أكثر إثارة من موضوع الجنس. كان محاولة فهم متى يَسدل الشيخ الستار ومتى يرفعه أمرًا محيرًا مثل الرغبة نفسها. ذات مرة، سألته ببساطة عما إذا كانت عائشة قد اختلفت مع أحد صحابة النبي بشأن حديث معين؟. فجأة، وبدون سابق إنذار، أصبحنا

نتحدث عن موضوع "قذف المني"، أو بالأحرى، عدم القذف. قال أكرم: إن عائشة أعربت عن اختلافها في الرأي مع أبي هريرة بشأن نقل أقوال النبي. فمثلاً كان أبو هريرة يقول: إذا جامع الرجل زوجته ولم يَخرج منه شيء فلا غسل عليه، فقالت عائشة: لا، هو مخطئ".

إن الإسلام يقبل الجنس باعتباره جزءاً من الحياة. وتؤكد النصوص الإسلامية المبكرة على أنه جزء جيد من الحياة، طالما أنه يحدث في إطار الزواج بين الرجل والمرأة. ويخبر القرآن المسلمين: (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ، وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ)(البقرة:٢٢٣) أما ترجمة توماس كليري فتقول: "نساؤكم بستان لكم، فأتوا بستانكم كيفما شئتم". لكنّ الترجمات الإنجليزية الأخرى تبدو أكثر ذكورية؛ إذ تقول: "نساؤكم تربة محروثة جاهزة لكم، فأتوا تربتكم كيفما شئتم". وعندما قرأت لأول مرة هذا السطر الذي كثيراً ما يُستشهد به، شعرت بالدهشة إزاء المقارنة بين النساء والتربة، والتلميح إلى أن الرجال يحق لهم الوصول إليها بحرية مفتوحة متى شاءوا. واستمر هذا حتى ساعدتني ليلي منير، وهي نسوية إسلامية إندونيسية، في استخلاص الفارق الدقيق في الاستعارة. فقالت لي وعيناها تتلألآن: "لابد من إعداد التربة للبذور. ولابد من سقيها، وجعلها ناعمة، وسلسة، وجاهزة "[٦٢].

وتؤكد عموم الأحاديث على حقوق الزوجين ليس فقط في ممارسة الجنس، بل وفي الاستمتاع به أيضاً. ويقال إن النبي محمد قال: "لا تقترب من زوجتك كالبهيمة"، ونصح النبي محمد بالقبلات والمداعبات والكلمات الرقيقة لإدخالها في الحالة المزاجية المناسبة. وفي القاهرة، أجريت مقابلة ذات مرة مع عالم دين مصري حول مواقف الإسلام من ممارسة الجنس، وكان متحمساً على نحو مماثل لموضوع المداعبة: "المرأة ليست كرسياً يمكنك سحبه والجلوس عليه!". أوضح لي ذلك وهو يضرب على ركبته للتأكيد.

---

[٦٢] ما أروع تشبيه الزوجة بالحرث. فهذا التشبيه يوحي بعدة معانٍ منها: (١) أن الزوجة مثل الأرض محتاجة دوما إلى الرعاية والسقي والإلحاح. فإذا استجابت جاء دور الحصاد وجني الثمار. (٢) على الزوج ألا يستعجل جني الثمار السريعة من الزوجة، إنما عليه أن يُعطي ويعطي ويصبر ولا يستعجل، حتى تنبت الأرض وتعطي ثمرها. (٣) الزوجة كالأرض. إذا تعبت على الأرض واهتممت بها وتعهدتها بالمياه العذبة والبذور الصالحة، أعطتك أطيب الثمار، وإذا أهملتها فإنها ستهملك وتصبح أرضا بورا قفراء لن تعطيك شيئاً، وبمقدار عنايتك بها ستعتني هي بك أيضا. وهكذا هي الزوجة. (المترجم).

إن ممارسة الجنس بالشكل الصحيح تعتبر نعمة إسلامية. فقد كتب عالم الحديث علي المتقي في القرن السادس عشر: "إن الله يكافئ الرجل إذا ما رافقته نية صادقة. وكما ورد عن النبي: "إن الله يرضى عن الرجل أن يلاعب زوجته، ويكتب له أجراً، ويجعل له في الدنيا رزقاً حسناً". بينما تربط المسيحية الجنس بالخطيئة، يشير عالم اللاهوت في كامبريدج تيم وينتر إلى أن الإسلام يعتبر الجنس "لمحة من السمو". فالإسلام لا يشجع العزوبية وليس لديه تقاليد رئيسية للرهبان أو الراهبات. وقال وينتر ذات مرة لصحيفة بريطانية: "في السياق المسيحي، يُنظر إلى الجنس تقليديًا على أنه نتيجة للسقوط، لكن بالنسبة للمسلمين هو طريق للجنة" وتسرد سيرة محمد تفاصيل لحظات عاطفية بين النبي وزوجاته. وعندما ساور محمدًا الشك فيما إذا كان ما رآه في غار حراء علامة على الجنون أم رسالة من الله، اقترحت عليه خديجة اختبار الأمر؛ فطلبت منه أن يخبرها كلما ظهر له الملاك جبريل. ثم دعته إلى الجلوس بجانب فخذها الأيمن وسألته: "هل لا يزال يرى الملاك؟" فأجاب بالإيجاب. ثم طلبت منه أن يجلس بجانب فخذها الآخر وكررت السؤال، فكان جوابه كما هو. لكن حينما فتحت خديجة رداءها، اختفى الملاك. بالنسبة لها، كان هذا الاختبار برهانًا على أن هذا الكائن الذي يظهر أمام محمد هو ملاك من الله، وليس شيطانًا؛ إذ لو كان مخلوقًا شريرًا، لما تأثر بمثل هذا الفعل.

في إطار الزواج، يعتبر الجنس حقًا للرجل والمرأة على حد سواء. وإذا لم يتمكن أي من الشريكين من ممارسة الجنس في الفراش، يمكن فسخ عقد الزواج. قال لي أكرم: "أحد الأسباب الكلاسيكية التي قد تدفع المرأة إلى الذهاب إلى المحكمة والحصول على الطلاق هو عدم تمكن الزوج من معاشرتها، أو إشباع رغبتها". ذات مرة، أسرّت إليه إحدى الطالبات أنها لا تزال عذراء بعد عام من الزواج. "قلت لها يجب ألا تخجل من ذلك. فإذا كان لا يستطيع فعل هذه الأشياء، فمن المهم إيجاد حل. وهي الآن متزوجة من شخص آخر".

كان الشيخ يرى أن الشهوة ليست أمرًا ذا قيمة كبيرة، مما سمح له بالحديث عنها بحرية. "الجميع يريد الشهوة. لكن الإفراط فيها يضيق مساحة الله في قلبك. هذا يعني أنك تعبد شخصًا آخر غير الله". وعندما يتعلق الأمر بالجنس، لم تكن مناقشاته مشوبة بالرومانسية أو مخنوقة بالخجل: فالشهوة مجرد دافع وضعها الله في البشر لغرض وحيد هو الإنجاب. سألته ذات مرة عن آية (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ). ففي حين أن ليلي منير فهمت

الآية بأنها دعوة للمداعبة الطويلة، ركّز الشيخ على تصويرها الزراعي. قال: "أنت تحرث في التربة، في المكان الذي تُزرع فيه الأشياء لتنمو. إذ يظن بعض الناس أنهم إذا شعروا بالرغبة، فيمكنهم القيام بذلك في أي مكان، مثل المكان الخلفي، أو الفم. لكن هذه الرغبة هي لغرض الإنجاب وتكوين الأسرة. لذا يجب أن تكون في المكان المناسب. يمكن للناس يتخذوا أي وضعية تحلو لهم، طالما أنهم يفعلون ذلك في المكان المقصود لتكوين الأسرة".

إن الشهوة تتطلب التنظيم: ولهذا السبب كانت تُعلَّق الستائر في بعض المساجد والفصول الدراسية، ولهذا السبب كان الحياء فضيلة أساسية لكل المسلمين. وعلى غرار معظم العلماء الكلاسيكيين، اعتبر الشيخ أن الزنا، أو ممارسة الجنس خارج إطار الزواج، من بين أكبر الكبائر في الإسلام. وقد يكون الجنس منظمًا وفقًا لإملاءات الأخلاق الإسلامية، لكنه في هذا لا يختلف عن الصلاة، أو الأكل، أو تقديم الصدقات. وبما أن الإسلام هو أسلوب حياة، والجنس جزء منه، فمن الضروري التأكد من أن الإنسان يتعامل معه بروح التقوى. ولا ينبغي للحياء أن يمنع أي شخص من معرفة كيفية العيش كمسلم صالح. وكان محمد نفسه يعقد جلسات خاصة بالنساء فقط، لذا فلن يكون هناك عذر للخجل. وكان المسلمون الصالحون في احتياج إلى طرح الأسئلة حول الجنس كما يفعلون بشأن القضايا الأخرى: قال أكرم وهو يهز كتفيه: "لا يمكن للخجولين أن يتعلموا أبداً. ولا يمكن للمتكبرين أن يتعلموا أبداً "[٦٣].

كانت أفكار الشيخ عن الجنس مختلفة عن أي شيء سمعته من قبل. كانت تعليمي الجنسي الخاص معياريًا إلى حد كبير بالنسبة لطفلة من ليبراليي السبعينيات. بدأ الأمر في الصف الخامس في منزل ليندا شوهام، حيث كنا نتصفح كتاب "فرح الجنس" المليء بصور لزوجين كثيفي الشعر يؤديان حركات جنسية. ثم جاء اليوم الذي سمعت فيه والدتي بالصدفة وهي تناقش فلان وفلان، الذين كانا مشغولين باستشارة محامي الطلاق، لأن تجاربهما الأخيرة مع الكريمة المخفوقة لم تنجح. ولعبت هوليوود دورها المعتاد كمدربة جنسية. وهناك كان الصمت المتوهج، بجانب والديّ، أثناء مشاهدة فيلم "العرض الأخير للصور". ولاحقًا الإثارة الرطبة التي كانت تتجلى في اقتران "كاثلين تيرنر" و"ويليام هيرت" في فيلم "حرارة الجسد". وكذلك اختلاس النظر في كتاب "خوف الطيران". وأخيرًا، تقديم والدتي بفخر، في عيد ميلادي الخامس عشر، أول نسخة من كتاب "أجسادنا أنفسنا".

[٦٣] يشير إلى حديث لا يتعلم العلم مستحيٍ ولا مستكبر (رواه البخاري في الأدب المفرد)

لقد أشبعتني هذه الطقوس بالرؤية الجنسية الأرثوذكسية لعالم المرأة الغربية الحديثة. ولم يكن الجنس، غير المقيد بالزواج والحمل وحتى الحب، سوى وسيلة أخرى للتعبير عن الذات. فطالما أنك تزور مركز تنظيم الأسرة، وتُبعِد عن ذهنك شبح الإيدز، فإن الجنس بمثابة حرية متجسدة.

لم يسبق للشيخ أن قرأ مجلة بلاي بوي أو شاهد فيلمًا مخصصاً للكبار فقط، لكن ذلك لم يمنعه من المناقشات الصريحة في ندوته النسائية بعنوان "ما يجب أن تعرفه كل امرأة مسلمة". وقد أقيمت الندوة في مدرسة ابتدائية إسلامية في جنوب لندن، لذا فقد سرت عبر الممرات المليئة برسوم الأطفال لساعة بيج بن في لندن، والكعبة في مكة، قبل أن أدخل قاعة بها مئات الشابات الصغيرات، حيث تم تسليمي ملاحظات المحاضرة. وفي الصفحة الأولى، أثناء مناقشة الوضوء، كان هناك حديث عن زوجة النبي عائشة كان شديد التعقيد إلى الحد الذي جعلني أضطر إلى قراءته مرتين، لأنني كنت على يقين من أنني قد أساءت فهمه: "كنت أحك المني عن ثوب رسول الله إذا كان يابساً، وأغسله إذا كان لا يزال رطباً".

لم يتم فصل هذه المعلومات عن نصائح أخرى في الملاحظات، مثل عدد الأكفان المطلوبة لتكفين جثة المرأة (خمسة)، أو وضع يدي المرأة فوق صدرها أثناء الصلاة. كان المني وطريقة التخلص منه مجرد قضايا يجب على المسلم الصالح معرفتها، مثلما يعرف طقوس الموت أو الصلاة. وتناولت محاضرة الصباح موضوع الاحتلام عند الرجال والنساء، على حد سواء. ودار نقاش حول دم الحيض، ومتى يمكن للمرأة أن تحكم بأنه قد توقف حتى تعود للعلاقة الجنسية، وتستأنف للصلاة. ولتوضيح الطريقة الصحيحة للوضوء، خرج الشيخ من خلف مكتبه، وخلع قدميه من حذائه ليوضح أين يجب أن يصل الماء. ووضع يديه على رأسه، وأظهر للنساء كيفية غسل رؤوسهن، وكيفية وضع أصابعهن تحت الحجاب للقيام بذلك. وأوضح الاختلافات الدقيقة بين سجود الرجال والنساء: يلامس الرجال جباههم بالأرض، مع وجود مساحة كافية لمرور جدي صغير من تحتهم، بينما تجعل النساء أجسادهن قريبة من الأرض، حفاظًا على الحشمة.

لم يكن هناك شيء يبدو محظورًا. قال الشيخ وهو ينظر إلى النساء مشجعًا: "لا شك أن لديكن أسئلة تختلف عن أسئلة الرجال" وأضاف: "الكثير من القواعد في الأحاديث جاءت لأن النساء طرحن الأسئلة!"

لكن يبدو أن القلق الرئيسي للحاضرين كان يدور حول مستحضرات التجميل. طرحت شابات صغيرات بوجوه مكشوفة ودفاتر مفتوحة سؤالاً تلو الآخر: هل يجوز وضع طلاء أظافر القدمين؟ أجاب الشيخ: لا، إذا كان الطلاء يمنع وصول الماء إلى الأظافر بشكل صحيح أثناء الوضوء. ماذا لو ارتدى المرء الجوارب فوق أصابع القدم المطلية؟ ماذا لو كان المانيكير يحتوي على ملصقات لاصقة؟ هل المكياج المقاوم للماء يبطل الوضوء؟ نصح الشيخ بأن أي شيء يمنع الماء من تنظيف الجلد يمنع صحة الوضوء.

لقد أذهلني صبر الشيخ في الإجابة على الأسئلة المتعلقة بروتين التجميل الصحيح إسلاميًا. سألت إحدى الشابات: هل يجوز صبغ الشعر؟ سألت أخرى: هل يجوز نتف الحواجب؟ رد الشيخ بأن الإيمان يعني أنك لست بحاجة إلى إنفاق المال على مستحضرات التجميل والعناية بالأظافر. وقال بابتسامة: "ترون، الإسلام يجعل الحياة أقل تكلفة!"

ثم استرسل قائلًا، في خطاب مشابه تمامًا لما كنت أقوله لبناتي: "لا تفعلن الأشياء فقط لأن الآخرين يفعلونها. فكّرن دائمًا بأنكن مختلفات، وعليكن القيام بما هو أفضل لكن، وليس للآخرين! الناس لن يحترموكن لأن لديكن المزيد من طلاء الأظافر!".

قبل استراحة الغداء، قامت امرأة تحمل ميكروفونًا، تطلب دعمًا لجمعية "HHUGS"، وهي جمعية خيرية لأسر الرجال المحتجزين بموجب قوانين مكافحة الإرهاب البريطانية. قالت للحضور: "أغمضوا أعينكم، وتخيلوا أن حياتكم كما تعرفونها قد قُلِبت رأسًا على عقب بطرقة شرطي على الباب. أطفالكِ يبكون، وأنتِ مجبرة على الخروج، دون وقت لارتداء حجابك. وبينما أنتن بملابس النوم، يُؤخذ أزواجكن أو آباؤكن، دون أن تعرفن متى ستتمكنّ من رؤيتهم مرة أخرى". ثم تابعت، موضحة أن هذا هو الواقع الذي تعيشه العديد من زوجات السجناء في غوانتانامو والسجون البريطانية.

عندما انتهت من طلب التبرعات، فتحت عيني. شعرت بدوار مضاعف من صباح قضيته في التنقل بين وظائف الجسد، والمساواة، وطلاء الأظافر، واحتجاز الشرطة. كانت الانشغالات الأنثوية قد اصطدمت بالمقدسات؛ وتلاحقت الأمور العميقة والتافهة. ببساطة لم يتوافق تدفق الأفكار مع منطقي الخاص. يجادل إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق أن الدراسة الغربية للثقافات الإسلامية كانت في الواقع "نظامًا للهيمنة، وإعادة الهيكلة، والسيطرة على

الشرق". وتساءلت عن مدى تورط مشروعي الخاص في هذا الأمر: محاولة حشر نظرة الشيخ للعالم في قوالب غربية؟.

خرجت من القاعة، معجبةً بهدوء الشيخ ورباطة جأشه. فلا يمكن لكثير من الرجال مواجهة جمهور نسائي بالكامل لمناقشة المني ودم الحيض. ولكن الإسلام أعطاه نموذجاً لمناقشة هذه القضايا. وقِلة من العلماء، في مثل مكانة الشيخ، يمكنهم أن يتسامحوا مع مراهقات يطرحن عليهم سؤالاً تلو الآخر حول طلاء أظافر القدمين. فقد كان الأمر أشبه بأن يكتب رئيس إحدى كبرى المستشفيات وصفة طبية لالتهاب الحلق البسيط.

لكن غياب الغرور لدى الشيخ جعله يتجاوز التوقعات النمطية للذكورة، التي غالبًا ما تبدو مفروضة على الرجال، سواء أكانوا مسلمين، أم غير مسلمين. وقد قالت تلميذته أرزو ذات مرة: "إن الشيخ ليس رجلاً تقليدياً، فهو يتمتع بتوازن مثالي بين الصفات الذكورية والأنثوية". وفي هذا كان يلتزم بالسنة النبوية، فقد كان النبي محمد لطيفاً، وحنوناً مع الأطفال، ويقوم بالأعمال المنزلية. وكان الشيخ يعتقد أن الزواج شراكة: فمن واجب النساء تعليم الأطفال، ومن واجب الرجال إعالة الأسرة مالياً. ورغم أن الشيخ كان يؤمن بتلك الأدوار المقسمة بين الرجل والمرأة، إلا أنه أقر بإمكانية تبديل الأدوار، على الرغم من أن ذلك سيكون صعبًا".

* * *

ومع ذلك كانت هناك حدود.

قال: "تعرفون، لقد خلق الله اختلافًا بين الرجال والنساء لهدف: تكوين الأسرة. إذا كان هناك رجلان في المنزل، فإن ذلك يؤذي الأسرة بأكملها. بعض النساء قويات جدًا، وبعض الرجال ضعفاء جدًا. هذا ليس مشكلة. لكن يجب على الناس ألا يتجاوزوا الحد".

وكان الحد، بطبيعة الحال، هو المثلية الجنسية.

سألت: "لكن، إذا كان الله هو الذي خلق هذه المشاعر. لماذا لا ينبغي لهم أن يستمتعوا بالعلاقات الجنسية أيضًا ؟"

قال الشيخ: إن الجنس، من أجل شيء واحد فقط: استمرار الجنس البشري.

تابعت: "لكن لماذا توجد الرغبة المثلية، إذا اتفقنا أن بعض الناس يولدون ولديهم هذه الرغبة. فإذا خلق الله هذه المشاعر، فهي جيدة، أليس كذلك؟"

أجاب: "إن الاستمتاع بالجسد هو فقط لغرض الأسرة، لا لشيء آخر "

" ولكن إذا كان لك ميول يا شيخ ...؟"

قال: " حسنًا، مجرد وجود ميول ورغبات لديك، لا يعني أنك يجب الاستسلام لتلك الميول والرغبات. يجب دعم هؤلاء الأشخاص لتقوية إيمانهم"[٦٤]

لقد شعرت بضيق شديد في صدري، كما حدث لي في وقت لاحق من ذلك الأسبوع عندما قرأت قصة في إحدى الصحف عن اضطهاد أفراد جماعة الـ "يان داودو"[٦٥] في نيجيريا. إن اليان داودو، وهي ثقافة فرعية راسخة من الرجال الذين يتصرفون بشكل أنثوي، ويلبسون الأوشحة، ويضعون المكياج، حتى وهم يعيشون كأزواج وآباء. لقد قرأت أن هذه الفئة كان متسامَحًا معها لفترة طويلة، لكنها الآن مستهدفة من قبل الصحوة الدينية الإسلامية، ومن خلال تجدد الضغط على الأقليات الجنسية في شمال نيجيريا.

قال أحد أفراد اليان داودو وهو يتوضأ ويتجه إلى المسجد: "إن قلبي يؤلمني عندما يقول الناس: "الله يصلحك". إن الحكم لله، فإذا كنا مختلفين، فذلك لأن الله خلقنا مختلفين".

هكذا في جملة واحدة، لخّص هذا الرجل النيجيري بشكل موجز تيارًا ناشئًا من اللاهوت الإسلامي التقدمي. وفي قراءات جديدة للقرآن، سواء من قبل الحركات النسوية، أو منظري المثلية الجنسية، أو ممن يدافعون عن التعددية السياسية، بأن هناك تأكيدًا على أن التنوع ليس شيئًا يجب تجنبه، بل احتضانه.

---

[٦٤] هنا مغالطة واضحة للكاتبة عندما تقول ما دامت المشاعر المثلية وُجِدت لدى الشخص في أصل فطرته، فإذن يجب أن ينساق وراءها ولا يقاومها أو يعالجها. فهل تؤمن الكاتبة أن الطفل المولود بعاهة خلقية لا ينبغي معالجته، ويجب تركه على طبيعته يفعل ما يشاء؟

[٦٥] مصطلح "yan daudu" هو جزء من ثقافة الهوسا التقليدية، في شمال نيجيريا، حيث كانت تُعد ظاهرة طويلة الأمد ومقبولة نسبيًا في المجتمع، رغم كونها مثيرة للجدل. وتضم رجالًا يظهرون بسلوكيات أو مظهر أنثوي. هؤلاء الرجال قد يرتدون أوشحة ويضعون مستحضرات تجميل، ورغم ذلك، يعيشون في بعض الأحيان كأزواج وآباء.

في هذه القضية، وقفت بثبات في معسكر المسلمين التقدميين. أو بالأحرى، في معسكر جميع الناس تقريبًا باستثناء المحافظين الدينيين، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين.

وخلال دراستي مع الشيخ، كان المبشرون المسيحيون في إفريقيا يدفعون بتشريعات لتجريم المثلية الجنسية. وفي الزمن الذي سمحتْ فيه العديد من القوانين الجديدة بزواج المثليين- حتى البابا أعلن أنه ليس في موقع للحكم على ما يفعله البالغون بالتراضي في غرف النوم- بدت آراء أكرم حول المثلية الجنسية مخالفة للثقافة السائدة. ومع ذلك، فقد كانت هذه الآراء بمثابة تذكير دائم لنا بأن خطوط الصدع التي سلكناها لم تكن بين الإسلام والغرب، بل بين المفسرين الأرثوذكس[٦٦] للأديان الرئيسية، وكل شخص آخر تقريباً.

[٦٦] كلمة "الأرثوذكس" في هذه الفقرة تشير إلى المفسرين التقليديين أو المحافظين في الأديان الرئيسية، الذين يتبعون منهجاً متشدداً أو صارماً في تفسير العقائد والنصوص الدينية. المعنى هنا ليس بالضرورة مرتبطاً بالكنيسة الأرثوذكسية المسيحية، بل يستخدم مصطلح "الأرثوذكس" في سياق عام لوصف التفسيرات الدينية التي تتمسك بالأصول وتعارض التجديد أو التأويلات الأكثر انفتاحاً. وفي هذه الفقرة، ترى الكاتبة أن الصراعات لم تكن بين "الإسلام" و"الغرب" ككيانين منفصلين، بل بين التفسيرات الأرثوذكسية للأديان، أي بين المتشددين والمحافظين، وبين الآخرين الأكثر انفتاحاً على التأويلات المختلفة، بغض النظر عن الدين أو الثقافة. (المترجم)

(١٠)

قراءة سورة " النساء "

عندما أخبرت صديقة مسلمة بأنني سأدرس مع شيخ، كان لديها طلب واحد فقط: "اسأليه لماذا يعامل الرجال المسلمون النساء بهذه الطريقة السيئة؟ ".

وعندما فعلت ذلك، قال الشيخ: إن السبب في ذلك هو أن الرجال لا يقرأون القرآن بشكل صحيح، فإذا لم يخافوا الله، فإنهم سوف يظلمون نساءهم". ومع ذلك، فإن العديد من الرجال الذين يحرمون زوجاتهم وبناتهم من الحريات الأساسية يختبئون وراء مصاحفهم. وهناك مقطع مفضل لدى الرجال، وهي الآية ٣٤ من سورة النساء:

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ

وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا.

(النساء:٣٤)

هذه السطور الستة تُعَدّ من بين أكثر المقاطع إثارة للجدال في كتاب الإسلام المقدس. وقد أطلقت عليها جماعة "مساواة" النسائية المسلمة اسم "الحمض النووي للذكورية". لأن الكثير من العلماء استندوا إليها ليؤكدوا أن الله يضع الرجال في مرتبة أعلى من النساء، ويمنحهم سلطة معززة بالقوة، حسبما تقول إحدى الترجمات الشهيرة، التي قام بها المترجم الإنجليزي محمد مارمادوك بيكثال في أوائل القرن العشرين.

وبينما تحتدم المناقشات حول كيفية ترجمة هذه الآية على الإنترنت وفي المؤتمرات العلمية، تشير الترجمات الجديدة إلى معانٍ أقل تمييزاً بين الجنسين مما هو موجود في الترجمات السابقة.

ويقترح توماس كليري، الذي يستخدم عمله في هذا الكتاب، ترتيباً أكثر إنصافاً بعض الشيء، على الأقل في السطر الأول من الآية:

الرجال مؤيدون للنساء، بما فضل الله بعضهم على بعض،

وبما ينفقونه من أموالهم.

فالنساء الصالحات متواضعات، حارسات في الغيب بعون الله.

أما من تخشون نشوزهن، فعظوهن؛

ثم اتركوهن وحدهن في الفراش؛ ثم اضربوهن ضربًا خفيفًا.

فإن أطعنكم، فلا تبحثوا عن وسيلة ضدهن.

وهناك ترجمة أخرى تصف الرجال بأنهم "حماة ومعيلون للنساء". وتقول ترجمة أخرى إن " الرجال مسؤولون عن رعاية النساء، لأن الله منحهم قوة أكبر". فالكلمة العربية التي ترجمها بيكثال بـ "الجلد"، وترجمتها ترجمات أخرى بـ "الضرب"، فقد ترجمها كليري بـ "الصفع". لكن الكلمة، كما يلاحظ رضا أصلان، يمكن أن تعني أيضًا "الابتعاد عن"، أو "التجاهل"، أو حتى "ممارسة الجنس بالتراضي".

ويمكن للمرء أن يناقش معانٍ أخرى للآية ٣٤، لكن يبقى أمر واحد مؤكد وهو: تفسير الرجال لهذه الآية جعل ملايين النساء بائسات. ويستشهد بها المفتون، والقضاة الإسلاميون، لتبرير العنف المنزلي. كما يستغلها الأزواج لمنع زوجاتهم من الذهاب إلى الدراسات العليا أو العمل أو السوق. واستغلتها الحكومة السعودية لتشريع نظام "الوصاية" في المملكة حيث لم يكن بوسع النساء، حتى وقت قريب، فتح عمل تجاري، أو حساب مصرفي، أو السفر إلى الخارج، أو الالتحاق بجامعة دون إذن وليٍّ من الذكور. وقبل أيام قليلة من درسي مع أكرم، تلقيت نشرة إلكترونية تعلن عن رحلة للحج إلى مكة. وتحت السعر، ومواعيد الرحلة، وضمان الإقامة في فنادق أربع نجوم، كان هناك سطر مستمد من القراءة السعودية للآية: "النساء يجب أن يكن برفقة محرم".

لقد نشأت، مثل أكرم، في بيت يضم العديد من النسخ لكتاب واحد. وفي حالة الشيخ، كان ذلك الكتاب هو القرآن. أما في منزل والديّ، فلم تكن نسخ عديدة لنص ديني واحد، بل لعدد من النصوص النسوية الأساسية. وكانت والدتي تدرّس دراسات المرأة في جامعة واشنطن في سانت لويس، وبحكم كونها أستاذة متفانية، وربة منزل غير منتظمة، كانت تترك نسخًا من كتب مقرراتها في أرجاء المنزل. وكانت إحدى مختارات نورتون لأدب المرأة، ترقد باستمرار، في حمام والديّ في الطابق العلوي، بينما كانت نسخة أخرى عليها ملاحظات بخط يد أمي العنكبوتي، فوق صينية نحاسية في غرفة الطعام. وكانت رواية "العين الأكثر زرقة" لتوني موريسون بمثابة النسخة المنزلية من الكتاب المقدس. كما بدا أننا نملك رفًا كاملاً من نسخ رواية "غرفة خاصة بي" بغلاف ورقي رقيق وأنيق تمامًا مثل فرجينيا وولف نفسها. كان الأمر كما لو أنَّ والدتي، التي استجابت لنداء وولف من أجل غرفة خاصة بها، لم تمنح وولف غرفة واحدة فقط، بل العديد من الغرف.

كوني نشأت في منزل به وولف في كل غرفة، فقد تدربت على اكتشاف علامات التحيز الجنسي في سن مبكرة، بنفس الروح التي تعلم بها أطفال الرواد، المطاردة وصيد الأسماك. وفي مظاهرات حقوق الإجهاض، وفي ندوات حول فيلم ثيلما ولويز، وفي ندوات "استعادة الليل"، تعلمتُ أنني وحدي يمكنني حماية حقوقي. وعندما بلغت الرابعة من عمري وتساءلت بصوت عالٍ لماذا لم تقدم والدتي البسكويت للسيدات في مجموعتها التي كانت تعمل على رفع الوعي، قيل لي إن الأمر شخصي وسياسي. لقد كان مسموحاً بالقهوة، ولكن أي شيء آخر كان محظوراً في هذه المناسبات خشية أن يؤدي ذلك إلى سباق تسلح للكربوهيدرات بسبب المنافسة في الخبز والاستضافة. وفي يوم عيد الحب في سانت لويس، في وقت ما من سنوات مراهقتي، مررت أنا ووالدتي بسيارة أمام لوحة إعلانية تعلن عن محل لبيع الزهور في إحدى ضواحي المدينة. كانت اللوحة تُظهِر زوجًا من السيقان الأنثوية العارية بلا جسد تخرج من مزهرية، وبجانبها شعار يقول: "لدينا سيقان رائعة". عكست والدتي اتجاهها وقادت سيارتها إلى بائع الزهور رأسًا، وذهبنا معًا لنشتكي من عنصرية الإعلان. وأخبرت والدتي الموظف أن أجزاء الجسد النسائية الخارجة من إناء ليست رومانسية على الإطلاق. بدا عليه الارتباك لكنه وعد بنقل شكوانا إلى صاحب المحل. وأكدت والدتي قولها بابتسامة حلوة: "تأكد من أن تخبره أنّ أمًا وابنتها، معًا، جئن للشكوى".

ورغم أنها غالبًا ما كانت تردد لي الجملة النسوية الشهيرة بأن "النساء المهذبات نادرًا ما يصنعن التاريخ"، فقد كانت والدتي مهذبة. فقد بدأت حياتها الأكاديمية في وقت كان فيه الطلاب الجامعيون لا يزالون يرتدون القفازات البيضاء في المواعيد الغرامية، ولم تتبنَّ النسويةَ بحماس إلا أثناء رئاسة ريغان. ولأنها كانت سعيدة بترك التدريس لسنوات لمرافقة والدي في جميع أنحاء العالم، فقد فاتتها الضجة التي أثيرت حول قضية "رو ضد ويد"[٦٧] وتعديل المساواة في الحقوق، ولم تكن قد شاركت في الثورة الجنسية. وبينما كانت زميلاتها ينخرطن في الجوانب الأكثر جرأة للدراسات النسائية، مثل نظرية الشذوذ الجنسي، أو الاقتصاد النسوي، وجدت أمي نسويتها في مقالات وولف، وماري، ولستونكرافت، وروايات جين أوستن والأخوات برونتي. قالت ذات مرة: "أوه، أنا أحب تعليم هؤلاء الشباب عن الإمكانيات المتاحة للنساء، وكيف لا ينبغي لهم أن يعتبروا المساواة أمرًا مفروغًا منه". ثم أضافت، بصوت خافت كأنها تعترف بشيء محرج: "لكن أحيانًا، أود فقط أن أغلق الكتاب وأخبرهم كم هو رائع أن يكون لديك أطفال وعائلة".

ومع ذلك، أشادت أمي بنقد فيرجينيا وولف للحياة الأسرية في القرن التاسع عشر. وفي الصف، أثناء التدريس، كانت تحلل ازدراء الكاتبة للمثالية الفيكتورية لـ"ملاك البيت"، الطائعة، النقية، المضحية. وفي المنزل، كانت تسلمني نسخة من كتاب "غرفة خاصة بي" بحماس مؤثر، مرددة نداء وولف للشابات "بالانشغال في أعمال الحياة"، والتخلص من المحلية المحصورة في غرف الرسم والحياة الأسرية، ولا ينبغي لأي إنسان أن يحجب عن نفسه الرؤية".

خلال دروس الشيخ، لمست في أسئلة بعض النساء توقًا إلى رؤية أوسع. وفي إحدى المرات، عندما سألتْ إحدى الطالبات عن رأيه في النسوية، أجاب دون تردد: إنه لا يمكن إلقاء اللوم على النساء المسلمات اللواتي تجذبهن النسوية، نظرًا للظروف التي يعانين منها في العالم الإسلامي. "النساء يُرِدنَ العدالة، والنسوية تريد العدالة للنساء. وحيث لا يحقق المسلمون العدالة للنساء، ستظهر هذه الحركات. وإذا لم تحصل النساء على الاحترام الذي يستحقنه، فلا يمكننا أن نلومهن إذا بحثن عنه في النسوية. إذا كانت النساء يعانين، فسيبحثن عن الحل".

---

[٦٧] قضية رو ضد ويد (Roe v. Wade) هي واحدة من أشهر القضايا القانونية في تاريخ الولايات المتحدة، حيث لعبت دورًا محوريًا في الجدل حول حقوق الإجهاض. صدرت في عام ١٩٧٣ عن المحكمة العليا الأمريكية. (المترجم)

واشار بأن تغيير التقاليد السائدة سوف يستغرق وقتاً طويلاً. وقال: "في أوروبا، عندما يعلقون على حقوق المرأة في المجتمعات الإسلامية، فإنهم عادة ما يعلقون على أن هذه الحقوق كلها سيئة للغاية. إنهم يتحدثون كما لو أن الأمور كانت دائمًا على هذا النحو بالنسبة للنساء في أوروبا. لكن في بعض الأماكن في أوروبا، لم تحصل النساء على حق التصويت إلا في السبعينيات".

* * *

في اليوم الذي اجتمعنا فيه لمناقشة سورة "النساء"، جلسنا على طاولتنا المعتادة في مطعم "نوزباغ". كنتُ جالسة متوترة، وأمامي كوب قهوتي بالحليب، وكأنني ملاكمة قبل جرس البطولة. وعندما فتحتُ المصحف لأجد الآية المطلوبة، هز الشيخ رأسه باستسلام، وكأنه كان يعلم أن الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن أصل إلى تلك النقطة. كنا ندرك أن هذه المواجهة حول الآية ٣٤ من السورة كانت حتمية تقريبًا. كلانا كان يعلم أنني سأشير إلى النص الذي قمت بتحديده بالقلم الحبر الجاف. أردتُ أن أفهم كيف يمكن لدين يهتم بالعدالة أن يبدو وكأنه يُشرِّع الظلم في نصوصه.

قلت متسرعة: "بخصوص هذه الآية التي تتحدث عن "القوامة"، حيث يدعي البعض أن الرجال متفوقون على النساء، كيف تترجمها؟"

توقف أكرم للحظة وقال بلطف:

"ما المعنى الحقيقي للقوامة التي رأيتِها تُترجم كـ"الولاية" أو "الوصاية"؟ دعينا نبدأ بالحديث عن السورة ككل".

قال بهدوء: «إذا قرأت السورة من بدايتها، ستجد أنها تدافع عن المرأة».

وكما أوضح أكرم، فإن سورة "النساء" كانت سورة تحمي النساء، ولا تعاقبهن. وقد حددت المعاملة المقبولة للأعضاء الأضعف في المجتمع، مثل الأيتام، والأرامل، والنساء بشكل عام. وتتخلل السورة دعوات لتقوى الله وطاعته، وهي شكل بلاغي من أشكال الحماية. فالأشخاص الأذكياء أو أصحاب السلطة دائماً ما يجدون طرقاً لتفسير القانون وفقاً لمصالحهم. لهذا السبب يُذكرنا الله: "اتقوا ربكم". ففي بيتك، إذا ظلمت زوجتك، قد لا تتمكن من محاسبتك في محكمة. لكن هناك محكمة أخرى." وأشار إلى السماء. "الله يعلم ما يحدث".

تبدأ السورة بروح المساواة. قال أكرم وهو يلف يديه حول المساحة أمامه، وتشكل أصابعه شكلاً بيضاويًا أنيقًا: "انظري، في الافتتاحية، تقول الآية أن الرجال والنساء خلقوا "من نفس واحدة"، وقرأ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء" .

هكذا يبدأ القرآن من افتراض المساواة المطلقة في الخلق. وحتى الآن، بدا الأمر أكثر استنارة من قصة الخلق المعروفة في الكتاب المقدس، التي تجعل من حواء مجرد مساعد لآدم، مخلوقة من أحد أضلاعه- وحتى في ذلك الحين، لم تُخلق إلا بعد أن أعطى الرب الحياة "لكل حيوان من حيوانات البرية وكل طير من طيور السماء ".

وتابع أكرم قائلاً: "إن خلق الإنسان من نفس واحدة يوضح كيف أن الإسلام يمنح الرجل والمرأة المساواة في ضوء التكريم والاحترام أمام الله. فكلاهما لهما نفس الروح، وكلاهما لهما نفس الخالق، وبالتالي فهما يخضعان لنفس القوانين".

في مجتمع شبه الجزيرة العربية في القرن السابع، كانت فكرة أن النساء يتمتعن بحقوق من أي نوع، وأنهن من مخلوقات الله، على قدم المساواة مع الرجال، فكرة ثورية. في الجاهلية، كانت الفتيات يُعتبرن عبئًا. كُنَّ أفواهاً مُجْهِدة بحاجة إلى إطعام، وأجساداً مُتْعِبة بحاجة إلى مهور عند الزواج، ولهذا السبب كان يتم قتلهن عند الولادة ودفنهن في الرمال، وهو تقليد يدينه القرآن صراحة.

أما النساء اللاتي نجون من الوأد في الطفولة، فكان يُحظر عليهن غالباً الإرث أو ملكية الممتلكات. بل إن المرأة كانت في واقع الأمر جزءاً من ممتلكات الرجل ومنقولاته: فإذا مات زوجها، انتقلت إلى وريثه الذكر، جنباً إلى جنب مع بقية الممتلكات. ومع ظهور الإسلام، اكتسبت المرأة الحق في الميراث: إذ ينص القرآن الكريم على أن لها الحق في نصف ما يحق لأقاربها الذكور. وربما لا تتفق هذه الصيغة مع المفاهيم الغربية المعاصرة للمساواة، لكنها كانت في المجتمع العربي في القرن السابع نموذجاً للعدالة والإنصاف. ففي الإطار الإسلامي التقليدي، كان الرجل، وليس المرأة، هو الذي يدعم الأسرة مالياً. أما ميراث المرأة فهو ملك لها، تنفقه كيفما تشاء؛ أما واجب الرجل فهو استخدام ميراثه لإعالة أسرته.

وبكل المعايير، باستثناء المعايير الأكثر حداثة، كان حكم الميراث بنسبة اثنين إلى واحد تقدميًا بشكل غير عادي: فحتى عام ١٨٧٠، كان القانون العام البريطاني يعمل وفقًا لمبدأ

"التغطية"، وهو ما يعني أن النساء المتزوجات، من الناحية القانونية، لم يكن لهن وجود. ولأن القانون رأى الزوج والزوجة كشخص واحد، لم يكن بوسع النساء أن يرثن الممتلكات أو يحتفظن بأرباحهن. وكتب رجل القانون تشارلز بلاكستون في القرن الثامن عشر: "إن وجودهن القانوني معطل أثناء الزواج". وفي الولايات المتحدة، لم تحصل النساء على الحق في التحكم في ممتلكاتهن إلا في عام ١٩٠٠.

وليس من المستغرب أن الرجال في القرن السابع لم يكونوا متحمسين لسماع أن النساء يمكنهنَّ أن يرثن الممتلكات. ويشير رضا أصلان إلى أن التواريخ الإسلامية المبكرة تذكر رجالاً ساخطين جاءوا يشكون إلى النبي: "كيف يمكن للمرء أن يعطي الحق في الميراث للنساء والأطفال الذين لا يعملون ولا يكسبون رزقهم؟ وهل سيرثون الآن مثل الرجال الذين يعملون ويكسبون المال؟" وتجيبهم الآية ١٤ من سورة النساء بعد آيات المواريث مباشرة، بعبارات لا لبس فيها: "وَمَن يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ".

ولقد كان لهذه الآيات تأثير كبير على ثروات عائلة الشيخ. فلم يكن قد فهم آيات الميراث بشكل صحيح حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره وكان يدرس في مدرسة الندوة. وعندما قرأ الآية باللغة العربية، ثم أعاد قراءتها، أصيب بالصدمة. فقد خدع جده الأكبر ابنتيهما عن غير قصد وحرمهما من حقهما الشرعي. ومثل العديد من المسلمين الهنود، كانت عائلة أكرم تتبع عادات القرية التي لا تورِّث فيها النساء الأراضي غالبًا. وقد قام والد أكرم وعمه بتقاسم الأرض بينهما، بينما لم تحصل عمتاه على أي شيء. وفي زيارته التالية لمنزله في جمدهان، واجه أكرم والده قائلاً إنه يجب عليه هو وشقيقه التنازل عن ثلث الأرض، وتقسيم الحصة بين أختيهما. وقد استطاع أكرم إقناع والده. لكن عندما أوضح الرجلان لأختيهما أن القرآن قد منحهما حصة من أراضي أبيهما، خافت الأختان في البداية من أخذها. "كانتا تأتيان إلى منزلنا وتبقيان لمدة شهر أو شهرين"، أوضح أكرم. "كانتا قلقتين من أنه إذا أخذتا ميراثهما، فلن تتمكنا من زيارة منزل أخيهما بعد الآن. كانتا تخشيان من أن الأمور قد تتغير".

كانت عماته قلقات بشأن إصرار ابن أخيهن الشاب الذكي، الذي تخرج لتوه من لكناو، على إعادة ترتيب شؤون العائلة. فلماذا كل هذه الضجة وشقيقهن يعتني بهن جيدًا؟ لكن أكرم ووالده أصرَّا. وفي النهاية أخذت المرأتان ما قال القرآن إنه حقهن. في ذلك الوقت، كنَّ من بين

النساء المسلمات الوحيدات اللائي ورثن الأراضي في جمدهان. يقول أكرم: إن رجال القرية بدأوا الآن يأتون إليه ويسألونه عما يقوله القرآن في توريث الممتلكات.

ولا يتعلق الأمر فقط بتغير نظام ميراث الأراضي في جمداهان، كما يقول أكرم. فعلى مر القرون، تبنى المسلمون في القرية العرف الهندوسي المتمثل في نظام الأسرة المشتركة، حيث يُحضر العرسان زوجاتهم إلى المنزل للعيش مع والديهم. ولكن في الإسلام، يُطلب من كل زوج مسلم توفير منزل خاص لزوجته. ومنذ بدأ أكرم في تقديم المشورة للقرويين بشأن هذا الأمر، أصبح عدد المسلمين في جمداهان الذين يعيشون في أسر مشتركة أقل. وبينما أخبرني بذلك، ابتسم لنفسه ابتسامة رضا هادئة، وقال: "حتى عندما كنت صغيراً، وما زلت أدرس في مدرسة الندوة، كانوا يستمعون إليَّ ويأخذون بنصيحتي".

فكرت للحظة في عمات أكرم، المترددات في أخذ ما فرضه ربُّهن، وقررته عائلتهنَّ بأنه حق لهن!. إن الضغط الدافئ والمستمر الذي تفرضه العادات والتقاليد من شأنه أن يوفر لهن قدراً من الراحة، حتى وإن كان خانقاً. فقلت: "إن التغيير يمكن أن يكون صعبًا، حتى عندما يكون في صالحك، أليس كذلك؟".

وافق الشيخ قائلاً: "إن الظلم له نظامه الخاص، فبعد جيل أو جيلين، يبدو الظلم وكأنه الطريقة الطبيعية لفعل الأشياء. عندما تحاول تحقيق العدالة، يمكن أن يُحدث ذلك تغييرًا، ولمدة من الزمن، يبدو الأمر كما لو كان هناك فوضى".

كان أكرم يدير شؤون منزله وفقًا للتعاليم القرآنية، وكان يستخدم راتبه لدعم الأسرة. أما ما تكسبه زوجته فرحانة من عملها في الخياطة، فهو ملك لها تحتفظ به في أموالها الخاصة لنفسها، وأحيانًا ترسله إلى أسرتها" كما يقول أكرم "أنا لا أتدخل فيه أبدًا. ولا أسألها عنه أبدًا! إنه ملكها".

كان مهرها من حقها أيضًا. يقدم العريس المستقبلي هذا الشكل الإسلامي من المهر للمرأة قبل الزواج. إنه بمثابة تأكيد على المرأة ومكانتها في المجتمع، كما أوضح أكرم: "إذا كان على الرجال أن يقدموا مهرًا، فعليك أن تفكر قبل أن تتزوج!" قال بحماسة: "هذا يعني أن الزواج ليس للمتعة فقط !".

تابع أكرم قائلاً: " في الواقع، في المحيط الإسلامي، فإن السؤال هو: "لماذا تحصل النساء على أي شيء من الأساس؟ فهنَّ لَسْنَ بحاجة إلى إنفاق أي شيء على أي حال!" توقف للحظة،

وترك هذا البيان الاستفزازي يتردد صداه لأقصى حد قبل أن يجيب على سؤاله، ثم قال: "إن حقوق المرأة في الميراث لها علاقة بالمبدأ أكثر من علاقتها بالواقع العملي. فالنساء بحاجة إلى ممتلكاتهن الخاصة، لأن المال يجعل الناس ينظرون بجدية إلى شخص ما. تحتاج النساء إلى الحصول على حصص من الممتلكات حتى ينلن قدراً معيناً من الاحترام".

ومن الميراث، وما يمنحه من احترام، تنبثق جميع أنواع الإمكانيات الأخرى للنساء. وقبل أقل من قرن من جلوسي مع أكرم، كانت فيرجينيا وولف قد رسمت ملامح بعض هذه القضايا في محاضرة ألقتها في كامبريدج. في تلك المحاضرة، استحضرت عظمة كليات الرجال في أكسفورد وكامبريدج، التي مولها الملوك والصنَّاع. وقارنت ذلك بالعشاء البسيط الكئيب الذي تناولته في كلية "فيرنهام" النسائية- فيرنهام اسم امرأة اخترعته وولف لأغراض محاضرتها- حيث قُدم لحم البقر مع البرقوق، على أطباق بسيطة، مع أكواب الماء.

وقالت وولف: لو أن السيدة الفيكتورية التي أسست "فيرنهام" كانت تمتلك المال الكافي؛ من عملها في التجارة، أو من صناعة الحرير الصناعي، أو من سوق الأسهم، وتركَت مئتي أو ثلاثمئة ألف جنيه لصالح فيرنهام، لكنا الآن جالسين بأريحية، وبدلًا من أن نندب حظنا من نقص الموارد والإمكانيات، ربما كنا سنتحدث عن موضوعات علمية كعلم الآثار، أو النبات، أو الفيزياء، أو الذرة...".

ولكن لم يكن الأمر كذلك. بل كانت وولف ومضيفتها تناقشان لماذا لم يكن هناك مكان "للعصافير المغردة والنبيذ، والحراس والعشب، والكتب والسجائر، والمكتبات والترفيه"، ولماذا "كان بناء الجدران العارية على الأرض الجرداء هو أقصى ما يمكن لأمهاتنا فعله". ولقد كانت النساء اللواتي بوسعهن توريث ثروات لفرنهام يربين الأطفال بدلاً من كسب المال. (قبل قانون عام ١٨٧٠، بالطبع، لم يكن بوسع النساء أن يرثن على الإطلاق). ففي عصر وولف، كان الحياة الأسرية على عاتق النساء وحدهنَّ. أما بناء مؤسسة تضاهي كليات أكسفورد وكامبريدج فأمر سيتطلب التخلي عن العائلات تمامًا.

ويوافق أكرم على أن الحياة الأسرية عمل شاق، لكنه يصبح أسهل بكثير من خلال تقسيم العمل بدقة – وهو ما يراه في تفسير الآية ٣٤ المثيرة للجدل. ففي حين فسر العديد من العلماء هذه الآية على أنها تأييد واسع النطاق لسلطة الرجال على النساء بسبب تفوقهم الفطري، يعتقد أكرم أن تطبيقها أضيق بكثير. فالقوامة ـ التي كثيراً ما تُعرَّف بأنها "الولاية" ـ كانت بالنسبة له

مجرد مسألة تتعلق بمسؤولية الرجل المالية عن توفير احتياجات أسرته. ويقول: "ليست المسألة بأن الإسلام لا يريد أن يمنح المرأة السلطة. فإذا أرادت المرأة أن تصبح قاضية، أو إذا أرادت أن تصبح عالمة، أو تريد أن تعمل: فبوسعها أن تتولى كل هذه المناصب. ولكن الرجل هو القيم في المنزل فقط. وبموجب شريعة الله، يتمتع الرجال والنساء بنفس الحقوق والمسؤوليات. وتبقى الأسرة هي المكان الوحيد الذي يختلفان فيه عن بعضهما البعض. إنها مسألة ثانوية ".

" ربما يكون الأمر مسألة ثانوية بالنسبة له"، هكذا وجدت نفسي أفكر. "ليس فقط لأنه رجل، بل لأنه مؤمن". بالنسبة لأكرم، لا تتوقف المساواة على من يغسل الأطباق، بل على العطايا المتساوية من الله: "في القرآن، الرجل هو الولي، مما جعل الناس يعتقدون أن الرجال أفضل من النساء. لكن الأمر ليس كذلك. عندما يكون الرجال قيمين، فهذا لا يعني أنهم في يوم القيامة سيكونون أكثر تقوى. لا! قد تذهب الزوجة إلى الجنة، ويذهب البعيد إلى النار!"

أما بالنسبة لي كعلمانية، فأنا غير متأكدة مما سيحدث لي بعد الموت، فإن يوم الحساب الوحيد الذي أثق فيه هو اليوم الحاضر. كان بإمكان أكرم أن يقنع نفسه بإله عادل يسوي الأمور بعد الموت. وبما أنني مرتبطة بهذه الحياة، فلم يكن بوسعي تأجيل العدالة. لأنني في حاجة إليها الآن: في هذا العالم، في مطبخي، في غرفة نومي.. كنت أريد، أنا وزوجي، تقسيم واجبات التنظيف، وتوصيل الأطفال إلى المدرسة بالتساوي، حتى أتمكن من الخروج ورؤية العالم، وكسب المال، وحتى أتمكن، إذا أردت، أن أتبع نصيحة وولف وأترك أموالاً لكلية "فيرنهام" النسائية.

لا بد أنني بدوت غير مقتنعة. فأضاف على عجل: " القوامة مجرد مسألة تنظيمية. إنها فقط لتنظيم شؤون المنزل ".

" لكن بالنسبة لبعض الناس، فإن طريقة تنظيم المنزل هي نقطة البداية للعدالة، وليس مجرد شيء ثانوي". هكذا قلت وأنا أفكر في جلسات التوعية- بدون البسكويت- التي كانت تنظمها والدتي. بالنسبة لكثير من الناس، يقولون إنه لا يمكن أن تكون هناك عدالة إذا كان جنس واحد يُمنح القوامة على الآخر، حتى لو كان الأمر يتعلق بمن يقوم بغسل الملابس.

قال أكرم: "لكن القَيِّم، لا يضع القوانين، إنما ينفذها فقط. إذا كان عليه أن يضع القوانين، فحينها نعم، سيكون ذلك ظلمًا. انظري، هناك شيء واحد فقط مختلف، وهو أن النساء يحملن، لذا لا يمكنهن القيام ببعض الأشياء بحرية مثل الرجال. أما الباقي، فهو متماثل حقًا. الإسلام

يحرر الأمهات من عبء بعض المهام التي لا يستطيع الرجال التهرب منها. وبسبب الطريقة التي خلق الله بها نظام الأسرة، يتحمل الرجال كل هذه المسؤوليات الجماعية – عليهم المشاركة في واجبات المجتمع الفعلية، بينما للنساء الحق في تقرير ما إذا كن يردن المشاركة أم لا. بالنسبة للرجال، هذا واجب، يجب عليهم القيام به!"

- " مثل ماذا ؟"

"عندما يدعو القادة إلى اجتماعات في المساجد، يجب على الرجال أن يذهبوا. أما النساء فيمكنهن الاختيار. كذلك الجهاد- يجب على الرجال أن يذهبوا؛ وللنساء الحق في الذهاب أو عدم الذهاب. صلاة الجمعة! نفس الشيء- يجب على الرجال أن يذهبوا، والنساء يمكنهن الاختيار".

وأوضح أكرم أن بيولوجيا النساء تمنحهن راحة معينة من الواجبات الاجتماعية. لأنهن سيصبحن حوامل. سيصبحن أمهات. إذا أُعطيت النساء السلطة والواجبات نفسها مثل الرجال، فسيكون ذلك أصعب بكثير عليهن، بلا شك".

ابتسم ابتسامة عريضة وهز رأسه. "كما تعلمين، لست أفهم حقًا لماذا لا يقسم الله الأمور بشكل مختلف! يمكن للمرأة أن تكون أمًا لعشر سنوات. ويمكن للرجل أن يكون أمًا لعشر سنوات!" فجأة، بدا وكأنه رئيسًا لجمعية نسوية في فيرمونت، وأردف يقول: " الناس دائمًا يعتقدون أن ما يملكه الرجال يجب أن يكون أفضل! لكنني أعتقد أنه يجب أن يكون العكس. عندها سيقول الرجال: "أريد أن أترك القوامة المنزلية – أعطوني الأمومة!".

ابتسمت قائلة: " أنت تذكرني ببعض النسويات. يتحدثن عن مدى حاجة المجتمع إلى تقدير الأمومة، وكيف لا ينبغي تقويضها لصالح النموذج الذكوري للعمل المدفوع الأجر والحالة المهنية – وأن كل ما يهمهم هو المال. هل أنت متأكد من أنك لست نسويًا، يا شيخ !"

بحلول هذا الوقت، كنا نضحك بصوت عالٍ، أكثر مما ينبغي. وألقى عليَّ رجل بنظارات طبية، يجلس على الطاولة المجاورة نظرة حادة من فوق إبريق الشاي.

لكن أكرم كان في حالة تدفق حر للأفكار. فتابع يقول: "الجنة تحت أقدام الأمهات. كما قال الله. لكن الله لم يقل الشيء نفسه عن الآباء! إن الأمهات يحظين بقدر كبير من الاحترام!"

وتابع قائلاً، أن تكون قيّماً كرجل يمكن أن يكون عبئًا. إن الناس يستمتعون بالسلطة، لكن السلطة في الواقع تحد من استمتاعهم. إن الإدارة عبودية. والقرآن يريد تحرير النساء من الإدارة. والمرأة يمكنها أن تنام عندما تكون متعبة. لكنني كأب، حتى لو كنت متعبًا، أعرف واجبي. زوجتي يمكنها أن ترتاح. لكن إذا كان لدي صداع، فلا يزال عليّ أن أدرّس الأولاد".

أغمض الشيخ عينيه لثانية، في إشارة إلى نكتة قادمة: " لو قال لي أحدهم، "سأتولى رعايتك، أنا قيمك"، سأكون سعيدًا جدًا، وسأحب ذلك حقًا!"

* * *

حتى وأنا أسمعه يمزح بشأن هذا، فإن دور المرأة المسلمة بدا مشابهًا بشكل مخيف لـ "ملاك البيت" التي تحدثت عنه وولف، ذلك الكائن المهيض الذي لا حول له ولا قوة، والذي كان يجب أن يكون ميتًا تمامًا قبل أن تتمكن المرأة من الكتابة بشكل جيد. لا يعني هذا أن كل امرأة، مسلمة أو غير مسلمة، تبقى في المنزل لرعاية الأطفال سوف تنتهي إلى العجز. ولكن الإعفاءات من الواجبات يمكن أن تتحول إلى إقصاءات من السلطة.

في مقالها الشهير "اليهودي الذي لم يكن هناك"، كتبت راشيل أدلر بأن إعفاء اليهودية الأرثوذكسية للنساء والأطفال والعبيد، جعل جميع هؤلاء الثلاثة "يهودًا هامشيين". فالسماح لهم بترك طقوس سماع صوت الشوفار في رأس السنة، أو الصلاة في الصلوات اليومية الثلاث، جعلهم "معفيين" من معظم الرموز الإيجابية التي قدس بها اليهودي الذكر الوقت، وقدس جسده المادي، وأثر في أسطورته وفلسفته.

وفي الإسلام، نجح الإعفاء الذي سمح للنساء بالصلاة في المنزل، من حرمانهن من متعة الصلاة الجماعية في المساجد ودعمها. وفي العديد من الثقافات الإسلامية، تحول حرمان النساء من الصلاة في المساجد، من كونه قاعدة تسمح للنساء بالبقاء في المنزل، إلى عُرف يحبسهن داخل البيوت. وأكرم يعرف هذا أفضل من غيره، إذْ قد حاول مراراً وتكراراً إقناع المحافظين بحق المرأة في الذهاب إلى المسجد أو الالتحاق بالجامعة.

قال الشيخ: "أحيانًا تأتي إلي فتاة وتقول إن والديها لا يسمحان لها بالذهاب إلى المسجد" وأضاف: "لذا أسألها: "هل يسمحان لك بالذهاب إلى المتاجر؟" فتقول: نعم. فأقول: "يسمحان لك بالتسوق، لكن يمنعانك من الصلاة في المسجد؟ إن منع النساء من الصلاة في

المساجد، ثم إرسالهن لشراء من الأسواق، ليس فقط غير متسق، بل هو غير عادل وغير إسلامي.

كنت أعلم أن أكرم كان واعيًا بمخاطر الإفراط في تقييد النساء، لأنني سمعته يحذر منها. كان ذلك بعد بضعة أسابيع من مناقشتنا حول سورة النساء، عندما ألقى محاضرة عن سورة الجن، وهي سورة في نهاية القرآن تتناول الأرواح غير المرئية أو الجن. وقد قال يومذاك: إن الكثيرين يرون أن تلبس الجن مشكلة كبيرة. وعلى مر السنين، استشاره المسلمون الهنود والبريطانيون حول الجن. وعادة، ما تكون النساء، وليس الرجال، هن اللواتي يُقال إنهن ملبوسات. هؤلاء النساء كن يعانين ببساطة من ضيق عاطفي ناجم عن تفسيرات صارمة جدًا للحجاب. وفي الملاحظات التي وزعها على جمهوره، حذر الشيخ من أن "جن" هؤلاء النساء كان في الواقع عبارة عن ضائقة نفسية:

إنهن يشعرن بأنهن محاصرات في حياتهن، غير قادرات على الهروب من ظروف الحبس، والوحدة الرهيبة، والإساءة العاطفية وحتى الجسدية. ظروف حياتهن تجعل من المستحيل عليهن العثور على الفرح أو السعادة. يشعرن بالعجز التام عن تغيير ظروفهن، ولذا لا يردن الحياة التي يعشنها. بعد فترة يجدن أنفسهن، في الحالات القصوى، غير قادرات على النوم، أو الأكل، أو الحركة، أو التصرف، أو التفكير بشكل طبيعي... في هذا الوقت، قد يقول الأشخاص من حولهن، أحيانًا بحسن نية: "إنها ليست على طبيعتها. إنها ملبوسة".

في اليوم الذي ناقشنا فيه كيفية تطبيق نظام "القوامة" كما ورد في الآية ٣٤ من سورة "النساء". قلت: "فلنفترض أنه يمكننا حصر "القوامة" في إعالة الأسرة ماليًا. لكن كيف يمكن أن يتم هذا النظام دون أن يُساء استغلاله؟".

قال: "إن الأشخاص الذين يحصلون على السلطة يسيئون استخدامها. لا شك في ذلك. لكن سبب المعاناة هو أن الرجال لا يطبقون طريقة العدالة القرآنية".

" شيخ"، بدأت حديثي بهدوء: "أنا أفهم تمامًا كيف كانت هذه الترتيبات تتعلق بالعدالة في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع. كانت النساء آنذاك بحاجة إلى الحماية. لكن الآن، في القرن الحادي والعشرين، تغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية. النساء الآن متعلمات، ويعملن، ويتحملن المسؤوليات الاقتصادية. إذن، أما وقد تغيرت الحقائق على الأرض، هل من الممكن أن تتغير قوانين الميراث بحيث تكون عادلة ؟"

"حسنًا" أومأ الشيخ برأسه. "لا يمكن تغييرها إلا إذا تغيرت مسؤوليات النساء في الإسلام".

"على أرض الواقع تغيرت، يا شيخ! هل يمكن تغييرها إذن؟"

" إذا حدث هذا، فهذا يعني أنه لن يكون هناك قَيِّم في المنزل".

" ماذا عن وجود قيّمين؟ وتقاسم المسؤوليات والسلطة ؟"

ابتسم أكرم وقال: "إذا كان هناك قيمان في المنزل، فهذا أشبه بوجود حاكمين في دولة واحدة: سيحدث القتال بسرعة. الرجل يجب أن يكون المشرف، وإلا فلن يكون هناك طريقة لمعرفة من الذي سيتخذ القرارات".

لا بد أن وجهي أصبح متوردًا، لأنه أضاف بسرعة: "لكن يجب عليه أن يستشير زوجته، وأن يحترم الجميع. في بعض البيوت، النساء هن من يحكمن في الواقع، حتى في داخل المنزل!" تابع وعيناه تلمعان: "في الواقع، القرآن لا يمانع في ذلك. في الأسرة المسلمة الصحيحة، يدير المنزل دائمًا النساء. أمي، كانت تقرر كيف يُدار المنزل. ووالدي، كان يكسب المال ويذهب للتسوق... والآن، الأمر نفسه في منزلي! لست أنا من يقرر ما سنأكله: أنا فقط أكسب المال".

ولم يكن الشيخ مخادعاً. ولم يكن متعالياً، مثل البطريرك الذي يهز رأسه لزوجته بينما يغمز بعينيه ساخراً ويقول: "هي المديرة!". لقد رأى أكرم حقاً أن المجالين التوأمين للمنزل والعالم الخارجي، منفصلان ولكن متساويان. فالحياة الأسرية تشكل أهمية مركزية في فهمه للإسلام، لدرجة أنه كان يؤمن إيماناً حقيقياً بأهمية الواجب الرئيسي للزوجة وهي "تعليم الأطفال". وبالنسبة لأكرم، كانت هذه المهمة المتعلقة بالعالم الخارجي، بما تتضمنه من كسب وتنافس، تافهة إلى حد كبير، مقارنة بمهمة النساء.

لقد خلق إيمان أكرم احترامه الحقيقي لعمل زوجته. أما وجهة نظري الدنيوية فهي أن الاقتصاد هو القدر. لقد جلست مع أصدقاء متعلمين، وكنت أشعر باليأس، وأندب حقيقة مفادها أن الحياة الأسرية تعني خفض قدرتنا على الكسب. واتفقنا على أن من يمسك بخيوط المال في المنزل هو من يمسك بالسلطة. وسواء أراد المرء بيتًا نسويًا أو بيتًا مسلمًا متدينًا، فقد كانت هناك في كثير من الأحيان هوة بين النظرية والتطبيق. لقد شاهدت والدتي وهي تراجع تصحيح أوراق الدراسات النسائية لتسأل والدي بخنوع عما إذا كان بإمكانها شراء نسخة من صحيفة نيويورك تايمز يوم الأحد.

سألت أكرم: "ما الذي يمنع القيِّم من أن يكون غير عادل في توفير احتياجات زوجته وأطفاله؟"

أكد لي أكرم أن النبي جعل ثغرة للزوجات اللاتي كان أزواجهن شديدي الشح في المال. فقد كان أبو سفيان، زعيم قبيلة قريش، شديد البخل. فسألت زوجته محمدًا عما إذا كان يجوز لها أن تأخذ منه المال دون علمه، لنفقات المنزل الأساسية. "فقال النبي: "نعم، إذا كان للمرأة زوج لا ينفق عليها فلا بأس أن تأخذ بالمعروف".

قلت: "لنفترض أننا اتفقنا على ضرورة وجود شخص واحد يملك الكلمة الأخيرة في الأسرة. لكن لماذا يجب أن يكون هذا الشخص رجلاً؟ ماذا عن النساء اللاتي يكسبن أكثر من أزواجهن؟ أو اللاتي يتمتعن بذكاء أكبر، أو تعليم أفضل؟"

قال: "لا يهم إذا جعل الله الرجال قوَّامين أو النساء قوَّامات. انظري، إذا أصبحت النساء قوامات، ماذا سيحدث؟ اذهبي إلى أي مكتب تديره امرأة واسألي الناس! لا فرق! لا يهم من يكون المسؤول: المشكلة هي في خشية الله. فطالما أن الناس لا يخشون الله، ستظل هذه المشاكل قائمة".

سألته: "لكن، أليس هذه حجة، بأنه يجب إلغاء نظام القوامة برمته، من أجل العدالة؛ لأنه يفتح المجال أمام الرجال لتحريف القوانين؟"

قال أكرم: "الأساس ليس من هو القائد، إنما الأساس إذا لم يقم الناس بالعدل، فلن ينجح أي شيء".

بالنسبة لأكرم، كان الأمر كله راجعًا إلى التقوى ومعاملة الناس بلطف وعدل. فليس نظام القوامة هو المسؤول، بل الناس وعيوبهم.

قلت: "فهل هناك مبررات تدفعنا لتغيير تلك القوانين، لأن الأمور اختلفت في وقتنا الحاضر عما كانت عليه في القرن السابع؟"

" في القوانين، هناك أشياء معينة ستظل كما هي دائمًا، ولا يمكن تغييرها. لا شك أن الشريعة الإسلامية تتغير باستمرار، عندما يتغير سياق الناس باستمرار".

اتفق الشيخ على أن كل مجتمع يجب أن يرتب شؤونه الأسرية بطرق عملية. لأن الزواج هو شراكة يتحمل فيها الرجال والنساء مسؤوليات مشتركة لجعلها تنجح. ومع ذلك، هناك حقائق ثابتة لا تتغير. الأم هي الأم – وهذا أمر لا يمكن تغييره".

* * *

وأخيرا، وصلنا إلى ما يظل أكثر آيات القرآن إثارة للجدل فيما يتصل بحقوق الزوجية. وتحديدا، الكلمات التي زعم العديد من المسلمين أنها تسمح للأزواج بضرب زوجاتهم الناشزات.

قال الشيخ: "أولاً، دعنا نحدد المعنى. "الكلمة المستخدمة "الضرب" تعني ضَرْبَ شخص ما. وفي أي لغة، ليس لها معنى آخر". " ليس معناها "الابتعاد عن" أو "النصيحة".

قلت وأنا متفائلة: " قرأت أن بعض المسلمين فسروها على هذا النحو...".

قال الشيخ: "لا، من يحاولون تبرير الكلمة يقولون إنها تعني كل الأشياء ما عدا الضرب. لكنهم مخطئون: الضرب يعني "الضرب!". ثم أردف الشيخ قائلاً:

لم يكن من المستحسن أن يضرب الزوج زوجته ـ بل كان ذلك خطأً فادحاً، ولكن إذا كان الضرب ضرورياً للغاية، فهناك خطوات لابد أن يتخذها الزوج قبل أن يضرب زوجته. أولاً، يجب محاولة المصالحة. ثم يمكن إشراك العائلة – عائلة الزوج وعائلة الزوجة معًا. وإذا لم ينجح ذلك، فلا ينام معها. وإذا لم ينجح ذلك، فعندئذ فقط يمكنك الضرب. ولكن بشروط ثلاثة فقط:

١. عدم الغضب: "لا يُسمح لأي شخص– سواء في الدولة أو في الأسرة – أن يضرب وهو غاضب. إذا عاقبت وأنت غاضب، فأنت تفعل ذلك انتقامًا لنفسك"

٢. في مصلحة المُعاقَب: " يجب أن يكون الضرب لمصلحة الشخص الذي يتم ضربه، وليس لمصلحة الضارب. إذا كنت أضرب طفلي، يجب أن يكون ذلك لمصلحته، وليس لمصلحتي".

٣. رمزية الضرب: "يجب أن يكون الضرب مجرد تنبيه، بلا ألم، بلا إصابة، بلا أي شيء".

وقد أوصى بعض الفقهاء باستخدام أربطة الحذاء، أو المسواك، وهو غُصَيْن يستخدمه العديد من المسلمين لتنظيف أسنانهم، مثلما كان النبي يفعل. فإذا تسبب الزوج أو الأب أو أي شخص في السلطة، في إيلام شخص ما، أو إصابته فهذا خطأ جسيم. فإن الفقهاء يقولون أنه يمكن مقاضاته".

وأشار الشيخ إلى أن القيود المفروضة على الضرب صارمة لدرجة أنه قال: "لا يوجد ضرب يحدث في العالم الإسلامي وفقًا للشريعة الإسلامية. معظم الناس يضربون بدافع الغضب، أو بدافع الكبرياء، أو الغرور. هذا ليس من الإسلام".

وأضاف أن النبي لم يضرب زوجاته أبدًا، وكذلك معظم الصحابة. وقال النبي محمد: "خيركم خيركم لأهله." وكما يحدث كثيرًا، كانت لغة القرآن أكثر صرامة من تفسيرات النبي للصحابة. وعندما يبلغ النبي القرآن، تكون الكلمات حازمة جدًا. ولكن عندما يشرح النبي الرسالة بكلماته الخاصة، فإنه يرويها بلطف شديد".

وبين هذا القانون وتعليم النبي كان هناك ضوء: "القرآن يضع السقف الأعلى، لكن النبي لم يصل إلى هذا السقف. وبالتالي لم يضرب زوجاته. وقد كان النبي في واقع الأمر يوبخ بشدة من يفعلون ذلك قائلاً: "الأزواج الذين يضربون زوجاتهم، ليسوا من خياركم"[٦٨]، وحذر الرجال من "ألا يضربوا إماء الله."

" وأنت يا شيخ في هذه الأمر، هل تنظر إلى القرآن أم إلى السنة النبوية ؟"

كنت أعتقد أنني أعرف الإجابة، لكنني أردت سماعها منه.

" في سلوكي الطبيعي، أنظر إلى النبي. عندما أقرأ شيئًا في القرآن، أنظر إلى الحديث وسيرة النبي. تذكرين أن عائشة وصفت النبي بأنه "قرآن يمشي على الأرض". لذا فمن الأفضل دائمًا أن نرى كيف طبق القرآن في حياته".

طبعًا الشيخ لم يضرب أطفاله ولا زوجته قط.

---

[٦٨] نص الحديث هو: قَالَ رَسُولُ اللهَّ، صلى الله عليه وسلم « لاَ تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهَّ ». فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللهَّ-صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ. فَرَخَّصَ فِى ضَرْبِهِنَّ فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ فَقَالَ النَّبِىُّ -صلى الله عليه وسلم- «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ ». رواه أبو داود.

منذ اللحظة التي نزل فيها الوحي الأول على النبي: " اقرأ "، تأسس الإسلام كدين للكلمة، وأتباعه كأناس يقرؤون آيات الله، سواء في القرآن أو في الكون. المسلم الجيد يجب أن يقرأ المصادر، ويقرأ آيات الله. لكن مع نص معقد وقوي مثل القرآن، كانت "القراءة" تعني أكثر من مجرد القدرة على القراءة والكتابة: كان على أكرم أن يقرأ سورة "النساء" عشرات المرات قبل أن يدرك في النهاية أن والده كان عليه أن يمنح الأرض لعمات أكرم.

في أنحاء مختلفة من العالم، مثل جاكرتا وفيرجينيا، أعاد المسلمون التقدميون قراءة الآية ٣٤ من سورة النساء. وسعوا من خلال هذه الآية، وبقية القرآن، إلى استنباط تفسيرات تلائم المسلمين المتدينين في سياق القرن الحادي والعشرين. وفي عام ١٩٩٢، قدّمت الباحثة المسلمة الأمريكية أمينة ودود أول تفسير نسوي للآيات المتعلقة بأدوار الجنسين في القرآن. وقبل أن تكتب ودود أطروحة الدكتوراه التي تحوّلت لاحقًا إلى كتابها "القرآن والمرأة"، كانت النساء المسلمات الحديثات شبه غائبات عن نقاشات تفسير القرآن. إلا أن جهود ودود وغيرها أسهمت في تغيير هذا الواقع، إذ بدأت النساء بالعودة إلى النصوص الأساسية، متفحصات التحيزات البشرية التي ترسّخت عبر القرون واتخذت صبغة "الحقائق".

إنه عمل بطيء، حيث يتم التنقيب للعثور على الرسائل العالمية للقرآن، تلك التي تضمن العدالة والإنسانية للنساء والرجال. ويتطلب الأمر شجاعة لتقشير طبقات كراهية النساء التي تراكمت على مدى أربعة عشر قرنًا.

إن العديد من الأدوات التي يستخدمها هؤلاء التقدميون الإسلاميون موجودة في القرآن نفسه. ويمكن الرد على ما يبدو من عدم المساواة بين الرجل والمرأة في الآية ٣٤ بآيات أخرى، مثل ترجمة ودود لهذا الوصف للزواج كملجأ مبني على الاحترام بين الرجل والمرأة: (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً). (الروم:٢١)

قد يقول القرآن إن الرجال والنساء "أزواج"، لكن القوانين الإسلامية المعاصرة نادرًا ما تعكس ذلك[٦٩]. ففي العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، غالبًا ما تستند القوانين الحديثة المتعلقة بالزواج والطلاق والميراث وحضانة الأطفال، إلى اجتهادات فقهاء الإسلام الكلاسيكيين. أولئك الرجال الذين عاشوا في بغداد أو دمشق في العصور الوسطى، وعملوا

[٦٩] لست أدري لماذا تبدأ المؤلفة هذه الفقرة بصيغة الاحتمالية التي تفيد عدم الجزم: (قد يقول القرآن...) مع أن القرآن حسم المسألة بشكل قاطع، وهذا ما أشارت إليه الكاتبة فيما بعد.

بعد وفاة النبي بما يتراوح بين قرن وأربعة قرون. وكأي تفسير بشري للشريعة الإلهية، تحمل هذه الاجتهادات طابع عصرها. حتى أن أحد الفقهاء كتب أن الزواج "عقد غايته... الاستمتاع بالفرج"[٧٠]. وبعد ألف عام، لا تزال الأطر التي وضعها هؤلاء الفقهاء الكلاسيكيون تشكل أساس القوانين التي تحكم حقوق الزواج في العديد من الدول الإسلامية. ومن باكستان إلى مصر، تبقى القوانين بعيدة كل البعد عن فكرة الشراكة التي تحدث عنها الشيخ، أو عن الصورة الرقيقة التي يقدمها القرآن للزواج كمصدر راحة لكلا الزوجين: "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ".

في مختلف أنحاء العالم، يتحدى المسلمون والمسلمات النزعات الذكورية التي تسللت إلى الثقافات الإسلامية. فتتحدى تلميذات المدارس الباكستانيات فتاوي طالبان في سعيهن إلى الحصول على التعليم. ويتحدى الناشطون الأفارقة رجال الدين المحليين بالإتيان بآية يدعو فيها القرآن إلى تشويه الأعضاء التناسلية للإناث على وجه التحديد. وتتولى الباحثات النسويات الإندونيسيات إعطاء رجال الدين الذكور دورات تدريبية حول حساسية النوع الاجتماعي، في حين يسافر الناشطون الماليزيون إلى المساجد والمدارس في المدن الصغيرة، لتوزيع منشورات ذات أغلفة حمراء زاهية وعناوين استفزازية مثل "هل يجوز للرجال المسلمين ضرب زوجاتهم؟" و"هل الرجال والنساء متساوون أمام الله ؟".

إن عدداً متزايداً من الناس يدركون أن الإجابة على هذا السؤال الأخير هي "نعم". فقبل بضع سنوات من بدء دراستي مع أكرم، حضرت مؤتمراً نظمته منظمة "مساواة"، وهي المنظمة النسائية العالمية المكرسة لإصلاح قوانين الأسرة الإسلامية، والذي عقد في قاعة فندق فخمة في كوالالمبور. وقد اجتمع الناشطون من مختلف أنحاء العالم للاحتفال بهدف الحركة، وهو: إعادة العدالة والمساواة التي وجدوها في القرآن إلى القوانين والثقافات الإسلامية. وبينما كنت أتجول

---

[٧٠] لا يوجد نص فقهي بهذه الصيغة تحديدًا، إنما توجد نصوص عند بعض الفقهاء القدامى تشير إلى تعريفات الزواج من منظور فقهي يركز على الجانب الحقوقي أو العقدي في العلاقة الزوجية، حيث كان الهدف من التعريف هو بيان الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين وفق الشريعة. فمثلاً ورد في كتب الشافعية تعريف للنكاح على أنه: "عقد يفيد حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه المشروع". هذه التعريفات تنبع من رؤية الفقهاء التقليدية التي كانت تسعى إلى وضع أطر قانونية وشرعية لضبط العلاقة الزوجية، وقد تبدو بعض العبارات اليوم غير ملائمة أو مجتزأة عند إخراجها من سياقها التاريخي والثقافي. لكن في المقابل، كثير من الفقهاء تناولوا أهداف الزواج بشكل أكثر شمولًا، مثل تحقيق السكينة والمودة والرحمة استنادًا إلى قوله تعالى: "وجعل بينكم مودة ورحمة".

في القاعة، رأيت أمينة ودود تتحدث إلى ناشطين إندونيسيين ومحامين سودانيين يختلطون بعلماء أنثروبولوجيا تايلانديين.

لقد تبادلت العاملات الفلبينيات في مجال التنمية بطاقات العمل مع ناشطات نسويات إيرانيات. كما تحدثت إحدى المخضرمات في الحركة النسوية الماليزية مع شخصية بارزة من رجال الدين المصريين. وقد تنوعت تغطيات الرؤوس بين الحجاب، والضفائر، والشعر المجعد، والجيليه الأفريقي، وقصات الشعر القصيرة.

وفي نهاية المساء، خفت حدة الصخب عندما أعلن مكبر الصوت أن النساء أعضاء كاملات ومساويات للبشرية. كانت الكلمات مأخوذة من القرآن من سورة الأحزاب، التي نزلت على محمد بعد أن سألته إحدى زوجاته، أم سلمة، لماذا يبدو الأمر وكأن الله يخاطب الرجال فقط، وليس النساء. وجاء الرد بعد فترة وجيزة:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ. وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ. وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ. وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ. وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ. وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ . وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ. وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ. وَالذَّاكِرِينَ اللهَّ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُّ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الأحزاب:٣٥)

لقد كان الوعد بهذا الغفران، وهذا المكافأة، هو ما دفع الشيخ إلى هذا. ربما بدت انتقاداته العلمية خافتة مقارنة بدعوات "مساواة" للعدالة والمساواة. ومع ذلك، فقد استخدم أدوات تقاليد مدرسته الدينية الخاصة، وعمل على استخراج المبادئ الإسلامية للعدالة من تحت ركام العادات. لا أستطيع أن أصفه بأنه نسوي، وأيضًا لن يصف نفسه كذلك، لكنه مجرد مسلم قرأ القرآن في بيئته المحافظة، وشن حملة قوية من أجل حقوق المرأة.

الجزء الثالث

العالم

(١١)

رحلة الحاج

كانت غرفة الصلاة، متعددة الأديان، في المبنى رقم ٥ بمطار هيثرو بلندن تقع بين بار الكابتشينو ومكتب تسجيل الدخول لشركة الخطوط الجوية البريطانية. في ذلك الوقت، عندما كانت مثل هذه المرافق في المطارات تسمى " كنائس" ويشار إليها بصليب، كان والدي يبحث غالبًا عن واحدة منها- ليس للعبادة، بطبيعة الحال، ولكن للقيلولة قبل الرحلات الجوية. في هذه الكنائس، وجد مكانًا هادئًا في مطار مزدحم. وفي السبعينيات، قبل الثورة الإيرانية والصحوة الإسلامية، لم يكن أحد يبدو أنه يحتاجها كثيرًا؛ فكان عادةً ما يستأثر بها لنفسه.

لكن الآن، أصبح الأمر مختلفًا. فعندما وصلت، لاهثة ومبللة بالعرق من الجري عبر المطار، خائفة من التأخر عن لقاء الشيخ، وجدت غرفة الصلاة في المبنى رقم ٥ ممتلئة. كانت رفوف الأحذية مكتظة، وكان هناك صفوف من الرجال المسلمين يصلون جماعة.

كنتُ في مطار هيثرو لوداع الشيخ ومجموعة من الحجاج الذين كانوا متوجهين لأداء العمرة. في اللغة العربية، تشير كلمة "عمرة" أو "الزيارة" إلى الحج الأصغر إلى مكة. وعلى عكس الحج، الذي يتم خلال خمسة أيام من الشهر الثاني عشر في التقويم الإسلامي، يمكن أداء العمرة في أي وقت من السنة. والحج، هو أحد أركان الإسلام الخمسة، واجب على كل مسلم مرة واحدة على الأقل في العمر، إذا كان قادرًا بدنيًا وماليًا على أدائه. والحج يتطلب قوة جسدية وروحية: حيث يطوف الحجاج سبع مرات حول الحجر الأسود المقدس[٧١] والكعبة، ويسعون بين الصفا والمروة، ويصلون على جبل عرفات. وكجزء من التخلي الرمزي عن الشر، يقوم الحجاج بـ"رمي الجمرات"، حيث يرمون الحصى على ثلاثة أعمدة في المواقع التي قيل إن الشيطان حاول فيها إغواء إبراهيم ليعصي أمر الله بذبح ابنه.

---

[٧١] الحجر الأسود تأتي مكانته من كونه جزءًا من شعائر الطواف في الكعبة المشرفة. والمسلمون لا يعبدون الحجر الأسود، بل يتبعون السنة النبوية في تقبيله أو الإشارة إليه أثناء الطواف. وعندما قبَّله عمر بن الخطاب، قال: "والله إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك" (رواه البخاري). هذه العبارة تؤكد أن الاحترام الذي يُظهره المسلمون للحجر الأسود يعود لكونه جزءًا من الطاعة لشعائر الله وليس تقديسًا في ذاته.

ويؤدي الحجيج هذه المناسك في حالة من الطهارة والنقاء، متجنبين الرفث والفسوق والجدال والعصيان؛ لأن الحج والعمرة كلاهما يهدفان إلى تطهير النفس وتقريب الحاج من ربه.

كان الشيخ قد أدى الحج مرتين والعمرة عدة مرات من قبل، لكنه اليوم يشرع في أداء أول "عمرة تعليمية". كان يقود سبعة وثلاثين مسلمًا بريطانيًا في رحلة إلى مكة والمدينة، حيث كان يرأس ندوات مع علماء سعوديين. بالنسبة للعديد من العلماء، يمكن أن تكون هذه الرحلات بمثابة مؤتمرات مهنية غير رسمية، حيث تُعتبر مكة والمدينة أماكن للحديث عن أمور العلم، بالإضافة إلى أداء المناسك. عندما ذهب الشيخ للحج في عام ٢٠٠٣، كان أحد كبار علماء الحديث، الذي لطالما تمنى أن يلتقي به، متواجدًا في المدينة لأداء فريضة الحج. ولدى سماعه خبر وجود الرجل في مكة، قال الشيخ إنه "طار من الفرح".

كان المعتمرون في هذه الرحلة من الشباب ومعظمهم من الذكور. وقد حظرت المملكة العربية السعودية ذهاب المرأة إلى العمرة دون محرم، وهو قريب ذكر مثل الأخ أو العم أو الزوج ليكون بمثابة محرم. وكانت "شبانة"، التي أنهت للتو درجة الماجستير في الموارد البشرية، ترغب في أداء العمرة منذ أن بدأت الالتزام بالإسلام منذ ست سنوات. لكنها لم تستطع العثور على أحد من أفراد عائلتها الذكور يوافق على مرافقتها حتى تزوجت العام الماضي.

" قالت إن عائلتي لا تمارس شعائر الإسلام، ولا تصلي، ولا أي شيء من هذا القبيل. لذا، بالنسبة لي، خلال السنوات الست الماضية، كان اهتمامي منصبًا على الزواج وإيجاد شخص يأخذني إلى العمرة...".

"النساء بحاجة إلى محرم للسفر" هكذا تطوع زوج شبانة بالرد: "يمكن أن يكون أخًا أو عمًا..."

قلت: "بالنسبة لي، من المثير للسخرية أن النساء لا يمكنهن السفر بدون رجل. فالشيخ نفسه وجد عالِمات في الإسلام المبكر كن يسافرن بمفردهن على ظهور الخيل والإبل. فإذا كان ذلك في سبيل طلب العلم الديني، فمن المؤكد أن لا أحد يمكنه الاعتراض على سفر النساء".

علق زوج شبانة: "هناك أسباب تمنع المرأة من السفر بمفردها. لست متأكدًا من هذه الأسباب بالضبط، لكنها موجودة. فالسفر طويل، وربما يكون مرهقًا للمرأة أكثر من الرجل".

ابتسمت ابتسامة غير حقيقية، وتذكرت فصل الدليل: "خطوة بخطوة لعمرة ناجحة"، وهو فصل من دليل دورة العمرة الذي كتبته ابنة الشيخ، سمية، مع إحدى صديقاتها. في كل أجزاء الدليل، كان يتم التأكيد على الصبر: "إذا أزعجك أحد، تجاوز عن ذلك".

وبصفتي غير مسلمة، لم يُسمح لي بدخول مكة، لكنني كنت آمل أن أذهب مع المجموعة إلى المدينة المنورة، حيث كان الشيخ وعلماء آخرون سيعقدون ندوات. ولمدة شهر أو نحو ذلك، بدا أن ذلك قد يكون ممكنًا. وكان مسؤول التأشيرات في السفارة السعودية مشجعًا في البداية. لكن تبين أن فندق المجموعة كان داخل الحرم، المنطقة المقدسة في المدينة المنورة المخصصة للمسلمين. فضلاً عن ذلك، فإن إحضار زوجي، أنتوني، بمثابة "محرم" سيمثل تحديًا ماليًا ولوجستيًا وعقائديًا.

ومع ذلك، عندما وصلت تلميذة الشيخ أرزو، وهي تجر حقيبة وردية ساخنة، حدقت في تأشيرة العمرة في جواز سفرها بحسد. قالت ضاحكة: "في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى السعودية، ألصق المسؤولون صورة امرأة أخرى على تأشيرتي عن طريق الخطأ". وقد دخلت السعودية على أي حال، وهو ما فاجأني. فالوجه العابس الذي كان يحدق من صفحة تأشيرة العمرة الخاصة بها لا يشبه أرزو المتألقة النشطة. وللحصول على الختم السحري في جواز سفرها هذه المرة، ساهمت هي وأختها في دفع أجرة عمها حتى يرافقهما كمحرم.

كانت أرزو محظوظة أكثر من صديقتها مهرون التي أرادت الذهاب أيضًا، لكن جميع أقاربها الذكور كانوا مشغولين للغاية بحيث لم يتمكنوا من مرافقتها. قالت مهرون: "كنت غاضبة للغاية، لدرجة أنني لم أسألهم حتى عن أسبابهم؛ إذ لم أكن بحاجة إلى سماع أكثر من "لا أستطيع". لبعض الوقت، فكرتْ أرزو في محاولة الذهاب إلى السعودية لحضور مؤتمر مهني أو عمل استشاري، ثم التسلل للانضمام إلى مجموعة الشيخ. واقترح بعض الأصدقاء أن تدعي أن أحد الرجال في الرحلة هو "عمها"- وهي خدعة شائعة تستخدمها النساء للتحايل على بند المحرم السعودي. لكن لعدم رغبتها في الكذب من أجل أداء عبادة هدفها الطهارة الأخلاقية، استسلمتْ للبقاء في المنزل والعمل على رسالة الماجستير.

كان الحجاج يسافرون بأمتعة خفيفة في طريقهم إلى مكة؛ حيث كان العديد منهم يخططون لجلب ماء زمزم الشهير من مكة إلى ديارهم. وتُعتبر عبوة ماء بسعة عشرة لترات نصف وزن الأمتعة المسموح به. ماء زمزم يُعتبر مباركًا على نطاق واسع، ويجلبه الحجاج كهدايا للأصدقاء،

أو كعلاج للأمراض، أو للوضوء أثناء الصلوات الخاصة. وتؤمن سمية بخصائص الماء الغذائية وقدرته على معالجة حب الشباب. وفي آخر عمرة لها، عادت من مكة بزجاجة من ماء زمزم، كانت ترشها يوميًا على وجهها، ولاحظت تحسنًا في بشرتها.

وبينما كنت أقف وسط مجموعة من المعتمرين، اقتربت امرأة ترتدي نقابًا اتضح أنها سمية نفسها. ومن خلال فتحة نقابها، رأيت هالات سوداء تحت عينيها؛ إذ كانت قد نظمت الرحلة ولم تنم لمدة يومين. لقد استغرق ترتيب التأشيرات والإقامة شهوراً، وكان كتابة دليل العمرة يعني الكثير من الليالي المتأخرة. وكما قال تشوسر[٧٢]: "الحج مزيج غريب من الأمور العملية والروحية". وقد عكس دليل سمية هذا، إذ جمع بين النصائح العملية والاقتباسات الروحية المؤثرة من علماء الدين في العصور الوسطى. فقد نصح بكل شيء من ممارسة الشكر، إلى النظافة في الحمامات المكية، إلى أهمية ضبط وتيرة المرء: "إذا استنفدت نفسك في الأيام القليلة الأولى، فقد تعرض بقية أيامك في الأراضي المباركة للخطر: فالعقول والأجساد المتعبة لا تستلذ العبادة".

وقد احتوى كُتيب سمية على إرشادات عاطفية، مثل ما يمكن أن يفعله المرء عندما يرى الكعبة لأول مرة: "في تلك اللحظة الثمينة الحلوة، دع الدموع في عينيك تذيب صورة هذا المكان[٧٣] المهيب الذي يبعث السكينة في روحك".

سألتُ مريم ابنة الشيخ، ذات الثمانية عشر ربيعًا، المهيبة والجميلة، عن رأيها عندما رأت الكعبة لأول مرة. قالت: "اعتقدت أنها ستكون أكبر".

وأنا بدوري، حاولتُ أن أجري مقارنة بين الكعبة وتاج محل، أو البيت الأبيض بالنسبة للشخص العلماني. بطبيعة الحال، قد تكون أصغر مما يتخيله المرء. فليس هناك بناء دخل إلى أحلامك منذ الطفولة، ستجده في الواقع يشغل نفس الحيز الذي كان يشغله في مخيلتك عندما كنت صغيراً.

---

[٧٢] تشوسر (Geoffrey Chaucer) شاعر وكاتب إنجليزي بارز عاش في القرن الرابع عشر (١٣٤٣-١٤٠٠). يُعتبر "أبو الأدب الإنجليزي" وأحد أهم الشخصيات الأدبية في اللغة الإنجليزية. اشتهر بعمله "حكايات كانتربري"، وهي مجموعة من القصص التي يرويها مجموعة من الحجاج أثناء رحلتهم إلى مزار القديس توماس بيكيت في مدينة كانتربري.

[٧٣] "تذيب صورة هذا المكان" في السياق تعني أن الدموع تغمر العينين بشدة بحيث تتلاشى الصورة المادية للكعبة تدريجياً، كما لو أن الصورة "تذوب" بفعل الدموع. وهذا مجاز مقتبس ربما من الأشعار الفارسية. (المترجم)

أما عائشة، أصغر أبناء الشيخ، فقد كانت تقفز من قدم إلى أخرى. حتى وهي في التاسعة من عمرها، كانت حاجّة متمرسة. وأخبرتني أنها في آخر عمرة لها لمست الكعبة! لكنها اعترفت بأن زحام الحشود يكون مخيفًا أحيانًا. وعندما انفصلت ذات مرة عن أختها، قالت: "في تلك اللحظة بدأت أبكي".

ولفتت نادية انتباهي وهي تداعب طفلتها الصغير، وتقول: "الله"، وتحرك فمها ببطء، وتعيد الطفلة وراءها: " آي-يااااااه " .

كانت نادية تتحدث مع سمية يوميًا على مدار الأسابيع القليلة الماضية، وتتشاور معها بشأن التحدي الإضافي المتمثل في اصطحاب طفلتها الرضيعة إلى العمرة. تقول نادية: "كنت أتوقع تقريبًا أن سمية ستكون متوترة بعض الشيء، أو تقول: دعيني وشأني، لكنها دائمًا كان لديها الوقت للتحدث، صبورة ولطيفة، حتى وأنا أسمع بكاء طفلها، في الخلفية، عبر التلفون".

واعترفت نادية بأنها كانت متوترة بشأن اصطحاب طفلتها إلى الحج في ظل الزحام الشديد وحرارة شهر يوليو في شبه الجزيرة العربية. لكن بعد ذلك، فكرت، أين ستكون حماية أقوى من حماية الله في مكة؟ فالسبب من الرحلة هو محاولة التقرب من الخالق. إذن سأترك طفلتي مع خالقي. لقد خلقها؛ وسوف يعتني بها ".

وكانت سمية قلقة أيضًا بشأن طفلها عاصم في ظل حرارة السعودية. لقد كان مريضًا في الأسبوع السابق، وأصيب بالجفاف لدرجة أنه احتاج إلى محلول وريدي في المستشفى. لذا كانت تفكر، كيف سيتحمل أجواء السعودية؟" كانت حقيبتها مكتظة بكريمات الوقاية من الشمس، وأسبرين الأطفال، ومساحيق ترطيب البشرة، لكن الحماية الأساسية لطفلها كان إيمانها بالله.

بالذهاب إلى العمرة، كانت المرأتان تسافران إلى نفس المكان الذي وضعت فيه واحدة من أعظم بطلات القرآن[٧٤]، هاجر، ثقتها بالله لإنقاذ طفلها. عندما لم يتمكن إبراهيم وسارة من

[٧٤] لم يذكر اسم هاجر في القرآن الكريم. إنما ذُكرت قصتها ضمنيًا في سياق قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. فمثلاً، تشير الآيات التي تتحدث عن إسكان إبراهيم عليه السلام لذريته في وادٍ غير ذي زرع عند البيت الحرام إلى الحدث المرتبط بهاجر وابنها إسماعيل: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ". وهذه الآية تعكس دعاء إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك هاجر وابنه إسماعيل في مكة، وهو ما ورد تفصيله في السنة النبوية في حكاية السعي بين الصفا والمروة، التي أصبحت شعيرة في الحج والعمرة، مرتبطة بسعي هاجر بينهما بحثًا عن الماء لابنها إسماعيل.

الإنجاب، أعطت سارةُ جاريتَها هاجر لإبراهيم على أمل أن تنجب له طفلًا. أنجبت هاجر ابنًا هو إسماعيل، لكن عندما أمر الله إبراهيم بترك الأم ورضيعها في الوادي قرب مكة، فعل ذلك، وتركهم تحت شجرة مع قربة ماء وكيس تمر. بعد يومين، ومع نفاد الإمدادات وبكاء الرضيع ، ركضت هاجر بين جبلي الصفا والمروة، سبع مرات، وهي تناجي الله طلبًا للعون، وتبحث في الأفق عن المساعدة.

وجاءت المساعدة في صورة ماء ينبع بشكل معجز من الرمال. شربت هاجر وإسماعيل حتى ارتويا، ليكونا أول من استفاد من زمزم، بئر مكة الشهير. قالت سمية معجبة بإيمان هاجر: "أن تترك طفلها في هذا الحر، وأن تمشي في صحراء صخرية بلا حذاء. إنه لشيء عجيب. فكلما زادت ثقتك بالله، زادت عطاياه لك".

جلس الشيخ على مقعد بجوار مكتب تسجيل الوصول التابع للخطوط الجوية البريطانية، وألقى خطابًا قصيرًا قبل المغادرة. ولم يسبق لنصف المجموعة أن ذهبوا إلى العمرة من قبل، لذا كانت ملاحظاته الافتتاحية تحذيرية. حذر من أن الرحلة سوف تستغرق وقتًا طويلاً. تناولوا طعامًا خفيفًا: الفاكهة والزبادي يناسبان المناخ الحار بشكل أفضل من الوجبات الثقيلة. لا أحد يريد أن يكون نعسًا جدًا خلال الصلاة. سيطر على إحباطك. إذا واجهتك محن في الرحلة، لا تشتكِ لأحد سوى الله. لا تغتب. كن لطيفًا.

لكن سرعان ما تغيّرت نبرة الشيخ إلى أسلوب جديد، ليبعد المستمعين عن ضغوط السفر. فقام بإلقاء أبيات شعرية للفيلسوف والشاعر محمد إقبال، تغنى فيها بعظمة الحج، وعدَّد فيها فوائد السفر، فأنشد بيت شعر فحواه:

الحياة تزداد صفوًا بالسفر ... وتنبض فيك دماءُ الأمل

وبعد كلمة الشيخ، ذهبت المجموعة لتسجيل الدخول. ومن بعيد، شاهدتهم وهم يسيرون إلى البوابة G وينحسرون في أنبوب المحطة المضاء بالأنوار الساطعة، وحقائبهم ذات العجلات تتخبط خلفهم. اغرورقت عيناي بالدموع قليلاً وأنا أشاهدهم وهم يغادرون، لأسباب ليس أقلها أنني كنت أحسدهم. كنت أكره الوقوف على الأرصفة ملوّحة للآخرين وهم يرحلون. كنت أريد أن أكون الشخص الملَوَّح له، الشخص الذي "تنبض في حياته دماء الأمل".

وحيدة في المطار، وأنا أحمل شطيرة الفاهيتا المغلفة بالسيلوفان. انتظرت المصعد الزجاجي ليحملني إلى مترو الأنفاق. بالنسبة للشيخ، لم يكن مبنى الركاب رقم ٥ في مطار هيثرو مختلفًا عن بقية أنحاء العالم. كان يَنظر إلى هذا العالم كما ينظر الكثيرون إلى المطارات: محطة على الطريق تحملك إلى وجهتك الحقيقية. مكان للتنقل خلال طوابير وإجراءات رسمية، قدر المستطاع، للوصول إلى وجهتك النهائية. أو كما يقول القرآن: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

كانت العمرة بمثابة رحلة لتقريب المؤمنين من الخالق، وكانت بمثابة تذكير دائم بالموت. نصح كتيب سمية بالتوبة من جميع الذنوب، قبل المغادرة إلى "بلاط الله" في مكة. وتساءل الكتيب: "هل ستكمل عمرتك، أم تموت في طريقك إليها؟ أم تموت في طريق عودتك؟ لا يعلم إلا الله".

إن كتيب سمية، الذي يشرح لك كل خطوة من خطوات رحلتك، يبدو وكأنه كتيب مضاد للسفر، حيث يقلب كل الأعراف المتبعة في أي دليل سياحي لامع رأساً على عقب. فبدلاً من أن يعدك بالمتعة والراحة، يبشرك بالمشاق والمحن. وقد استهلت الفصل المعنون بـ" السفر" بالحديث النبوي: "السفر قطعة من العذاب". فالأيام العشرة فرصة للعبادة، لا ينبغي إهدار وقتك في أنشطة أخرى. لا تضيع وقتك في النظر إلى الساعة الشهيرة التي تطل على مكة (وهي أكبر ساعة في العالم، كما يتباهى الدليل السعودي للهدايا التذكارية). تجاوز مراكز التسوق في مكة، وتجاهل الزخارف في المساجد: فهي مجرد إلهاء عن الصلاة والقرآن. اترك مشاهدة التلفاز في الفندق لأنها "ستكون مصدر خزي وندامة يوم القيامة". وكتبت سمية: إن قرب الكعبة والمسجد النبوي، يقذفان في القلب إشراقات روحية. ولهذا ينبغي للحجاج أن يكونوا حذرين من المشاعر السطحية المرتفعة. فالشعور السطحي المرتفع بالابتهاج يختلف عن "زيادة الإيمان" الحقيقي. "زيادة الإيمان" الحقيقي تقودك إلى المزيد من الأعمال الصالحة، وتحجبك عن المعاصي".

وقد حث الكتيب مجموعة المعتمرين على التحلي بالأدب، بيْد أنَّ مشقات العمرة، والإثارة المتوترة لتحقيق أمنية حياتهم، جعلت بعضهم لا يلتزمون بذلك في كثير من الأحيان. ومن بين المحن التي كانت في انتظارهم:

سيدفعك الناس، ويتقدمون أمامك، ويضغطونك من الخلف. لا توجد طوابير منظمة في أي مكان هناك، سواء في المحلات، أو دورات المياه في المسجد، أو في استقبال الفندق.. وقد

يصرخ عليك حراس المسجد، وقد يبصق الناس في طريقك، ويلقون القمامة بجانبك. وسوف يزعجك الناس بصراخهم وجدالهم بلغات قد تفهمها أو لا تفهمها. وسوف تشم من بعضهم روائح كريهة، وسوف يُحْدثون فوضى في الحمامات وفي المسجد. وقد يرمي الباعة المال في وجهك (وهذا طبيعي)، وقد لا تحصل على ما دفعت ثمنه".

ماذا نفعل في مواجهة مثل تلك المنغصات؟

"استعد نفسيًا وذهنياً. لا تفقد أعصابك. كن صبورًا بأجمل صورة، وقل الحمد لله الذي جاء بك الله إلى هذه الأرض المقدسة".

لقد كانت فرصة التحلي بالصبر هي فرصة لطلب ثواب الآخرة.

* * *

خلال إقامة المجموعة في السعودية، بلغت درجة الحرارة أحيانًا ٤٣ درجة مئوية. بالنسبة لمريم، ابنة الشيخ البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، كان الحر هو التحدي الأكبر لها. قالت: "لقد رأينا ذلك كوسيلة لتعلم الصبر. ولقد أضفَتْ الحرارة زخمًا إلى التجربة وجعلتها أكثر إثارة". وللحفاظ على البرودة، استمر الجميع في شرب ماء زمزم من البراميل البيج حول المسجد.

قال فرحان، زوج سمية: "طلبنا من الناس أن يجلبوا معهم كثيرًا من الصبر". كان فرحان رجلاً نحيلاً مبتسماً، وكان يدرس الطب، وقد اجتاز امتحاناته قبل رحلة العمرة مباشرة. لقد عمل كمنظم، لمساعدة الحجيج في مطار هيثرو. كان يرتدي قميصاً مكتوباً عليه "عمرة السلام ٢٠١٣". وقد ساعد الحجاج في حمل حقائبهم وأوراقهم، لكن زوجته، كما قال بخجل، هي التي أظهرت "التزاماً حقيقياً" بتنظيم الرحلة.

كان الحجاج بحاجة ماسة إلى كل ذرة من الصبر يمكنهم حشدها. فقد احتاجوا إليه أثناء انتظارهم ست ساعات في صالة الوافدين بمطار جدة بعد رحلتهم الجوية، واحتاجوا إليه خلال رحلة الحافلة خمس ساعات عبر الصحراء إلى المدينة المنورة. واحتاجوا إليه عند وصولهم، واكتشاف العديد منهم أنهم بلا غرف، حيث اختفت حجوزاتهم بطريقة غامضة. وبعد ساعات من المكالمات إلى إنجلترا أولاً، وإلى الشرطة لاحقًا، تبيّن أن أحدهم، ربما وكيل

سفريات في السعودية، حجز لهم الغرف بعد يوم من الموعد المحدد؛ ليستولي على تكلفة الليلة لصالحه.

" قال فرحان: ""استمر الرجال في الفندق في ترديد عبارة "صبر.. صبر"، لكن بعد بضع ساعات، قلت لهم: أنا أتعامل معكم في عمل تجاري. لقد أخذتم المال من هؤلاء الأشخاص مقابل الغرف، لذا عليكم توفيرها لهم. فالصبر لا يشمل الممارسات التجارية الفاسدة، ولا الاحتيالات المالية الفاشلة.

وبينما كنت أستمع إلى بنات الشيخ وهن يروين تفاصيل العمرة، دهشت ليس فقط من قسوة الحرارة وشدة غبار الجزيرة العربية، بل وأيضاً من القوة الذهنية المطلوبة لتجاهل مظاهر الدنيا. فقد أخبروني أن بعض الناس لم يكلفوا أنفسهم عناء الصلاة في المسجد الحرام، مفضلين برودة الهواء في فنادقهم المكيفة. بينما استغل آخرون الرحلة كفرصة للتسوق في المراكز التجارية الضخمة في مكة. وتضمن الدليل حديثاً نبوياً لمن يغريهم التسوق في الرحلة: "أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق". وفي المدينة المنورة، من المعتاد زيارة الروضة الشريفة. وهي عبارة عن سجادة خضراء ممتدة بين قبر النبي والمنبر، وهي قطعة من الجنة على الأرض، كما جاء في الحديث: "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة".

لقد ورثت مريم هدوء والدها، لكن عندما وقفت في طابور عند مدخل النساء، شعرت بأنها تكاد تسحق من شدة الازدحام. كانت حرارة الصحراء خانقة، وكانت تعليمات الحراس مربكة. وتم تقسيم الحجاج إلى مجموعات، حسب أوطانهم، لكن مريم كانت محشورة مع الباكستانيين، وبعيدة عن البريطانيين. وبما أنها تفهم الأردية، فقد بقيت، نصف جالسة على حجر امرأتين غريبتين، محشورة بين الباكستانيين وبعض الأتراك. قالت: "كان المكان مزدحمًا للغاية، وكنت أجلس وساقاي ممدودتان. وعندما فُتحت البوابات، بدأت بعض النساء بالصراخ على الحراس. قالت مريم: "كل هؤلاء السيدات الباكستانيات كنّ يائسات تمامًا من الدخول. وكان الأمر محبطًا للغاية للعاملين".

وعندما اندفع الحشد أخيرًا إلى الأمام، لم تتدافع مريم مثلهم. فقط كانت تردد "صبر". "نظرت إليّ إحدى النساء بغرابة شديدة، وكأنها تقول: "لماذا لا تستسلمين لليأس؟" لكن هذا ليس ما علمنا إياه النبي. فقد كان الزحام عند القبر يتعارض مع نصيحة القرآن حول كيفية

التحدث إلى النبي: "إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، لهم مغفرة وأجر عظيم".

عند قبر النبي، بكى العديد من الحجاج. لكن مريم لم تبكِ، خشية أن تُعتبر دموعها "شركًا". فالشرك هو أعظم الذنوب في الإسلام. لذلك، فإن الإسلام السني التقليدي لا يشجع على زيارة القبور كفعل من أفعال العبادة. وبالنسبة لمسلم نَصِّي مثل الشيخ، لم يكن من الجائز لديه السفر لمجرد زيارة قبر، حتى لو كان قبر النبي. لذلك كان يرى أن شد الرحال إلى القبور والمقامات والأضرحة خرافة من خرافات المسلمين القرويين والمتصوفة. لكن قبر النبي كان استثناءً، إذ يمكن زيارته وإلقاء السلام عليه، ولكن فقط إذا صادف وجودك في المدينة المنورة.

أما في المملكة العربية السعودية، فقد أدى الخوف الوهابي من الترويج لعبادة الأصنام إلى تدمير العديد من الآثار الإسلامية الأولى. فعندما دخلت قبائل آل سعود إلى مكة في عشرينيات القرن العشرين، دمروا المقابر التي تحتوي على قبور المسلمين الأوائل. وفي الآونة الأخيرة، ألحقت الجهود السعودية لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الحجيج دمارًا واسعًا بالآثار الإسلامية القديمة. فقد حوّلت منزل السيدة خديجة، حبيبة النبي محمد، إلى مصرف للمراحيض؛ ويقف فندق هيلتون الآن في المكان الذي كان يقوم عليه منزل أبي بكر، والد عائشة وأول خليفة للمسلمين. ويستهجن الوهابيون المتشددون مشاهدة المعالم السياحية، إلا أن الشيخ وجماعته تسلقوا جبل النور، الجبل الذي استخدمه محمد كخلوة للتأمل الهادئ. يتذكر فرحان قائلاً: "استغرق الأمر خمسًا وأربعين دقيقة للوصول إلى هناك". "كنت أكافح وأنا في العشرينيات من عمري، غير مصدق بأن النبي محمد كان يفعل ذلك وهو في الأربعين من عمره!".

كانت مكة تتطلب صبرًا أكبر من المدينة المنورة. وللذهاب إلى المدينة[٧٥]، كان على الحجاج أن يحرموا، وهي حالة من الطهارة خاصة للحج أو العمرة. ترتدي النساء خلالها ملابس عادية بينما يُحظر عليهن تغطية وجوههن، وهو الحظر الذي وجدته سمية "غريبًا نوعًا ما"، لأنه يعني أنها مضطرة إلى خلع نقابها. أما الرجال، فيرتدون قطعتين من القماش الأبيض غير المخيط.

[٧٥] هنا خطأ وقعت فيه المؤلفة إذ الذهاب إلى المدينة لا يتطلب إحرامًا إنما الإحرام لدخول مكة، وهي بالتأكيد تقصد مكة، لأنها كتبت city ولم تكتب medina كالعادة.

سألتُ سمية: "لماذا لا يمكن أن تحتوي الأقمشة على خياطة؟" أجابت: "لا ينبغي على الإنسان محاولة فهم الحكمة وراء هذه الأمور. قد لا تبدو منطقية، لكنها تحمل سببًا ما، ولا ينبغي التشكيك فيها".

تقول سمية إن المسلم الصالح لا يطلب المنطق من فعل السُّنة. فهو يثق في الله ولا يطلب الدليل من خلال العلم أو العقل. وعلى الرغم من أن تحريم الإسلام لأكل لحم الخنزير تم تأكيده لاحقًا من خلال دراسات أجريت على مرض الديدان الخيطية، وكذلك اكتشاف العلم بأن الصيام مفيد للصحة- إلا أن هذه الأمور لم تكن مهمة. فالمسلم يتجنب لحم الخنزير ويصوم لأن هذا خضوع حقيقي لله. إن قوانين الله لا تحتاج إلى تأكيد علمي؛ لأنها من الله، وبالتالي فهي الحق. علّقت سمية: "يمكن أن يقول العلماء غدًا إن الصيام لم يعد صحيًا، ومع ذلك يجب أن نستمر في الصيام، لأن هذه سنة النبي".

كانت ملابس الإحرام سبباً في زيادة الضغوط على الحجاج أثناء وصولهم إلى مكة. تقول سمية: "من الصعب التعامل مع الأمتعة وأنت ترتدي شيئاً لم تعتد عليه". وكما حدث في المدينة المنورة، كان هناك ارتباك بشأن الإقامة. فقد دفع الحجاج ثمن الإقامة في فندق خمس نجوم، ولكنهم عند وصولهم أخبروهم بأن المكان الذي حجزوه لا يوجد به كهرباء، لأنه كان من المقرر هدمه قريباً لإفساح المجال لبناء فندق جديد. وكان هذا محتملاً: فقد كانت المدينة تخضع لحملة تحديث ضخمة، وكان أفق مكة أشبه بغابة من الرافعات. لكن المجموعة صادفت الفندق في طريقها إلى فندق رامادا، ورأوا مسافرين آخرين يقومون بتسجيل الوصول. وبدا أن الأضواء تعمل بشكل جيد، لذا قرروا أن العذر ربما كان خدعة من وكيل السفر لمبادلة حجوزاتهم معهم.

وفي الفصل الخاص بالصبر في دليل سمية، تقتبس حديثاً: " ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفّر الله بها من خطاياه".

كان فندق رامادا يقع على بُعد بضع دقائق سيراً على الأقدام من المسجد الحرام. وكانت فرحانة، زوجة الشيخ، تقضي معظم ساعات يقظتها تقريباً في المسجد الحرام هناك، حيث كانت تطوف حول الكعبة سبع مرات. وكانت سمية تعتقد أن والدتها قد أكملت الطواف حوالي سبع مرات، أي تسعة وأربعين دورة في المجموع، لكنها لم تكن متأكدة. ولم تكن فرحانة لتخبرها بذلك، لأن المسلم الجيد لا يتفاخر بأفعاله التعبدية في العمرة. تقول سميه: "لكن مهما

كان عدد الطوافات التي قامت بها، إلا أنها كانت مستمرة بحماس، وكلما سألنا: أين هي؟ كنا نجدها دائمًا في المسجد".

لتجنب حرارة النهار، قامت سمية بطوافها حول الكعبة في الثالثة أو الرابعة صباحًا، عندما كانت تنخفض درجة الحرارة وتقل حشود الطائفين. وحتى في ذلك الوقت، وجدت سمية أن المناسك أصعب مما كانت عليه في عمرتها السابقة، قبل أن تصبح أمًا. فقد كان عاصم يتلوى وهي تحمله وتدور حول الكعبة، وكان عليهما التوقف كثيرًا للسماح له بشرب بعض ماء زمزم. وفي إحدى المرات، تمكن من الطواف حول الكعبة بمفرده، مرتديًا مجموعة صغيرة من الملابس البيضاء التي صنعتها له جدته. كانت فرحانة قد خيطتها، معتقدة أن الطفل ذو العشرة أشهر يجوز له ارتداء ملابس تحتوي على بعض الخياطة في إحرامه حتى لو لم يُسمح للكبار بذلك. على صفحتها على الفيسبوك، نشرت مريم صورة لطيفة للشيخ مع حفيده على ركبته، وكلاهما يرتديان زيهما الأبيض.

لقد حذر دليل سمية من أن الناس قد يصرخون على الحجاج، وهو ما حدث بالفعل. وقد وجدت بنات الشيخ أكرم نفسيهما في صدام مرتين مع الحراس حول الأعراف السعودية بشأن وصول النساء إلى المواقع المقدسة. وعندما رفع الشيخ ابنته عائشة لتلمس الحجر الأسود، أثناء طوافهما، بدأ أحد الحراس بالصراخ عليهما. قالت عائشة: "أمسك الرجل بمعصمي وقال إن النساء لا يجب أن يلمسن الحجر الأسود".

وتتفق معها فاطمة، البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، قائلة: "حدث الشيء نفسه معي". "صرخ رجل ما في وجهي لأنني ألقيت السلام على النبي. قال إنه لا يجوز للمرأة أن تقف حيث كنت أقف. قال إنه لا ينبغي أن ألقي السلام من هناك". فابتسمت. "قال أبي إنه لا بأس بذلك".

هزت رأسها وقالت إنها " الثقافة !"

* * *

تعتبر الصفا والمروة جزءًا من المسجد الحرام: فالصحراء الصخرية التي ركضت هاجر فيها أصبحت الآن ممراً مكيفاً بأرضية رخامية باردة، مقسماً إلى مسارات للحجاج. "مثل المطار"، أوضحت مريم. تشير الأضواء الخضراء في الممر إلى المكان الذي فقدت فيه هاجر رؤية ابنها

أثناء بحثها المحموم عن الماء. يركض الحجاج الرجال- وليس الإناث على نحو غريب بما فيه الكفاية- بين هذه الممرات، مجسدين مسارها بشكل رمزي. وتشجع هذه الطقوس الحجاج على التأمل في إيمان هاجر في وجه المحن، وفي كفاح المرء نفسه[٧٦]. وعندما ركض زوج سمية، فرحان، بين الإشارات الخضراء، فكر في قوة شخصية هاجر -ودعا أن يكون قد اجتاز امتحانات كلية الطب.

الكثير من مناسك الحج تبدو وكأنها تتعلق بتحقيق توازن بين تجربة الشخص الفردية وتجارب من حوله. فالحاج اليوم يجب أن يوازن بين إيجاد مساحته الشخصية وسط الحشود وبين دمج أداء عمرته مع أداء الملايين الآخرين. في عام ٢٠٠٣، قام الشيخ بأداء الحج مع والديه، مما زاد من تحديات الرحلة. ففي إحدى الأمسيات، قضى ساعات يبحث عن خيمتهم وسط بحر من الخيام البيضاء المنصوبة على سهل منى.

وعندما جاء اليوم المخصص لرمي الجمرات في الأعمدة الثلاثة كرمز لرفض الشيطان، شعر الشيخ بالقلق على كيفية تمكن والديه من أداء هذا الطقس. بسبب الحشود التي ترمي الحجارة، فقد كانت تحدث وفيات متكررة أثناء هذا الطقس. لذا قرر الشيخ أن تقوم عائلته بأداء الرمي في وقت متأخر من بعد الظهر، وكان سعيدًا بقراره: فقد سمع لاحقًا أن تسعة عشر شخصًا قد لقوا حتفهم ذلك اليوم.

كان من السهل فهم كيف يمكن أن يكون الصبر مسألة أمان وروحانية في الوقت نفسه. فحتى رجل هادئ مثل الشيخ كان يُعرف بأنه يفقد صبره أحيانًا بسبب الحشود في مكة. في المرة الثانية التي أدى فيها العمرة، قرر هو وصديقه زيارة غار ثور، حيث اختبأ النبي محمد لمدة ثلاثة أيام أثناء هجرته من مكة إلى المدينة. وكان أمام الكهف، الذي يتسع لثلاثة أشخاص فقط، صف طويل من الناس ينتظرون الدخول، يمتد إلى أسفل الجبل. كان الشيخ وصديقه في عجلة من أمرهم للعودة إلى مكة لأداء صلاة الظهر. فقال صديقه: "إنه طابور طويل جدًا. سيستغرق الأمر طوال اليوم." أجاب الشيخ: "لا تقل شيئًا، فقط تعال معي" تسللا معًا من الجانب الآخر للجبل ودخلا الكهف من جهة مختلفة، متجاوزين الجميع. ذكر الشيخ، بأسلوب خجول، أنه لم يكن ليقطع الصف لو كان ذلك جزءًا من مناسك الحج، لكنه اعتبر أن الجبل لا يشكل جزءًا من المناسك.

---

[٧٦] يقصد زوج سمية أن هاجر، عليها السلام، بعد كفاحها حصلت- في هذا المكان المبارك- على الماء الذي كانت تكافح من أجله، وكذلك إذا دعا ربه في هذا المكان المبارك فإنه سيحصل على الشيء الذي يكافح من أجله وهو شهادة الطب.

وكانت اللحظة المفضلة لدى الشيخ في كل حج هي الطواف حول الكعبة سبع مرات. وكان وجوده هناك، على مقربة شديدة من بيت الله الحرام- كما كان يطلق عليه- أشبه بوقوع مراهق في الحب، وهو يفضل التواجد بالقرب من منزل محبوبته.

حدثت لحظة مماثلة عندما غادرت مريم الفندق في الساعة ١:٣٠ صباحًا لأداء صلاة إضافية قبل صلاة الفجر. فرغم كل الضجة التي أثارها السعوديون حول احتياج النساء إلى محرم من الرجال، فقد تبين أن الخروج بدون مرافق في مكة كان آمناً تماماً، حتى في تلك الساعة. فقد أضاءت أنوار المحلات التجارية، وظل الناس يتجولون في الشوارع. وسارت مريم ورفيقاتها إلى المسجد الحرام، حيث صلين، ثم جلسن على الساحة الرخامية الناعمة مع المشروبات الباردة. وكن ينثرن على وجوههن ماء زمزم، ويتحدثن بهدوء حتى صلاة الفجر.

وعلى الرغم من أنني لم يُسمح لي بحضور هذا المزيج القوي من الروحانية واللوجستيات في تجمع ديني في مكة، إلا أنني انضممت إلى تجمع في مسجد كامبريدج بعد بضعة أسابيع. ومع اقتراب نهاية شهر رمضان، صعدت إلى القطار، ومعي حقيبة صغيرة، ونصف رطل من الكرز، ومصحف. وتركت أنتوني لرعاية نيك وجوليا، وذهبت للاعتكاف في مسجد كامبريدج. والاعتكاف يُعتبر خلوة روحية تُقام عادةً خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان. وكان الشيخ يعتكف في هذا المسجد مع سبعين مسلمًا آخرين، يدرسون ويقرؤون القرآن.

لقد أخذت معي حجاباً وفرشاة أسنان وكيس نوم. وكانت الكرزات تحوطًا من نظام الطعام الرمضاني: لا طعام، ولا ماء، لمدة ثماني عشرة ساعة في اليوم، مع صلاة طوال الليل. وكان صيام هذا الشهر يقتضي الامتناع عن الطعام والشراب من الفجر حتى الغروب. وإذا كانت حرارة الصحراء قد تجعل مثل هذه الضوابط صعبة، فإن أيام الصيف الإنجليزي الطويلة تجعله كذلك. وفي اليوم الذي ذهبت فيه إلى كامبريدج، كان المسلمون البريطانيون يصومون من الساعة الثالثة والنصف صباحاً حتى التاسعة ليلاً. أنا لست مسلمة، لذلك لم أكن صائمة، لكن أثناء وجودي في المسجد، كنت أحترم صيامهم.

ورغم أن الشيخ طلب من مريم الاعتناء بي، إلا أنني كنت متوترة بشأن قضاء يوم وليلة في الاعتكاف؛ حيث اعتكف العديد من المسلمين في المسجد طوال الأيام العشرة. وكانوا يحصلون على القليل من الراحة في أكياس النوم؛ ويستحمون بأفضل ما يمكنهم تحت صنابير المياه. وكانت صلاة الليل تعني الوقوف لمدة ساعة ونصف متواصلة. كان الشيخ يحثنا على عدم

الثرثرة، وتجنب الحديث في أمور الدنيا. وقال للمعتكفين مقتبسًا قولًا قديمًا لأحد الصوفيين: "أقلوا النوم، وأقلوا الأكل، وأقلوا الكلام، وأقلوا الاختلاط بالناس".

من الناحية التقنية، لم يكن لدي أي سبب يدعو للتوتر، حيث كنت ذاهبة فقط ليوم وليلة. وبصفتي مجرد مراقبة، كان عليّ الالتزام بموعد نهائي للعمل، مما يعني أنني سأضطر إلى الخروج من المسجد للكتابة في مقهى قريب. لكن حتى مع إمكانية الاستراحة لتناول شطيرة بانيني وإجراء مكالمات هاتفية سرية للاطمئنان على تطور نزلة البرد لدى "نيك" وواجب العلوم لدى "جوليا"، شعرت بالرهبة. كيف سيكون شعور مشاهدة الانضباط الروحي للاعتكاف؟ هل ستتوتر الأجواء؟ هل سيستاء الناس من كوني مجرد "سائح" في تجربة الاعتكاف؟ هل سأرتكب خطأ ما، أو أقتحم تجربتهم الروحية؟

كان اليوم رطبًا، وكانت حقيبتي ثقيلة، وكان الدرج المؤدي إلى قسم النساء شديد الانحدار. وفي الغرفة الواسعة ذات الجملون الكبير، جلست النساء على فراشهن يرتِّلنَ القرآن، واستعنت بلطف إحدى السيدات للعثور على مكان فارغ لوضع أمتعتي. كانت امرأة جميلة في الأربعينيات، ذات ابتسامة مشرقة، وكانت بمثابة أُمٍّ غير رسمية لقسم النساء. كانت تساعد الفتيات على تحسين نطقهن للقرآن، وتشرح لي بصبر نظام صلاة الليل. وأكدت لي أن مساعدة الآخرين أثناء الاعتكاف تزيد من حسناتها بسبعين ضعفًا، وبالتالي تزيد ثوابها في الآخرة.

ربما لأن مثل هذه المكافآت الروحية كانت على المحك، ساد جو من اللطف المستمر في الغرفة، وكانت الهمسات تتردد بـ"جزاك الله خيرًا" عندما يمر أحدهم الأطباق أثناء الإفطار. وعندما انتهى الطعام، حدث شبه صراع لمعرفة من سيحصل على شرف تنظيف الأرز المسكوب بالمكنسة الكهربائية.

وفي الطرف البعيد من الحائط كان هناك تلفاز بشاشة مسطحة يظهر عليها الشيخ أكرم مرتين في اليوم يلقي محاضراته. وعند مشاهدته، كان من الصعب تصديق أنه كان يتحمل قسوة رمضان. إذْ كان يحاضر ثلاث ساعات متواصلة دون أن يتعثر. وكان صبره على المستمعين لا حدود له. وكانوا يسألونه عن مواضيع تتراوح بين ملائكة الله، وما إذا كان المسلمون الصالحون يستطيعون طلب الطعام من المطاعم التي تبيع الخمور، وهي محظورة في الإسلام.

وبعد انتهاء المحاضرة، عندما جاء الشيخ لتحيتي ورأيته عن قرب، شعرت بلمسة من التعب في عينيه، لكن عندما كنت استمع إليه، لم أكن لأخمن ذلك مطلقًا.

كانت مريم، متألقة بحجابها اللازوردي، ومنكبة على مصحفها، تردد الآيات بصوت منخفض. بيد أن الجميع لم يكونوا بنفس القدر من التركيز. ورغم أن الاعتكاف يُقصد به الابتعاد عن الدنيا، إلا أن الدنيا وجدت طريقها إلى الاعتكاف في مسجد كامبريدج. ففي مؤخرة قسم النساء، تحدثت فتيات مراهقات بحماسة وتصفحن رسائل هواتفهن المحمولة بنشاط. وفي قسم الرجال، كان هناك مجموعة من الفتيان يلعبون لعبة Temple Run "الهروب من المعبد" على جهاز الآيباد.

كما يكن هناك داعٍ للقلق بشأن التزام الصمت أيضًا. فقد كانت الأحاديث تجري بحرية. وبجانب الحنفيات التي تتجمع فيها النساء للوضوء قبل الصلاة، كانت هناك كاتبة شابة تمجد مزايا هاري بوتر. وخلال العشاء، أطلعتني خريجة علوم على بعض التطورات المثيرة في مجال الهندسة الطبية الحيوية. وقبل صلاة المغرب، تحدثت إلى خبير استراتيجي في مركز أبحاث حول الخصائص الغريبة، التي تتسم بها مدن الساحل الإنجليزي.

مع اقتراب وقت صلاة المغرب، توافد المزيد من الناس من جميع أنحاء كامبريدج. عبر مكبر الصوت، جاء الأمر المرح: "املأوا كل شبر من الأرض! ليس كل قدم فقط، بل كل بوصة!". وبين صفوف النساء المصلِّيات، كانت فتاة صغيرة ترتدي شلوار ذهبي اللون تلعب ببالون أخضر. بينما غطت قرقرة ضحكات الأطفال وهم في مقاعدهم. وجلست السيدات المسنات، غير القادرات على السجود بسبب ركبهن، على الكراسي للصلاة. ولم يكن هؤلاء وحدهن القلقات بشأن مفاصلهن. فحتى النساء في العشرينيات كنّ يتعاطين المسكنات لتسكين آلام أرجلهن من طول الوقوف.

وبعد منتصف الليل تفرق الحشد، ووجدت مكانًا على الأرض ونمت على ضحكات وهمسات النساء اللواتي ينتظرن الصلوات التالية. نمت - ووفقًا لتقرير ما، كنت أشخر - وتجاوزت صلاتين، واستيقظت في الساعة ٢:٣٠ صباحًا لأجد الإفطار قيد الإعداد. على القماش المشمع المنتشر على الأرض كانت هناك أطباق من الكاري والأرز والكباب والكعك. وجلس الجميع حول الطعام يتحدثون بهدوء ويمرِّرون الأطباق الورقية. وعلقت إحدى النساء وهي تستيقظ وتقدم مشروبًا ورديًا للمجموعة: "يبدو كأنه لوحة العشاء الأخير".

تناولت طعامي بينما كنت أغمض عيني، متأملة في الغرابة التي يفرضها تناول كاري لحم الضأن في منتصف الليل. سألت مريم، بينما كنت أملأ طبقي بسلطة الفواكه المتبلة والأرز المحلى، "هل هذا الطعام تقليدي لإفطار رمضان؟"

هزت كتفها وقالت: "في المنزل، عادة ما نتناول الحبوب فقط ".

بعد تناول الوجبة واستراحة أخرى، استيقظت مرة ثانية لأجد مشهدًا مختلفًا: كانت الأرض لحافًا من النساء النائمات وبقعًا من الشمس. وكانت قاعة المسجد هادئة باستثناء الهمهمة الغريبة الناجمة عن الأحلام، والحفيف الناعم لنايلون أكياس النوم. رششت وجهي، وأخرجت جهاز الآيباد الخاص بي، وغادرت إلى صباح كامبريدج المشرق.

في الخارج، كانت الشمس وأرضية الأسمنت تشعرني بالغرابة. وعلى بعد دقيقة، في مقهى باريس، كانت موسيقى جيرشوين تعزف. ورجل مسن يقرأ صحيفة بصوت عالٍ ويتحدث عن برامج تلفزيون الواقع في الليلة الماضية. وزوجان شابان يحدقان ببعضهما البعض من فوق أكواب الكابتشينو. وتجرعت قهوتي، بشيء من الشعور بالذنب. ففي المسجد، لم يكن أحد يسمح لنفسه، سوى الأطفال، برشفة ماء حتى الساعة التاسعة من مساء اليوم. وعندما وصل الكافيين إلى مجرى دمي، فتحت جهاز الآيباد لأكتب جسرًا من الكلمات، في محاولة لإيجاد طرق لوصف العالم الذي يقع في الجهة المقابلة من الشارع.

إن اعتكاف مسجد كامبريدج لم يعزل الحياة اليومية بالكامل، لكنه ألقى الضوء عليها. ومثل حجاج تشوسر في طريقهم إلى كانتربري، بدا أن بعض المشاركين في الاعتكاف يرونه حدثاً اجتماعياً بقدر ما يرونه حدثًا روحياً. (وبالمناسبة في وقت لاحق، سمعت أن بعض الحاضرين انتقدوا الأجواء غير الرسمية أكثر من اللازم، مقترحين تقليل الكلام والبسكويت حتى يسود جو أكثر روحانية).

ولكن سواء في الحج أو في الاعتكاف، فإن هذا التوازن بين التجربة الروحية والحياة العادية هي احد ميزات وقوة الإسلام. فالإسلام يوفر مساحة لا متناهية للروحانيات، لكنه يقدم أيضًا إرشادات للحياة الاجتماعية، متناولًا ليس فقط النفوس الفردية، ولكن أيضًا كيفية تفاعل هذه النفوس مع العالم.

(١٢)

يسوع ومريم والقرآن

في صباح يوم أحد، حضرت لأول مرة في حياتي عظة عن يسوع المسيح. ومثل الملايين في مختلف أنحاء العالم في ذلك الصباح، استمعت إلى واعظ يرتدي ملابس بيضاء يخبرني بأنني بحاجة إلى يسوع في حياتي. جلس الحاضرون في غرفة بيضاء فارغة ذات نوافذ رفيعة بينما حذرهم الواعظ من أن الكثيرين نسوا المعنى الحقيقي لدينهم، وتخلوا عن جوهر إيمانهم لصالح أداء الطقوس فقط. وفي كثير من الأحيان، جعلوا العبادة تتعلق بالانتماء أكثر من تعلقها بالإيمان، وتتعلق بالتفاخر بالتقوى أكثر تعلقها بالخضوع له. وقال الواعظ، وكان وجهه يتوهج بحرارة ونور رسالته: إن المرء لكي يجد الطريق إلى الخلاص الحقيقي، يجب أن يتبع حياة الأنبياء. ولكي يعيش المرء إيمانه حقًا، يحتاج إلى اتباع قصص يسوع ومريم ويوحنا المعمدان. وإلى جانبه كانت هناك نسخة من كتابه الديني المقدس، تحتوي على قصص آدم وحواء، وعيسى ومريم، وموسى ونوح، وإبراهيم وابنه. وفيه آية تأمر المؤمنين بأن يقولوا: {آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ } (آل عمران: ٨٤)

هكذا قال القرآن، وهكذا قال الشيخ أكرم أيضاً، وهو يلقي خطبته عن المسيح أمام حشد من الناس في مسجد في كامبريدج في ذلك الصباح. لقد جعلت البساطة البيضاء لمسجد الإخلاص المكان أشبه بكنيسة "نيو إنجلاند" البروتستانتية أكثر من كونه مسجداً. لكنه كان مسجداً على أي حال. وكان موقعه على شبكة الإنترنت يؤكد على أن إحدى وظائف المساجد هي توفير مكان للمناقشات بين الأديان. فقد كان أول مسجد في الإسلام، والذي بناه محمد وصحابته في المدينة المنورة، مصنوعًا من طوب الطين في الرمال، وكان سقفه من سعف النخيل الذي يتسرب منه الماء في العواصف الممطرة. وعندما جاءت مجموعة من المسيحيين من اليمن لرؤية النبي، مكثوا هناك. وبروح مشابهة أعلن مسجد الإخلاص عن محاضرة الشيخ للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء. حتى أن المنشورات البرتقالية "يسوع المسيح في

الإسلام: نموذج الروحانية ومخلص البشرية" اجتذبت بعض الناس الذين يُعتقد أنهم مسيحيون، جاءوا يستمعون باهتمام شديد إلى ما سيقوله الشيخ عن نبيهم يسوع.

* * *

كان العرب الوثنيون في مكة في القرن السابع، الجمهور الأصلي للقرآن، يمتلكون على الأرجح معرفة أفضل مني بالقصص التوراتية. فقد كانت مكة مدينة متعددة الأديان، وبما أن التقاليد الدينية كانت تعتمد بشكل كبير على الشفوية في ذلك الوقت، فمن المرجح أن العديد من العرب سمعوا الخطوط العريضة للقصص المسيحية والتوراتية من المسيحيين واليهود. وفي خضم هذا الهياج المتعدد الأديان ظهر نبي جديد، يحمل كلمات جديدة، لكنه يفترض قدراً لا بأس به من المعرفة التوراتية من مستمعيه. وبشكل عام، كانت رسالة القرآن هي نفسها إلى حد كبير تلك التي جاء بها إبراهيم: هناك إله واحد فقط. وفي العقيدة الإسلامية، يُنظَر إلى محمد باعتباره استمراراً للتقاليد التوراتية، وباعتباره الأخير في سلسلة من الأنبياء التوحيديين التي تمتد إلى آدم. وأوضح الشيخ قائلاً: "أراد الله أن يكون عادلاً مع الجميع. لقد أرسل رسلاً مختلفين، لكن الاختلافات الحقيقية تتعلق فقط باللغة، أو الثقافة، أو التاريخ. أما الرسالة الرئيسية فهي نفسها: الإيمان بالله".

لقد حرص القرآن على التمييز بين العرب الوثنيين، الذين كانوا يعبدون الأوثان، وبين أهل الكتاب، أصحاب التوراة والإنجيل. وقد أكد لي أكرم ذات مرة قائلاً: "عندما يتعلق الأمر باليهود والمسيحيين، فنحن نحترمهم بسبب كتبهم المقدسة. إنهم لا ينتمون إلى نفس المجتمع، ولكن لا بأس بذلك".

ولإحياء إيمانهم، كان أكرم يعتقد أن المسلمين لابد وأن يبدأوا بالاهتمام ليس فقط بمحمد، بل وأيضاً بالأنبياء الذين سبقوه. ففي كثير من الأحيان، كان المسلمون يتجاهلون القصص النبوية في القرآن الكريم. وقال وهو ينظر من خلال نظارته إلى الحشد: "إن هذا خطأ كبير". فالأنبياء الخمسة الكبار ـ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ـ هم القدوة للمؤمنين في كل مرحلة من مراحل حياتهم. وإذا لم نكن نعرف شيئاً عن مريم أو عيسى، فلن نستطيع أن نعيش في العالم كمؤمنين !"

في المجمل، هناك خمسة وعشرون نبيًا رئيسيًا في القرآن. لقد أرسل الله آلاف الرسل إلى البشرية، كما قال الشيخ: تقول بعض المصادر الإسلامية التقليدية: إن عددهم يصل إلى ١٢٤ ألفًا. وفيما يتعلق بتكريم الأنبياء، كان القرآن متوسعًا جداً:

"قُولُوا آمَنَّا بِاللهِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"(البقرة: ١٣٦)

وقد بدأ الشيخ بالتفكير العميق في الأنبياء السابقين منذ وصوله إلى بريطانيا. ففي ندوة العلماء، كان أساتذته يتجنبون الحديث عنهم لصالح فروع أكثر عصرية من التعلم الإسلامي، مثل الفقه والنحو العربي. لكن قبل عامين، بدأ أكرم في النظر إلى السور التي تتحدث عن إبراهيم، ووجد قصته ذات أهمية كبيرة.

لقد ادعى كل من المسلمين واليهود أن إبراهيم هو جدهم: فقد قيل إن أحد أبنائه، إسماعيل، هو الجد المؤسس لقبيلة قريش؛ قبيلة محمد. أما ابنه الآخر، إسحاق، فهو جد بني إسرائيل. ويقول القرآن إن إبراهيم كان حنيفاً مؤمناً، لم يحدد نفسه كعضو في جماعة دينية، بل كان فقط موحداً متحمساً: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ".

يقول القرآن إن إبراهيم وابنه إسماعيل قاما ببناء الكعبة في مكة. قال أكرم: "حتى النبي محمد أُمر بأن يتبع نهج إبراهيم". وعندما سألت الشيخ عن سبب إعجابه الشديد بإبراهيم، قال: "لقد أظهر أن من الضروري الابتعاد عن كل شيء في الكون من أجل الله... كل الخلق، حتى عائلتك!"

عندما رفض والد إبراهيم التخلي عن آلهته الكثيرة لصالح الله الواحد، ابتعد إبراهيم عن والده. وعندما أمر الله إبراهيم بذبح ابنه، وافق الصبي. أخبرني أكرم: "قال لأبيه: يا أبت ستجدني إن شاء الله من الصابرين". وفي اللحظة الأخيرة، جاء صوت يأمر إبراهيم بالتوقف: "إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ" .

عندما كنا نلتقي في دروسنا الخاصة، كان الشيخ كثيرًا ما يتحدث عن إبراهيم، الذي أثار إخلاصه الصارم إعجاب الشيخ بشدة. قال الشيخ وقد بدا عليه الانبهار: "لقد أظهر الخضوع

في كل تفاصيل حياته. ما فعله لم يكن مجرد عبادة لله. لقد كان تخليًا عن كل شيء وتضحية بكل شيء في سبيل الله".

وأضاف: "يذكرني ذلك بما قاله مدرب كرة قدم أمريكي مشهور في الستينيات عن الفائزين. قال: "الفرق بين الشخص الناجح والآخرين ليس نقص القوة، ولا نقص المعرفة، بل نقص الإرادة".

فقلت له متفاجئة من ذكر شخصية من دوري كرة القدم الأمريكي في نقاشنا:

"شيخ، من كان هذا المدرب؟"

" نسيت الاسم ... كان مشهورًا. مات في عام ١٩٧٠ ..."

فقلت: "فينس لومباردي؟" حيث كان الاسم الوحيد الذي أتذكره من طفولتي عن مدربي كرة القدم.

" فينس لومباردي". أومأ الشيخ. "نعم ".

* * *

نظرًا لأسلوب والديَّ غير الجاد تجاه الدين، لم يكن من المفاجئ أن تكون أول عظة لي عن الكتاب المقدس قد ألقاها مسلم هندي. ومثل كثيرين ممن يعيشون بعيدًا عن بلادهم الأصلية، كنت غالبًا ما أتعامل مع الثقافة الأمريكية بشكل كامل من خلال التراجع والنظر إليها من بعيد. كما قال روديارد كيبلينغ: "ماذا يعرفون عن إنجلترا، إن كانوا لا يعرفون سوى إنجلترا؟"[٧٧] بالنسبة لي، كان البُعد دائمًا محفزًا على التفاعل، إن لم يكن على الانبهار. كنت أشعر بأكبر قدر من الاهتمام بالثقافة الغربية عندما أكون بعيدًا عنها. ولم أستمع حقًا إلى باخ حتى اكتشفت ألبومًا له يحتوي على حفلاته الموسيقية للفلوت في كابول، حيث شحنه والداي بعناية عبر حقيبة دبلوماسية.

[٧٧] الاقتباس من شعر روديارد كبلينغ، إذْ هو يطرح تساؤلًا حول فهم الثقافة الوطنية أو الهوية القومية. يشير كبلينغ إلى أن الفهم الحقيقي لإنجلترا يتطلب منظورًا أوسع يتجاوز التجربة المحلية. ولفهم بلدك وثقافته بعمق، عليك أن ترى بلدك من الخارج أو أن تقارن بينه وبين ثقافات أخرى.

وكانت محن "بيب، وإستيلا، وميس هافيشام"[٧٨] أكثر إلحاحًا عندما قرأتها على متن حافلة تركية، أكثر مما لو كنت في ميسوري. ولقد كان المبدأ نفسه ساريًا عندما تعلق الأمر باهتمامي بالإسلام: لم أكن مهتمة به كثيرًا أثناء إقامتنا في البلدان الإسلامية. إنما تزايد فضولي به عندما عندما التحقت بجامعة أسسها التبشيريّون الكونغريغانيّون في نيو إنجلاند.

لقد كنت علمانية متفانية لدرجة أن الكهنة الذين لجأت إليهم لدروس الكتاب المقدس كانوا رسامين من عصر النهضة مثل بلّيني ورافائيل. كانت الفتيات في المدارس الكاثوليكية يتعلمن الاقتداء بإيمان وصبر العذراء؛ أما أنا فكنت أراها نموذجًا في الأناقة. كنت أستعرض صور العذراء في المتاحف كما يستعرض الآخرون صور العارضات في المجلات لمعرفة ما ترتديه وكيف ترتديه. كانت علاقتي بصورة العذراء من خلال الفن، وكان استجابتي العاطفية ليست عن الله بل عن الذات.

عندما كنت طفلة، كانت صورة العذراء المفضلة لديّ هي لوحة "تقديم مريم في الهيكل" للرسام تيتيان، وهي اللوحة الوحيدة التي أعرفها والتي تصورها وهي طفلة صغيرة. ورغم أنها كانت حافية القدمين، إلا أنها كانت ترتدي ضفيرة كتانية سميكة، وفستانًا أزرق لامعًا، والأفضل من ذلك كله، كان هناك ضوء إلهي يحيط بها. كانت أشعة ذهبية تلتف حولها؛ وكانت كل العيون عليها. لم أكن أعرف ما الذي كان يحدث، لكنني أردت أن أكون مثلها.

في ذلك اليوم، في المسجد في كامبريدج، سمعت أخيراً القصة وراء الصورة التي رسمها تيتيان لتقديم مريم في الهيكل ـ أو بالأحرى، النسخة القرآنية منها. تروي السورة الثالثة، "آل عمران"، كيف اختيرت مريم، ابنة عمران، للخدمة في الهيكل على الرغم من كونها فتاة. وأوضح أكرم أن زوجة عمران نذرت أن تعطي ابنها البكر للخدمة في الهيكل. لكن عندما قالت رب إني وضعتها أنثى! ماذا أفعل؟ كيف أخدمك؟ لكن الله كان يعلم الأفضل".

تم تقديم مريم في الهيكل، وكان من الواضح أنها استثنائية، لدرجة أنها المرأة الوحيدة التي سُميت سورة قرآنية باسمها. أخبرنا أكرم: "لم تكن فقط من نسل داوود، الذي يعود إلى يعقوب، أنقى نسل على وجه الأرض، بل إن الله جعلها تنمو بشكل رائع. عقلها مدهش! روحها مدهشة! حكمتها مدهشة!"

[٧٨] تشير المؤلفة إلى محنة أبطال رواية "آمال عظيمة" Great Expectations التي كتبها الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز.

تابع أكرم: جاءتها الملائكة تقول: "يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَّ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ ". أخبروها بأنها ستلد طفلًا. وقال أكرم، بصوت يتزايد حماسًا: "إن هذا ما جعل مريم مثالًا للخضوع الحقيقي. قال: "لقد عُرف عن المؤمنين أنهم يضحون بأنفسهم أو بممتلكاتهم في سبيل الله. فيمكنك أن تقتل في سبيل الله. أما التضحية بالشرف! من يستطيع أن يفعل ذلك؟ بالنسبة لامرأة طاهرة، الشرف أهم شيء. وبالنسبة لشخص طاهر، أن يُتهم بالزنا أمر لا يُتصور. وهذه المرأة المسكينة ستُتهم بعد قليل بالزنا!"

وقال أكرم، بينما كانت عيناه الداكنتان مركزة على الحشد الهادئ: "فكروا في مدى صعوبة الأمر، في ذلك المجتمع، عندما يُنظر إلى امرأة على أنها ساقطة. ". وتابع: "قارنوا ذلك بمدى صعوبة ارتداء الحجاب في مجتمع لا يرتدي فيه أحد غطاء الرأس! الناس يسيئون إليك، الناس يسخرون منك. ليس الأمر سهلاً". كان ارتداء الحجاب مجرد إزعاج بسيط مقارنة بإنجاب طفل يعتقد الجميع أنه غير شرعي، في مجتمع تعتبر فيه الأمهات غير المتزوجات منبوذات. ومع ذلك، فعلت مريم ذلك "من أجل الله".

لقد تركتني مسرحيات الميلاد في المدرسة الابتدائية والرسوم التوسكانية مع صورة مريم الحامل كامرأة جميلة ذات بطن منتفخ قليلاً، جالسة على حمار أو تقرأ في وقار. وعلى النقيض من ذلك، قدم القرآن تفاصيل حقيقية عن آلام المخاض. انسحبت مريم إلى "مكان قصي"، بمفردها: " فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ".

إن كان القرآن قد استحضر ميلاد المسيح باعتباره عملاً جسدياً من العرق والدموع، فإن مناقشته للمسيح كانت تتعلق بإنسان من لحم ودم، وليس ابن الله. ويرفض المسلمون مفهوم المسيحية عن الثالوث: ففكرة بنية الآب والابن والروح القدس تشكل خطيئة جسيمة وهي الشرك بالله. ويقول أكرم: "لقد اختلط الأمر على المسيحيين بطريقة ما. لقد جعلوا المسيح إلهاً، وجعلوا أمه إلهة. ولكن الله ليس الأب، وعيسى ليس الابن. وإذا كان الله قد أراد أن يخلق ابناً، فلماذا لم يأت هذا الابن في بداية الخليقة ؟" .

وتابع أكرم قائلاً إن عيسى لا يمكن أن يكون ابن الله، لأن الله لا يمكن أن يكون له شركاء. "القرآن صارم: لا يُعبد أحد غير الله. يمكن لله أن يغفر أي خطيئة أخرى غير الشرك. لا يوجد تساهل هنا: الأشخاص الوحيدون الذين لا يغفر لهم هم أهل الشرك".

بالنسبة لأكرم، كان عيسى "رجلاً بلا أب"، وكانت حياته الاستثنائية بمثابة تذكير للمؤمنين الضعفاء بقدرة الله: "جعل الله كل شيء في حياة عيسى ضد المألوف. دخوله إلى هذا العالم كان ضد المألوف". وخروجه أيضًا. لم يمت على الصليب كما يقول الإنجيل، بل رفع إلى السماء حيًا. وكما أوضح أكرم، فإن قتلة المسيح المفترضين "أصيبوا بالارتباك". أما لغة القرآن فهي أكثر رسمية: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم".

قال أكرم إن الأنبياء كانوا يأتون لتذكير البشر بالله. وكان الأنبياء المهمون يأتون عندما كان الناس يتعاملون مع الدين كعادة، مفترضين أن الانتماء إلى جماعة معينة يجعلهم من المؤمنين. "عندما تصبح الأمور عادة، فإن طريقة الله هي كسر المألوف"، قال أكرم. "انظروا إلى إبراهيم. حصل على طفل عندما كان عقيماً وعجوزاً، ليذكّر الجميع أن الله ليس عبداً للمألوف، بل إن المألوف مخلوق لله. زكريا ليس له ولد، وزوجته عاقر. لكنه يرزق بغلام اسمه يحيى، "يوحنا المعمدان"، الذي كانت ولادته كسرًا للمألوف".

مع قدوم عيسى، أو يسوع، كما قال أكرم: "أراد الله أن يوضح نقطة أكبر. أراد أن يهدي الناس، فخلق إنسانًا بلا أب".

كانت فكرة أن عيسى "بلا أب" بمثابة توبيخ لأولئك اليهود الذين كانوا يهتمون بالهوية أكثر من الإيمان. الله يقول، "أنا أخلق نبيًا، لكنه ليس مرتبطًا بالعائلة". هذا لتذكيرهم بأن الصلة بالنسب ليست مهمة. المهم هو الإيمان والعمل"[٧٩].

لا يظهر المسيح في القرآن فحسب، بل وفي السيرة النبوية أيضاً. فوفقاً لكتاب السيرة الأوائل، حمل الملاك جبرائيل محمداً من مكة إلى القدس على البراق، وهو مخلوق مجنح يبلغ طول جسمه ما بين طول الحصان وطول البغل، " يضع حافره عند منتهى طرفه". وفي القدس، التقى محمد بإبراهيم وموسى وعيسى وأنبياء آخرين وصلى معهم. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، أثناء صعوده إلى السماء، توقف محمد لزيارتهم مرة أخرى، كل واحد منهم في مستوى مختلف من السموات السبع. وعند عودته إلى الجزيرة العربية، وصفهم بوضوح لأصحابه. فقال عن إبراهيم: "ما رأيت رجلاً أشبه بي منه".

---

[٧٩] في الحقيقة مجيء المسيح بدون أب كان إشارة إلى أنه لم يكن في بني إسرائيل رجل يصلح لأن يحمل نطفة صالحة لإنجاب نبي، لذلك فإن الله عز وجل جاء بالمسيح من غير أب. وما دام لا يوجد في بني إسرائيل رجل يصلح لأن يأتي من صلبه نبي، فإن هذا كان إرهاصًا بأن النبي القادم بعد المسيح لن يكون من بني إسرائيل، لأن النبوة سوف تنتقل من بني إسرائيل إلى أقوام آخرين. (المترجم).

أما موسى، الطويل النحيف، ذو الشعر المجعد والأنف المعقوف، فقد قدم نصيحة للنبي الجديد. عندما نزل محمد من حضرة الله، سأل موسى عن عدد الصلوات اليومية المطلوبة من أتباعه. وعندما أخبره بخمسين، قال موسى: "أمتك لا تطيق، ارجع إلى ربك واسأله التخفيف".. فعاد محمد إلى الله، الذي خفض له عشر صلوات. وهكذا استمر الأمر حتى أصبحت خمس صلوات فقط طوال اليوم والليلة". وعندما مرَّ محمد بموسى مرة أخرى، سأله النبي القديم نفس السؤال، ونصحه مرة أخرى بطلب التخفيض. وفي هذه المرحلة، كان محمد قد شعر بالخجل من العودة لطلب تخفيف إضافي. واستمر الاتفاق على خمس صلوات يوميًا حتى اليوم.

وعندما التقى محمد بالمسيح، صُدِم برؤية رجل وسيم بشكل لا يمكن تخيله. قال الشيخ بشكل عفوي، كما لو أنه يروي لقاءً مع شخصية مشهورة. كان عيسى متوسط الطول، ذا بشرة مائلة إلى الحمرة، مثل أهل سوريا أو لبنان، وكان شعره اللامع يصل إلى كتفيه، ويهتز، كما لو كان مبتلاً بالماء، كأنه خارج لتوه من حمام"، وفقاً لحديث الشيخ.

لقد تحدث أكرم مراراً وتكراراً ليس عن تعاليم المسيح، بل عن أهميته كنبي بالنسبة لمسلمي اليوم. وكما كان الحال مع يهود الإمبراطورية الرومانية الذي يحتاجون إلى المسيح، فإن المسلمين المعاصرين يحتاجون إلى الاستماع إلى رسالة المسيح كذلك، لأن العديد من المسلمين اليوم ضائعون روحياً. وأوضح الشيخ: "إن الدين يأتي بجسد وروح. ولكن بعد بضعة أجيال، تصبح الآداب والسلوكيات أكثر أهمية في الدين، وهذا يعني أن روح الدين تختفي، ويبقى الدين جسدًا بلا روح". وقال وهكذا كان الوضع مع اليهود عندما بدأ المسيح يبشرهم: لقد نسوا عهد إبراهيم مع الله. وبمرور الوقت، أصبح دينهم مجرد عادات وطقوس. وبدأوا ينظرون إلى اليهودية كمسألة انتماء إلى شعب بدلاً من الإيمان بإله، حسب زعمه. وهذا هو الحال بالنسبة للعديد من المسلمين اليوم: "عندما جاء عيسى، أراد اليهود أن يُعاملوا كمؤمنين دون أن يكونوا مؤمنين حقاً، ونحن المسلمون، في هذه اللحظة، نريد أن نُعامل كمؤمنين دون أن نكون مؤمنين".

إن المسلمين المعاصرين غالباً ما يتمسكون بالمظاهر الشكلية لإيمانهم: "الناس مشغولون باللحى والحجاب. وبالتالي يصبح الإيمان مجرد هوية. ويحدث هذا على هذا النحو في كل ثقافة

وكل دين. تصبح الجوانب الخارجية أكثر أهمية، في حين يتم نسيان الروح الداخلية". توقف قليلاً، وهز رأسه، وحدق في الحشد بحزن ثم قال: "في نهاية المطاف، يحمل الناس جثة ميتة، بلا روح".

" لماذا نعاني نحن المسلمين كل هذا الألم في كل أنحاء العالم؟" تساءل. "نحن نحمل جسد الإسلام! ليس لدينا تسليم حقيقي. لدينا الشريعة، ولكن بدون الحكمة من ورائها. الدين لم يأت ليعطي الناس هوية! الغرض منه ليس أن تقول: "نحن ننتمي إلى هذه المجموعة". لكن في هذه اللحظة تسعة وتسعين في المائة من المسلمين يتعاملون مع الدين باعتباره هوية! ولكن الله لا يحب الهويات. إنه لا يريد للناس أن يفخروا بانتمائهم. إنه يريد الإيمان، ويريد العمل ".

* * *

ولم يفاجئني أن أسمع الشيخ يناقش العلاقة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين وأنبيائهم؛ فقد كنت أعلم أن الشيخ متسامح مع الاختلافات: كنت أعلم ذلك منذ اليوم الذي دخلت فيه مكتبنا المشترك مرتدية تنورة قصيرة. فقد شاهدته يتحدث بأدب إلى الهيبيين ذوي الثقوب والشعر المجعد. وعندما امتلكت الشجاعة أخيراً قبل بضع سنوات لأخبره أن والدتي يهودية، هز رأسه وابتسم، وكان دافئاً كما كان من قبل. لقد كتب ذات مرة أن الاختلافات لم تكن مجرد اختلافات يجب التسامح معها، بل إنها من صنع الله: " لو شاء الله لجعل الناس جميعاً متشابهين، ولكنه منح الإنسان القدرة على العقل والإرادة، ولذلك تختلف معتقدات الناس وأفكارهم وميولهم".

لكن إلى أي مدى يمكن أن تكون هذه المعتقدات متنوعة ؟ في أحد الأيام، كنا أنا والشيخ على اتصال سيئ عبر الهاتف لتحديد موعد درسنا التالي، ووجدت الجرأة لسؤاله عما إذا كان المسيحيون واليهود يمكن أن ينالوا الخلاص.

قلت: "يا شيخ، قبل أن ننهي المكالمة، سؤال أخير. يتعلق بالمسيحيين واليهود. أعرف أن المسلمين يقبلون الأنبياء السابقين. ولكن ماذا عن الذين يعبدون الأنبياء السابقين؟ إذا كنت مسيحياً أو يهودياً ملتزماً وتخضع لله، هل تعتبر مؤمناً حقيقياً؟"

كان الاتصال سيئاً، لكن إجابة الشيخ كانت واضحة: القرآن يجل أنبياء اليهود والمسيحيين. لكن اليهود والمسيحيين بدورهم بحاجة إلى الإيمان برسالة النبي محمد. فلا

يمكنك إنكار أي نبي من الأنبياء. إنهم يؤمنون بأنبيائهم، كما نفعل نحن، لكن لا يمكنهم إنكار محمد ورسالة. وإلا، فإنهم يتمسكون فقط بدين أسلافهم"

إن التمسك الأعمى بإيمان الأجداد، كما يؤكد القرآن، هو غطرسة. لم تُقنع تحذيرات نوح التي استمرت ٩٥٠ عامًا الوثنيين بالتخلي عن أصنامهم، لذلك غرقوا. حذر موسى فرعون وأعوانه، لكنهم لم يستمعوا: في يوم القيامة، سيكون مصيرهم النار. قال الشيخ إن التمسك بدين الأجداد دون الاعتراف بالإشارات الجديدة التي أرسلها الله إليك هو ابتعاد عنه. يجب على اليهود والمسيحيين الذين أرادوا الخلاص أن يعترفوا بمحمد كنبي.

أغلقت الهاتف، وشعرت بخيبة أمل. كانت إجابته أقل تشجيعاً بكثير من رأي المسلمين التقدميين، الذين أشاروا إلى أن الإسلام يعترف بأن الله سمح بتنوع طرق عبادته:

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة:٤٨)

لقد اعتبرت هذه الآية من أكثر آيات القرآن الكريم راحةً لقلبي، حيث تحمل تأييدًا مدوياً لمعتقدي الخاص: التنوع والأعمال الصالحة. لم يكن تعدد الطرق إلى الله مجرد أمر مقبول، بل كان جزءًا من التصميم الإلهي الذي وضعه الله. كانت الاختلافات الدينية مصدر قوة وصقل للإيمان؛ حيث كان المؤمنون يتباينون ويقارنون ويتنافسون لإرضاء الله من خلال البر والتقوى. إنها أشبه بسوق حرة للإيمان، بمباركة إلهية.

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ" يقول القرآن الكريم، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق لمن اتبع هؤلاء الرسل بشكل جيد.

ويشير أوميد صافي، أستاذ الدراسات الإسلامية ومؤلف كتاب "ذكريات عن محمد"، إلى أن القرآن أكد على أن "لا توجد جماعة واحدة ـ بما في ذلك المسلمون ـ تدعي احتكار الخلاص". والواقع أن القرآن تعامل بصرامة مع أي جماعة دينية تزعم أن طريقتها في العبادة هي الطريقة الصحيحة:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ١١١)

لقد كان للقرآن نظرة سلبية تجاه أي مجموعة تدعي أنها وجدت الطريق الوحيد إلى الجنة. ومع كل التأكيدات المتكررة بأن الله وحده يعلم مصير الإنسان النهائي، بدت هناك أسس للاعتقاد بأن الخلاص لا يقتصر على المسلمين فقط.

ولكن هذا ليس ما قاله الشيخ. وعلى أمل أن أجد الراحة في هذه التفاصيل الدقيقة، ناقشت المسألة من زاوية أخرى، أثناء تناول الشاي في "مطعم أكسفورد". كان توتري يزداد لأنني كنت الوحيدة التي تحتسي الشاي، حيث كان اليوم الخميس. وباستثناء الأوقات التي كان يمارس فيها الرياضة بشدة، كان الشيخ يصوم أيام الاثنين والخميس، كما فعل النبي محمد.

قلت: "يا شيخ، القرآن يوضح أن ما جاء به ليس جديدًا، أليس كذلك؟ لقد أنزل الله الوحي من قبل، أولاً على الشعب اليهودي، ثم على المسيحيين. فلماذا إذن إرسال وحي جديد مع تغييرات طفيفة في التفاصيل، إذا كانت الرسالة الأساسية هي نفسها؟".

قال الشيخ: "إنها عملية تحرير الناس من التقييد. الرسول الجديد يحرر الناس الذين كانوا يتبعون الدين وقد جعلوه ثقافة وهوية. وعندما يأتي الرسول بتفاصيل جديدة، يصبح الدين جديدًا، مثل بركة راكدة تحصل على إمداد جديد من الماء".

وأضاف عندما يأتي رسول جديد، يجب على الناس الإيمان برسالته[٨٠].

حقيقة، لم أكن معتادة على مثل هذا اليقين الحاسم من الشيخ. لذلك سألت مرة أخرى، في جلسة أسئلة وأجوبة خلال محاضرة عامة. رفعت يدي، وانتظرت تمرير الميكروفون لي، وسألت عما إذا كان القرآن يترك مجالاً لأي طرق متنوعة للخلاص. فهل يمكن خلاص اليهود والمسيحيين، على سبيل المثال ؟

قال: "الفكرة الأساسية، حقًا، هي أنه عندما يأتي رسول جديد، يجب على جميع الناس الذين سمعوا به أن يقبلوه ويتبعوه. وكما قال موسى، يجب عليك أن تؤمن بالرسول الجديد عندما يأتي. علاوة على ذلك، من واجب المسلمين أن يحاولوا ربط أتباع الديانات الأخرى بهذه الرسالة الجديدة، وأن يقوموا بالدعوة إلى الطريق الصحيح.

---

[٨٠] لماذا تُحدِّث شركات الهاتف والكمبيوتر أجهزتها كل فترة وأخرى؟ فإذا كنا نفعل ذلك في أمور دنيانا ألا يجوز ذلك في أمور ديننا؟ فالإسلام هو النسخة الأخيرة المُحَدَّثة والمدعومة للوحي الإلهي. وكل رسول يأتي كان كتابه في الوقت الذي جاء فيه آخر نسخة أو آخر إصدار من الوحي السماوي. أما الإنجيل والتوراة فهما الآن بمثابة نسخ غير مدعومة.

لكن الشيخ، الذي كان دائمًا حريصًا على تقديم الإجابة الأكثر لباقة بقدر ما يستطيع، وقد قدم حينها بصيص أمل بلطف. قال: "أعتقد... قد يكون هناك شخص ما، في مكان ما، يؤمن بإله واحد، ويبذل جهدًا، ولا يملك توجيهًا آخر... ليس لديه فكرة عن النبي محمد، ولا فكرة عن الإسلام أو الوصول إلى القرآن، ويموت كمؤمن حقيقي، فهناك أمل في أن يُغفر له. هؤلاء الذين هم مؤمنون دون أن يكونوا مسلمين قد يخلصون. فالأمر متروك لله".

بمعنى آخر، من بين غير المسلمين، قد يكون الناس المعزولون فقط هم من لديهم فرصة للخلاص. ووفقًا لتقدير الشيخ، إذا كان الشخص يَعرف رسالة النبي محمد ورفضها، فلا يمكن أن يكون مؤمنًا حقيقيًا، حتى لو اتجه إلى دين آخر.

وتابع الشيخ: "لكن رغم ذلك، حتى العديد من المسلمين بدوا وكأنهم يتجاهلون تعاليم محمد. وكان من طبيعة البشر ببساطة التركيز على النبي الأحدث؛ إذ اعتبر اليهود موسى أكثر أهمية من دين إبراهيم، وتجاهل المسيحيون الأنبياء السابقين. والآن المسلمون يتجاهلون تعاليم الأنبياء الآخرين لصالح محمد".

لذلك، بدون محمد، قال الشيخ، لن يتمكن اليهود والمسيحيون من دخول الجنة. ولم يكن هذا ما كنت أود سماعه، لكنني كنت أعلم أنه يؤمن بحرية العقيدة. في هذا، كان قاطعًا مثل القرآن: "لا إكراه في الدين." ولم يكن يُلْزمني بكلامه فقط، إذا كان يقول لي: "إذا اختلفت مع تفسيري، ابحثي عن تفسير آخر." وهكذا فعلت.

عدت إلى مكتبتي ووجدت كتابات لمسلمين تحدثوا عن الإسلام والتعددية. وفي القرآن نفسه، في الآية ٤٦ من السورة ٢٩، وجدت تعبيرًا موجزًا عن التعايش المستنير بين المسلمين والمسيحيين واليهود، ثلاث فئات من المؤمنين، متميزة لاهوتيًا، ربما، لكنها تؤمن بالحقيقة نفسها: " وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ. وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (العنكبوت: ٤٦).

الراحة

ولقد وجدت عزائي في كتاب "لا إله إلا الله"، حيث يصف رضا أصلان رؤية النبي محمد لأهل الكتاب. ففي الأيام الأولى للمدينة المنورة، كما يكتب أصلان، كان المسيحيون واليهود

"أبناء عمومة روحيين، وكانوا، على النقيض من الوثنيين والمشركين في شبه الجزيرة العربية، يعبدون نفس الإله، ويقرأون نفس الكتب المقدسة، ويتقاسمون نفس القيم الأخلاقية التي كان يتبناها المجتمع المسلم". بل إنَّ أصلان يطرح نظرية مفادها أنه، رغم الاختلافات اللاهوتية، تم تصوّرهم في دولة المدينة التي أسسها محمد كمجتمع واحد من الموحدين، الملتزمين بالتعايش التعددي. ويشير أصلان إلى أنه في وقت لاحق فقط، بدأ الفقهاء في الترويج لرؤية محافظة، تماماً مثلما فعلوا مع حقوق المرأة.

وكان هؤلاء العلماء في العصور الوسطى، وليس محمداً، هم الذين اعتبروا اليهود والمسيحيين " كفاراً " وليسوا مجرد أعضاء في الأمة، أو المجتمع المتعدد الأطياف من المؤمنين. وكما سعى المسيحيون الأوائل إلى تمييز أنفسهم عن اليهود، كذلك سعى المسلمون في العصور الوسطى على تعميق الانقسامات بين إيمانهم الناشئ والأديان التوحيدية الأخرى.

لقد تبين أن سياسة الهوية لها تاريخ طويل ومتجذر في السياق الأوسع للتاريخ الديني. ففي إحدى حفلات العشاء، قابلت كاتبة سيناريو عادت مؤخرًا إلى لندن من تل أبيب. كانت أنيقة وذكية، ولكنها كانت غير مقتنعة عندما جادلت بأن معاداة السامية ليست جزءًا أصيلًا من الإسلام، بل هي أمر يخص بعض المتطرفين المعاصرين فقط. قالت وهي تسوي شعرها الداكن الطويل ببطء، والأساور الفضية تصدر صوتًا: "أعتقد أنك تختارين ألا ترين ما لا تريدين رؤيته. القرآن يصف اليهود بالقردة والخنازير".

وقد أشارت إلى أن هناك قدرًا صادمًا من معاداة السامية بين المسلمين، ونصوصهم المقدسة تؤيد ذلك. وأضافت أنها تعرضت ذات مرة لتجربة مروعة مع مسلم في متجر بريطاني صغير. ونظرًا لاعتقاد البائع بأنها مسلمة، بسبب شعرها الداكن وبشرتها الزيتونية، بدأ بمغازلتها. وعندما لم ترد على مغازلته، ساءت الأمور، وبدأ يصرخ بتعليقات معادية للسامية، وحينئذ قررت أنه حان الوقت للانتقال إلى إسرائيل[٨١].

قلت: "يبدو ذلك فظيعًا"، وكنت أعني ذلك. لكنني شعرت باليأس من هذا النهج القائم على الحكايات الشخصية في مناقشة الحضارات. كان الأمر يبدو وكأنه مباراة تنس طاولة لا نهاية لها: "أرني مسلمك، وسأريك مسلمي". أو "أرني آية قرآنية تبدو تحريضية، وسأرد عليها

[٨١] في الحقيقة في هذه الحكاية تناقض فاضح، فكاتبة السيناريو تقول بأن البائع اعتقد أنها مسلمة فغازلها، وعندما لم ترد على مغازلته بدأ يردد تعليقات معادية لليهود أو السامية كما زعمت. إذن هو اعتقد أنها مسلمة فما دخل اليهود في الأمر؟

بآية تدعو إلى السلام". كانت مثل هذه المناقشات عبارة عن سلسلة متواصلة من الردود بالمثل، بدلاً من الاستكشاف المعمق.

في اليوم التالي، اتصلت بالشيخ هاتفياً بشأن آية القردة والخنازير. فقال لي: "إنها لا تخص كل اليهود. بل تخص بعض اليهود في بلدة صيد معينة، إيلات. لقد حاولوا الصيد في يوم السبت بنشر شباكهم مسبقًا. لقد حاولوا التحايل على شريعة الله من خلال ذكائهم، وبالتالي انتهكوا السبت. أما بقية اليهود في البلدة، الذين التزموا بالسبت، فلم يصابوا بأذى!"

لو لم نكن على الهاتف، ولو لم يكن الأمر غير لائق للغاية، لكنت قد احتضنته.

وكما هي عادته، فقد وضع الكلمات في سياقها، سواء من حيث التاريخ الإسلامي أو من حيث المقاصد الأشمل للقرآن. وعندما أنهينا المكالمة، فكرت للمرة الألف في ذلك العام في كيف يمكن للناس أن يستخدموا قراءاتهم المتهورة للعثور على أي شيء تقريباً يريدونه في القرآن. وكما كانت الحال مع الكتاب المقدس والتوراة من قبله، فمن السهل أن تجد مقاطع تحريضية إذا أردت ذلك. والتحدي، كما هي الحال دائماً، هو التراجع إلى الوراء والتفكير في هذه الآيات في سياقها. ولكن مثل هذه الدراسة تظل ترفاً، بعيداً عن متناول العديد من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء.

فالكثير من المسلمين يُترَك لهم التعلم على يد شيخ غير متفقه، أو يستكشفوا العالم الافتراضي بمفردهم مع مرشدهم "الشيخ جوجل".

أما بالنسبة لقراء القرآن من المسيحيين واليهود، فإن الدراسة اللائقة لا تتطلب الوقت والجهد فحسب، بل وأيضاً الفصل الدقيق بين تفسيراتهم للنص والأحداث المعاصرة. إن السماح للتوترات الحديثة بين المسلمين واليهود في غزة، أو بين المسلمين والمسيحيين في مصر، بأن تتسرب إلى قراءة القرآن أمر سهل للغاية. لكن القيام بذلك يعني وضع الذات، بدلاً من الله، في مركز قراءة القرآن. وهذا، كما علمني الشيخ، غير مقبول البتة.

(١٣)

ما وراء السياسة

كان حس الشيخ الفكاهي يميل إلى الغموض. فبالنسبة لأي شخص اعتاد على وودي آلن وبرنامج "ليلة السبت- بث حي ومباشر"، فإن نكاته لا تُفهم كنكات. إنما هي أشبه بحكايات لطيفة عن الحماقة البشرية أكثر من كونها نكاتًا، كانت تنتهي ليس بنهايات فكاهية، بل بأقوال مأثورة. ففي اليوم الذي ناقشت فيه مع الشيخ كيف يجلب القراء المختلفون أجنداتهم الخاصة إلى النصوص التي يقرؤونها، أخبرني بهذه القصة:

"ذات يوم، ذهب ولد وأبوه إلى حديقة الحيوان. وعندما رأى الصبي الحيوانات، توسل إلى أبيه أن يحصل له على واحد منها ليأخذها إلى المنزل"

سأله الأب القلق: "ولكن كيف سنطعمها؟ أنت تعلم أنني لا أستطيع تحمل إطعام فم آخر".

أجاب الابن: "ليست هناك مشكلة مع هذه الحيوانات. انظر إلى اللافتة على السياج: "ممنوع إطعام الحيوانات"

انتظر الشيخ مني أن أفهم المغزى.

"آه!" قلت، آملة أن يكون التقدير المهذب كافيًا بدلًا من الضحك.

قال الشيخ: "أرأيتِ؟ إن الصبي لم يفهم أن اللافتة كانت تخص زوار الحديقة! ولا تخص الحيوانات!"

نعم فهمت الآن أن النكتة مبنية على الالتباس اللغوي. فهل كلمة "الإطعام" هي صفة تخص الحيوانات، أم هي تنبيه خاص للزوار ؟

لقد ذكّرتني النكتة بحالة أكثر خطورة من الغموض النحوي، وهي حالة تدور حول حرف واحد. وقد ظهرت هذه الحالة بشكل متكرر في القرآن، ويتمحور حول الحرف i في كلمة "الاسلام". فكلمة "Islam" بحرف I الكبير تشير إلى الدين نفسه، في حين أن كلمة "islam" بحرف i الصغير تشير فقط إلى "الخضوع" أو "الاستسلام" لله.

وهنا يكمن الفارق بين جماعة دينية محددة وشيء أكثر مرونة. وتشير المساحة بينهما إلى التوتر الإبداعي بين القرآن باعتباره نصاً مقدساً يؤكد على الديانات الإبراهيمية السابقة، وبين كتاب يؤسس لمجتمع مختلف عنها.

ويرى الشيخ، وغيره من العلماء، أن أغلب الإشارات إلى "الإسلام" في القرآن هي "islam" بحرف صغير. ويكتب أستاذ الدراسات الإسلامية أميد صافي في كتابه "ذكريات عن محمد": "في النظرة العالمية القرآنية، لا يُعَد "الإسلام" اسماً لتقليد ديني جديد بقدر ما هو صفة الخضوع لله بكل قلب". «في معظم القرآن الكريم فإن كلمة «الإسلام» هي فعل وليست اسماً».

وعلى نحو مماثل، تعني كلمة "مسلم" "الشخص الخاضع" أو "الشخص المستسلم". ولكن هناك فرق كبير بين المسلمين الذين يكتبون بحرف M كبير وهم المجموعة الدينية الخاصة بالمسلمين، وبين المسلمين الذين يكتبون بحرف m صغير، وهم الموحدون الذين استسلموا لله. ويعتمد الكثير على ما إذا كان المرء يقرأها باعتبارها اسم علم يصف من يكون الشخص، أو كفعل يصف ما يفعله الشخص. وعندما قرأت ترجمات إنجليزية لإعلان بن لادن للجهاد ضد القوات الأمريكية عام ١٩٩٦، وجدت أن المترجمين عبر الإنترنت يترجمون السورة التي يقتبسها في البداية كالتالي: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ".

ولكن عندما فتحت نسختي من ترجمة توماس كليري للقرآن، وجدت أن العبارة الأخيرة تُرجمت بطريقة أقل صرامة: "ولا تموتوا إلا وأنتم قد استسلمتم لله".

وعندما أشرت إلى أن الكثير من رسالة القرآن يبدو أنها تتعلق بالمسلمين الذين يكتبون بحرف صغير، أي كل شخص يستسلم لله، كان الشيخ مسرورًا: "نعم! بالضبط! مرات كثيرة في القرآن، لا تصف كلمة "مسلمين" مجموعة معينة. الكلمة مكتوبة بحرف m الصغير، لوصف أولئك الذين يستسلمون لله !".

ولكن المسلمين الذين يكتبون بحرف M الكبير هم الذين يتصدرون الأخبار حتماً، أو يظهرون في المناقشات الحكومية والمقالات شديدة اللهجة. ويغذي المسلمون الذين يكتبون بالأحرف الكبيرة أسطورة "صراع الحضارات" بادعائها أن الإسلام والغرب نظامان منفصلان تمامًا. وبالنسبة لأولئك الذين يتمسكون بمثل هذه الفكرة، فإن الاثنين متعارضان؛

وبالنسبة للمتطرفين على الجانبين، فإن "العالم الإسلامي" و"الغرب" يتجهان نحو تدمير بعضهما البعض. ولم يكن البورجوازي السويسري الذي كان قلقاً بشأن التهديد الذي قد تشكله المآذن على المناظر الطبيعية الجبلية منشغلاً بإيمان، بل بمجموعة هوية. وكذلك كان الحال مع الجهادي الذي كان يصرخ عن شرور الكفار في المسجد؛ والنائب الكونجرسي المعادي للإسلام، المصمم على حماية الأميركيين الشرفاء من الشريعة الإسلامية.

لقد ركز الصحفيون أيضًا أعلى المسلمين الذين يكتبون بحرف M كبير. أما المسلمون بحرف m صغير فليسوا قصة، لسبب بسيط: أنهم لا يثيرون الصراعات. وكما يعلم المتنمرون والدجالون، فإن إثارة مجموعة ضد أخرى تؤدي إلى نتائج سريعة ودائمة. فالصراع بمثابة هدية لا تتوقف عن العطاء، حيث ترتبط هذه المجموعات الهوياتية معًا بشكل أوثق، وتضع الأسس لمزيد من الصراعات. أتباع بن لادن والصليبيون الأمريكيون. الإسلام والغرب. بدون قصة مشوقة مليئة بالأحداث، لا يستطيع الإسلام بحرف صغير المنافسة.

رفض أكرم الجلوس والاستماع إلى الحكايات المثيرة للخلاف، ورفض أن يرويها أيضًا. لقد سمع هذه العبارات مئات المرات، أحياناً من طلابه، وأحياناً أخرى عندما صادف عنواناً رئيسياً في إحدى الصحف البريطانية.

في السنوات الأخيرة، أراد عدد قليل من الشباب شديدي الانفعال العودة إلى الوقت الذي كان فيه العالم منقسماً بين دار إسلام ودار حرب. أي شيء لا ينتمي إلى الإسلام، اعتبروه دار حرب. لكن الشيخ أشار إلى أن هذا كان ينطبق عندما كانت المجتمعات الإسلامية قوية. أما الآن، فلم يعد له معنى. كان ذلك في الوقت الذي كان فيه للمسلمين إمبراطوريات. أما الآن، فالعالم كله دار دعوة. دعوة الناس إلى الإسلام.

عندما عبّر طلاب الشيخ عن مخاوفهم بشأن التغطية الإعلامية المعادية للإسلام، أو القوانين الغربية التي شعروا بأنها تميّز ضد المسلمين، كان الشيخ يحذّرهم من الخلط بين السياسة الجماعية والتقوى.

قال أكرم خلال الندوة: "الإسلام ليس ملكية. إنه ليس هويتك. لا تعتقد أنه إذا ضحك أحد عليك، فعليك أن تبرر نفسك. نحن نهتم أكثر بالدفاع عن انتمائنا وهويتنا، أكثر من الدفاع عن النبي. لا تفكر في الهوية! فكّر في حسن الخلق!"

روائي بريطاني-هندي نشر قصة تشوه النبي محمد؟ تجاهلها. لا تصدر فتاوى ضده، أو تحرق الكتب في مراكز المدن، أو تنظّم احتجاجات. ابتعد عن هذا العالم واتجه نحو الله. صلِّ. قم بالدعوة – أي الدعوة إلى الإسلام. "إذا كتب الناس كتبًا ضد نبيك، هناك العديد من الطرق لحل المشكلة! أفضل طريقة هي أن تدعو لهؤلاء الناس. اكتب بعض الكتب بنفسك"

رسم بعض رسامي الكاريكاتير في الدنمارك صورًا قبيحة مسيئة للنبي؟ دع الأمر يمضي؛ توجه نحو الله بدلًا من ذلك. يكتب أحدهم رواية فنقوم بالاحتجاج. يرسم أحدهم كاريكاتيرًا، فنقوم بالاحتجاج، ونعتقد أننا فعلنا ما يجب علينا فعله! لكن هذا ليس صحيحًا. أين يوجد في كتاب الله أننا يجب أن نحتج؟ هل وردت فكرة الاحتجاج في القرآن أو سنة النبي؟"[٨٢].

لقد حث أكرم طلابه على النظر إلى النبي وأصحابه. فهل كانوا ليتظاهروا لو واجهوا رسمًا سخيفًا أو رواية مهينة؟ لقد حثهم قائلاً: "دعونا نفكر حقًا. بغض النظر عن مدى إساءة الناس للنبي، هل احتج؟ هل أحرق بيوتهم؟ هل أضرهم؟ لا! كان يقوم بالدعوة. عندما أراد إقناع أهل مكة ليصبحوا مسلمين، كان يذهب إلى منزل أحدهم سبعين مرة! كان يتحلى بالصبر!".

هكذا نصح أكرم مستشهدًا ببيت شعر فارسي بما معناه:

المسكُ طيبٌ وعطره قد بانْ ... يُغنيكَ عن وصفه أيُّ لسانْ[٨٣]

لا يحتاج الإسلام إلى دفاع، لكنه يحتاج إلى نشر تعاليمه. لقد قدّمت بريطانيا الكثير لمسلميها. نحن نأخذ هنا. أتينا إلى هذا البلد، وأخذنا ثرواتهم، وأخذنا تقنياتهم. وكل ما لدينا حصلنا عليه من البريطانيين. وأقل ما يمكننا فعله هو مشاركتهم في أعز ما لدينا، إيماننا. وأقل

---

[٨٢] بالطبع هذه فكرة سلبية عندما يطالب الشيخ بعدم الاحتجاج أو الاستنكار في حين أن الاحتجاج في الدول الغربية شيء طبيعي يحدث لأتفه الأسباب. فالاحتجاجات من قبل المسلمين تحفز الشباب وتقوي العزائم والهمم للكتابة والدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، أما السلبية إزاء كل شيء فهذه فكرة غريبة. وقد ورد في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم عاقب كعب بن الأشرف للتشبيب بنساء المسلمين.

[٨٣] يشير إلى بيت شعر لسعدي الشيرازي يقول: (مشک آن است که خود ببويد ... نه آنکه عطار بگويد) (المترجم)

ما يمكننا فعله هو محاولة إنقاذهم من نار جهنم. السبب في كره الناس لنا هو اعتقادهم أننا جئنا إلى هذا البلد لنأخذ فقط. لكن علينا أن نعطي"[٨٤].

لقد حذَّر الشيخ من أن الدعوة لا يمكن أن تكون عدوانية بأي حال من الأحوال. فأنت لا تسعى إلى الفوز في مناظرة، ولا تحاول زيادة أعداد الطائفة كما يفعل بعض المبشّرين المسيحيين. وبدلاً من أسلوب الاحتجاج، فضّل الشيخ أن يقضي المسلمون أوقاتهم في ممارسة "الموعظة الحسنة"، كما تترجم في بعض الترجمات. وقال أكرم: "تأملوا في النبي محمد، وكيف جسّد تعاليم القرآن، مما أبرز الجانب الإنساني للإسلام. فرغم أن القرآن قد يبدو صارمًا، إلا أن النبي قدّم رسالته في سياق الحياة الواقعية، مما ساعد في تخفيف حدته".

لقد نشأت أول جماعة مسلمة في بيئة متعددة الأديان. كانت المدينة موطنًا للمشركين، والباحثين عن الحقيقة، وثلاث قبائل يهودية بالإضافة إلى المسلمين. في السنوات الأولى من نبوته، شدد النبي على أن رسالته موجهة لليهود والمسيحيين كما هي للمشركين. وعندما وصل إلى المدينة هاربًا من مكة، كانت أولى كلماته تؤطر القوانين الأساسية لأول مجتمع مسلم: "أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".

في السنوات الأولى بالمدينة، يشير الكاتب رضا أصلان في كتابه لا إله إلا الله، إلى أن النبي محمد ركز على أن رسالته موجهة لكل أهل الكتاب، لذلك حرص على تشجيع الأفعال التي تبني التحالفات بين المسلمين والجماعات اليهودية. وفي الدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ضمن النبي محمد عدم العدوان بين المسلمين وبقية السكان، بمن فيهم اليهود والمسيحيون والمشركون. قال النبي: "من ظلم يهوديًا، أو نصرانيًا، فأنا خصمه يوم القيامة". وكان الصيام الإسلامي يُمارس في يوم الغفران اليهودي (يوم كيبور). ومثل اليهود، أُمر المسلمين بالصلاة باتجاه القدس. واختار النبي يوم الجمعة ليكون يوم الصلاة الجماعية لتجنب التضارب مع السبت اليهودي.

ومع نمو جذور المسلمين في المدينة المنورة، تزايدت الفوارق بين اليهود والمسلمين. وبدأ بعض سكان المدينة اليهود يترددون على المسجد للسخرية من المسلمين، والاستهزاء بالاختلافات بين رواية القرآن لبعض القصص ورواية التوراة. وبعد عام ونصف في المدينة

---

[٨٤] هذه فكرة خاطئة. فبريطانيا كانت تحتل الهند ونهبت كل ثرواتها وسامت أهلها الخسف والقتل. والآن هاجر الكثير من الهنود إلى بريطانيا كرعايا بريطانيين، وهم لا يقلون عن أهل البلاد الأصليين عملًا وجهداً، إذ يعملون ويكدحون ويقدمون أعز ما لديهم لخدمة الحضارة البريطانية، وما تعطيه بريطانيا لرعاياها من الهنود وغيرهم ليس منة ولا كرمًا.

المنورة، تلقى النبي الوحي الذي قضى بأن يغير المسلمون قبلتهم من القدس إلى مكة. وتشير الكاتبة كارين أرمسترونج إلى أن هذا التحول في الاتجاه إلى الكعبة كان بمثابة "علامة على هوية إسلامية جديدة واثقة ".

وفي القرون التالية، أظهرت الدول الإسلامية الأكثر نجاحًا- مثل المغول والعثمانيين وإسبانيا المسلمة- تسامحًا تجاه الديانات الأخرى. بالنسبة للشيخ أكرم، فإن حثّ طلابه على نشر رسالة الإسلام يتطلب تجاهل الانقسامات الدينية والتركيز على الإنسانية المشتركة. وأوضح أن الأمر بمثابة إدارة عمل تجاري بحنكة: "أفتح متجرًا، وأرغب في جذب كل عميل ممكن!" وقال: "وبالتالي لا أريد أن أقول للناس: لا، لا يمكنك القدوم هنا لأنك مسيحي أو يهودي أو وهابي أو بريلوي. عند العمل من أجل المال، نفكر هكذا. فلماذا لا نطبق الأمر نفسه على الدعوة؟ كن لطيفًا مع الجميع. عاملهم كأفراد، وليس بناءً على ديانتهم!"

صورة المتجر تركت صدى عميقًا في نفسي– ليس فقط لأن الشيخ نادرًا ما كان يشير إلى شيء تجاري. بل لأن السوق يعكس أحد مبادئي الشخصية: الترحيب بالتنوع والتعددية.

وقد حذر أكرم في محاضرة أخرى له في كامبريدج من أن الدعوة قد تتطلب الصفات الواسعة والمفتوحة التي يتسم بها رجال الأعمال الجيدون، ولكنها ليست مجرد خطاب مبيعات. ولا يمكن للمرء أن يخفف من حدة رسالة الإسلام. وفي معرض شرحه لهذا، استشهد برسالة محرر في مقدمة مجلة تايم. نصحت الرسالة القراء: "نحن نأخذ قراءنا بعين الاعتبار، ونختار القصص التي ستثير اهتمامهم".

قال أكرم بنبرة صارمة: "البائعون لا يهتمون بما يفيدك. إنهم فقط يريدون بيع شيء لك"

ولقد كان من المغري التركيز على "مدى جمال الإسلام، لجعل الناس يحبوننا. لكن الرسالة في حد ذاتها مكتفية بذاتها، وتمتلك حكمتها الخاصة".

ومع ذلك، يجب أن تعرف جمهورك. "افهم سياق الناس"، نصح أكرم. "الرسل دائمًا يتمتعون بصفات رائعة. لذا يساعدك أن تطور شخصيتك، ثم سيرى الناس ذلك. وسيتعرفون على النبي من خلالك. إذا كنت كريمًا، سيعرفون أن نبيك كريم".

ولقد أكد على ضرورة التواصل مع المكان الذي تجد نفسك فيه. بالطبع، ومن الصحيح بالطبع أن الناس يحبون أن يعيشوا في هذا العالم كمسافرين. مع تذكّر أن ما يهم حقًا هو ما بعد الموت. لكن هذا لا يعني أن المسلمين يجب أن يكونوا معزولين عن المجتمع الذي يعيشون فيه.

في كثير من الأحيان، يقضي المسلمون الغربيون حياتهم وهم يحلمون بالعودة "إلى ديارهم" إلى القرية البنجابية التي تركها آباؤهم منذ عقود من الزمان، أو يحلمون بالمدينة الفاضلة الإسلامية حيث تحكم الشريعة الأرض.

لا تضيع وقتك، نصح الشيخ. إذا كنت تعيش في بريطانيا، فاحتضن بريطانيا. كن مواطنًا صالحًا. ساهم في المجتمع ـ وليس المجتمع الإسلامي فقط. ساعد الحكومة البريطانية، إذا احتاجت ذلك! ادعم الاقتصاد! أعط المحتاجين ـ سواء كانوا مسيحيين أو يهودًا أو مسلمين أو هندوسًا!

كان الخطاب واثقاً من نفسه على نحو مميز. فقد حث الشيخ طلابه على الخروج والاختلاط بغير المسلمين، وتحدى المفهوم المتطرف للولاء والبراء، والذي ينص على أن المسلمين لا ينبغي لهم، إلا في حالات الضرورة القصوى، أن يصادقوا غير المسلمين.

وغالبًا ما يستشهد المسلمون، الذين يحذرون من مصادقة اليهود أو المسيحيين، بالآية الحادية والخمسين من سورة "المائدة"، التي يمكن أن تبدو كتحذير صريح بعدم الاختلاط بالموحدين الآخرين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ." يرى توماس كليري- وهو مترجمي المفضل- ، أن الآية تُحذِّر فقط من اتخاذ "اليهود والنصارى أولياء، لأنهم أولياء بعضهم لبعض".

وسواء اخترت "أولياء" أو "أصدقاء"، يبدو أن العبارة تشجع المسلمين على الابتعاد عن أصحاب الديانات الأخرى. ويحب المتعصبون المعادون – سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين– التلويح بتلك الآية، كدليل على أن "نحن" يجب أن نبقى بعيدين عن "هم". ورأيت الآية السالفة مقتبسة في موقع إلكتروني صغير معادٍ للإسلام يفاخر بأنه يقدم "الحقيقة السياسية غير الصحيحة عن دين متخبط حقًا" كما قرأت أنها استُشهد بها من قبل شيخ مسلم متشدد على الإنترنت؛ ردا على سؤال شاب حول ما إذا كان يجوز للمسلمين "لعب كرة السلة" أو "الاختلاط" مع غير المسلمين، فأصدر الفتوى رقم ٥٩٨٧٩: "لقد حرم الله على المؤمنين أن يتخذوا [الكفار] أولياء ".

وعندما سألت الشيخ عن ذلك، حذر من أن آية المائدة ليست بيانًا عامًا. بل تنطبق على مجموعة معينة من غير المسلمين في لحظة معينة في المدينة عندما تحالفت قبائل يهودية مع قريش الوثنية ضد المجتمع المسلم الناشئ. "تلك الآية نزلت في ظروف الحرب"، أوضح. "تلك الآية

تخص وقتًا كان فيه الكفار يملكون كل القوة، ومع ذلك ما زالوا يعارضون المسلمين، ويضطهدونهم، ولا يمنحونهم الحرية".

وحث الشيخ طلابه على التواصل مع الناس من أتباع الديانات الأخرى. ادعُ جيرانك من غير المسلمين إلى حفلات زفاف بناتك! (لقد فعل ذلك بالفعل، رغم أنه من حسن الحظ أن "جيراننا أناس طيبون للغاية على أي حال"). وإذا كان جيرانك مرضى، ساعدهم! قدم لهم طبقًا من السمبوسة! وقال مبتسمًا: "إن الطريقة لإدخال الناس إلى الإسلام ليست بالسيف. في بعض الأحيان، يمكن للطعام أن يفعل أكثر من السيف. ادعهم لتناول برياني لذيذ، أو كباب. كل هذه وسائل للتفاعل مع الناس والاختلاط بهم. الناس ليسوا أعداءك! إذا كان هناك حاجز بينك وبينهم، فاكسر الحاجز! إذا اكتفى الناس بشمّ رائحة البرياني الذي تطبخونه، فسيكرهونكم! ولكن إذا قدمتموه لهم، فسيحبونكم!"[٨٥].

لقد ضحكت، مثل بقية الحضور، عند رؤية صورة الداعية الذي يعتمد على البرياني. لقد كان يعرف جمهوره جيداً: فمعظمهم من أصول جنوب آسيا. وكلما استحضر حكم شاه جهان، أو تلا أبياتاً شعرية باللغة الأردية، أو روى نكتة تتعلق بهندوسي ومسلم، كان ذلك بمثابة تذكير له بأنه لم يكن مرتبطاً بالإسلام فحسب، بل بشبه القارة الهندية أيضاً. ولأن الشيخ جلب معه حبه للكناو، وولاءه لشعر الشاعر الباكستاني إقبال، وأدب العالِم التقليدي، فقد كان قادراً على الاحتفاظ بنظرة مرنة ومقبولة تجاه بلده الجديد، بريطانيا.

ولقد كتب أوليفييه روا، وهو باحث فرنسي في الحركات الإسلامية العالمية، أن الهجرة الجماعية للمسلمين غالبًا ما "فصلت" الدين عن الثقافة. يشعر أبناء القرى الذين يبحثون عن حياة أفضل في كراتشي، أو شباب كراتشي الذين يحصلون على البطاقة الخضراء الأميركية، بأنهم منفصلون عن ثقافتهم الأصلية. يلجأ بعضهم إلى شكل معولم من الإسلام لملء هذا الفراغ، والنتيجة قد تكون هوية إسلامية هشّة، منفصلة عن ماضيهم. ويشير أوليفييه إلى أن هذه السلالة المنفصلة عن الجذور والمنفصلة عن سياقها الإسلامي تعكس العملية التي أنتجتها العولمة. فبينما كان الأجداد غارقين في ثقافة إسلامية محلية، لها ذاكرتها الخاصة وطابعها التاريخي

---

[٨٥] في الحقيقة، ومن خلال تجربتي الشخصية، فإن المسلم غالبًا ما يُقبِل بحسن نية على صداقة الجميع، دون النظر إلى ديانتهم، لكنه غالبًا ما يُفاجئ بأن الآخرين هم الذين ينظرون إليه بريبة وسوء طوية، ولا يرفعون الحاجز بينهم وبينه؛ مما يجعل المسلم يبتعد عنهم ويحذرهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: (هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

وعاداتها، فإن هذا الإسلام "المنسلخ" يعمل مثل شريحة هاتف محمول: عقيدة متنقلة قابلة للاستبدال، دون جذور أو ثقافة خاصة بها.

في منتصف التسعينيات، أعلن العديد من المسلمين الأميركيين أنهم سعداء بالتخلي عن العادات المحلية التي استوردها آباؤهم عندما هاجروا إلى أميركا. وارتدوا قمصاناً في مؤتمرات الشباب تحمل الآية القرآنية التي تعلن القوة في التنوع:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

وعندما التقيت بهؤلاء الشباب الأميركيين، أكدوا لي مراراً وتكراراً أنهم لن يعودوا مقيدين بالإسلام الضيق المحلي الذي جلبه آباؤهم من باكستان أو سوريا. وسوف يكون إسلامهم نقياً، دينياً بحتاً، وليس مختلطاً بالعادات والتقاليد. وقد قال أحد القادة المسلمين في إحدى كليات الساحل الشرقي بحماس: "إنها بداية جديدة، أفق جديدة! وبوسعنا أن نتخلص من كل الأعباء الثقافية التي حُمِّلناها من الشرق الأوسط وأن نخلق شيئاً جديداً، بعيداً عن الاضطرابات والفوضى في العالم الإسلامي".

أتذكر أنني تساءلت، بحسرة، عن هذا الحماس للشباب الأميركي لنسيان الماضي. وما إذا كان هؤلاء رواد العالم الجديد يريدون حقاً أن ينزعوا الثقافة التي احتمى بها أسلافهم. وما إذا كان الإسلام، المنزوع الثقافة، قادراً على الاستمرار والبقاء. وتساءلت أيضاً كم من الوقت سيمضي قبل أن يبنوا ثقافات وتقاليد جديدة خاصة بهم. لقد كان هؤلاء الشباب الأميركيون، بحديثهم عن البدايات الجديدة والأصول النقية، من بين أحدث المهاجرين الذين اعتنقوا الحلم الموصوف في الصفحة الأخيرة من رواية "غاتسبي العظيم"[٨٦].

وفي كلمات هؤلاء المهاجرين المسلمين الجدد- الذين كانوا يتطلعون إلى إيمان نقي، خالٍ من الطغاة، والحروب، والقمع- سمعت أصداء وصف "فيتزجيرالد" لاكتشاف الأوروبيين

[٨٦] رواية "غاتسبي العظيم" (The Great Gatsby) للكاتب الأمريكي فيتزجيرالد، نشرت لأول مرة عام ١٩٢٥. وتدور أحداثها في عشرينيات القرن الماضي خلال عصر الجاز في الولايات المتحدة. وتُعتبر الرواية رمزًا لتحولات المجتمع الأمريكي في تلك الحقبة. (المترجم)

لأميركا، عندما رأوا لأول مرة "ثديًا أخضر ونقياً للعالم الجديد"، والأمل الزائل في أن يظل نقياً وأخضر وجديدًا.

* * *

نكتة أخرى من الشيخ عن "جحا" الشخصية المصرية التقليدية الفكاهية. في أحد الأيام، تجول عند ضفة النهر حيث وجد مجموعة من الناس ينتظرون على الضفة الأخرى بترقب.

ناداهم جحا قائلاً:

"ماذا تنتظرون؟"

أجابه الجميع بصوت واحد:

"قاربًا، للعبور إلى الضفة الأخرى!"

رد جحا بصوت عالٍ:

"ولكن لماذا تفعلون ذلك؟ أنتم على الضفة الأخرى بالفعل!"

قال الشيخ إن المسلمين في كثير من الأحيان يتصرفون مثل جحا. فنحن لا ننظر إلى المشاكل أبدًا من وجهة نظر الآخرين، بل من وجهنا نظرنا".

قلتُ ممازحة: "ظننتُ أن هذا ما كنتم أنتم المسلمين تقولون دائمًا أنها مشكلة أمريكية، وهي "عدم القدرة على رؤية الأمور من وجهة نظر الآخرين".

"لا، حقًا! مثلما أسمع المسلمين يتذمرون من سبب دعم أمريكا لإسرائيل دائماً. فهم يعتقدون أن ذلك لا يتسق مع دعمهم للديمقراطية وحقوق الإنسان. لكنه يتسق مع ذلك، لأنهم يدعمون ما يصب في مصلحتهم. إذا نظرت إلى الأمر بهذه الطريقة، فهو متسق للغاية!"

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أكرم يذكر النزاع الإسرائيلي الفلسطيني. لقد كان شيئًا كنت أفترض دائمًا أنه قضية جوهرية للمسلمين. لكنه ليس كذلك بالنسبة لأكرم. فقد ترك هذه الصراعات التي تدور في الشرق الأوسط لجماعة المسلمين الذين يكتبون" بالحروف

الكبيرة"، وكذلك فعل مع الصراعات الدائرة في كشمير وسوريا وأفغانستان. بالنسبة لأكرم، كان القتال على قطعة من الأرض أقل أهمية بكثير من تحديد الجحيم أو الجنة. وكان السعي من أجل المسلمين في البرلمان أمرًا جيدًا، إذا كان المرء يخوض مثل هذا النوع من الأشياء، طالما أنه لا يضحي بالتقوى. فالمكاسب السياسية عابرة، لكن الحياة الآخرة باقية. بالنسبة لأكرم، لا تكمن المكافآت الحقيقية للمسلمين داخل حدود فلسطين قبل عام ١٩٦٧، ولا في أي دولة إسلامية. في الواقع، لا توجد في أي مكان على هذا الكوكب، ولكن في الفضاء اللانهائي الذي منحه الله للنفس الواحدة[٨٧].

[٨٧] من الملاحظ أن الصراع العربي الاسرائيلي خاصة، وصراعات الشرق الأوسط عامة، لا تأخذ اهتمامها الكافي لدي مسلمي دول آسيا، وخصوصًا مسلمي الهند، ربما بسبب البعد الجغرافي، أو ربما بسبب التركيبة الفكرية لسكان هذه البلاد. لذلك من الهند خرج غاندي رائد الكفاح السلمي، وكذلك من الهند خرجت جماعة التبليغ والدعوة التي تدعو إلى تطبيق الاسلام في حياة المسلم دون النظر إلى السياسية. ومن الهند خرجت جماعة ميرزا غلام أحمد التي تسقط الجهاد ضد المحتل. هكذا نجد الجغرافية الفكرية تأثرت بالجغرافية الكونية (المترجم).

(١٤)

فرعون وامرأته

سألت شابة الشيخ: "لكن ماذا عن الكفاح ضد الحكام الظالمين"؟ كانت منى في السادسة والعشرين من عمرها، لكنها بدت بطريقة ما أكبر سنًا. كان وجهها وقوراً، وكانت ترتدي حجابها الكاكي بإحكام. وهي طالبة دكتوراه في علم الأعصاب في جامعة كامبريدج، تميل إلى طرح الأسئلة التي تتوقف على التصنيفات اللاهوتية أو النقاط الدقيقة في قواعد اللغة العربية- وهي أسئلة طالب درس تحليل النظم. لكن سؤال اليوم بدا أكثر إلحاحًا. كيف؟ أصرت منى، كيف يجب أن يتصرف المرء عندما يواجه الطغيان؟

"حسنا! أحيانًا تُسلب مساحة العبادة من الناس"، وافق الشيخ على ذلك، لكنه أضاف: "لكن عندما يحدث ذلك، لا يزال يتعين على الناس أن يستمروا في العمل بقدر ما يستطيعون" وذكرهم بالنبي يوسف، في بيت تلك المرأة، وفي السجن. فالتقوى، كما قال، تمكن الإنسان من عبادة الله من أي مكان.

هذا ما قاله الشيخ من قاعة دراسية هادئة في كامبريدج. لكن في وقت سابق من ذلك الصيف، كانت شوارع القاهرة- مسقط رأس منى- تغصُّ بالمصريين الغاضبين، ثم تناثرت الجثث في الطرقات في وقت لاحق. قالت منى: كان ذلك أسوأ يوم في حياتي. ففي ذلك الصيف، أطاح الجيش المصري بأول رئيس منتخب ديمقراطياً في البلاد، محمد مرسي، عضو جماعة الإخوان المسلمين.

كان خالد، شقيق منى المحبوب، مستشارًا كبيرًا لمرسي، حيث عمل سكرتيرًا للشئون الخارجية. وبعد أسابيع قليلة من نصيحة الشيخ لمنى بالتفكير في النبي يوسف في السجن، اعتقل الجيش خالد، مع مستشارين رئاسيين آخرين ومرسي نفسه. ولأسابيع، لم تكن منى وعائلتها يعرفون مكان خالد. وعلى الرغم من أنها كانت على بعد ستة أشهر فقط من إكمال درجة الدكتوراه، إلا أنها قررت تأجيل دراستها في كامبريدج. وانهمكت في العمل كمتحدثة باسم جماعة الإخوان المسلمين في المملكة المتحدة، وراحت تضغط من أجل إطلاق سراح أخيها. في ذلك الوقت، وصف المعلقون الغربيون تصرفات الجيش بأنها "تدخل"، لكن منى

ظهرت على شاشة التلفزيون البريطاني ووصفت عزل مرسي بأنه "انقلاب عسكري". وقالت لاحقًا إن القيام بذلك يعني أنها لن تتمكن من العودة إلى مصر إلى أجل غير مسمى.

لقد كانت منى على استعداد لتقديم مثل هذه التضحية. يعود شعورها بالظلم إلى أكثر من عقد من الزمان. فعندما كانت مراهقة، نشأت في "حياة خاصة" في مدارس القاهرة الدولية الخاصة، ومتاجرها الفاخرة. كانت معزولة عن نضالات المصريين العاديين. لكن الامتيازات لم تستطع حجب التفاوتات الواسعة والفساد المستشري الذي رأته في مصر حسني مبارك. كما لم تستطع هذه الامتيازات حماية أسرتها من تدخل أجهزة أمن الدولة.

أخبرتني منى أن والدها، كان مدير مدرسة خاصة، وقد تعرض لمضايقات من الشرطة عندما رفض تعليق الصورة الإجبارية لمبارك. حتى أنه اضطر إلى دفع رسوم للمخبرين الحكوميين المعينين في المدرسة. قالت: كان الأمر أشبه برواية " الأخ الأكبر "[٨٨].

من بين أشقائها الخمسة، كانت هي وخالد الأقرب، حيث كانا يستيقظان قبل صلاة الفجر في شهر رمضان لقراءة سورة "التوبة"- وهي السورة المفضلة لديهما، والتي قالت إن موضوعها "النصر". انضم خالد إلى جماعة الإخوان المسلمين وتبعته منى وهي لا تزال في سن المراهقة، وقررت أن جماعة الإخوان المسلمين هي المعارضة الجادة الوحيدة في مصر لحكم مبارك. صعد الأشقاء بسرعة: كانت منى متحدثة موهوبة، وخالد منظم كفء.

كانت منى تعتقد أن نشاطها في عهد مبارك أعاق مسيرتها المهنية. تخرجت في المرتبة الأولى على دفعتها الجامعية لكنها رأت وظيفة التدريس التي أرادتها تذهب إلى شخص آخر. وعندما فازت بثلاث منح دراسية في كامبريدج، قال مسؤولون حكوميون إنهم سيسمحون لها بالرحيل، لكنهم ذكروها بأنهم يستطيعون إيقافها في أي وقت، إذا اختاروا ذلك. "كما لو كانوا يقدمون لي خدمة"، سخرت.

لقد أمضت منى الربيع العربي في إنجلترا، حيث سارت تضامناً مع احتجاجات ميدان التحرير. ورغم شعورها بالنشوة لأن مصر اهتزت من السبات السياسي الذي عاشته طوال

[٨٨] رواية الأخ الأكبر ١٩٨٤، هي رواية شهيرة كتبها المؤلف البريطاني جورج أورويل ونُشرت عام ١٩٤٩. تصور الرواية عالمًا مستقبليًا يعيش فيه الناس تحت نظام شمولي قمعي يقوده حزب واحد يرأسه "الأخ الأكبر" (Big Brother). وتحذر الرواية من مخاطر الديكتاتورية والرقابة، وتناقش كيفية استغلال الأنظمة الشمولية للغة والتكنولوجيا للتحكم في المجتمعات.(المترجم).

حياتها، كانت الأخبار من الوطن مفجعة. فقد اعتدت الشرطة على عمها وابن عمها وأطلقت الغاز المسيل للدموع على أعز أصدقائها. وكادت رصاصة أن تصيب شقيقها. وعندما سقط مبارك، ابتهجت منى، على أمل أن تحصل البلاد أخيراً على الديمقراطية والعدالة. وعندما فازت جماعة الإخوان المسلمين في الانتخابات، اعتقدت منى أن حزبها سوف يجلب للمصريين الخبز والتمثيل[٨٩].

وبعد مرور عام، كانت تشاهد الجيش وأنصار الإخوان المسلمين وهم يتقاتلون في شوارع مصر. وإذا كان الربيع العربي في مصر قد ولد بآمال الديمقراطية، فإنه الآن قد انحرف مرة أخرى إلى الدكتاتورية. ومع مرور الأشهر، سمعت مقتطفات من الأخبار عن شقيقها. وعلمت أنه في الحبس الانفرادي، وكانت زوجته تبذل قصارى جهدها لتزويده ببطانية في زنزانته.

وعندما سألت منى عمَّا دفعها إلى الانخراط في العمل السياسي في المقام الأول، أخبرتني أن ما دفعها إلى ذلك هو الظلم الذي رأته خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية في عام ٢٠٠٠. فقد اندلعت مظاهرات واسعة النطاق من قبل الفلسطينيين في جميع أنحاء البلاد، مما أدى إلى سقوط ضحايا في اشتباكات مع الجيش الإسرائيلي. كانت في الرابعة عشرة من عمرها فقط في ذلك الوقت، عندما شاهدت اللقطات الشهيرة للطفل البالغ من العمر اثني عشر عامًا في شوارع غزة، محمد الدرة، وهو يرتعد ويحتضن والده بينما كانا يبحثان عن مأوى من نيران العدو. صدمتها الصورة، وقررت تكريس نفسها لمحاربة الظلم، بدءًا بمعالجة الفقر والفساد اللذين رأتهما في وطنها مصر. وقالت: "الإسلام يدور حول العدالة. أريد أن أكون مسلمة صالحة، لذا أريد أن أوقف الظلم في العالم".

مثل منى، لطالما تعلمت أن "العدالة" هي الفضيلة الأساسية في الإسلام، وتحتل نفس المكانة التي تحتلها "المحبة" في المسيحية. لقد بُعث الأنبياء لتحقيق العدالة للناس من خلال رسالاتهم. ونصحوا متعددي الزوجات بالعدل مع زوجاتهم، ونصحوا التجار بعقد صفقات عادلة في السوق. ورُوي عن النبي محمد أنه قال: "الإمام العادل" سيكون "أحب الناس إلى الله"، بينما سيكون "أبغضهم إلى الله" هو الطاغية المستبد. وبينما يركز الصوفيون المسلمون على الحب، إلا أن العدالة هي التي تسري في كتابات المصلحين المسلمين في القرن العشرين، وغالبًا ما تتشابك مع صرخات التحرر من الطغاة المحليين، والأجانب المستعمرين. وقد دعا آية الله

[٨٩] تقصد بالتمثيل representation التمثيل السياسي، أي أن المواطنين سيحظون بمن يمثلهم ويعبر عن مصالحهم في الحكومة.

الخميني إلى العدالة ومقاومة طغيان الشاه في إيران؛ وكتبت النسويات المسلمات عن إيجاد العدالة بين الجنسين في القرآن. فالعدالة هي الصرخة من أجل كشمير وفلسطين، وفي العرائض المتعلقة بالعراق و غوانتانامو من أجل المعتقلين.

اتصلت بالشيخ لسؤاله عن العدالة. فقلت له: "إنها الركيزة الأساسية في الإسلام، أليس كذلك؟".

توقف للحظة. ثم قال: "هناك عدالة، في نهاية المطاف، لكن ليس بالضرورة أن تتحقق في هذه الحياة الدنيا. سيحققها الله في الآخرة. وفي الأوساط السياسية الإسلامية، يمكن أن يكون هناك الكثير من المبالغة في ذلك، وهذا يضر بالمسلمين. وقال "فكروا في فلسطين". "ليس لدينا شك في أن هناك ظلمًا وقع على الفلسطينيين من قبل اليهود. لكن على المرء أن يفكر حقًا في مساعدة مجتمع ضعيف جدًا. والسبيل لمساعدتهم ليس بالسعي لتحقيق العدالة".

قلت: " لا ؟"

قال:" إذا أصرَّيتِ على العدالة، فإن المجتمع الضعيف سيصبح أكثر ضعفًا، لأن أصحاب السلطة لن يمنحوها لهم. بل سيكرهونهم أكثر ".

سألته: "ولكن ماذا يمكن للمسلمين أن يفعلوا دون السعي لتحقيق العدالة ؟" .

أجاب الشيخ: "الحل الوسط. هذا سيجلب السلام، والذي بدوره يمنح المجتمع المتضرر الوقت والمساحة للتعافي". وأضاف: "الناس الضعفاء، إذا لم يعترفوا بأنهم ضعفاء، فسيؤدي ذلك إلى تدميرهم أكثر فأكثر. بعض الناس يقولون: "عندما نصنع السلام، نقبل بالظلم". أنا أقول: "عندما نصنع السلام، نشتري الوقت". وذكّرني أن القرآن يقول: "والصلح خير".

وأضاف: إن النضال من أجل العدالة لا يجلب السلام أبدًا، "انظر إلى الناس في فلسطين وكشمير. إنهم يحتاجون إلى المساحة والوقت للقيام بشيء ما، وبناء شيء ما. إنهم بحاجة إلى الحصول على التعليم. وإذا استمروا في النضال من أجل العدالة، فسوف يخسرون المزيد، ولن يحصلوا حتى على ذلك"[٩٠].

---

[٩٠] في الحقيقة هذا رأي غريب لم تأخذ به أمة من الأمم على مدار التاريخ، وهو ينافي سنة الله في الكون، بل ينافي القرآن الكريم الذي يقول: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

إن ما يبدو للوهلة الأولى ضعفاً قد يتبين في النهاية أنه قوة. واشار إلى معاهدة الحديبية على سبيل المثال، فقد وقعت هذه المعاهدة في عام ٦٢٨، عندما كان النبي، الذي كان يقيم آنذاك مع أتباعه في المدينة المنورة، لا يزال في حرب مع قريش في مكة. وعلى الرغم من أن قريش الحاكمة كانت لا تزال تسيطر على الكعبة، أعلن محمد أنه سيذهب إلى مكة لأداء العمرة. وقرر ١٤٠٠ من أتباعه مرافقته، حتى عندما قال إنه لن يحمل السلاح. وكان قراراً شجاعاً، إذ كانت قريش تحاول قتل النبي منذ ست سنوات. لكن على بعد أميال قليلة من المدينة، عند موقع يُسمى الحديبية، توقفت ناقة النبي عن السير ورفضت النهوض.

جلس النبي وأتباعه في الصحراء ينتظرون أن ترسل قريش مبعوثًا للتفاوض على دخولهم إلى مكة. وفي النهاية، أرسلوا مبعوثًا، لكنه قدم عرضًا رأى كثير من أصحاب أن النبي، صلى الله عليه وسلم، يجب أن يرفضه.

في ظاهر الأمر، بدت الشروط مهينة للغاية: كان على النبي أن يعود إلى المدينة دون أداء العمرة، وكان عليه أن ينتظر لمدة عام قبل العودة. لكن هذا يعني أيضًا أنه ستكون هناك معاهدة سلام بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات- بشرط أن يعيد محمد إلى قريش أي مكي يهاجر إليه دون إذنهم. ومع ذلك، لم ينطبق هذا الشرط على قريش؛ إذ كان بإمكانهم أن يحتفظوا بأي مسلم انضم إليهم.

وعلى الرغم من الشروط غير المتكافئة، وافق النبي على وقف إطلاق النار[٩١].

عندما فعل ذلك، اقترب منه عمر بن الخطاب، الذي سيصبح الخليفة لاحقًا، وقال:

"ألست نبيًا؟" فأجاب النبي: "بلى".

"ألسنا على الطريق الحق؟ أليسوا على الطريق الباطل؟" رد النبي بهدوء: "بلى".

شعر عمر بالذهول مما اعتبره تنازلًا لقريش. ولإظهار أن المسلمين قد قبلوا المعاهدة، طلب النبي من أصحابه أن يذبحوا جمالهم ويحلقوا رؤوسهم. كانت هاتان الخطوتان رمزًا للاعتراف بأنهم لم يعودوا في حالة الإحرام المطلوبة للمُعتمر، وبالتالي فقد تخلوا عن نيتهم لدخول مكة.

[٩١] قول المؤلفة "وقف إطلاق النار" في حين لم يكن هناك أسلحة نارية أو رصاص في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم. إنما الأسلحة المستخدمة آنذاك كانت السيوف، والرماح، والسهام، وأحيانًا الحجارة أو المقاليع- هذا تعبير مجازي يشير إلى اتفاق وقف الأعمال العدائية، وليس إطلاق النار بالمعنى الحرفي.

ومع ذلك، لم يتحرك أي منهم للنحر أو الحلق. فطلب منهم النبي مرة أخرى- ثلاث مرات. بيد أنهم استمروا في التحديق فيه مذهولين حائرين.

دخل النبي إلى خيمة زوجته أم سلمة. فأشارت إلى أن المسلمين كانوا محبطين. قالت له: "اخرج ولا تقل شيئًا. اذبح أضحيتك واحلق رأسك". أخذ النبي بنصيحتها، وسرعان ما تبعه الصحابة، وهم يحلقون رؤوس بعضهم البعض بحماسة كبيرة حتى خافت أم سلمة من وقوع حوادث خطيرة أثناء الحلاقة.

في العام التالي، عاد المسلمون لأداء الحج كما نصت المعاهدة. وأثار سلوك الحجاج الهادئ أثناء أداء المناسك إعجاب المكيين العاديين، الذين قرروا التوقف عن دعم الحرب ضد من اعتبروهم متطرفين دينيين. وبعد عام، دخل النبي محمد وصحابته مكة، حيث استسلمت المدينة دون قتال.

ولكي يحشد النبي محمد قوته، كان عليه أن يظهر شيئاً مما قد يبدو وكأنه ضعف، كما أوضح الشيخ. وقال أكرم: "يصف القرآن صلح الحديبية بالنصر. هذا، رغم أنه لم يكن في صالح النبي، إلا أنه كسب الوقت. وتمكن من التواصل مع العرب الآخرين. وقد منحه السلام فرصة كبيرة".

وقال إن الزعماء المسلمين اليوم نادراً ما يتمتعون بالقوة والمرونة الكافية للتوصل إلى تسوية. وأضاف: "إذا نجح الفلسطينيون في تحقيق السلام، فسوف يتمكنون من إعادة البناء. وسوف يتمكن أطفالهم من الحصول على التعليم. لكن كل هذا الوقت، وكل هذه المعارك، وكل هذا وذاك. ماذا كانت النتيجة؟ لقد قُتل العديد من الشباب".

* * *

"إذن، هل هو متطرف؟" كان يسألني غير المسلمين كثيرًا عندما أخبرهم عن الشيخ.

"على الإطلاق"، هكذا كنت أجيبهم، بافتراض أننا جميعًا نتحدث بلغة مشفرة بعد ١١ سبتمبر.

لقد كنت أقصد ذلك. فهو ليس متطرفًا. أو بالأحرى، ليس من النوع المتطرف الذي ينتمون هم إليه.

إن تطرفه من نوع آخر تماماً. فهو رجل متطرف هادئ، يدعو المسلمين إلى الابتعاد عن السياسة وترك الأطر الفكرية التي روج لها الإسلاميون في القرون الأخيرة. لقد أدت دعوة أكرم إلى إسلام غير سياسي إلى تحرير جيل من المسلمين تربّوا على أعمال أبو الأعلى المودودي وسيد قطب وأسلافهما في القرن التاسع عشر. لقد كان هؤلاء الأيديولوجيون يهدفون إلى جعل الإسلام ذا صلة بالصراعات الاجتماعية والسياسية التي يواجهها المسلمون في التعامل مع الحداثة. وقد ساعدت أعمالهم في إلهام الثورات والانقلابات والدساتير. ولكن في حين ربط هؤلاء المفكرون بين الإيمان والعمل السياسي، كان الشيخ يعتقد أن السياسة شيء تافه. لقد كان مدفوعاً بيقين مفاده أننا مجرد عابرين في هذه الأرض، وأن المساعي الدنيوية للحصول على الأرض أو السلطة يفوِّت الهدف الذي يسعى الإسلام إلى تحقيقه. وبالمقارنة بالرجال الذين يقاتلون من أجل الأهداف الدنيوية، كان أكرم أكثر صرامة: "ابتعدوا عن السعي للدول القومية أو المقاعد البرلمانية ووجهوا أنظاركم نحو الله. فالله لا يريد من الناس أن يشتكوا لبعضهم البعض. إنما يجب أن يشتكوا إلى الله، وليس إلى أي شخص آخر".

كل هذا الوقت الذي يقضيه الناس في التذمر والتنظيم والاحتجاج؟ ألا يمكن قضاءه في الصلاة ؟ الحكومات الظالمة تريد أن تدير العالم؟ دعها تفعل ذلك. فهي لا تفعل ذلك على أية حال. فالله هو الذي يدير العالم. وعلاوة على ذلك فإن المؤمنين الحقيقيين يجب أن يشغلهم العالم الآخر. هل يفرض عليك السعوديون ارتداء الحجاب؟ ارتده. هل لا تسمح لك الحكومة الفرنسية بارتدائه في المدرسة؟ ارتده في المنزل. يجب احترام قوانين البلاد، طالما أنها لا تتدخل في قدرتك على العبادة. وفي نهاية المطاف، لا ينبغي لك أن تطيع النظام السعودي، أو الحكومة الفرنسية، أو حتى رغبتك الخاصة، بل أن تطيع الله: "أنت عبد لله. أنت مملوك له"[٩٢].

مع الحرب المشتعلة في سوريا وتبعات الربيع العربي التي تهز مصر، كان التعبير عن مثل هذا الهدوء يتطلب شجاعة. شعر العديد من العلماء بأنه لا خيار لديهم سوى تشديد مواقفهم في خطب الجمعة، محرضين على الكراهية ضد الغرب أو داعين إلى التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية. ولكن كان هذا النوع من الخطاب هو ما يطلبه العديد من الشباب المسلمين في هذه الأيام، كما أشار الشيخ بحسرة.

---

[٩٢] فعلاً هذا الكلام مستفز ومتناقض، كيف يقول الشيخ: يجب أن تطيع الله. أنت عبد لله. أنت مملوك له". ثم يأمرك بإطاعة الحكومة الفرنسية فيما يخالف أمر الله، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)؟

لا يعني هذا أنه كان يدعو إلى اللامبالاة السياسية المطلقة، أو يطلب من الناس الامتناع عن السياسة تماماً. ففي الهند، عندما كان المسلمون يسألونه عمن يصوتون له، كان يرد عليهم بأن يختاروا الحزب الذي يعتقدون أنه قادر على تنمية البلاد. فما كان مفيداً للهند كان مفيداً للمسلمين أيضاً؛ فالتصويت للأحزاب التي تسعى إلى كسب أصوات المسلمين لن يؤدي إلا إلى تأجيج التوترات الطائفية.

المشكلة الكبرى مع الإسلاميين، قال أكرم، هي ميلهم إلى جعل الإسلام يدور حول النضال السياسي أكثر من التقوى. ويضيف أن مفكرين بارزين في القرن العشرين مثل قطب في مصر والمودودي في باكستان قد نقلوا السياسة إلى صدارة الأجندة الإسلامية. فالسياسة جزء من الإسلام، ولكن الإسلام ليس جزءا من السياسة. فكما جعلت الماركسية المال محوراً لكل شيء، جعل المودودي وقطب السياسة محوراً للإسلام. لا أحد ينكر أهمية المال، ولكن المال ليس محور كل شيء. وعلى نحو مماثل، تشكل السياسة جزءاً صغيراً من الإسلام ".

هكذا، من خلال تلسكوب التقوى المقلوب الخاص بأكرم، بدت السياسة الإسلامية ضئيلة ومضطربة. كل هذا الحديث الحماسي عن تطبيق الشريعة، والمنشورات التي تدعو إلى عودة الخلافة، ودُمى القادة المحترقة، واللافتات التي تحمل شعارات مكتوبة بالإنجليزية لتظهر على شاشة البي بي سي، كل ذلك لم يكن سوى سياسة اعتيادية لا أكثر.

* * *

في يوم محاضرة للشيخ بعنوان "الشريعة والخلافة والجهاد"، كان قسم الرجال من القاعة ممتلئاً بالجمهور. فقد امتلأت قاعة المحاضرات في كلية "كوين ماري" بجامعة لندن بالعديد من الشباب، لدرجة أن بعضهم انتقل إلى قسم النساء. وانتشرت شائعات بأن الجمهور كان مكتظاً بأعضاء من "حزب التحرير" المتشددين، والمتحمسين لتحدي الشيخ بسبب هدوئه السياسي. (نفت الجماعة هذه الشائعات لاحقًا). وكان الشيخ مستعدًا للتعامل مع أي شاب متحمس بأدب وأسلوب راقٍ. وعند تحليله للحركات الإسلامية، أشار إلى بيت شعر بالأردية فحواه:

تحمَّلوني إذا أسأْتُ وحاوِلوا .. فكم دواءٍ بدا من السمِّ نافعُ

وقال الشيخ محذرًا: "أحيانًا يتم العلاج بالعقاقير الطبية، وأحيانًا بالسمِّ. لذا، سيأتي بعض السمِّ إن شاء الله، فلا تقلقوا".

أثارت كلماته ضحكًا عاصفًا، حتى بين الشباب الذين كانوا يجلسون في الخلف بملابسهم الجلدية، وشعورهم المصففة، وأرجلهم المتباعدة. وبملابسه البسيطة– قميص وردي فاتح، وسويتر رمادي– سكب الشيخ "سُمَّه" بلطف. وقد أكد في محاضرته بأنَّ جعل السلطة السياسية هدفًا يعني السير على خطى الملوك والنخب الذين كانوا أعداء للنبي، وليس على خطى النبي نفسه. ولقد كان السعي إلى تطبيق الشريعة ضربًا من العبث؛ لأن فرض الشريعة ينقص تقوى الناس ولا يزيده. وأكد أن الشريعة المفروضة من الدولة "تجعلك مجرد حيوان مطيع للقانون"[٩٣] التقوى الحقيقية تأتي من الإيمان العميق داخل القلب. فإذا كان إيمانك عميقًا في قلبك، فلا يمكن للدولة أو أي قوى أن تنزعه منك. لكن إذا فرضت الدولة الإسلام، فإن "النفاق سوف يأتي".

وعلى مدار اليوم، بدا أن الجمهور أصبح أكثر استرخاءً. وبحلول وقت الشاي، لاحظت تراجعًا واضحًا في التوتر الذي كان مهيمنًا في البداية. واتضح أن حدسي كان صحيحًا. ففي نهاية اليوم، اقترب عدة رجال من أكرم واعترفوا بصوت منخفض بأنَّ الندوة كانت مثيرة للتفكير. وقالوا: "في الصباح، كنا نفكر بشكل مختلف تمامًا، لكن بشرحكَ المنطقي، غيّرنا رأينا".

وتمكن طلاب آخرون من مقاومة التأثير الإقناعي للشيخ. ففي إحدى المحاضرات، وقف طالب غاضبًا يندد بالحاجة إلى تطبيق الشريعة. فرد عليه الشيخ بحدة: "علينا أن ننسى أمر الشريعة" ونركز على العبادة الصحيحة. ولاحقًا، اشتكى الرجل لمنظمي الندوة من أن الشيخ "مؤيد للحكومة" أكثر مما ينبغي. وفي مناسبة أخرى، عندما قال الشيخ إن الطاقة التي تُبذل في الاحتجاج ضد الحكومة البريطانية سيكون من الأفضل توجيهها إلى الصلاة، رفعت شابة يدها ووصفته بصوت جهوري بأنه "انهزامي!".

---

[٩٣] هنا يبدو التناقض واضحًا في أفكار الشيخ إذ قال سابقًا: إن المواطن الصالح يجب عليه طاعة قانون الدولة التي يحيا فيها، الأمر الذي يجعله موطنًا صالحًا. أما هنا فيصرح بأنه إذا كان قانون دولة هو فرض الشريعة الإسلامية، فإن طاعة هذا القانون تجعلك مجرد حيوان مطيع للقانون!

ولم يكن يبدو أن الشيخ يعبأ بالانتقادات. ففي إحدى رحلاته إلى الهند، توقف الشيخ في ندوة العلماء وألقى خطابًا عن الإسلام والغرب. ثم قال لي بابتسامة: "لا أعتقد أنهم أحبوا ذلك كثيرًا".

سألته: "كيف عرفت ذلك؟"

قال: "شعرت بذلك في الجمهور. أعتقد أنهم أرادوني أن أنتقد أمريكا والسعودية".

" وماذا قلت؟"

" لقد قلت لهم، عندما تنتقدون الغرب، فإنكم تفترضون أنه مجرد قوة عسكرية، لذا فإنكم تريدون محاولة هزيمته عسكرياً. لكن الغرب ليس قوة عسكرية فحسب. إنه أفكار وثقافة وتاريخ. كلها موجود هناك. ثم أضاف: "لقد كان من الحماقة، في هذا العصر، محاولة عزل عالم إسلامي نقي، غير متأثر برياح الثقافة العالمية. تلك فكرة غير واقعية في هذا العصر".

تنهد وقال "لو كان لدي المزيد من الوقت هناك، لبدأتُ في أن أريهم طريقة تفكيري".

رغم ذلك، كان هناك من فهم رسالته. فقد كتب له أحد الطلاب في ندوة العلماء يشكره على "رؤيته المتسامحة والواسعة" وقال إنه "تعب من الاستماع إلى الآراء الضيقة للعلماء عن الغرب، خاصة عن اليهود والأمريكيين". وبالنسبة له، كان الشيخ بمثابة "نسمة هواء منعشة في جو ضيق الأفق".

أحيانًا، حتى أنا وجدت نفسي أتوق لأن يربط أكرم القرآن وسنة النبي بالأحداث الدنيوية بشكل أكثر إحكامًا. أعترف بذلك: أنا إنسانة دنيوية، ولذا أردت منه أن يُظهر كيف تُطبق تعاليمه في العالم الواقعي، وليس فقط في المساحة غير المرئية لأرواح الناس. كنت أجد نفسي متحمسة في الندوات عندما يطرح أحدهم سؤالًا سياسيًا. وقمت بطباعة إعلان لمحاضرة للشيخ، وكان عنوان الإعلان: "رابطة الدفاع الإنجليزية في مكة". أشار الوصف إلى أوجه التشابه بين اضطهاد النبي من قِبل قريش في مكة، وبين صعود "رابطة الدفاع الإنجليزية"[٩٤]، التي تعادي المسلمين في بريطانيا. ورابطة الدفاع هذه، حزب يميني يتسم بالعداء للإسلام. لكن في المحاضرة نفسها، بالكاد تطرق الشيخ إليها؛ معللاً ذلك بقوله: "إنها لا تستحق

[٩٤] رابطة الدفاع الإنجليزية (EDL) هي جماعة يمينية متطرفة، تأسست في إنجلترا عام ٢٠٠٩. وتركز هذه الجماعة على معارضة الإسلام والهجرة إلى المملكة المتحدة، وغالبًا ما تستخدم خطابات معادية للإسلام. يُعرف عن أعضاء الرابطة تنظيمهم احتجاجات ومظاهرات ضد ما يصفونه تأثيرات الإسلام في المجتمع البريطاني. (المترجم)

التفكير. وأنصح المسلم الصالح بألا يشتت انتباهه ويركز على مثل هذه الأمور". كان تركيزه على قوى الله، وليس على المناوشات الأرضية.

لقد افتقرت نظرة الشيخ، الذي نشأ في ظل الحريات النسبية في الهند وبريطانيا، إلى الإلحاح الذي كان لدى منى، المصرية المولد. فبينما كان الشيخ يعتقد أنه من السابق لأوانه أن يغامر المسلمون في خوض المعترك السياسي، اختلفت منى وزملاؤها من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين معه في ذلك. قالت منى لي: "من واجبنا الوقوف ضد ما هو خطأ. ليس كافيًا أن تستنكره بقلبك". كان من السهل الحفاظ على نقاء النفس في أكسفورد الهادئة والمزدهرة، بينما كان الأمر مختلفًا تمامًا في العيش تحت نظام دكتاتوري: "في مصر، لا يمكنك أن تكون شخصًا صالحًا، لأنهم في مصر لا يتركونك تكون كذلك"، كما قالت. "أفهم معنى قولهم إن السياسة بيئة فاسدة. لكن إذا تركنا السياسة للفاسدين فقط، فسنظل نرى السياسيين الفاسدين طوال الوقت".

نشأ الشيخ، ابن جنوب آسيا، في فترة ما بعد التقسيم، عندما كانت ذكريات نضال المنطقة من أجل تقرير المصير، والآمال الكبيرة في إقامة مدينة فاضلة خاصة بالمسلمين، لا تزال حية؟ وبعد كل الدماء التي أريقت، من أجل وطن خاص بهم، كان كل ما جلبوه للمسلمين هو باكستان!. وفي الفترة التي سبقت استقلال جنوب آسيا، كان هناك الكثير من الكتابات ضد البريطانيين، وكيف أرادوا أن يكون لهم دولة خاصة، واحدة للهندوس وأخرى للمسلمين. ولكن إذا كانت المشكلة الحقيقية هي البريطانيين، فلماذا يريد الهندوس والمسلمون القدوم إلى بريطانيا؟ إن أطفال هؤلاء الناس الذين قاتلوا من أجل الاستقلال عن البريطانيين، كلهم يأتون إلى هنا! كلهم يأتون للعيش في بريطانيا!".

إن هذه الصراعات من أجل توسيع مساحتك ـ إلى بلد مثل باكستان، أو حلم مثل الخلافة الإسلامية ـ كل ذلك صرف للمسلمين عن هدفهم الحقيقي: وهو تحقيق التقوى. هل تتذكرون يوسف، وهو يعمل في بيت سيده، رافضاً إغراءات زوجة سيده؟ لقد ظل متديناً قدر الإمكان في مساحته الخاصة، في عقله وقلبه. فنحن المسلمون نهتم بالمساحة الأوسع، أما مساحتنا الشخصية، فلا أحد يتحكم بها سوانا. فإذا كنت أحب الله في قلبي، فلا قوة على وجه الأرض يمكنها أن تمنعني. وإذا لم يستخدم المسلمون هذه المساحة ـ مساحة القلب ـ بشكل صحيح، فليس لديهم الحق في التطلع إلى مساحة أوسع".

لقد نشأتْ "منى" في المعادي، نفس الضاحية التي عاشت فيها عائلتي أثناء إقامتها في القاهرة، بعدما غادرنا كابول على عجل عام ١٩٧٨، حيث كان من الواضح، بعد الانقلاب، أن الحكومة الماركسية الجديدة، ليست بحاجة إلى خدمات أستاذ قانون أمريكي. وتولى والدي وظيفة تدريس في جامعة القاهرة، وانتقلنا إلى المعادي، التي وفرت لنا نسخة هادئة لحياة الضواحي الغربية في الشرق، بفللها الأنيقة، ومقاهيها على ضفاف النيل، ومدارسها الدولية. كنت في الثانية عشرة عندما عشنا هناك، منتشية بحريتي في الضواحي، التي توفرها الدراجة الهوائية والشوارع الهادئة. كنت أركب الدراجة إلى المحلات التجارية على طريق ٩ لزيارة مطعم "كنتاكي فرايد تشيكن"، أو إلقاء نظرة على موضة السراويل الواسعة، في البوتيكات المحلية. والتحقت بمدرسة أمريكية، تضم فرقة تشجيع وحمام سباحة. وفي حفلة الديسكو بالمدرسة، كانت تتردد ألحان أغنية دونا سمر "آخر رقصة" في الليل العابق برائحة الياسمين.

كانت حياتي في حي المعادي تدور في وَهْم تافه. ففي ظل سياسة "الانفتاح" التي اتبعها أنور السادات، والتي كانت تشجع الاستثمار من الغرب ودول الخليج، كانت بقية مصر تعاني من ضغوط اجتماعية واقتصادية. وفي العام السابق لوصولنا، أصيبت البلاد بصدمة بسبب انتفاضة الخبز، التي اندلعت عندما ارتفعت أسعار المواد الغذائية بعدما ألغى السادات الدعم على الزيت والدقيق. ومما أثار انزعاج المسلمين المتدينين، أنه قلل من أهمية هوية مصر الإسلامية لصالح ماضي البلاد الفرعوني، مروجًا لكنوز الملك توت في الولايات المتحدة بهدف السياحة وتوثيق العلاقات مع واشنطن.

كان أحد ردود الفعل على استهلاكية مصر في عهد السادات هو التدين الإسلامي. فقد لجأ العديد من المصريين من الطبقة المتوسطة إلى دينهم، أحيانًا كاحتضان روحي، وأحيانًا كوسيلة للتكيف مع التغيرات السريعة للحداثة، وأحيانًا كلاهما. وكانت أغلب أشكال النشاط الديني أشبه بأنشطة منى: محاولات سلمية لتغيير المجتمع، من خلال العمل الخيري، أو الضغط من أجل إدخال تغييرات قانونية. ولكن بالنسبة لأقلية ضئيلة، فإن هذا الإحياء الإسلامي يعني أكثر من مجرد الاحتجاج السلمي. وعلى الجانب الآخر من خطوط السكك الحديدية من حي المعادي حيث دروس ركوب الخيل وصالات الديسكو في ليالي الجمعة، كانت هناك معادي مختلفة تماماً، في الحي البلدي أو "القديم". هناك كانت تقع عيادة أيمن الظواهري: الطبيب الشاب اللامع، والناشط في الجماعة الإسلامية، والزعيم المستقبلي لتنظيم القاعدة.

كان من السهل للغاية، كأميركية في قاهرة أنور السادات، أن أتخيل نفسي أملك هذا المكان. فقد أقامت مدرستي الأميركية حفل تخرج طلابها أمام الأهرامات، وألقت سيدة مصر الأولى، جيهان السادات، كلمة الافتتاح. وكانت مصر على وشك أن تصبح ثاني أكبر متلقٍ للمساعدات الأميركية، مكافأة للسادات على توقيعه اتفاقيات كامب ديفيد للسلام مع مناحم بيغن.

أتذكر الحشود الكبيرة بالقرب من النيل، بينما كنت أنا وأخي نحاول رؤية موكب السيارات الذي يحمل الرئيسين اللذين كان الأمريكيون يصفونهما بصانعي السلام: جيمي كارتر وأنور السادات. وكتبت والدتي في رسالة إلى الوطن: "كارتر يبدو مرهقًا. وقد ركب هو والسادات وزوجتاهما في سيارة مكشوفة في جميع أنحاء القاهرة. أمر مخيف حقًا وغير ضروري، وكل ما يحتاجونه هو شخص واحد من منظمة التحرير الفلسطينية هناك". وطبقاً للتقاليد العريقة للديكتاتوريين العرب، كان السادات في كل مكان؛ فكان رأسه الأصلع ووقفته العسكرية الصارمة يلوح لنا من لوحات الإعلانات والصور المعلقة في كل مقهى. حتى أنه كان يحدق بي في غرفة نومي. وكنت قد اشتريت ملصقاً رخيصاً من البازار يَظهر فيه رأس السادات محاطاً بحمائم تحمل أغصان الزيتون في مناقيرها. وصمد الملصق أكثر من الرئيس نفسه، وبقي على جداري في سانت لويس حتى بعد وفاته.

وجاءت الوفاة عام ١٩٨١، في مؤامرة دبرتها مجموعة منشقة عن الجماعة الإسلامية. عندما أطلق شاب متطرف يدعى خالد الإسلامبولي- وهو عضو في مجموعة صغيرة تدعى الجهاد الإسلامي- النار على الرئيس السادات، أثناء استعراضه للقوات في عرض عسكري. وصرخ قائلاً: "لقد قتلت الفرعون" .

بالنسبة للإسلاميين المصريين، كان الفرعون رمزًا قويًا للقمع، مستمدًا من تاريخ البلاد نفسه، ومن القصة القرآنية للفرعون الذي اضطهد موسى وشعبه. كما تم استغلال صورة الفرعون أيضًا في الثورة الإيرانية، حيث كانت الملصقات تصور الشاه كطاغية قرآني– والخميني كموسى.

في العام الذي قرأت فيه أنا وأكرم القرآن الكريم، غصَّتْ الشوارع المصرية بالحشود، لتتأهب مرة أخرى لمواجهة زعيم مصري يُطلق عليه لقب الفرعون. ورفع المحتجون لافتات تظهر وجه رئيس مصري محاطًا بخطوط زرقاء وذهبية تشبه تاج الملك توت عنخ آمون. ولا

يهم من هو الرئيس: فالحكم في مصر يعني أن شخصًا ما سيطلق عليك في النهاية لقب فرعون، سواء أكنت إسلاميًا أم علمانيًا أم قوميًا.

لم يكن أكرم مهتمًا كثيرًا بالرمزية السياسية للفرعون، أو بالنضال ضده من أجل العدالة: بل كان اهتمامه بقصة زوجة فرعون في القرآن؛ إذْ تجاهل، مراراً وتكراراً، الحديث عن فرعون، واستشهد بزوجته. زوجة فرعون، التي وصفها القرآن بأنها "مثلاً للذين آمنوا"، لقد اختارت الإيمان بالله بدلاً عن أصنام زوجها وسحرته. وناجتْ ربها قائلة: "رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".

" لقد كانت تمتلك كل شيء"، قال أكرم متعجبًا. "البيت، والمجوهرات، والخدم، والسلطة. لكنها نأَتْ بنفسها عن كل ذلك، وابتعدت عن زوجها، وخضعت لربها".

إن الانقسام، بين أولئك الذين ركزوا على قمع فرعون، وبين أولئك الذين تجاهلوه- مثل أكرم- يعبر عن انقسام أساسي بين المفكرين المسلمين المعاصرين، مفاده: هل ينبغي استخدام الإسلام كأداة سياسية، أو مجرد إرشاد أخلاقي؟ لقد جادل المسلمون الإصلاحيون من جميع التوجهات، من الجهاديين إلى النسويات، أن الإيمان، أو على الأقل رموزه، يجب أن يُستخدم للتغيير السياسي. أما علماء السنة التقليديون، مثل أكرم، فقد رأوا دورهم كأوصياء أخلاقيين يقدمون النصح للحكام بلطف دون أن يمارسوا الحكم بأنفسهم.

لقد فكرت في الفرعون وزوجته، اللذين بدا أنهما يجسدان بشكل مثالي تلك الشخصيات التي نقرأ عنها في الشرق الأوسط: رجال أقوياء يسيطرون بقبضة حديدية على الحياة العامة، ونساء متدينات ينغلقن على أنفسهن داخل بيوتهن أو عائلاتهن أو إيمانهن. كانت هذه هي النماذج هي التي تظهر، بشكل عفوي، في كل مقال كتبته للمجلات الأميركية، وتظهر كذلك في السرد الغربي للعالم الإسلامي. بوجه عام، كانت القصة السائدة للبلدان الإسلامية تُروى إلينا من قِبل رجال أقوياء، سواء كانوا ملالي دينيين، أو مستبدين علمانيين مثل الشاه أو صدام حسين. وغالبًا ما كان هؤلاء الفراعنة المعاصرين يحجبون رؤيتنا للمجتمع بأسره، ويحجبون عنا أناساً ربما لا يشترون الأسلحة بكميات كبيرة، ولا يحضرون القمم في العواصم الغربية.

لقد عارض الشيخ أي تطرف، بل وشكك في أي نظام، غربي أو إسلامي، يدعي الشمولية. لقد كان المفكرون الإسلاميون أمثال سيد قطب وأبو الأعلى المودودي، الذين أرادوا

للإسلام أن يقدم الإجابة على كل شيء تقريباً في المجتمع الحديث، مضلَّلين[٩٥]. ومن وجهة نظر الشيخ، كانت المفارقة العظيمة هي أن هؤلاء المدافعين العظماء عن الإسلام كانوا في الواقع غربيين أكثر من المسلمين التقليديين. كان سيد قطب، بحديثه عن "الأنظمة" ودعوته إلى "طليعة" لإنشاء دولة إسلامية، يبدو أحيانًا وكأنه ثوري غربي من القرن العشرين. ويشير الباحث في الحركات الإسلامية ماليس روثفن إلى أن مفهوم قطب "للطليعة" هو مفهوم أوروبي مستورد، تعود جذوره إلى اليعاقبة، وتطور عبر البلاشفة والمزيد من الثوريين الماركسيين مثل جماعة بادر ماينهوف[٩٦].

لقد عبر أكرم عن الأمر ببساطة: إن الشباب الذين نظروا إلى الإسلام باعتباره الحل لكل شيء من القوانين الجنائية إلى الممارسات المصرفية كانوا يريدون ببساطة دولة غربية بنكهة إسلامية. إن "أسلمة" كل شيء نبعت من حسد عميق لقوة الغرب وتفوقه الجيوسياسي. وقال: "كل ما يريدونه هو ما يملكه الغرب "[٩٧].

* * *

في عام ١٩٤٨، أبحر سيد قطب، الأب الروحي للتطرف الحديث، على متن سفينة بخارية من موطنه مصر إلى ميناء نيويورك. وعلى متن السفينة، عرضت عليه امرأة "جميلة، طويلة القامة، شبه عارية" ممارسة الجنس في مقصورته، وهو اللقاء الذي وصفه قطب بأنه اختبار كبير لأخلاقه الإسلامية[٩٨]. وفي أمريكا، ساءت الأمور. فقد شبه نيويورك بـ"ورشة عمل ضخمة"، حيث كانت حركة المرور "تندفع وكأنها يوم القيامة". وكان يشاهد سكانًا بعيون "مليئة

---

[٩٥] عبارة "were misguided" تعني أنهم كانوا مضلَّلِين، أي أن أفكارهم أو توجهاتهم كانت مبنية على فهم خاطئ أو سوء تقدير، وليس أنهم كانوا يقومون بتضليل الآخرين عمدًا.

[٩٦] (جماعة بادر ماينهوف)، تُعرف رسميًا باسم جماعة الجيش الأحمر، وهي منظمة يسارية متطرفة ظهرت في ألمانيا الغربية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين. لكن سيد قطب تم إعدامه عام ١٩٦٦، قبل ظهور هذه الجماعة. إذن هذا الاستنتاج غير صحيح.

[٩٧] هذا استنتاج غريب من الشيخ، إذ يعتبر دوافع المسلمين لكراهية الغرب تنبع من الحسد لما هم فيه من التقدم والنعيم، ولا تنبع مما يمارسه هذا الغرب من ظلم وقهر ونفاق في حق المسلمين. بل أقول إن ما يمارسه الشيخ من الاساءة إلى المفكرين الاسلاميين هو الذي ينبع من الحسد لما أصبح عليه هؤلاء المفكرين من الشهرة وذيوع السيط في العالم أجمع.

[٩٨] الشيخ لم يكمل القصة، وكأنه يومئ من طرف خفي بأن سيد قطب مارس الجنس مع هذه المرأة، ولكن ما تم، حسب رواية سيد قطب نفسه، أن هذه المرأة كانت مخمورة، ولم يسمح لها بدخول مقصورته حيث دفعها وأغلق الباب في وجهها. وللمزيد عن حياة سيد قطب وما واجهه في أمريكا، وسائر مراحل حياته من الميلاد حتى الاعدام أرجو من الشيخ أن يراجع روايتي المنشورة بعنوان: (حياة سيد قطب).

بالجشع والرغبة والشهوة". ولقد كانت إقامته في أمريكا، وما وجده فيها من عنصرية وفراغ روحي وانحلال روحي، بمثابة وقود لنقده للغرب، وهو النقد الذي سيستمر في إلهام الراديكاليين، من قتلة السادات إلى أيمن الظواهري زعيم تنظيم القاعدة.

وقف أكرم أيضًا على حافة مانهاتن يطل على ميناء نيويورك. في عام ٢٠٠٦، عندما دُعي للتحدث من قبل الجمعية الإسلامية في جامعة نيويورك، وأقام بالقرب من موقع مركز التجارة العالمي. ومن نافذة فندقه، شاهد الحشود وهي تتدفق من العبّارات، ونظر إلى ذلك التمثال الشهير لامرأة مكشوفة الذراعين تحمل شعلة. وعندما زار موقع مركز التجارة، رأى حفرة في الشارع محاطة برجال الشرطة والأعلام. لقد أحدث الرجال الذين طاروا بطائراتهم إلى برجي التجارة العالمي دماراً هائلاً في أميركا، ولكن أيضاً في العالم الإسلامي. وبينما كان ينظر، فكر في منفذي الهجمات، والسياسيين الأمريكيين الذين واجهوهم بالحرب على الإرهاب. كلاهما كان مهووسًا بالتهديدات الخارجية، وكانا أشبه ببرجي مركز التجارة في تماثلهما. ألقى الجهاديون باللوم على الغرب في أزمات العالم الإسلامي، بينما بالغت الصقور الأمريكية في التهديد الذي يمثله الجهاديون. لم يكن أي من الطرفين مستعدًا للنظر في ما كان يعانيه مجتمعه بالفعل، كما رأى أكرم. ففي حالة المسلمين، كان السبب هو انحرافهم الخاطئ عن التقوى الحقيقية إلى سياسات الهوية. أما في أمريكا، فقد كان السبب هو الانحدار الأخلاقي والرغبة الجامحة في "الأكل، والشرب، والمال، والجنس، وكل هذا وذاك"، على حدِّ تعبيره.

ولقد لاحظ أكرم أن العديد من الأميركيين أساءوا فهم معنى تمثال السيدة التي تحمل الشعلة في الميناء. وقال لي في وقت لاحق: "إن هذه الحرية التي يتحدث عنها الناس، والتي تسمح لهم بشراء ما يحلو لهم، وارتداء ما يحلو لهم، وشرب ما يحلو لهم، وما إلى ذلك، ليست في صالح الناس. إنَّ الحرية الحقيقية تعني التحرر من الرغبة، وتعني حرية التفكير. وإذا كان عقلك يتبع رغباتك فحسب، أي كيف تكسب المزيد من المال، وكيف تأكل أكثر، وكيف تشرب أكثر، وكيف تمتلك المزيد من الأشياء؛ فإن هذا أسوأ من العبودية".

وأضاف أن الأميركيين لم يكونوا على هذا النحو دوماً. ففي البداية، عندما كان الأميركي يحصل على حريته، وعندما أراد بناء أمته، كان على استعداد لتقديم التضحيات. ولكن الآن أصبح الكثير من الناس عبيداً للرغبة، وهذا ليس في صالحهم. إن مثل هذه الأشياء أكثر احتمالاً

لجلب الموت إلى أميركا من أي تنظيم للقاعدة، أو أي تدمير للأبراج. وإذا كان الناس يمتلكون الأفكار الصحيحة، فلن يتمكنوا من تدمير الأمة ".

* * *

قال ذات يوم، ونحن جالسون في مطعم "أوكسفورد كباب هاوس": "أي شخص يمكنه جعل أي شيء شاملًا. المودودي أراد ذلك. لكنه جاء في وقت فقد فيه المسلمون السلطة. الشباب يريدون شيئًا مثل القوة من خلال الإسلام، لأنهم عندما يسمعون الغربيين يتحدثون عن القوة، يشعرون بالنقص".

انحنى إلى الأمام وكأنه على وشك أن يبوح لي بِسرٍّ: "هل تعرفين ما الهدف الحقيقي لهذه الحركات الإسلامية الإصلاحية؟"

سألت مبتسمة: "ما هو؟"

"إنهم يستهدفون المسلمين المتعلمين في الغرب، لإقناعهم بأن الإسلام قادر أيضاً على تقديم ما يقدمه الغرب. إنهم يقولون لهم: "أوه، هل يسخرون منكم؟ حسناً، لديكم القدرة على السخرية منهم كذلك"[٩٩].

لكن الإسلام ليس هكذا.

وأضاف: "إن الحركات الإسلامية تظن أنها تستطيع أن تحصل على الجزاء في هذا العالم"، تنهد. "إذا كانت الدولة والسلطة مهمتين إلى هذا الحد، فلماذا كان الأنبياء مهمين إلى هذا الحد؟ تسعة وتسعون في المائة منهم لم تكن لديهم أي سلطة. لم يكن لإبراهيم دولة. ولم يكن للمسيح دولة!".

أما بالنسبة للمسلمين السياسيين، الذين يتحدثون عن المدينة المنورة باعتبارها الدولة الإسلامية الأولى، وعن "دستور المدينة" باعتباره الأساس المثالي للسياسة المعاصرة؟ فقد كان هذا في نظره مضللاً. فلم يكن النبي راغباً في مغادرة مكة في المقام الأول: بل كان مجبراً على المغادرة، لأنه لم يكن قادراً على ممارسة عقيدته هناك. وعندما وصل إلى ما سيصبح المدينة المنورة، كان يبحث عن حرية العبادة الدينية، وليس عن السلطة. لقد فُرِضت عليه السلطة

[٩٩] للأسف لقد أبعد الشيخ النجعة، وجانبه الصواب، وأخطأ الوجهة.

فرضًا. ويشرح الشيخ: "لم يكن راغباً بشكل خاص في إدارة دولة. ولكن عندما وصل إلى المدينة، كان عليه أن ينظمها على نحو لائق".

ويزعم أحد المواقع الإلكترونية أن دستور المدينة المنورة "أول دستور مكتوب في تاريخ البشرية" ويزعم أنه وضع "الأساس العملي للديمقراطية". وأشار إلى أن مثل هذه المقارنات تشير إلى انعدام الأمن العميق. وقال وهو يهز رأسه: "لقد تأثر العديد من المسلمين بالأفكار الغربية عن الدولة، وهم يريدون أن يجدوا ذلك في تاريخهم. إنهم يريدون أن يظهروا أن ما تفعلونه الآن أيها الغربيون، قد فعلناه قبلكم!".

إن الحسد المكشوف لقوة الغرب، ولثرواته الدنيوية، كان مصدر الكثير من المشروع الإسلامي، بما في ذلك موضة "أسلمة" كل شيء من الحروب إلى الانتخابات. وغالبًا ما يقع القادة الإسلاميون في هذا الفخ، حيث كانت أحاديث السياسة والحرب تملأ مساجدهم أكثر مما تملأها التأملات الروحية. قال لي: "تعرفي، كارلا، هناك واعظ سعودي مشهور جدًا. كان يقول للناس اذهبوا للجهاد في سوريا. وهو نفسه يجلس في لندن! حقًا، هذا هراء. إذا كان الجهاد حقيقيًا، فيجب أن يذهب هو أيضًا!".

وأضاف: "لديه أبناء أيضًا! وعندما سُئل لماذا لا يرسل أبناءه، قال إنهم يقومون بشيء أكثر أهمية. حسنًا، أبناء الآخرين يقومون بأشياء مهمة أيضًا!"

وأشار الشيخ إلى أن النبي محمد لم يطلب من أصحابه يومًا أن يفعلوا ما لم يكن يفعله هو نفسه في أمور الحرب.

وضع الشيخ يده على وجهه، وقد بدا عليه التعب. ثم تنهد قائلا: " كل هذا من أجل الخلافة والشريعة والجهاد... اتركوا القوة في هذا العالم للأمريكيين! في نهاية المطاف، العالم لا يحكمه الأمريكيون، بل يحكمه الله ".

ضحكنا، وضرب بيده على فخذه، لكنه لم يكن يمزح. قال: "تعرفي، كارلا، إذا توقف المسلمون ولم يفعلوا أي شيء، سيكون للإسلام جاذبية أكبر. سيدخل المزيد من الناس في الإسلام".

ثم قال بجدية: " حقًا! يمكنك اقتباس هذا عني! سيكون من الأفضل لو أننا لم نفعل شيئًا. كل هذا القتال، الجهاد، الشريعة... سيكون من الأفضل لو توقف المسلمون عن كل شيء. لا تعملوا. لا تصلوا. لا تفعلوا شيئًا. إذا لم تفعلوا شيئًا، سيكون الأمر أفضل!"[١٠٠].

قهقهت من الضحك!

وختم الشيخ كلامه قائلاً: "كل نضال سياسي حديث تحت لواء الإسلام، كان مصيره الفشل. البرامج السياسية الإسلامية كانت سلبية بشكل كبير، أكثر تركيزًا على الحصول على السلطة من الحكم بمهنية وفعالية. فعندما يصلون إلى السلطة، غالبًا ما تكون إدارتهم كارثية. قال: "إنهم مثل شخص يقول: 'أنا طباخ جيد جدًا. ثم يطهو لك، ولكن النتيجة..." ورفع يديه إلى السماء وعبس. "انظري إلى الإخوان المسلمين. هل مصر أفضل الآن مما كانت عليه قبل الثورة؟" في تلك اللحظة، كانت تبدو أسوأ بكثير.

هز كتفيه وقال: "لو لم يفعلوا شيئًا، لكان ذلك أفضل".

* * *

بعد بضعة أشهر من مقابلتي الأولى معها، تحدثت مع "منى" عبر سكايب من مقهى في كامبريدج. كانت قد فقدت بعض الوزن، وبدا عليها الهدوء والحيوية، وشحنت ببعض القوة الجديدة. في الليلة التي تحدثنا فيها، كان قد مرَّ ١٩٥ يومًا على اعتقال شقيقها. بعد بضعة أشهر من اعتقاله، اقتحمت الشرطة شقة والديها في القاهرة عند الفجر. "قاموا بتخريب المكان"، واعتقلوا والدها أيضًا. ثم جمدوا حسابات الأسرة البنكية. ورغم هذه المحن، كانت منى متقبلة، بل شاكرة. رأت أن هذه الأحداث كانت "فرصة من الله لأتعلم المزيد عن نفسي. أتعلم ما أنا قادرة عليه". ومع القليل من المال الآن، وعدم وجود طريقة للعودة إلى وطنها، تعلمت منى كيف تكون معتمدة بالكامل على الله. وفي كامبريدج، كانت تحاول إنهاء الدكتوراه، وقد أعطاها الله القوة لتحمل ذلك. قالت لي: "المرساة ليست الأسرة، وليست المال، وليست المكان. بل الله".

ورغم ذلك، كانت هناك لحظات، كما رأيت، بدا فيها أن منى تزعزعت قناعتها، ووجدتْ صعوبة في تقبل دعوة الشيخ بالتحمل الهادئ للمعاناة. فقالت له ذات مرة: "وماذا عليّ أن

[١٠٠] واضح أن الشيخ في هذه اللحظة كان يمر بحالة اكتئاب شديد، أو واقعًا تحت تأثير مزاج نفسي رديء.

أفعل؟ هل أقف مكتوفة الأيدي وأترك أخي يُعدم؟" ابتسم الشيخ بلطف وقال: إن الحياة اختبار. فلا ينبغي أن يحلّ العمل السياسي محل العمل الحقيقي للمسلم، والذي هو تحقيق التقوى. وبدلاً من التحريض على التغيير، يجب على الإنسان أن يكون هادئًا وحازمًا أثناء مواجهته. لأن صعود وسقوط الرؤساء والقوى العالمية أمر محتوم، لكن الإيمان يظل أطول عمرًا من الجميع.

(١٥)

قصص الحرب

إن كل حرب لها بدايات لا حصر لها. وكذلك لها مئات اللحظات التي تدفع نحو الرصاصة الأولى، وإزهاق النفس الأولى. بالنسبة للعديد من الأميركيين، بدأت الصراعات الحديثة بين الإسلام والغرب في يوم من أيام سبتمبر، عندما انهالت الأهوال من سماء زرقاء فوق مانهاتن. وقد يُرجِع مقاتلي تنظيم القاعدة بداية الحرب إلى عام ١٩٩١، بعدما تدفقت القوات الأميركية إلى الأراضي السعودية عقب غزو صدام حسين للكويت. وقد يشير رجل دين إيراني إلى عام ١٩٥٣، بعد إطاحة انقلاب، مدعوم من وكالة الاستخبارات الأميركية، برئيس الوزراء المنتخب ديمقراطياً وتنصيب الشاه بدلاً منه. في حين قد يُرجِع جهادي باكستاني أصول الصراع إلى عام ١٩٤٧، إلى ذلك الصيف المشئوم الذي قُسمت فيه الهند وباكستان، كما لو كانت وليمة يوم الأحد. وقد يشير آخرون إلى عام ١٩٣٣، عندما منحت السعودية امتيازاً لشركة نفط أمريكية في كاليفورنيا. وكما هي الحال دائماً مع التاريخ، هناك عشرات البدايات للاختيار منها، تمد إلى الوراء لتصل إلى عام ١٦٠٠ عندما منحت الملكة إليزابيث الأولى ميثاقًا ملكيًا لشركة الهند الشرقية.

لكن بالنسبة لي، فقد بدأ الصراع الجيو- سياسي الأعظم في القرن الحادي والعشرين في أحد أيام السبت من عام ١٩٧٨، بعد بضع ساعات من التدريب في دوري البيسبول الصغير. فقد كنت آنذاك أعصر عينيّ بشدة، وأرفع قفازي، وأمسك أول كرة طائرة بمحض الصدفة من السماء الزرقاء الصافية. وبينما كنا نغادر ملعب نيومان، غارقين في أجواء الانتصار الأمريكي، انعطفنا مباشرة إلى قافلة دبابات كانت جنازيرها الكاكية تمضغ الطريق المؤدي إلى القصر الرئاسي.

كنت في الحادية عشرة، ولم أتعلم بعد كيف أبقي مخاوفي غير معلنة. فسألت:

"ماما. هل هذا انقلاب؟"

منذ وصولنا إلى أفغانستان، كنت أسمع عن الانقلابات، التي بدت وكأنها الوسيلة القياسية لتغيير الحكومات في المنطقة. فقبل شهر من وصولنا، حدث انقلاب أسفل ممر خيبر في

باكستان، عندما قام الجنرال ضياء الحق بالاستيلاء على السلطة من سلفه ذو الفقار علي بوتو. وقبل أربع سنوات من ذلك، شهدتْ كابول انقلابًا آخر، عندما استولى الرئيس "داوود" على السلطة من ابن عمه الملك زاهد. لقد كان "انقلابًا أبيض"، سلميًا، دون إراقة دماء، كما أكدَّ لي والداي. لكن منذ وصولنا إلى كابول، كنت أخشى الانقلابات، خاصة "الحمراء" منها.

قالت أمي بصوت مائل إلى اليقين: "انقلاب؟ لا، لا، إنه استعراض عسكري. ربما يستعدون لاجتماع دول عدم الانحياز هنا الشهر المقبل". نظرت من نافذة السيارة. كان الجندي في الدبابة خلفنا يشهر مسدسه ويوجهه نحو السماء، وكان لديه شعور قوي بهدف يسعى نحوه، لا يرتبط عادة بالاستعراضات العسكرية.

في تلك الظهيرة، داخل مجمع أصدقائنا، لعبنا لعبة المطاردة في الحديقة حتى جاءت مكالمة من السفارة واستدعانا الكبار إلى الداخل. اقترحت والدتي بابتسامة: "لنلعب في الداخل هذا المساء!". شقت طائرة مقاتلة السماء، تاركة خدشًا أبيض في اللون الأزرق الساطع. وابتعدنا عن النوافذ واستلقينا في الردهة الخلفية الخالية من النوافذ.

وحاول والدي أن يرفع معنوياتنا، متقمصًا، بلهجة إنجليزية ثقيلة، مذيعًا في هيئة الإذاعة البريطانية أثناء الغارات الجوية على لندن. ومن ناحية القصر، على بعد أقل من ميل، سمعنا أصوات طقطقة عالية، مثل صوت مضارب البيسبول على الكرات. في تلك الليلة، وسط هذه الضوضاء، قُتل الرئيس داوود وتسعة عشر فردًا من عائلته. وبحلول الساعة الثامنة مساءً، أعلنت الإذاعة سحق المقاومة، وإعلان الجمهورية الشعبية الجديدة.

عندما استيقظنا في الصباح التالي، كانت السماء هادئة وادعة، بنفس الزرقة البريئة التي كانت عليها منذ الصباح السابق. عدنا إلى المنزل لنجد أن حارسنا "مير علي" كان يجوب فناء منزلنا طوال الليل، جيئة وذهابًا، بينما كانت سماء كابول تكتسي باللون الأحمر بسبب انفجارات القذائف الروسية الصنع. وقد كان سلاحه الوحيد، الفأس التي يستخدمها لقطع الأخشاب، ومضرب البيسبول البلاستيكي الذي يلعب به أخي.

لقد كانت هناك إشارات تدل على انقلاب وشيك، لكننا لم ننتبه إليها. فقبل ليلتين من دخول الدبابات إلى كابول، استضاف المركز الأمريكي في كابول ليلة صداقة سوفيتية-أمريكية. وسواء أكانت الشائعات صحيحة أم لا، بخصوص تواجد رئيس وكالة الاستخبارات الأميركية في المدرجات، يشاهد مباراتنا أثناء اجتياح الدبابات لكابول، فمن الواضح أن

الانقلاب فاجأ الجميع تقريبًا، أفغانَ وأجانب على حد سواء. وفي غضون أيام، أوضحت الحكومة الجديدة أيديولوجيتها الماركسية. وكانت الدبابات المتوقفة عند التقاطعات مزينة بالورود الورقية "لا شك بناءً على وصفة من كتيب ثوري ما"، كما كتب والدي. وكانت الإذاعة تبث تقارير عن فرحة الشعب بإسقاط نظام داود الإقطاعي، وتشهِّر بأعداء الثورة المجيدة بوصفهم "عملاء أجانب".

وعلى الجانب الآخر من الشارع أمام منزلنا، سارع رسام البورتريه إلى استبدال لوحة الرئيس داود من على نافذته بصورة لنور محمد تراقي، رئيس المجلس الثوري الجديد في أفغانستان. وتحدث النظام عن جهود جديدة قوية لمساعدة النساء والعمال. واستقبل والداي هذه الوعود بتفاؤل حذر. وقالت والدتي: "ربما يكون القليل من الاشتراكية هو بالضبط ما تحتاجه أفغانستان".

وبعد ثلاثة وعشرين عاماً، وفي الأسابيع التي أعقبت سقوط برجي التجارة العالميين، وبينما كانت الولايات المتحدة تستعد لإمطار أفغانستان بالصواريخ، كنت كثيراً ما أفكر في ذلك الربيع. فقد بدأ الانقلاب الذي أطاح بالرئيس داود في عام ١٩٧٨ في نسج التاريخين الأميركي والأفغاني معاً، أولاً في رزمة فضفاضة من "المساعدات" للمجاهدين الذين يقاتلون السوفييت، وفي وقت لاحق في عقدة ضيقة ومعقدة من الصراع المباشر. والأحداث التي تلت هذا الانقلاب الأول، والتي ستؤدي في النهاية إلى هجمات ١١ سبتمبر والحروب التي تلتها، تناولتها كتب أخرى. لكن بالنسبة لي، عندما أنظر إلى الوراء من القرن الحادي والعشرين، فإن الانقلاب كان بمثابة نهاية العالم الإسلامي، الذي عاش فيه والدي، وبداية عالمي الخاص. ومع الغزو الروسي لأفغانستان والثورة الإيرانية في العام التالي، لم يعد من الممكن تجاهل الإسلام واعتباره ديناً خاصاً بالعجائز أو شيوخ القرى. فبالنسبة لجيلي، أصبح الإسلام محركاً للتمرد ضد الأنظمة السياسية القديمة، وقتال القوى الغربية التي كانت تدعمها.

بعد عشرين عامًا من انقلاب ١٩٧٨، وجدت نفسي أجلس في منزل عقيد من الجيش الباكستاني، أستمع كيف جعلته حرب أفغانستان قائدًا جهادياً ماهرًا. كان رجلاً قصيرًا يرتدي سترة مزخرفة، وينتعل حذاء بدون كعب، وكانت لحيته الرمادية مقلمة بعناية، ويعيش في منزل أبيض كبير في ضاحية لاهور المفضلة لدى النخبة العسكرية. وفي ردهته ذات السقف العالي، عُلّقت صور مؤطرة له، وهو يصافح رجالًا آخرين مزينين بالعديد من الأوسمة. وبحلول

الوقت الذي أجريتُ فيه المقابلة، لمجلة "نيوزويك" عام ١٩٩٨، كان المقدم إحسان الحق قد تقاعد من الجيش الباكستاني، لكنه لم يتقاعد من الحرب. ولمدة عشرة أيام من كل شهر، كان يدير مصنعًا للنسيج، وهي الوظيفة التي مولت دعوته الحقيقية: إدارة معسكر تدريب جهادي في جبال كشمير لإرسال مقاتلين لمحاربة الجيش الهندي.

بوجه صارم، قادني إلى صالونه، بأرضياته الرخامية، وأرائكه المريحة، وأوعيته الزجاجية المزخرفة بالزهور. وصبَّ خادم الشاي، الذي تناوله العقيد بثلاثة رشفات، على طريقة النبي.

لقد ساعده أفراد القبعات الخضراء الأميركية في تدريبه في الستينيات، كما قال، في نفس الفيلق النخبوي الذي كان يعمل فيه برويز مشرف، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لباكستان. وقد أقرَّ بأنه كان "استراتيجياً بارعاً". لكنه كان ضعيفاً في نهاية المطاف، لأن تكتيكاته كانت تعتمد على الأمور الحسية بدلاً من الاعتماد على الأمور الغيبية. كما كان الأميركيون الذين تدرب معهم مقيدين بالعلمانية، إذ يعتبرونك، تؤمن بالغيب، عندما تقاتل في سبيل الله. وأوضح لي بأنَّ ما يجعل المقاتل بارعًا حقاً هو "التوفيق الإلهي". فالمرء يحتاج إلى الجمع بين انضباط واحترافية أفراد القبعات الخضراء، وبين التقوى. فعلى سبيل المثال: إطلاق رصاصة يجب أن يتبعه تضرع إلى الله؛ بأن تقول: "يا الله، أنا أطلق هذه الرصاصة بحولك وقوتك، اللهم اجعلها تصيب العدو".

وقال إن الأمر بمحاربة الظالمين موجود في القرآن. ثم التفت إلى نسخة كبيرة من القرآن على الطاولة أمامه وقال: "كل التوجيهات للبشر موجودة هنا". ثم فتحها على السورة الرابعة واستشهد بالآية ٧٦: " الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ".

قال العقيد: "يجب أن نقاتل أولياء الشيطان"

وأثناء تجولي في قصره الأبيض في الضواحي، تساءلت ما الذي غيّر نظرته كعقيد في جيش نظامي؟ هل ذلك بسبب تسرب الإحباط تدريجيًا إلى نفسه؟ أو بسبب تعليق ساخر من أحد رؤسائه؟ ملايين غاضبون بسبب الصراع غير المحسوم في كشمير؛ وملايين غاضبون بسبب تدخل القوى الغربية في شؤون الدول الإسلامية. لذا ما الذي حول هذا العقيد إلى جهاديٍّ؟

وعندما سألته قال: ليس الغضب، ولكن الملائكة. وتحديدًا، الملائكة ذوو الرداء الأبيض على الخيول الذين ساعدوه ذات يوم في أحد الحقول الأفغانية عندما كان قائدًا شابًا يقاتل جنبًا

إلى جنب مع المجاهدين. وبين رجاله، الذين كانوا يبلغون ١٢٥، والتلال التي كانوا بحاجة إلى الاستيلاء عليها، كانت هناك هضبة مزروعة بالألغام. وزعم أن ألف جندي موالٍ للاتحاد السوفييتي كانوا يتربصون بهم. لكن رجاله هاجموا عبر الحقل، وتعرضوا لنيران المدافع المضادة للطائرات وقذائف الهاون بعيدة المدى. وبفضل أسلحة الكلاشينكوف، ومعونة الله، تمكن رجاله من العبور دون إصابات، زاعمًا أن جيشًا ضخماً، بخيول وثياب بيضاء، كان يرشدهم ويحميهم، تماماً كما حدث طيلة حملاته الأفغانية.

قال وهو يمد يده إلى فنجان الشاي: "لقد رأيت جثثاً مقطوعة الرؤوس. ليس من قِبل البشر، بل من قِبل الملائكة".

وقد عرض العقيد عليّ مجموعة من الصور من برنامج تدريبه. فإذا تجاهلت صور الجنود وهم يختبئون خلف الصخور بأسلحتهم، كان يمكنك أن تشاهد صورًا دعائية في مخيم صيفي في ويسكونسن: طاهٍ في مطبخه ينحني فوق الأواني. وأشجار صنوبر. وخيام منصوبة. وشباب يمارسون الرياضة في مساحات مشمسة.

ودعاني العقيد إلى الطابق العلوي لمقابلة زوجته وابنته المراهقة واقترح أن نشاهد جميعًا مقطع فيديو. كانت ابنته تدرس للحصول على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي. وتبادلنا المجاملات حول شكسبير، بينما خفض والدها الأضواء ووضع شريط فيديو في الجهاز.

"البوسنة"، قال العقيد، وهو يومئ إلى الشاشة.

ظهر في الشريط مجموعة من الصور الصاخبة من الرجولة المجروحة. جثث، وعيون تحدّق، ونساء باكيات، ومقاتلون شرسون يقفزون ويركضون، ومقاتلون ساقطون محمولون على نقالات، والله أكبر تتردد في الخلفية.

وبعد ذلك، رافقني العقيد إلى الطابق السفلي. وقال عندما ينتهي من الجهاد في كشمير، فإنه ورجاله سينتقلون إلى مكان آخر. ربما إلى الهند. وربما إلى ما هو أبعد من ذلك. إلى أي مكان يحتاجهم فيه أحد، سيواصلون القتال، إلى الأبد حتى تصبح الأرض كلها إسلامية. وقال ونحن واقفون عند بابه: "نريد أن ننقل الرسالة إلى العالم أجمع. إن العالم كله ملك لله، ويجب تنفيذ شريعته بأكملها على الكرة الأرضية. وحيثما تعرقل الولايات المتحدة وأوروبا، انتشار الإسلام، ستكون هناك حرب".

لقد غادرت المنزل وأنا أشعر بالغثيان. فجهاده لم يكن مستوحى من الملائكة فحسب، بل من تورط القوى الأجنبية في المنطقة، وتحديداً القوة الأميركية. كان الجميع يعلمون أن الرجال الذين درّبتهم واشنطن وسلحتهم، خلال ثمانينيات القرن العشرين لمحاربة السوفييت في أفغانستان، ساهموا في إنتاج الجهاديين المستقبليين. وحتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كان من الشائع اعتبار الجهاديين العالميين "ردود أفعال عكسية" للحرب الأفغانية. وهي أعراض جانبية، غير مقصودة، لعملية عسكرية سرية. وقد كان العقيد تجسيدًا حيًا لهذه العواقب العكسية. وما جعل الأمر أكثر رعبًا هو أن هذا الوجه كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وهي مهارة صقلها من خلال تدريبه مع الأمريكيين، مما جعل الأمر أكثر إثارة للقشعريرة.

* * *

بأبسط الخطوط العريضة، يبدو أن الرائد والشيخ يتشاركان وجهات نظر متشابهة عن العالم. فكلاهما مسلمان متدينان يتبعان التقليد النصي، ويعتبران القرآن النص المركزي في حياتهما. كما أنهما مثقفان، جنوب آسيويين، حققا نجاحًا مهنيًا ملحوظًا. وعمل كلاهما في مؤسسات مرموقة لفترات زمنية، جنبًا إلى جنب مع نخب غربية؛ الرائد مع القبعات الخضراء، والشيخ في أكسفورد. بالإضافة إلى ذلك، يشعر كلاهما بالإحباط من الانجراف الروحي والمادية السائدة في الحياة المعاصرة، ويطمحان إلى رؤية مجتمعات إسلامية قوية تنشأ يومًا ما.

لكن من تلك النقطة، تختلف رؤى الرجلين بشكل جذري. ففي حين يدعو العقيد إلى النضال المسلح ضد الكفار وفرض الشريعة الإسلامية، يرى الشيخ أن الحاجة هي إلى التقوى والسلام النفسي. وفي حين أن العقيد في صراع دائم ضد كل من يعتقد أنهم يقفون في طريق الإسلام، فإن رؤية الشيخ للتقوى تحرره.

وكونه متجذرًا في التقليد الإسلامي الكلاسيكي، يستطيع الشيخ تجاوز التصنيفات الجامدة التي أصبحت تعرف بها الحداثة. فمنذ أن أقامت شركة الهند الشرقية متجرًا في سورات، ومنذ خطى نابليون على ضفاف النيل، كانت التجربة الاستعمارية وتداعياتها في كثير من الأحيان تُصاغ من منظورات متعارضة: غربي وإسلامي. حداثي وتقليدي. هندي

وباكستاني. لكن هذه التصنيفات لا تشغل تفكير الشيخ كثيرًا، إذ هو غارق في نظام عالمي مختلف تمامًا. وينصب تركيزه على تفاصيل النصوص الدينية. فبينما يقرأ العقيد الآية ٤:٧٦ كأمر عام بـ"قتال أولياء الشيطان"، يقرأها الشيخ كحكاية عن لحظة محددة في التاريخ الإسلامي، حين كانت الجماعة المسلمة الناشئة في حرب مع قريش وحلفائها.

إن الاهتمام بالسياق، سواء النصي أو التاريخي، يتجاهله الجهاديون وكارهو الإسلام على حد سواء. خذ على سبيل المثال ما يسمى بـ "آية السيف ":

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ
وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ (التوبة:٥)

وقد استشهد علماء البلاط في عهد الإمبراطوريات الإسلامية بهذه الآية في الفتاوى التي تدعم الحروب الخارجية التي يشنها الحكام. واستخدمها بن لادن في فتواه الشهيرة التي أصدرها عام ١٩٩٦ والتي أعلن فيها الجهاد ضد الأميركيين. ووصف الباحث بروس لورانس آية السيف بأنها " العلامة الفارقة " للجهاديين.

ولكن ما يميل الجهاديون إلى تركه خارجًا هو النصف الثاني من الآية:

" فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ".

وعلى نفس القدر من الأهمية تأتي اللحظة التاريخية التي نزلت فيها الآية. فقد خرقت قريش في مكة معاهدة مع المسلمين، واستمرت مع حلفائها في مهاجمتهم مراراً وتكراراً. وقد نزلت الآية عندما "بذل النبي كل ما في وسعه لدعوة أهل قريش"، القبيلة الحاكمة في مكة، وحلفائها، على حد قول أكرم. "لقد بدأوا في قتاله، وجعلوا الأمور صعبة للغاية على النبي".

وكانت آيات سابقة من القرآن قد حثت النبي على التراجع، والتحلي بالصبر، وعدم القتال. وأخيراً، عندما واجه الجيش المسلم الصغير- الذي كان بضع مئات من الرجال- جيش

قريش الأكبر والأفضل تجهيزاً، نزلت الآية القرآنية التي سمحت له بأن يكون حازماً ضد أعداء أمته، على حد قول الشيخ. وحتى في ذلك الحين، لم يقتل النبي سوى عدد قليل من الناس، ثم عفا عن جميع خصومه".

وقال الشيخ إن الجهاد المعاصر كان دنيوياً وليس روحياً. ولم يكن الرجال الذين خاضوا هذه الجهادات ينطلقون من زيادة التقوى، بل من نقصها: "إنها مجرد أسلمة للعنف. يظن الناس أنهم يستطيعون استخدام الإسلام للقتال من أجل الأرض، أو الشرف، أو المكانة، أو المال. لكن هؤلاء ليسوا متدينين. إنهم فقط يتبعون أمثلة غير إسلامية".

ومن الناحية السطحية، يميل الجهاديون إلى أن يكونوا أكثر تغريبًا، مقارنةً بالشيخ وزملائه من العلماء. وهذا خلافًا للاعتقاد الشائع، إذ لم يتلقَّ معظم المتطرفين الجهاديين تدريبهم في المدارس الدينية. فبدلاً من دراستهم لتعقيدات الفكر الإسلامي الكلاسيكي، كان تدريبهم يميل إلى أن يكون علمانيًا وتقنيًا في موضوعات مثل الهندسة، أو برمجة الكمبيوتر، أو الطب. وقد أجريت دراسة مؤثرة على خلفيات أربعمائة متطرف عنيف، فوجدت أن ١٣٪ فقط منهم كانوا من خريجي المدارس الدينية أو المعاهد الإسلامية.

ولم يكن الشيخ قد سمع عن هذه الدراسة، لكن لم يفاجئه تحديدها للمتطرفين الذين يعملون كمهندسين وأطباء. وقال إن "الأشخاص الذين تلقوا تعليمهم في الغرب"، وليس خريجي المدارس الدينية، هم الذين يحملون أكبر قدر من الضغائن ضد الغرب. وأضاف: "إنهم يريدون ما يملكه الغرب. إنهم يريدون السلطة"[١٠١].

وإذا كان الشيخ لا يكترث كثيرًا بالمؤهلات الإسلامية للجهاديين، فإن منظّري الجهاد كانوا يحتقرون العلماء التقليديين على نحو مماثل؛ إذ اتهموهم بأنهم يسعون لتقليد الغرب؛ في دين مخصخص، وممارس بشكل جزئي، كحال المسيحية منذ عصر التنوير.

وسيد قطب كان قد اتهم العلماء المسلمين التقليديين بأنهم "أشخاص مهزومون، تبنوا المفهوم الغربي للدين، الذي لا يعدو كونه مجرد إيمان في القلب، لا علاقة له بالشؤون العملية للحياة". وفي كتابه المؤثر "معالم في الطريق" دعا إلى تحرير العالم من الجاهلية، وإقامة حكم الله

[١٠١] هذه وجهة نظر خاطئة تمامًا، فالأمر ليس كما يقول الشيخ، إنما الأشخاص الذين تلقوا تعليمهم في الغرب، يكرهون الغرب، لأنهم وقفوا عن كسب على كراهية الغرب وحقدهم ضد الإسلام والمسلمين. وهذا خلافًا لأولئك الذين لم يذهبوا للغرب ولم يحتكوا بالغربيين، إذ يتوهمون بأنَّ الغرب جنة الله في الأرض.

على الأرض، والقضاء على حكم الإنسان، وانتزاع الحاكمية من أيدي أولئك الذين اغتصبوها وإعادتها إلى الله وحده".

وعلى مدى قرون، كانت العلوم الإسلامية التقليدية قد ذبلت، وتضاءلت هيبة العلماء معها. وترك المستعمرون الأوروبيون المدارس الدينية في حالة من الضعف والوهن، مفضلين التعليم الحديث كوسيلة لتخريج إداريين قادرين ذوي عقلية غربية. ولم يساعد التصور السائد، عن علاقات العلماء المفرطة مع الأنظمة التي لا تحظى بشعبية، في تحسين مكانتهم. وفي العديد من الدول الإسلامية، وضعت الحكومات العلماء في جداول رواتبها، مما قوض الاستقلال السياسي التقليدي للعلماء.

ومع ظهور الحداثة، توقّف كثير من الناس عن استشارة العلماء التقليديين. فقد سمحت معدلات الإلمام المتزايدة بالقراءة والكتابة، والتكنولوجيا الحديثة، للمسلمين العاديين بالبدء في تفسير النصوص الدينية بأنفسهم. واليوم، يستطيع أي شخص يمتلك اتصالًا بالإنترنت أن يستشير ما يُطلق عليه البعض مازحًا "الشيخ جوجل" بدلًا من عالم متخصص. وقد سمح هذا التحوّل الديمقراطي في المعرفة الإسلامية – وإن لم يشمل تخصصاتها الأكثر صرامة – بازدهار الشيوخ المزعومين. ولم يعد المرء بحاجة إلى شهادة من مدرسة دينية تقليدية ليُنصِّب نفسه مرجعًا دينيًا. بل إن هذه المراجع الدينية الجديدة اتخذت ازدراء العلماء التقليديين كوسام شرف لها. فقد احتقر أسامة بن لادن العلماء التقليديين علنًا وبدأ بإصدار فتاوى خاصة به. كذلك أبو حمزة المصري، الذي عمل سابقًا حارسًا في ملهى ليلي ومهندسًا مدنيًا، تحوّل إلى واعظ متطرف، وشعر بحرية رفض السلطة الدينية التقليدية مع ادعاء حقه في أن يكون جزءًا منها.

وفي العصور الوسطى، كان الناس يعتمدون على الشيوخ. لكن اليوم، أصبحت المعلومات متاحة في الكتب وعلى أجهزة الكمبيوتر. وكما قال لي عام ٢٠٠٢: "كل ما يتعين على المرء فعله في هذه الأيام هو القراءة، ويمكنك حتى الاتصال بعالم للحصول على رأيه، فلدينا إمكانية الوصول المباشر إلى المعلومات الإسلامية هذه الأيام".

وفي أسوأ صورها، أدت هذه التحديات الجديدة للسلطة الدينية التقليدية إلى فوضى في التعامل مع النصوص، حيث يجري نهبها بشكل عشوائي، واستعراض البحث الحر في القرآن عن آيات تشرع العنف باسم الله. واعتبر الشيخ أن جعل "الجهاد" محور الحياة الإسلامية، كما يفعل العديد من المتطرفين، يمثل عنفًا حقيقيًا ضد نصوص القرآن".

وفي الغرب، أصبحت كلمة "الجهاد"- التي تعني حرفيًا بذل الجهد أو النضال- مرادفة للحروب، كتلك التي يقودها العقيد الأفغاني. لكن الجهاد الأكبر- وهو كفاح الفرد ضد نفسه الأمارة بالسوء، وبذله الجهد للعيش حياة تقية- يحمل معاني أعمق. ويتجلى هذان البعدان لـ"الجهاد" في قصة كان الشيخ يحب أن يرويها:

مجموعة من المجاهدين كانوا في طريقهم إلى المعركة عندما قرروا قضاء الليل في نزل لبعض المتصوفة. وفي الصباح، رأى أحد المتصوفة الشباب الخيول والسيوف البراقة للمجاهدين، فشعر بالحماسة وأخبر شيخه أنه سينضم إليهم. لكن الشيخ حذره قائلًا: الجهاد المسلح هو الطريق السهل، أما النضال المستمر للحفاظ على الخضوع لله فهو الأصعب. وأضاف: "من السهل أن يُقطع عنقي مرة واحدة، لكن الأصعب أن أنحني برأسي يومًا بعد يوم، طيلة حياتي".

لقد عشت نسخة معاصرة من هذه القصة في مدينة برادفورد البريطانية، بعد فترة وجيزة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر. كنت في مهمة صحفية لإحدى المجلات عندما قابلت شابين، زبير ومحمد، كانا يضيعان الوقت قبل صلاة الجمعة. وجلسا في المقعد الأمامي لسيارتهما، يدخنان سجائر ملفوفة يدويًا، ويراقبان المطر المتساقط خارج النافذة. وقد أنزلا نافذتهما للدردشة معي.

كان زبير يتحدث بلكنة يوركشاير الثقيلة[١٠٢]، على الرغم من أنه نشأ في برادفورد، لكنه أخبرني أنه يعتبر نفسه أفغانيًا من البشتون ومسلمًا أولًا وأخيرًا. واعترفا بأنهما ليسا من أفضل المسلمين: "نحن ندخن هذا وذاك، وننظر إلى النساء اللواتي لا ينبغي لنا النظر إليهن. نحن ضعفاء، ومن أدنى الناس. وفي الحقيقة، نحن لا نُقارن بالمجاهدين، المحاربين الذين يدافعون عن القضية الإسلامية في أفغانستان والعراق. هؤلاء هم المسلمون الحقيقيون يا رجل!".

لكن كلما وصف الصديقان حياتهما، بدا أنهما أقرب إلى الشيخ الصوفي الحكيم منهما إلى الشاب الصوفي المتحمس، في قصة أكرم. قالا لي إن محاولتهما التمسك بالتقوى وسط الإغراءات كانت صعبة. بل أصعب، ربما، من القتال الفعلي. قال زبير: "الجهاد الحقيقي هو عندما تكبر في مكان مثل هذا. هل تريد أن تكون رجلاً حقيقيًا وتخوض المعركة الحقيقية؟

[١٠٢] "لكنة يوركشاير" هي اللهجة التي يتحدث بها الناس في منطقة يوركشاير في شمال انجلترا، وتعتبر هذه اللهجة من أبرز اللهجات البريطانية وتتميز بعدة خصائص صوتية ومفردات مميزة.

جرب أن تكون مسلمًا صالحًا في مكان مليء بالنساء العاريات، والتنورات القصيرة، والكازينوهات، والأسلحة".

* * *

" فما هي شروط الجهاد العادل؟" سألت الشيخ ذات يوم أثناء تناول الشاي في مطعم أكسفورد كباب هاوس.

الجهاد له معايير محددة جدًا، قالها بحزم. لا يجوز إيذاء النساء، أو الأطفال، أو غير المقاتلين. يجب احترام محاصيل وأراضي العدو: "لا يمكنك حتى إيذاء شجرة." يمكن شن الجهاد فقط من قبل قادة إسلاميين شرعيين يعملون علنًا، وليس من قبل ميليشيات ذاتية التعيين تضرب سرًا. كما أن الجهاد لا يجب أن يستهدف المسلمين. يقول النبي محمد: "من رفع علينا السلاح فليس منا." واليوم، الغالبية العظمى ممن يموتون باسم الجهاد هُم من المسلمين.

فسألته: "ما الذي يجب توفره لجعل الجهاد مشروعًا؟"

قال الشيخ: "أولاً، يجب على المؤمنين أن يقوموا بالدعوة– دعوة الناس إلى الإسلام. وبمجرد أن يفعلوا ذلك بشكل صحيح، ويجدوا مكانًا يمكنهم العيش فيه كمجتمع..."

قلت: "ثم يُسمح لهم عندما يكون لديهم مجتمع– وليس دولة، بل مجتمع مسلم...؟"

قال، مترددًا دائمًا في إسقاط المصطلحات السياسية الحديثة على المفاهيم الإسلامية: "إذا كان لديك ذلك، وكان هناك أناس يمنعونك من الدعوة، أو من العبادة – فإن الإسلام يسمح لك بالدفاع عن نفسك. فقط حينها: يمكن شن الجهاد إذا كان المرء يُمنع من العبادة بحرية. ففي حين اعتبر قطب وأحفاده الإيديولوجيون الجهاد حرباً هجومية، رأى الشيخ أن الجهاد مجرد مسألة دفاع عن النفس.

ثم أضاف: "وهناك شرطان آخران"

أولاً، يحتاج المسلمون إلى مكان آمن لشن الجهاد منه. وثانياً، يحتاج المسلمون إلى ما يكفي من القوات والأسلحة حتى يبدو النصر محتملاً. واليوم، ليس لدى المسلمين أي من هذين الأمرين: "ليس لدى المسلمين أماكن آمنة في عصرنا، لذا عندما يحاولون شن الجهاد، يُقتل

الكثير منهم". كما يفتقر المسلمون المعاصرون إلى الأسباب أو الظروف اللازمة للقتال المسلح. قال الشيخ: "إذا قمت بالأشياء بالترتيب الخاطئ، فلن تنجح أبدًا. هل نعطي البرياني لطفل رضيع؟ لا! يجب أن ننتظر حتى تنمو أسنانه !"

كان ينصح دائمًا بالسياق. المسلمون بحاجة إلى فهم سياق هذه الآيات، والطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي التعليم. وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كان من الشائع إلقاء اللوم على المدارس الدينية. في الحقيقة، نحن بحاجة إلى مزيد من التعليم الإسلامي، وليس أقل من ذلك. فالكلمة الأكثر تكرارًا في القرآن بعد "الله" هي العلم أو المعرفة. وقد بدأ الإسلام بالأمر: "اقرأ." ورسالة الشيخ نفسه لم تكن دعوة للسلاح، بل كانت نداء لطلابه: "فكروا!".

* * *

أثناء دراستي مع الشيخ، كنت أفكر كثيراً في أُمِّ التقيتها ذات يوم في القاهرة. ذهبت مع زميل من مجلة نيوزويك لإعداد تقرير عن الحي الذي نشأ فيه محمد عطا، منفذ تفجير مركز التجارة العالمي. لقد رحل آل عطا منذ زمن بعيد، لكن الأسرة التي انتقلت إلى شقتهم ظلت هناك.

جلسنا نشرب الشاي في غرفة معيشة أنيقة، حيث كانت هناك صورة لامعة لمشهد جبال الألب على الجدار الأصفر المتقشر، وكانت مفارش الدانتيل تزين الطاولات الصغيرة. وكانت "أنهار سيد مرسي"- أم لولدين في العشرينيات- مستعدة بشكل مفاجئ للحديث.

وقصة محمد عطا– الفتى الذي سافر للخارج وضل طريقه– جعلت أنهار أكثر حرصًا على حماية ولديها. قالت: "أحداث الحادي عشر من سبتمبر جعلتني في حالة تأهب دائم. لقد كانت درساً جيداً لي كأم". أخذتنا إلى غرفة ولديها، نفس الغرفة التي كان عطا يدرس فيها الهندسة. قالت إنه حتى الآن قد يكون هناك متطرفون في الحي يسعون لجذب ولديها نحو المغامرات الخاطئة. قالت: "لدي مِجْهر في بيتي، حيث أعرف ما يفكر به أبنائي. فأحاول حمايتهم بإيماني بالله".

كانت معركتها على جبهتين، واحدة ضد الفساد على الطريقة الغربية، والأخرى ضد الإسلاميين. واعترفت الأم بأنها كانت في بعض الأحيان تمزق "عن طريق الخطأ" أحد ملصقات مايكل جاكسون، أو سبايس جيرلز، أثناء تنظيف غرفتهم. وعندما يعود الأولاد إلى

المنزل، كانت تشم أنفاسهم بحثًا عن الكحول وتحدق في عيونهم للتأكد من أن حدقة العين ليست متسعة بسبب الحشيش.

لكن أسلحتها الحقيقية ضد المتطرفين، كما قالت، كانت القرآن والسنة النبوية. قالت: "أحاول أن أملأ رؤوسهم بهما، حتى لا يكون لديهم مساحة لأي أفكار متطرفة. وعندما يزعم أبناؤها أنهم صَلَّوا، كانت تتحقق من سجادات الصلاة الخاصة بهم للتأكد من أنها دافئة.

إنني كثيراً ما أفكر في أنهار مرسي، وهي تقاتل فرقة سبايس جيرلز، وآية بعد آية لحماية ولديها من المصير الذي واجهه ساكن الشقة السابق. وعلى مدى الجيل الماضي، قامت ملايين الأمهات بلا شك بنفس الشيء. ولكن كما اقترح الحكيم في القصة القديمة، فإن ركوب الطائرة أو الحصان إلى الجهاد أسهل كثيراً من خضوع المرء يوماً بعد يوم. وجزء من هذا الخضوع هو العمل الدؤوب لوضع الآيات الفردية في سياقها الصحيح، ورؤية كيف يمكن أن تتلاءم مع موضوعات قرآنية أوسع نطاقاً تتعلق بالسلام والاستعداد للعالم القادم.

(١٦)

الدرس الأخير

لم أحضر قط خطبة حقيقية تتحدث عن نار جهنم. بالطبع، رأيت مثل هذه المشاهد في الأفلام التي تدور أحداثها في إنجلترا البوريتانية[١٠٣] أو جبال أوزارك خلال فترة الكساد الكبير، حيث يظهر ممثلون كثيفو الحواجب، وقد التُقِطت لهم صور من زوايا منخفضة، يميلون فوق المنابر وينطقون بعبارات يقينية يتطاير منها اللعاب. كانت أصواتهم وذقونهم تهتز وهم يتحدثون عن النيران ويوم القيامة. لم أكن أتخيل أنني سأشاهد أول خطبة من هذا القبيل في كامبريدج، المدينة التي يلتقي فيها الرقي الإنجليزي بالتحفظ الأنجليكاني. لكن هناك سمعت لأول مرة وصف أكرم للحياة الآخرة، في ندواته "الرحلة العظيمة" والتي غطت الجزأين الأخيرين من القرآن.

كانت كثافة هذه المحاضرات التي استمرت لثماني ساعات، وذكرها المتكرر للموت، تضفي على المشي صباحًا من محطة قطارات كامبريدج شعورًا جنائزيًا. فباستثناء طالب وحيد يعود إلى منزله، أو سياح يتجمعون حول خرائط مبللة، كانت الشوارع دائماً فارغة. وكان عبور مدينة جامعية في صباح يوم السبت يعني السير بحذر وسط قدر معين من الحطام الذي يتناثر في ليلة الجمعة، والمشي فوق البرغر المسحوق وزجاجات البيرة، ومتحاشيًا أحيانًا بقعًا من القيء البرتقالي.

وبروح المسافر المغادر، كنت أزود نفسي بمؤن بسيطة، أشتري كابتشينو وكروسان قبل الوصول إلى نهر كام. كان النهر صامتًا في تلك الساعة، والقوارب فارغة ومربوطة، تنتظر ركاب اليوم. وكان الجسر، المحاط بأشجار الصفصاف، يمثل فاصلاً بين عالمي وعالم أكرم. ففي كلية كينجز في كامبريدج- الواقعة على الجانب الغربي من نهر كام- درس سلمان رشدي التاريخ الإسلامي، الذي استخدمه لاحقًا، بشكل سيئ السمعة، في روايته "آيات شيطانية".

---

[١٠٣] إنجلترا البوريتانية تشير إلى الفترة التي سيطرت فيها حركة التطهيريين (Puritans) على الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية في إنجلترا، خلال القرن السابع عشر. والبوريتانيون فرقة بروتستانتية ظهرت في إنجلترا بعد الإصلاح الديني، وسعوا إلى "تطهير" الكنيسة الإنجليزية من الممارسات الكاثوليكية التي اعتبروها غير متوافقة مع الكتاب المقدس.

وكان عبور الجسر إلى الضفة الشرقية، ومن ثم إلى "الرحلة العظيمة" بمثابة اندفاع بعيد عن النسبية إلى عالم من اليقين، لقضاء يوم واحد في مناقشة "كتاب لا ريب فيه" كما أسماه القرآن.

لقد بدا وكأن المدينة تتلاشى أثناء سيري. اختفت الكليات الفخمة، والمحلات الأنيقة، والمكاتب الزجاجية اللامعة، التي كانت تشكل آثاراً للطفرة التكنولوجية التي شهدتها كامبريدج. واحترق العالم وأنا أسير على طول طريق هادئ، عبر ساحة انتظار السيارات، وأدخل إلى مبنى جامعي حديث. ولساعات، اختفى العالم في قاعة محاضرات عارية ورسالة أكرم الصارخة: إن هذه الحياة ليست سوى عرض جانبي مقارنة بالحياة الآخرة. "حياتك محكوم عليها بالموت. العالم الآخر هو وجهتنا. أما هذا العالم فهو محطة سفر".

في ذلك الخريف، كنا نعود إلى ما كان يتربص بنا جميعًا: الموت. قال الشيخ: "وسواء أحببنا ذلك أم لا، فإن الناس يتحركون في كل لحظة نحو موتهم، سواء كانوا يمشون أو يجلسون، وسواء كانوا سعداء أو تعساء". وفي هذه الحياة، هناك أشياء معينة يجب على المرء القيام بها: "أنت بحاجة إلى الأكل والشرب، أنت بحاجة إلى المأوى، أنت بحاجة إلى الزواج. كل هذه الأشياء ضرورية فقط لمساعدتك على عبادة الله. لكن كل هذه الأشياء تنتهي بالموت". أصر على أن التشبث بهذه الحياة يشبه كما لو كنت مسافرًا قرر بناء منزل في محطة قطار بدلاً من المرور بها.

بالنسبة لأولئك الذين استسلموا لأمر الله، كان هناك الوعد – وإن لم يكن ضمانًا – بالجنة. تلك الجنة التي بَهَر اخضرارها البارد، ورونقها اليانع سكان الصحراء الذين سمعوا القرآن لأول مرة. كانت الأنهار تجري من تحتها، والأشجار تظلّلها، وهي محمّلة بالفواكه المتدلية. وكان المؤمنون يجلسون على الأرائك، مرتدين الحرير، ويرتشفون شرابًا بطعم الزنجبيل من كؤوس لامعة. وعندما يرغبون بالمزيد، كان صبية صغار يملؤون كؤوسهم، "كلهم لطفاء، حسنو المظهر، كاللؤلؤ المنثور!" كما وصفهم الشيخ.

أما الذين لم يخضعوا لأوامر الله، فقد كانوا يساقون إلى مكان آخر، جاء وصفه بوضوح في سورة "الملك ":

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (الملك٦-٨)

قام أكرم بتحليل الكلمات العربية التي تصف النار، فاستحضرت اللغة العربية صوت النار وغضبها، وكان جوعها أشبه بأسد في غابة، وقال: "عندما تستقبل النار الناس، تكون جائعة للغاية، غاضبة للغاية، تريد أن تلتهمهم بأسرع وقت ممكن" .

خلال وقت الأسئلة، رفعت يدي ثم مددت ذراعي لأحصل على الميكروفون.

" أمم.. الجزء المتعلق بالنار. هل يجب أن نفهمه كاستعارة؟ هل يتحدث هنا عن نيران فعلية، أو هو مجرد رمز للإشارة إلى أن أشياء سيئة سوف تحدث للمذنبين؟".

" النار هي النار"، هكذا رد أكرم. "إنها حقيقية وواقعية".

"نعم لقد قرأتُ للفيلسوف برتراند راسل، الذي شكك في تركيز المسيحية على نار جهنم كعقيدة قاسية تتعارض مع رسالة الإيمان الأساسية عن المحبة. وخلال القرن الماضي أو ما يقاربه، قلّ عدد الوعاظ المسيحيين الذين تحدثوا عن نار جهنم، خوفًا من تخويف رعيتهم، حيث شعروا أن الأمر كان مخيفًا جدًا للناس". هكذا قال الشيخ، مشيرًا إلى عدم رضاه.

وتابع الشيخ قائلاً: "إن التخفيف من وعيد جهنم كان خطأً. واستذكر ذلك اليوم الذي فتح فيه باب منزله ليجد مبشرًا مسيحياً يقف بالباب، حاملاً في يده إنجيلاً. استمع الشيخ إلى كلامه، ثم سأله: "ماذا سيحدث لي إذا لم أصدقك ؟".

صمت الرجل برهة، كان من الواضح أنه لا يريد إخافة أي شخص قد يتحول إلى الإيمان المسيحي. فسأله الشيخ: "وماذا عن الجحيم؟" فأجابه الرجل مطمئنًا: "لا، لا يوجد أي ذكر لنار جهنم في الكتاب المقدس!".

قال الشيخ: "كان لدي إنجيل في منزلي. وكنت قد وضعت خطوطًا تحت آيات الجحيم، فذهبت وأريتها إياها!".

" لا تخجلوا أبدًا من ذكر نار جهنم"، قال الشيخ مؤكدًا لمستمعيه. "إن آمنتم، فسوف تنجون، وإن لم تؤمنوا، فالنار بانتظاركم!".

كان الحديث عن الجحيم لحظة نادرة من الواقعية الحرفية لدى الشيخ. لقد غامر مفكرون مسلمون آخرون بأن أوصاف الحياة الآخرة كانت مجازية، لأسباب ليس أقلها أن الكثير من لغة القرآن كانت توحي بحقائق تتجاوز الإدراك البشري، كما كان الشيخ يقول في كثير من الأحيان. لكن خوف الشيخ كان حقيقيًا جدًا، تمامًا كحقيقة النيران التي كان يعتقد بها.

لقد توفي والدي عندما كنت في السادسة والعشرين. في ذلك الوقت، كانت فكرتي عن المكان الذي ذهب إليه بعد وفاته ضبابية وضعيفة. وبينما كنا نعيش حزننا على وفاته، كنت أنا وأمي نروي لبعضنا قصصًا واهنة عنه، وهو يتجول فوق سحابة، ويقضي وقته مع بيلي هولیداي، وتينيسي ويليامز، وغيرهما من النجوم، الذين لطالما تمنى أن يلتقي بهم. كنا نعزي أنفسنا بفكرة أنه لا يزال يعيش بيننا؛ إذْ أورثني حبه للتجوال حول العالم، وأورث أخي موهبة المراوغة في التجارة، والشك في السلطات. وفي محاولتي للتوفيق بين الإيمان والشك، كنت أسمح لنفسي بخيالات طفولية مريحة، متظاهرة بأنه فقط ذهب في رحلة طويلة إلى مكان ما.

في آخر مرة رأيته فيها، كان يستعد فعلياً لرحلة، رحلة اتخذت منعطفًا مأساويًا مفاجئًا. لقد لوَّح لي من محطة حافلات لندن، وهو في طريقه إلى المطار، متجهًا إلى منزله في سانت لويس ليقضي بضعة أسابيع هناك، قبل أن يسافر إلى المكسيك. كان لدينا عقار للإيجار في سان ميغيل، يعتزم إصلاحه للمستأجرين الجدد. وأثناء وجوده هناك، اقترب منه رجال ظنوا أنه مدين لهم بالمال، فانهالوا عليه ضربًا. وبعد بضعة أيام، فارق الحياة.

وعند الغسق، جاءتني مكالمة هاتفية تخبرنني بالوفاة. كان ذلك في اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٩٩٣. كنت وحدي في المنزل، في لندن. وما زلت أتذكر الرائحة الغامضة للعفن في الشقة، والطاولة الخشبية الصلبة الدافئة التي كان الهاتف عليها. وما زلت أتذكر التقاط سماعة الهاتف وسماع كلمة: "والدك توفي!". قالتها أمي بصوت مضبوط بعناية من أجل المكالمة.

كانت هناك مكالمة سابقة، قبل ستة أيام، تحمل أخبارًا سيئة، لكنها لم تكن بهذا السوء: اقتحم ثلاثة رجال المنزل في سان ميغيل، في يوم الاحتفال السنوي برئيس الملائكة ميخائيل. وبينما كانت الحشود تسد الشوارع، والموسيقى والفوضى تغطيان على صرخات والدي، كانوا في الداخل يقيدون والدي، والبستاني، والخادمة بالحبال. ثم انهالوا عليه ضرباً، وهم ينادونه مرارًا وتكرارًا: "أفوكاتو"، ويطالبونه بـ"المال". لم يكن لدى والدي أي فكرة عما يتحدثون عنه، وأخبرهم بذلك.

لكن ذلك لم يجلب له إلا إلى المزيد من الضرب. وفي مكان ما، كانت هناك ضربة ستؤدي، بعد أسبوع، إلى جلطة تسد رئتيه وتودي بحياته.

بعد الهجوم مباشرة، أخبر والدي أمي أنه لا داعي لأن تسافر إليه. قال لها: "لا تقلقي. أنا بخير. مصدوم قليلًا، ومجروح بعض الشيء، لكنني بخير. محظوظ حقًا لعدم تعرضي لأذى

أكبر". وبعد يومين، وجدته مستأجرة المنزل المجاور مستلقيًا على الأرض، غير قادر على النهوض. فاتصلت بالإسعاف ونقلته إلى المستشفى، حيث لاحظ الأطباء نزيفاً داخلياً ناجماً عن تمزق في الكبد، وأجروا له عملية جراحية على الفور. سافرت والدتي بالطائرة من سانت لويس. ووصلت بالحافلة من مدينة مكسيكو لتجده نحيفاً للغاية حتى أن "وجنتيه الصغيرتين كانتا بارزتين مثل ملاك صغير"، كما قالت. "لقد كان سعيداً جدًا بقدومي". كانت تقرأ له بصوت عالٍ من مجلة نيويوركر، وفي تلك الليلة لم يكن يرغب في أن تتركه. كانت سعادته برؤيتها واحتياجه المكشوف صدمة كبيرة بالنسبة لي. لقد تربينا على القيام بالرحلات، لكن ليس الرحلات العاطفية. لم أسافر لحضور جنازة جدي في إيطاليا، ولم أذهب للمشاركة في دفن جدتي في بريطانيا. فقد تربينا على التحلي بالشجاعة والبقاء في أماكننا، حتى لو كانت غريبة. وكان عدم اعتراض والدي على قدوم والدتي إليه، مؤشرًا على مدى الخوف الذي كان يشعر به قبل أن تسافر لرؤيته، لذا لم يمنعها من القيام بذلك.

" لقد كانوا يرتدون أحذية جيدة"، هذا ما قالته للشرطة ماريا إيلينا، خادمتنا الهادئة ذات الوجه البهي. وكانت الأحذية هي كل ما تمكنت من رؤيته من المهاجمين، إذ أبقت رأسها منكسة أثناء الاعتداء. كانت الأحذية هي الدليل الوحيد على أن هؤلاء كانوا محترفين ناجحين في تجارة المخدرات. كانت وفاة والدي نتيجة خطأ في هوية: "الأفوكاتو" الذي كان مدينًا لهم بالمال لا بد أنه كان مستأجرًا سابقًا، ومحاميًا أمريكيًا. في تلك الليلة، ملأت وصف "ماريا إيلينا" الفجوات بصور كرتونية. فقد تخيلت قتلة والدي على أنهم قطاع طرق بشوارب مرتخية، وأسنان وعيون لامعة، وقبعات ذات شراشيب تهتز أثناء ضربهم له.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المكتب لأحضر بعض الكتب والأوراق التي سأحتاجها لرحلتي إلى الوطن. كان المكان فارغًا، باستثناء الشيخ. في ذلك الوقت، لم يكن لديه عائلة في أوكسفورد ليعود إليها، فكان غالبًا ما يعمل لوقت متأخر أو مبكر. وجدته جالسًا في المكتب الذي كنا نتشاركه مع باحثين آخرين، منكبًا على قراءة نص بالأردية. قلت له بلا مقدمات: "لقد توفي والدي!". نهض أكرم ووضع يده على قلبه، قائلاً: "إن فقدان أحد الوالدين أمر صعب حقًا".

ثم وقف مستقيماً واضعاً يديه على ظهر كرسيه البلاستيكي، وبدأ بصوت عالٍ وواضح في تلاوة قصيدة. لم يكترث لكونه في منتصف الأسبوع أو لكوننا في العمل. ومع خلفية ذهبية

محترقة لخريف أوكسفورد، تلا القصيدة دون توقف أو حرج. لم يكن يهم أنني لم أفهم الكلمات: لدقيقة أو دقيقتين، امتلأ المكتب الصغير بشعر الأردية، ونور ما بعد الظهيرة.

عندما انتهى، سألته عن القصيدة. فأجاب: "مرثية كتبها الشاعر الباكستاني إقبال عند وفاة والدته". ثم ترجم لي: "إنه يسأل، من سيترقب رسائلي بعد الآن؟ ومن سيستقبلني عند عودتي إلى المنزل، وقد رحلت؟".

لاحقًا، عثرت على ترجمة لتلك المرثية التي ألقاها أكرم. كانت اقتباسات من قصيدة كتبها إقبال بعد وفاة أمه عكست حالة الضياع الرمادية للحزن على فقدان أحد الوالدين:

من ينتظرني بقلق في موطني؟ من سيُبدي قلقه إن غابتْ رسائلي؟
من سيذكرني الآن في صلاة التَّهجُّدِ؟ سأزور قبركِ والشكوى في جوانحي[١٠٤]

في ذلك اليوم، لم نكن أنا والشيخ نعرف بعضنا جيدًا. كانت كلماته، وكلمات إقبال، أول إشارة لي إلى أن زمالتنا قد تتحول إلى صداقة. ومن بين كل التعازي التي تلقيتها بعد وفاة والدي، كانت مواساة الشيخ هي الأكثر تأثيرًا. لم يكن يعرف والدي؛ وبالكاد كان يعرفني. لكن قراءته للقصيدة كانت بلسمًا بسبب صفاتها الغريبة، وليس على الرغم منها، كانت تذكيرًا بأن الموت حدث عالمي، شائع كالحياة نفسها.

* * *

قال الشيخ، وهو يراني أفرغ حقيبتي على طاولتنا في مطعم أوكسفورد كباب هاوس: "آه، يبدو أنكِ بدأتِ في قراءة كتاب "الطريق إلى مكة؟"

فأجبت: "نعم، كنتَ تتحدث كثيرًا عن محمد أسد، لذا اشتريت نسخة. كلما كنتَ تشير إلى أن القرآن يحث الناس على التفكير، كنت تذكره".

قال الشيخ بابتسامة صغيرة تعبر عن سرور خفي: "حقًا، هل أنا أفعل ذلك!"

نعم هو كان يفعل ذلك! لقد كان محمد أسد من بين أكثر المدافعين عن الإسلام بلاغة في القرن العشرين. بدأ حياته عام ١٩٠٠ باسم ليوبولد فايس، مولودًا في عائلة من المصرفيين

[١٠٤] القصيدة التي ورد فيها هذا المقطع هي "رسالة إلى الموطن" (بالأوردية: "Paigham-e-Mashriq") وطن واپسی (پیغامِ مشرق) للشاعر محمد إقبال. (المترجم).

والمحامين والحاخامات في الإمبراطورية النمساوية المجرية. نشأ في فيينا في ظل والدين كانا يمارسان اليهودية، كما كتب لاحقًا، كطقوس خشبية يتمسك بها المرء من باب العادة. ثم أصبح مراسلًا في الشرق الأوسط، ثم كاتب سيناريو أحيانًا وبوهيميًا[١٠٥] في برلين خلال عصر فايمار. وقد وجد في الإسلام ترياقًا مضادًا لـ"العصر المعقد والميكانيكي والمليء بالأشباح" في أوروبا بين الحربين. انتقل أولًا إلى شبه الجزيرة العربية، ثم إلى الهند، حيث تعاون في ثلاثينيات القرن العشرين مع الشاعر الفيلسوف إقبال، لوضع الأسس الفكرية لدولة باكستان المستقبلية. ولفترة من الوقت، كان يمثل باكستان في الأمم المتحدة، قبل أن يتحول إلى التأليف والترجمة، وأهدى بعض أعماله الكتابية إلى "الذين يفكرون".

لقد أثار دفاع أسد عن الإسلام باعتباره ديناً يقوم على العقل وليس الإيمان الأعمى إعجاب أكرم بشكل خاص. كانت القصة التي أحب الشيخ أن يرويها هي المناظرة التي دارت بين أسد ومجموعة من القساوسة اليسوعيين. فقد احتُجِز محمد أسد في معسكر اعتقال في الهند باعتباره "عدواً أجنبياً"، خلال الحرب العالمية الثانية. وكان من بين زملائه السجناء مجموعة من القساوسة اليسوعيين الألمان، الذين كانوا يستمتعون بمناقشات دينية مع الشاب المسلم اللامع.

وفي أحد الأيام، سأله زعيمهم، وهو بافاري أرستقراطي ومثقف: "لماذا يختار شخص- ولد يهودياً نمساويًا مجرياً- الإسلام بدلاً من المسيحية؟". أجاب أسد بأنه سيعتنق المسيحية عن طيب خاطر، بشرط أن يجيبه القس عن سؤال واحد فقط.

قال أسد: "إذا فعلت ذلك، يمكنك أن تأخذني يوم الأحد المقبل إلى خيمة الكنيسة وتعمدني". فأجاب البافاري: "موافق!"

وكان سؤال أسد يتعلق بالتثليث: "كيف يمكن أن يكون الله واحدًا، وفي الوقت نفسه ثلاثة؟" أجابه القس: "الثالوث سر عظيم، ومقدس، ومخفي. وعندما تؤمن، عندئذٍ ستفهم".

قال أسد: "لهذا السبب أصبحت مسلمًا. أنت تقول لي: "آمن بالمسيحية وعندئذ ستفهم. أما الإسلام فيقول لي: "افهم أولاً، وعندئذ ستؤمن".

---

[١٠٥] كلمة بوهيمي تُستخدم في اللغة العربية لوصف نمط حياة غير تقليدي أو خارج عن المألوف، وغالبًا ما يُشير إلى أشخاص يعيشون بأسلوب حرّ ومتحرر من القيود الاجتماعية والتقاليد، مثل الفنانين والكتاب والمبدعين الذين يركزون على الإبداع والحرية بدلاً من الالتزام بالقواعد المادية أو الاجتماعية.

فلما سمع القس هذا أُسقِط في يده!

عندما كان ابن محمد أسد، طلال، يكبر، حثه على ضرورة محاولة التعامل مع غير المسلمين بالعقل والتسامح. وكان يذكر الصبي قائلاً: "لا إكراه في الدين"، مستشهداً بالقرآن.

كنت أعلم أن أكرم يشعر بنفس الشعور، ولهذا كنت أشعر بقليل من التوتر في هذه الحصة الأخيرة. لأنني احتفظت حتى الآن بالسؤال الذي أردت طرحه عليه منذ أن بدأ يتحدث إلي عن الجحيم: ما الذي يعتقد أنه سيؤول إليه مصيري في النهاية، كشخص يؤمن بوجود إله، لكنه ليس مستعدًا بعد لاعتناق دين معين؟

بعد عام من الدروس، كنت أعلم أن رؤيته للعالم واسعة بما يكفي لتستوعب رؤيتي- بل واسعة بما يكفي لاحترامها، على أقل تقدير. لكن، رغم أنه لم يقل ذلك قط، كنت أتساءل أحيانًا ما إذا كان أكرم قد بدأ دروسنا بروح الدعوة، أو بدافع رغبته في دعوتي للإسلام. كنت صديقة طلبت منه خدمة تخص وقته ومعرفته، لكنني كنت أيضًا غير مسلمة. بالنسبة لي، كانت دروس القرآن مجرد تدريب على الاستماع؛ لكنني كنت أتساءل ما إذا كان يأمل أن يؤدي هذا الاستماع إلى اعتناقي للإسلام. لقد ألمح آخرون إلى أنني قد أعتنق الإسلام. ففي اليوم الذي ذهبت فيه لتوديع الشيخ ومجموعته المسافرة لأداء العمرة، استدار أحدهم وقال بابتسامة ذات مغزى: "من يدري، ربما ستعتمرين في العام القادم!"

" هل تنبأتَ بالمستقبل؟" سألته. لكنه اكتفى بالابتسام فقط!

* * *

في الحافلة التي كانت تقلني إلى أكسفورد، قرأت وصف محمد أسد لتحوله إلى الإسلام. فعندما كان شاباً سافر عبر شبه الجزيرة العربية وأفغانستان، وكان منجذباً إلى الكفاية الذاتية البسيطة للدين، لكنه لم يتمكن بعد من الإقدام على التسليم المطلق. لقد كان التحول إلى الإسلام بالنسبة له يبدو وكأنه خوض مغامرة على جسر يمتد فوق هاوية بين عالمين مختلفين: جسر طويل جدًا لدرجة أنك لا ترى نهايته إلا بعد أن تصل إلى نقطة اللاعودة".

مجرد قراءة هذا الوصف أصابتني بالدوار. فالجسر العقلي الذي حاولت بناءه بين رؤية أكرم للعالم ورؤيتي كان أقصر من جسر أسد بمسافات. والعديد من جوانب رؤية الشيخ للعالم كانت تروق لي: الإيمان الحقيقي بمساواة البشر أمام الله، والتواضع، واللطف، واليقين، كما بدا

لي أثناء الاعتكاف، وأنا أشاهد صفوف المسلمين وهم يصلون كتفًا إلى كتف. لا أظن أنني رأيت تضامنًا روحانيًا كهذا من قبل، لا في جوقات الكاتدرائيات، ولا خلال القداسات الكاثوليكية، ولا حتى في اجتماعات الكويكرز. فلم يكن لأي منها تلك القوة البسيطة والصادقة، التي شعرت بها في غرفة مليئة بالنساء الساجدات. لكنني لم أستطع القيام بهذه القفزة إلى عالم المؤمنين؛ إنما ظللت أفكر، مع ابتسامة، في قول والدي عن الإيمان: كان يقول: "أُحِبّ أن أؤمن"، وكان يمد ذراعيه كما لوكان ينتظر عناق إله ما. أما بالنسبة لي، فقد كنت لا أزال معجبة بالإسلام. مثل والدي من قبلي، كنت جامعة لكنوزه، أنظر من خلال الصناديق الزجاجية في المتحف بدلًا من السجود في المسجد.

كان الإفلاس الأخلاقي الذي أصاب برلين، في فترة ما بين الحربين العالميتين، هو السبب الذي دفع أسد في النهاية إلى عبور ذلك الجسر الطويل. كان ذلك في عام ١٩٢٦، عصر اقتصاديات الازدهار الزائف والقيم اللامعة الفارغة. كانت ألمانيا في قبضة تفاوتات هائلة صارخة ومادية محمومة سرعان ما انهارت. وفي أحد الأيام وهو في مترو برلين، نظر حوله في عربة القطار، إلى الركاب المزدهرين، وإلى رجل يرتدي خاتماً من الألماس البراق، وإلى امرأة "تبدو على فمها ابتسامة جامدة". بالنسبة لأسد، بدا له أنهم جميعًا تعساء. كانوا "بدون أي إيمان بالحقائق الملزمة، وبدون أي هدف يتجاوز رغبتهم في رفع "مستوى معيشتهم"، وبدون أي أمل سوى الحصول على مزيد من وسائل الراحة المادية، والمزيد من الأدوات، وربما المزيد من القوة".

وعندما رجع أسد إلى منزله، فتح مصحفه، بشكل عشوائي على ما يبدو، فقد كان يبحث عن إجابة لما شاهده في عربة القطار قبل قليل. وأول ما وقع نظره عليه كان تلك الآيات:

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ. كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

(التكاثر١-٣)

بالنسبة لأسد، فقد "أثبتت تلك الإجابة، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الكتاب الذي يحمله بين يديه هو كتاب موحى به من عند الله".

وصل الشاي، وكان موعد الصلاة بعد ساعة، فقررت أن أغتنم الفرصة وأسأل:

"شيخ، ماذا تعتقد فيما سيحدث لي؟ هل تعتقد أن بإمكاني أن أكون شخصًا جيدًا دون أن أُسلم؟ هل سأذهب إلى النار؟"

قال الشيخ بهدوء: "ببساطة، وفقًا لتعاليم القرآن، لا يوجد خلاص للناس إلا إذا آمنوا بأنه لا معبود بحق إلا الله. إذا كان الناس صالحين دون هذا الإيمان، فقد ينالون مكافأة في هذه الدنيا، لكنها ليست خلاصًا حقيقيًا".

في الواقع، لم يُلقَ أي تحذير عن النار والعذاب بهذه الطريقة اللطيفة من قبل. لقد منعه لطفه من أن يقول "أنتِ" أو أن يذكر الأغلال والنيران. فقط ابتسم وقال:

"من الصعب قبول الحقيقة عندما يكون الإنسان قد سار في الطريق الخاطئ. المشكلة يا كارلا، في الحقيقة، أن الناس لا يرغبون في ذلك، لكن من الأفضل دائمًا أن يصححوا أنفسهم قبل فوات الأوان. حتى من يصحح نفسه قبل ساعة واحدة من الموت، فهذا جيد".

ثم تابع: "الإيمان بالله هو أساس كل خير. ومن هنا، يمكن للناس أن يتحسنوا تدريجيًا. لكن الأساس هو الإيمان الصحيح بالله".

جلسنا للحظة في صمت.

فسألته: "وأنت لم تشك يومًا؟"

"أحيانًا أشعر بالخوف الشديد"، تردد الشيخ. "على نفسي. لا توجد ضمانات أنك ستموت مؤمنًا. قد يكون الشخص الذي يظن أنه مؤمن في الواقع غير مؤمن. كل شيء يعتمد على الله. لا شيء مؤكد".

هذا الشك، ليس في الله بل في نفسه، وقد بدا لي مألوفًا ومطمئنًا. فغالبًا ما يفترض العلمانيون أن المؤمنين يجدون عزاءً في اليقين. لكن تواضع الشيخ لم يسمح له بالوثوق بتقواه. في كل مرة يصلي فيها، يضيف دعاءً يطلب فيه من الله أن يميته على الإيمان.

سألته: "إذا لم يكن هناك شيء مؤكد، فكيف يمكنك أن تثبت أن الله موجود بالفعل"؟

قال أكرم: "لا يمكنك أن تقدم دليلًا بنسبة مئة بالمئة على وجود الله. كما لا يمكنك أن تقدم دليلًا بنسبة مئة بالمئة على أنه غير موجود!".

بالنسبة لأكرم، كانت كل العلامات موجودة. وكان وجودنا هنا للحديث عن هذا الأمر دليلاً على ذلك. وكذلك كان غروب الشمس، وخلايا الجلد، والبعوض، وشلالات نياجرا. لقد خلق الله ما يكفي من العلامات لجميع الحجج. والمؤمنون مُطالبون بقراءة هذه العلامات. وأول كلمة نطق بها جبريل للنبي محمد كانت: "اقرأ".

" لو أراد الله أن يجعل الناس مسلمين لكان بوسعه أن يفعل ذلك. لكنه بدلاً من ذلك أرسل الهداية. إنه يريد من الناس أن يفكروا ".

قلت: "أنا أفكر. لكن يبدو لي أن الإيمان يتطلب قفزة".

قال الشيخ: "ليس قفزة بل إحساس باليقين. الوصول إلى الإيمان يشبه فهم حب الأم. إنه ينمو. تكون لطيفة معك، فتؤمن بنسبة خمسة بالمئة. ثم وأنت تكبر، تستمر في إظهار حبها لك؛ تطعمك، وتعلمك، وهكذا، ينمو الإيمان إلى عشرة بالمئة، وكلما لاحظت أكثر، زاد إيمانك".

"أتعلمين، في اللغة الإنجليزية، عندما يقول الناس إنهم يعتقدون، فهذا يعني أنهم يشكون. مثلًا، إذا سألتكِ إذا كنتِ ستأتين لرؤيتي، وقلتِ: أوه، أعتقد ذلك، فهذا يعني أنك مترددة. لكن الاعتقاد في الإسلام ليس كذلك. الاعتقاد في الإسلام يعني أنك متيقنة من أنه لا بد أن يكون صحيحًا".

" حسنًا، هل كانت لديك أي شكوك من قبل؟" سألت مرة أخرى.

"لا أذكر أنني شعرت بأي شكوك. ليس لدي أي شك في أن العالم مخلوق من قبل الله. في الواقع، المسألة ليست إثباتًا. المشكلة هي أن الناس لا يريدون أن يروا".

دخلت فتاتان مراهقتان المطعم بصخب. وفي الخلفية، تردد صوت سيارة إسعاف، ودراجة نارية مرت مسرعة على الطريق، إلا أن تركيز الشيخ لم يتشتت.

"سأعطيك مثالاً. يعلم الجميع أن الموت آتٍ. فلماذا لا يذكره الناس؟ كل ما عليك فعله هو التفكير! إنه مؤكد. لكن الناس لا يفعلون ذلك. لأن الناس إذا فكروا، فلن يستمتعوا بالحياة. فإذا أخبرني الطبيب أنه بعد عشرة أيام سأموت، هل تظنين أن لدي الوقت لحضور حفلة، أو الاستمتاع بشذى وردة ؟"

قلت: "حسنًا، يعتقد الكثير من الناس أن اليقين بالموت هو السبب في شم رائحة الورود".

قال الشيخ: إن النهج القائل "اغتنم اليوم" يتجاهل الواقع. وفي هذا المجتمع، تم تهميش كبار السن والمرضى. فلا يرى الناس إلا الوجوه الشابة، الوجوه المشرقة. انظري كيف يصورون نجوم السينما. إنهم لا يُظهِرون ما يحدث لهم بعد الشباب! نحن نرى شبابهم فقط".

جادل الشيخ بأن الثقافة الغربية لا تمنح قوس الحياة حقه كاملاً. يقول الجميع: إذا أردت أن تفهم شيئًا بشكل صحيح، انظر إلى جميع جوانبه المختلفة، اجمعها، ومن ثم يمكنك أن تفهم. في الغرب، يعرف الناس جزءًا واحدًا من الحياة فقط".

"ما هو؟"

"هم فقط يرون الشباب المتألق، لكنهم لا يرون الموت الذي يترصده. ربما لا يؤمن الجميع بيوم القيامة، لكن على الأقل يجب أن يُذكر الموت بشكله المناسب! يجب أن يراه الناس، ويعرفوا معنى الموت، والشيخوخة، والمرض. يجب أن يكون ذلك جزءًا من المجتمع. والفقراء أيضًا، يجب أن يكونوا جزءًا من المجتمع!".

أومأت برأسي. "إنه لأمر مريح عندما تعترف ثقافة ما بالموت".

أخبرته كيف أنني عندما توفي والدي، ذهبت إلى باكستان لبضعة أشهر. رسمياً، كان الهدف من الرحلة أن أبدأ العمل كصحفية، لكنني في الحقيقة ذهبت لأحزن. لقد اخترت باكستان لأنني أردت أن أحزن في جزء من العالم، حيث كانت عائلتي سعيدة ذات يوم هناك. كذلك أردت أن أكون في مكان يُنظر فيه إلى الموت كجزء من الحياة، وليس كصدفة، أو فشل في العلوم الطبية.

الكثير من الناس ينوحون يوميًا على موتاهم في أمريكا، لكنهم غالبًا ما يجدون أنفسهم وحيدين أثناء ذلك. هناك ضغوط هائلة للتعافي سريعًا، ولاستعادة اللياقة من أجل متابعة السعي وراء السعادة. لذا يتم دفع الموت إلى الهامش، إما بواسطة جلسات مع مستشارين نفسيين متخصصين في الحزن، أو من خلال الكهنة. وينظر إلى الموت في هذا السياق على أنه نهاية حتمية غير قابلة للتغيير والإصلاح، في أرض تميل إلى التركيز على الجانب المشرق، وفي موطن المعتمدين على أنفسهم، وصانعي الذات.

أما في باكستان، فقد كان الموت موجودًا في كل مكان. ولأنني كنت أبحث عنه، فقد وجدته في حاضرًا أمامي. في عناوين الصحف الدامية عن الحروب القبلية وجرائم الشرف. وفي الحفلات، فقد أخبرتني إحدى النساء كيف ذهب خطيبها لشراء السجائر ولم يعد قط، حيث لقي حتفه في حادث سيارة. وفي متحف لاهور، في تمثال بوذا، الذي بدا لي أن نحات الحجر قد وضع العظام خارج اللحم.

وفي الليل، وجدت نفسي أروي لرفيق عشاء عابر حكاية وفاة والدي. حتى وأنا أفعل ذلك، كنت أعلم أن مثل هذا الحديث مع شخص غريب، غير حميمي، وغير شهي، مثل العثور على شعرة في حسائك. ومع ذلك كان رفيقي مهذباً، فغمس خبزه في الزبادي، وأومأ برأسه، ومضغ، وابتلع: "آه، نعم. لقد قُتل والدي في حرب قبلية عندما كنت في السادسة من عمري. ولحسن الحظ، قام عمي بتربيتي". ثم مد عنقه يبحث عن النادل لجلب الملح، وكأن كونه يتيمًا كان بمثابة إزعاج بسيط مثل طبق بلا ملح.

وعندما ألححت على الشيخ عما إذا كان يأمل أن أعتنق الإسلام خلال دروسنا، كانت إجابته، كما هي العادة، مرتبطة بالموت. قال لي: إنني حرة في أن أتخذ قراري بنفسي، لكنه أراد أن يخبرني بما ينتظرني بعد الموت، فقد كان يخشى المحاسبة على عدم تبليغه الناس. وقال: "عندما أقف يوم القيامة، ويسألني الله عما إذا كنت قد حذرت الناس من نار جهنم، أريد أن أكون قادرًا على القول أنني قد فعلت. فأصدقائي، أمثالك، يجب أن أحاول بالتأكيد إنقاذهم"، ثم أضاف: "ألن تفعلي الشيء نفسه من أجلي؟ إذا كان هناك أمر في هذا البلد يمكن أن يزجني في السجن أو يسبب لي الألم، ألا تحذِّريني؟"

* * *

بعد أسبوع من آخر درس لي مع الشيخ، اتصل بي أخي ليخبرني بوفاة والدتي. لقد كانت السنوات العشرون، التي مرت منذ وفاة والدي، شديدة الوطأة على والدتي. فبعد ثلاثة أسابيع من وفاته، أصيبت بنوبة قلبية شديدة لدرجة أن الأطباء أطلقوا عليها لقب "معجزة عام ١٩٩٣". لقد نجت بالفعل، وفي السنوات التالية عاشت حياة معقولة، وإن كانت وحيدة. لقد درّست الدراسات النسوية في الجامعة، وزارت مصر وإيطاليا، حيث عاشت هي ووالدي، ثم عادت إلى المنزل الذي توفي فيه في المكسيك. في بعض الأحيان، كانت تعيد إحياء لمحة من

نفسها الشابة، تلك المرأة التي قطعت رحلة برية مع صديقة من طهران إلى هرات، والتي كانت تستطيع إعداد وجبة فرنسية مكونة من خمسة أطباق دون أن تلقي بالكاد نظرة على كتاب "جوليا تشايلد". لكن وفاة والدي واكتئابها استنزفاها. كانت تقول مستشهدة بروبرت فروست: "ما الذي يمكن أن نصنعه من شيء ضئيل؟". أمضت السنوات السبع الأخيرة من حياتها وهي تعاني من مرض "جسم ليوي" في دار رعاية في سانت لويس، حيث تسببت رقائق صغيرة قاسية من الكالسيوم في دماغها في أن يتلاشى حضورها القديم ويعود.

لقد كانت والدتي خلال حياتها تتجاهل اليهودية. لكن من المعروف أن الطقوس والانتماء يوفران الراحة لأولئك الذين نسيهم الموت. لقد صعدت إلى الطائرة من لندن وأنا غارقة في قراءة القرآن، لكن عندما نزلت في سانت لويس، وجدت نفسي ممتنة لاحتضان دائرة أصدقاء أمي، ومعظمهم كانوا يهودًا. وأرسلت رسالة نصية لزوجي: "أزداد يهودية مع كل دقيقة!". كانت قبيلة أمي الحقيقية تتكون في الغالب من الجامعة، لذا كان الحفل، الذي أقيم في نفس الطابق الذي يقع فيه قسم اللغة الإنجليزية، يتضمن خطبًا اقتبست من شكسبير وأدريان ريتش. ولم يكن لدينا حاخام، لكن صديقة والدتي، وهي أستاذة عبرية، قادتنا في تلاوة "الكَدِّيش"، صلاة اليهود للموتى. أنا وأخي نيكولاس أخطأنا في تهجئتها فقلنا: "كَدِيش". وعندما بدأنا في تلاوتها، بدا أن الجميع يعرفها إلا نحن. ومع ذلك، وجدت عزاءً في تعثري خلال الكلمات غير المألوفة: "نسعى إلى السلام والفهم لأنفسنا، ونعد بفهمنا أن نحقق السلام لكل من نلتقي به".

عندما عدت من سانت لويس، اتصلت بالشيخ وأخبرته بالخبر.

"لا أستطيع التوقف عن التفكير في تلك القصيدة التي ألقيتها عن إقبال عندما توفي والدي، حول "من سيبقى مستيقظًا من أجلي؟ من سينتظر رسائلي؟"

قال ببساطة: "أنا آسف جدًا، كارلا. ليس هناك شيء في هذا الكون يشبه الأم".

كنت أعلم أنه يصدق ذلك. فلطالما كان يستشهد بحب الأم، وليس الأب، لتوضيح رحمة الله تجاه الكون.

أغلقت الهاتف، وعدت إلى قراءة مرثية إقبال. وأدركت سبب تأثيرها العميق عليّ في ذلك اليوم الذي ألقاها أكرم. تعبر القصيدة ليس فقط عن الفقد بالموت، ولكن أيضًا عن ألم

الانفصال أثناء الحياة. وكما يخبرك أي مهاجر، فإن الموت عن بُعد له إيقاعاته الخاصة، حيث تُضفي المناطق الزمنية واللوجستيات على الألم لمسات جديدة حادة.

قبل أسبوعين فقط، وبينما كانت جوليا ونيك يراقبانني بعيون مفتوحة، أجريت مكالمات هاتفية طويلة في الفجر. فالعديد من الوفيات تبدو غير واقعية، لكن بالنسبة للمهاجر الذي ينوح عن بُعد، فهي مضاعفة. فبعد أن يفقد حضور من يحب في حياته اليومية، لم يعد لديه سوى حضور شبحي في البداية. يمكن للزيارات المنزلية والمكالمات الهاتفية أن تعيدهم إلى الحياة، ولكن بشكل مؤقت فقط. لذا، بعد المكالمة التي تخبره بالخبر، يتعين على النائح عن بُعد أن يستدعي صورة المحبوب في ذهنه، ثم يفقده مرة أخرى.

* * *

في مراسم تأبين والدتي، اقتبست صديقة، وهي تتحدث عن سنواتها الأخيرة، من شكسبير: "عندما تأتي الأحزان، لا تأتي كجواسيس منفردة، بل ككتائب". فبعد أيام قليلة من التأبين، أرسلت لي أرزو، تلميذة الشيخ، رسالة نصية تقول: بأن والدة الشيخ قد توفيت بشكل غير متوقع في وقت سابق من ذلك اليوم. وشعرنا وكأننا في قبضة وباء جنوني عابر للحدود لفقد الأمهات.

صُدمت، وأرسلت رسالة تعزية، فلم أرغب في التدخل بسرعة.

وبعد دقائق قليلة، سجل هاتفي مكالمة فائتة. كان المتصل الشيخ.

عاودت الاتصال.

قال بهدوء: "لقد رأيتها آخر مرة عندما رأيتِها أنتِ آخر مرة".

" لقد كان ذلك امتيازًا"، قلت. كنت أعرف جيدًا أهمية النظرة الأخيرة. وأهمية إعادة تشغيل ذكريات آخر نظرة- والأسوأ من ذلك، عدم وجود مثل تلك النظرة. وكل من يفقد إنسانًا تكون لديه مثل هذه الذكريات، لكنها واضحة، بشكل خاص، بالنسبة للمهاجرين مثل أكرم وأنا. لدي مشهدان يعيدان عرض نفسيهما بشكل متكرر: والدي، بحقيبة ظهر صفراء، يستقل حافلة في لندن للذهاب إلى الطائرة. ووالدتي، تلوح بشجاعة من كرسيها المتحرك، تخبرني بأن أقبل أطفالي في إنجلترا نيابة عنها.

ولأنني كنت قد ذهبت مع أكرم في آخر مرة رأى فيها والدته، وهي تجلس على سريرها القماشي، فقد كنت له، في هذه الليلة، بمثابة جسر يعيده إلى جمداهان.

لقد كان هادئًا على الهاتف، يهمس بصوت منخفض ويتحدث قليلًا. كان هذا جزءًا من طبيعته المتحفظة بالطبع، لكنه كان أيضًا يتبع السُنّة: فقد حذر النبي من النحيب العالي على الموتى. فالدموع الصامتة مقبولة، كما قال محمد، لكن البكاء بصوت عالٍ غير مقبول لأنه يشبه الحداد المبالغ فيه في العصر الجاهلي.

كانت المكالمة قصيرة، وهذا أمر جيد، لأنني كنت على وشك أن أنخرط في نواح عالٍ وغير إسلامي.

قال الشيخ قبل أن ينهي المكالمة: "أنتِ قريبة جدًا من قلوبنا".

* * *

أخبرتني سمية أن العائلة ستستقبل مكالمات التعزية يوم الأحد. وكما في اليهودية، يُعد تقليدًا إسلاميًا أن يأتي الأصدقاء والأقارب لتقديم التعازي للميت ومواساة الأحياء. في سانت لويس، تساءل أصدقائي عما إذا كنت أنا وأخي سنجلس "الشيفاع"، وهي فترة الحداد اليهودية التي تستمر أسبوعًا بعد الدفن؟ لم نفعل في ذلك الوقت. فقد بدا هذا التقليد رسميًا أكثر مما تستدعيه يهوديتنا المخففة. علاوة على ذلك، لم يكن الجلوس للشيفاع عمليًا لعائلات مشتتة مثل عائلتنا. وبما أننا كنا نقيم في غرف أصدقاء إضافية، لم يكن هناك مكان واضح للجلوس.

عندما عدت إلى إنجلترا، شعرت بالندم لعدم القيام بذلك. فقد قضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزل حماتي الإنجليزية. وهي بريطانية من الطراز القديم، لا تحب الفوضى التي تأتي مع الحزن. وكان جيلها يفخر بقدرته على اجتياز الحرب دون شكوى. بلا شك، كانت تأمل أن يكون حديثها عن نادي الكتاب وألغاز الكلمات المتقاطعة بمثابة تشتيت مرحب به عن التفكير في الميت. لكن ذلك جعلني أرغب في صب ألمي الخام في كل وقفة بالمحادثة، وفي رمي كل فنجان شاي يُمرر لي برفق.

بعد عطلة نهاية أسبوع من الرزانة الأنجلوسكسونية، بدا منزل الشيخ مألوفًا بشكل مريح. لقد وجدت راحة في علامات الحزن المستيقظ: السرير غير المرتب الموضوع في الغرفة الأمامية،

عيون الشيخ المحمرة نصف المغلقة، الأطفال القلقون، المحاولات المتعثرة لبدء الحديث، الترتيبات السفرية المضطربة.

كان الشيخ يواجه صعوبة في الحصول على تأشيرة للعودة إلى الهند. وللحصول على معاملة عاجلة في القنصلية الهندية، كان يحتاج إلى شهادة وفاة، وهو أمر لم تحصل عليه والدته لأنها توفيت في قرية نائية. كان الشيخ قد فاتته بالفعل مراسم الدفن، التي تملي التقاليد الإسلامية أن تتم في غضون ثلاثة أيام. وفي جمداهان، حيث لا توجد كهرباء، وبسبب حرارة سبتمبر تمت مراسم الجنازة بشكل أسرع، ودُفنت والدة أكرم في اليوم التالي لوفاتها، وقامت أخوات أكرم بغسل الجثمان وفقًا للعادات الإسلامية ولفه في الأكفان البيضاء الخمسة المعتادة. وفي اليوم التالي، أُغمي على أخته الكبرى وتم نقلها إلى المستشفى، ووضعت لها المحاليل بسبب الإرهاق.

في الظهيرة التي قدمت فيها واجب العزاء، لم يكن الشيخ في المنزل، واستُقبلت في غرفة المعيشة، حيث جلست مع فرحانة والأطفال. وأخبروني أن الشيخ كان يستقبل المعزين من الرجال في غرفة أخرى. وعندما كان الرجال على وشك الخروج من الباب الأمامي، سمعت صوته ينادي بلطف لإغلاق باب غرفتنا حتى نتمكن من مراعاة الحجاب أثناء خروجهم.

ثم دخل الشيخ الغرفة، مرتديًا اللون الأبيض، لون الحداد لدى المسلمين. فقال وهو يخفض رأسه: شكرًا جزيلاً على قدومك، كارلا. كنا سنأتي إلى برايتون لرؤيتك، لكن...".

" كان ينبغي لنا أن نلتقي في منتصف الطريق"، مازحت، فقد تخيلت نفسينا جالسين على حافة طريق سريع بريطاني، يتيمين مولودين في الخارج، يعزيان بعضهما البعض على والدتيهما المفقودتين.

جلس لفترة وجيزة ثم اعتذر: كان هناك المزيد من الرجال ينتظرون في الغرفة الأخرى لتقديم التعازي.

لم أكن متأكدة مما يجب أن أحضره، لذا قررت إحضار الزهور. وفي وقت لاحق، اكتشفت أن المسلمين، الذين يأتون لتقديم التعازي، يحضرون معهم الطعام. وكما هو الحال في اليهودية، فإن العرف يدعو المجتمع إلى إطعام المحزونين.

" طعام!" صرخت وأنا أتناول طبقًا من البطاطس المتبلة والسبانخ. "طعام للحزانى! هذا بالضبط ما نفعله نحن اليهود !"

ابتسمت سمية وهي تغرف المزيد: "لا أرى سببًا لكل هذا القتال. هناك الكثير مما هو مشترك"

سألتها: "هل سيتمكن والدك من الدعاء لجدتك؟"

قالت: "العرف هو أن يجتمع أكبر عدد ممكن من الناس للصلاة عند القبر، لذا فقد فاتته تلك الفرصة. لكننا جميعًا ندعوا لها في صلواتنا هنا".

لطالما تمنيا والدا أكرم أن ينتقلا للعيش بجوار ابنهما في إنجلترا. قالت سمية: "كان والدي يقول دائمًا إنه سيحضرهما إلى هنا. لكن كان ذلك سيتطلب الكثير من الترتيبات. كنا بحاجة لبناء حمام على الطراز الشرقي لهما. وكان علينا العثور على أشخاص يهتمون بهما ويتحدثون الأردية. ثم كان هناك موضوع الطقس. فمن عاش في جمداهان، سيشعر بالبرد، حتى في الصيف.

لقد كان تدين أكرم يربطه بالحياة الآخرة، وكان يحمل وعيًا بالموت كما يحمل الآخرون مفاتيح سياراتهم. لكن حتى مع إدراكه الحاد للموت الوشيك في كل لحظة، فإنه لم يستطع حجب الحزن. قد تُضعف قوة الإيمان المشاعر الدنيوية التي تعترض البشر، مثل الشهوة والطمع. لكن التقوى لا يمكنها أن تملأ الفراغ الذي يتركه موت الأم.

خاتمة

العودة الأبدية

عندما جاء الاتصال يخبر الشيخ بوفاة والدته، كانت أولى كلماته تلك الكلمات التي اعتاد المسلمون أن يقولوها عند سماعهم أخبار المصائب والموت "إنا لله وإنا إليه راجعون" إننا ننتمي إلى الله، وإلى الله نعود. هذه العبارة المأخوذة من السورة الثانية من القرآن، وهي عبارة تجمع قائلها، ومستمعها، والمتوفى في مصير مشترك. وتستمد قوتها من تماثلها: منشؤنا هو وجهتنا، ونهايتنا هي بدايتنا.

هناك قصة يرويها عبد الحق بيولي- الشيخ البريطاني البارز- عن كيف غيّرت هذه الكلمات الست حياته. فقد وُلد مسيحيًا وانغمس في إسرافات حقبة الستينيات الصاخبة في لندن قبل أن يعتنق الإسلام. وحدثت نقطة التحول في حياته عندما كان شابًا يافعًا يسافر عبر المغرب. ففي إحدى الأمسيات في فاس، صعد هو واثنان من رفاقه إلى تلة تطل على المدينة لمشاهدة غروب الشمس. ومع حلول الغروب، كانت السماء تضج بنداءات المؤذنين للصلاة من المآذن.

التقى الرجال الثلاثة براعٍ يمر مع قطيعه، وتحادث أحد رفاقه، الذي كان يتحدث العربية بطلاقة، مع الرجل العجوز وسأله، على سبيل الفكاهة عن وجهتنا بعد الموت، فأجابه الراعي: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

عند سماع ذلك، قرر بيولي أن يعتنق الإسلام، وفعل ذلك في اليوم التالي.

إنها قصة مؤثرة، ذات شعور مُرضٍ بإغلاق جيد للحكاية: "أيها القارئ، لقد تزوجتها". شاب يلتقي بالحقيقة ويحتضنها. وكما تخيلت المشهد على التلة فوق فاس أشبه بمشهد من الكتاب المقدس، أو النسخة الهوليوودية منه: مدينة قديمة تمتد كصحن أسفل رجال ثلاثة، والشمس تصبغ المباني بلون برتقالي، ووجه راعٍ متجعد هادئ يراقب عنزاته وهي ترعى العشب من بين الصخور. ثم تأتي كلمات القرآن، تخترق المشهد، واعدةً بالعودة إلى الخالق واللقاء به.

وعلى النقيض من الرجل- الذي أصبح يُعرف بالشيخ عبد الحق بيولي- فإنني لم أعتنق الإسلام. لكن العام الذي أمضيته مع شيخي والقرآن، منحني العديد من لحظات النعمة، ووجدت الراحة في مدى شعوري بالضآلة وأنا أقرأ النص، وأتأمل صورة "رب السماوات والأرض وما بينهما، ورب المشارق والمغارب". فحتى وأنا غير مؤمنة، وجدتُ نفسي ألجأ إلى دروس القرآن كملاذ هادئ بعيدًا عن صخب الحياة اليومية. ولقد أراحني تجاهل الشيخ لكل مقاييس الربح والخسارة. فإغلاق وول ستريت، أو نتيجة الامتحان، أو مقاس الفستان، وحتى السعادة نفسها؛ كل ذلك كان لا شيء أمام الحقيقة بأننا من الله أتينا، وإلى الله نعود.

وكان التذكير المستمر بعجز المرء وقلة حيلته يبعث في النفس شعوراً غريباً، لكنه منعشًا. فعندما توفيت والدتي، أتذكر كيف شعرت بالعقلانية في الممارسة الإسلامية لقول "إن شاء الله" بعد كل خطة، وبعد كل وعد، مهما كان صغيرًا؛ لأن الله وحده هو الذي يمكنه أن يكون متأكدًا مما إذا كان موعد الغداء يوم الأربعاء القادم سيُنفذ بالفعل أم لا. ففي موسم الحزن، كان من المريح أن أكون بين مجتمع يقدّر عدم يقينية هذا العالم.

إن اقتباس الراعي من القرآن لا يزال يطاردني، وخاصة لأن الدائرة التي يصفها تعطي لحياة أكرم شكلًا ومعنى. والدراسة مع أكرم، تعني بأن تتعلم كيف تسير حياته على وعي بهذه العودة. وبالنسبة للشيخ، كانت الحياة دائرة مع الله في نهايتها، وبدايتها، وفي كل نقطة بينهما: من الله جاء، وإلى الله سيعود. لقد كانت تلك الرسومات لدائرة وخط على السبورة، في ذلك اليوم الذي ألقى فيه محاضرة عن قصة يوسف، رسمًا لحياة إسلامية تقية. الدائرة: دورة من الأيام، وسعي المسلم المستمر نحو الله. والخط: المساحة التي وجد المسلمون أنفسهم فيها. لم يكن الخط مشكلتك، إنما الدائرة هي المشكلة "اجعلها دائمًا، في خشية الله" كما قال.

لذلك، كان أهم ما في كل حج هو الطواف، قال أكرم. "الطواف حول الكعبة سبع مرات حول الحجر الأسود هو دائمًا أحب شيء إلى قلبي". وكل يوم كان يعود فيه إلى الله، خمس مرات، وأحيانًا أكثر بكثير، من خلال إلى الصلاة. ففي الوقوف، والركوع، ووضع جبهته على الأرض، ثم الوقوف مرة أخرى، تعود أفكاره إلى أصله ووجهته، التي هما واحد. وفي لحظات الخشوع الجيدة، يمكن أن تبدو الصلاة كعودة إلى "أحضان أمك كما لو كنت طفلًا"، كما قال.

إنني ما زلت أحسده على هذا الشعور، رغم أنني ما زلت لا أفهم القرآن ككل موحد. ورغم أن العديد من المقاطع تحرك مشاعري، إلا أن أياً منها لم يحرك دموعي. ولكي أكون

منصفة مع أستاذي، فمن المعروف أن القرآن لا يمكن ترجمته. ومن يعجز عن قراءته باللغة العربية الفصحى، كما يحذر مراراً وتكراراً، يفوته الكثير من شاعريته وقوته. لقد بدأت هذا العام الدراسي وأنا أشعر بالسوء حقاً لأنني لم أستطع قراءته بلغته الأصلية. ومع مرور العام، بدأت أشعر بسوء اقل. والآن أمتلك نسخاً من القرآن أكثر مما كنت أمتلكه عندما بدأنا الدراسة.

وبجانب مصحفي الورقي، بترجمه بيكثال، المزخرفة بأسلوبه اللفظي، ونسختي الصادرة من السعودية، يوجد لدي أربع ترجمات أخرى. وبالنسبة للمتشددين، فإن كل جهد جديد في الترجمة قد يشير إلى استحالة الترجمة، ويذكرنا بتلاشي الحقيقة الواحدة. لكن هناك طريقة أخرى للنظر إلى استحالة الترجمة، وهي طريقة تتماشى مع إيماني الإنساني العلماني: كل مترجم جديد يشرع في رحلة جديدة لترجمة القرآن، لا يشير إلى عدم قابليته للترجمة، بل إلى ثرائه.

عندما بدأت دروس القرآن، افترضت بثقة جريئة أنني سأقرأ كتابًا وأتعلم ما بداخله. وكان أول دليل على أنني لا أستطيع ذلك قد ظهر خلال الدرس الأول، في مطعم "نوزباغ"، عندما قال الشيخ: "آه. لكن، هل القرآن كتاب؟" كنت أُربّت على نسختي الورقية دون أن أفهم مقصده.

لقد قطعت شوطًا طويلاً منذ لقائي الأول بالقرآن، عندما جعلته رواية برونتي لدميتي، لكنني لم أفهم بعد أنه أكثر بكثير من كونه مجرد كتاب يحظى بقدر عظيم من التبجيل. وعلى مدار العام، بدأت أرى أن القرآن ليس مجرد مجموعة من الصفحات بين غلافين. ووصفه بأنه كتاب، يشي بأنه شيء يمكن قراءته من البداية إلى النهاية، الأمر الذي يضعه في قوالب توقُّعات محدودة، ويختزله إلى شيء صغير: تعويذة، أو بيان، أو دليل إرشادي، أو أداة سياسية.

لكن في حياة مسلم مثل أكرم، فإن معناه أكثر رحابة. وكذلك الأمر بالنسبة لمدى تأثير القرآن في المجتمعات المسلمة، حيث تصدح كلماته من مكبرات الصوت في المساجد، أو تُبثّ عبر المذياع والأقراص المدمجة، أو تُعلَّق كزينة على الجدران، أو تُرتدى كقلائد. وأنا أحاول فهم ماهية القرآن، يمكنني فقط أن أستقر على معنى "العودة". إنه مكان يعود إليه المؤمنون مرة بعد أخرى، كما يفعلون في الصلاة.

وقد وجد العلماء، الذين درسوا وضعيات الصلاة الإسلامية، أنها تشجع على الهدوء والمرونة. فالوقوف المستقيم، في وضعية البداية، يقوي العضلات. والركوع يمد أسفل الظهر وأوتار الركبة. ووضعية الجلوس، بعد السجود، تحافظ على مرونة المفاصل.

وإنَّ صلوات أكرم جعلته مرنًا ثقافيًا أيضًا، مما وسّع إنسانيته بطرق مدهشة. فالعودة إلى سجادة الصلاة، والقرآن، والنصوص الكلاسيكية، غالبًا ما منحه رحابة في رؤيته للعالم، وليس ضيقًا. والرجوع إلى المصادر الأولية لعلم الحديث سمح له برؤية أنماط غابت عن الآخرين أو رأوا تجاهلها.

وفي تجميع تاريخ آلاف النساء المتعلمات، وجد أكرم ماضياً يدافع عن حاضر أكثر تحررًا. وعلى النقيض من التقاليد التي يستشهد بها الرجال الذين يحصرون المرأة في البيت، اكتشف أكرم ماضياً يدفع المرأة إلى الأمام.

كان النبي إبراهيم، الذي يُكن له الشيخ حبًا عظيمًا، قد حذر من عبادة الله بطريقة معينة فقط لأن الآباء فعلوا ذلك. ونصيحة أكرم للمسلمين المعاصرين تعكس تحذيرات إبراهيم من التصلب الروحي، ويحذرهم بقوله: "عندما تركز الثقافة على الجوانب الخارجية للدين– مثل الحجاب– يصبح الدين مجرد هوية، وفي نهاية المطاف، يحمل الناس جسداً ميتاً، بلا روح".

و نصح أكرم: "ارجع إلى المصادر. إلى سجادات الصلاة. اجعل إيمانك خاصًا بك. لا تفعل ما يفعله الجميع. اقرأ. فكر. أزل غبار التقاليد، ومعه يقينيات أسلافك". وإن العبادة الحقيقية تتطلب النظر إلى ما وراء البرقع، واللحية، والأحكام الفقهية، التي غالبًا ما تكون مجرد أدوات وليست التقوى ذاتها. فالعبادة الحقيقية هي "التقوى"، والوعي بالعودة. هذا الإحساس الدائم بالعودة منح أكرم النعمة للانطلاق في العالم. وبهذا، انتقل برشاقة من قرية جمدهان إلى مدينة لكناو، ومن ثم إلى الغرب، غير مثقل بالمرارة، ودون شعور بصراع الرغبات في نفسه، أو بتكبيل حرية نشاطه بسبب الخسارة.

غالبًا ما يُصوَّر المهاجرون، خاصة المسلمون منهم، على أنهم أناس انقسمت حياتهم إلى شطرين عند انتقالهم إلى الغرب. ففي الولايات المتحدة وأوروبا، كان التركيز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، على الأمن والاندماج بين الأقليات المسلمة، مما جعل الفواصل، مثل تلك الموجودة في "مسلم- أمريكي" أو "بريطاني-باكستاني"، تُفسر كأنها انقطاعات، وليست جسورًا. لكن الهجرة قد تضاعف الذات بقدر ما تقسمها. وقد أطلق سلمان رشدي على

المهاجرين وصف "رجال مترجمون"، يترجمون بلدانهم إلى البلدان التي هاجروا إليها. وفي كثير من الأحيان، يُفترض أن شيئاً ما لا بد أن يضيع خلال الترجمة، كما كتب رشدي. أما أنا فأتمسك بعناد، بفكرة أن شيئًا ما يمكن اكتسابه أيضًا من خلال الترجمة".

لقد استفاد أكرم كثيراً من ترجمة شخصيته الهندية إلى شخصيته البريطانية. فقد كانت هجرته تعني تراكم الثقافات وليس قطيعتها. وقد وفرت له الحياة في الغرب منظوراً جديداً، مكنه من التمييز بين ما هو جزء من الدين الإسلامي وما هو مجرد تقاليد الأجداد. كما منحته حياته في أكسفورد القدرة المالية للعودة إلى جمدهان لتأسيس مدرسة دينية للبنات، ووفرت له الفرصة للعودة إلى ندوة العلماء وإلقاء محاضرة وُصِفت بالجريئة في مجتمع العلماء، لأنها تضمنت اقتراحًا بأن المسلمين يتحملون جزءًا من المسؤولية عن مشكلاتهم الحالية. وفي بريطانيا، قد يبدو أكرم وكأنه هندي مترجَم إلى بريطاني. لكن إذا ابتعدنا عن العالم بما يكفي لكي نلقي نظرة واحدة على الهند وبريطانيا، فلن نراه مترجَماً فقط، بل مترجِماً بين الثقافتين- الهندية والبريطانية.

وأشار الكاتب مصطفى أكيول إلى أن الثقافات الإسلامية غالباً ما تتمسك بمبادئ صارمة وغير متغيرة، وتخلق تقاليد جامدة عندما تشعر بالتهديد من الغرب. أما عند شعورها بالثقة والأمان، فإنها، كأي ثقافة أخرى، تُظهِر قدراً كبيراً من المرونة. وأوضح أكيول أن الإمبراطورية العثمانية القوية لم تفقد هويتها الإسلامية قط، حتى عندما منحت اليهود والمسيحيين حقوقاً متساوية كمواطنين، وألغت حد الردة. وظهر مستوى مماثل من الثقة في استطلاع أجراه مركز بيو عام ٢٠١١ بين المسلمين الأمريكيين، حيث وافق أغلبهم على أن هناك أكثر من تفسير صحيح للتعاليم الإسلامية، وأن الديانات المختلفة يمكن أن تقود إلى الحياة الأبدية.

وعندما سألت الشيخ عن كيفية تعميق فهمي، كانت إجابته دائماً تردد نفس الأمر الذي سمعه النبي محمد: "اقرأ". قال لي في درسنا الأخير: "استمري في قراءة القرآن. اقرئي، ثم اقرئي، ثم اقرئي".

خلال حواراتي مع أكرم، انهارت العديد من معتقداتي الأصولية. افتراضاتي بأن قراء النصوص الدينية بشكل حرفي، مثل الشيخ، يرون إيمانهم يتعارض مع العلم، هذا الافتراض انهار تمامًا. بالنسبة لأكرم، كان العلم مجرد طريقة أخرى لفهم خلق الله. الكون كان واسعًا بما

يكفي ليتسع لكلتا الطريقتين. قالت أرزو: "لم يحدث أبدًا، عندما كنت أدرس الفيزياء في أكسفورد، أن أخبرني بألا أُكمل دراستي. بل العكس تمامًا. ظل يخبرني أن عليّ أن أنهيها".

اعتقادي بأن المتدينين كانوا بمنأى عن الشك؟ كان بلا أساس. فقد تحطم هذا الاعتقاد عندما اعترف لي أكرم بأنه كثيرًا ما يقلق من أنه قد يمارس إيمانه بطريقة خاطئة، وأنه يوم القيامة قد يُحكم على إخلاصه بالنقص.

تقسيمي الواضح بين رؤيتي ما بعد عصر التنوير للعالم وبين رؤية الشيخ الإسلامية، أصبح تقريبًا أنقاضًا. ففي أحد الأيام، عندما قرأت كتابًا للمفكر الإنساني العلماني أ. سي. غرايلينغ، فوجئت عندما وجدت قائمة بقيم التنوير: "التعددية، والاستقلالية الفردية، والديمقراطية، وسيادة القانون، والتسامح، والعلم، والعقل، والعلمانية، والمساواة، والأخلاق والإنسانية، والتعليم، وتعزيز وحماية حقوق الإنسان والحريات المدنية". وكانت أغلب هذه القيم من قيم أكرم ـ باستثناء العلمانية.

في الواقع، كان يسعى لجعل الله محور كل شيء يفعله. فالسياسة، والمجتمع، والفن– كلها خاضعة لعبادة الله. لكنني كنت مذهولًة مرارًا وتكرارًا من كيف أن إيمان الشيخ سمح، بل شجع، على انتقادات مشابهة لتلك الانتقادات التي أتبناها. كان هذا العام بمثابة تذكير بإمكانيات نموذج التقوى الخاص بأكرم، مع دفاعه عن أبسط حقوق الإنسان، وتركيزه على الضمير الفردي بدلاً من القوانين التي تفرضها الدولة، ونهجه الذي يدعو إلى التعايش.

صحيح أنه عندما تحدثنا عن الأدوار المنزلية للمرأة، أو عن أي شيء يتعلق بحقوق المثليين، اصطدمتُ بحدود انفتاح الشيخ. لكن إذا كنت أريد حقًا قراءة للقرآن تتفق تمامًا مع وجهة نظري، فيجب عليّ أن أبحث في أعمال رائدات مثل أمينة ودود، وأسماء برلاس، وأصغر علي إنجينير، أو الجيل الجديد من المدونات والكاتبات والناشطات اللاتي يبنين على عملهن. وإذا أردتُ فهمًا عن المثلية الجنسية يتماشى مع الفكر القانوني الغربي، فيجب عليّ الرجوع إلى أعمال باحثين مثل سكوت سراج الحق كوجل، الذي تضمنت أعماله عن رهاب المثليين الإسلامي إعادة قراءة لقصة لوط في القرآن.

وعندما كنا نختلف أنا والشيخ، كانت تصادماتنا بمثابة تذكير لي بمدى حداثة تكوين الآراء الغربية السائدة. وقد تزامنت دروسنا مع تطور مفهوم التسامح وحقوق الإنسان في أوروبا وأمريكا الشمالية. وشهرًا بعد شهر، ويومًا بعد يوم، كانت المزيد من الدول توسع

تعريفاتها لمعنى العدالة، والأسرة، والأزواج، والمساواة. فعندما وُلدت، كان المثليون في إنجلترا مجرمين. وفي منتصف كتابتي لهذا الكتاب، حصلوا على حق الزواج كعروسين وعريسين!.

لقد كانت دروسي مع الشيخ تذكيرًا، ليس فقط بديناميكية المجتمعات الإسلامية المعاصرة، بل أيضًا بديناميكية الغرب[١٠٦].

* * *

بعد محاضرته عن يوسف بفترة قصيرة، التقيت بأكرم في متحف أشموليان في أكسفورد لأخذ درس. تجاوزنا الأقسام المخصصة للإغريق والرومان، ومررنا بجانب القسم المخصص لعصر النهضة، متجهين مباشرة إلى مجموعة الفنون الإسلامية. ومررنا برجلين أصلعين يتأملان بلاط "إزنيق" التركي الأزرق والأبيض، وكانت هناك شابة رشيقة ترتدي الجينز، وتضع سماعات الأذن بإحكام في أذنيها، وتنظر إلى شجرة السرو على إفريز من الزخارف الدمشقية. وبينما كنا نسير، لفت انتباهي شيء ما. فقلت للشيخ: "تعال، يجب أن ترى هذا !"

ذهبت أنا والشيخ فشاهدنا على أحد الجدران مجموعة من البلاط الفارسي المزخرف يوضح "يوسف وزليخة"، وهي قصيدة للشاعر الصوفي جامي تستند إلى قصة يوسف في القرآن. وبألوان اللازورد والفيروز، مع لمسات وردية تُبرِز درجات الأزرق الباردة، صوّر فنان إيراني، من القرن الثامن عشر، نساء ممفيس وهن مستلقيات على السجاد، يتأملن، بدهشة، جمال يوسف. وقد سررت كثيراً عندما عثرت على هذه اللوحة بعد وقت قصير من محاضرة يوسف، وأريتها للشيخ. كانت اللوحة معلقة على مسافة قصيرة من مكان عمله ـ فما هي احتمالات حدوث ذلك؟ لقد بدا العثور على صورة تستند إلى سورة يوسف في متحف أشموليان البريطاني العريق، أشبه بإشارة كونية.

وقفنا هناك للحظة، وشعرت بضرورة إقراره بذلك. وبالنسبة لي كعلمانية، فإن هذه المصادفة عززت درس أكرم عن الدائرة والخط. وما أعطته إياه الصلاة أعطاني إياه الفن. كلاهما يؤكد أن هناك وحدة، مهما كان المكان الذي تجد نفسك فيه، حتى في هذا العالم الممزق. إنه إشارة إلى أنك لست وحدك وسيلة التواصل. لقد نشأتُ وأنا أحاول سد الفجوة بين حياتي

[١٠٦] هل نفهم من هذا الكلام صحة ما اعترفت به الكتابة سابقًا ص ١٧٣عندما قالت: (يجادل إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق أن الدراسة الغربية للثقافات الإسلامية كانت في الواقع "نظامًا للهيمنة، وإعادة الهيكلة، والسيطرة على الشرق". وتساءلت عن مدى تورط مشروعي الخاص في هذا الأمر؟).

في سانت لويس وعالمي في كابول أو دلهي أو القاهرة. كنت أسعى دوماً لجعل العالم يبدو موحدًا، فأقرأ روديارد كبلينغ في كلايتون بولاية ميزوري، وأقرأ حكايات فتيات السهول في الغرب الأوسط، وأنا في طريقي إلى قندهار.

فضلاً عن ذلك، كان البلاط رائع الجمال. فقلت بدهشة: انظر إلى يوسف، مع قرص الهالة الذي يضيء رأسه! كيف نجح الفنان في جعله يبدو -ظاهرياً- هادئًا ومتزنًا، لكن في الوقت نفسه مصدومًا، بحاجب مرفوع قليلاً، مع الأواني المليئة بالفاكهة، والنسوة المتكئات؟

نظر أكرم إلى البلاط للحظة، وأومأ برأسه بأدب. ثم قال إنه يعرف القصيدة التي استوحى منها الرسام عمله الفني. وانتهى الأمر عند هذا الحد. وبعد ذلك استدار واتجه إلى مقعد قريب وجلس ليبدأ الدرس.

في البداية، تساءلت عما إذا كنت قد أزعجته، فقد كنت أعلم أنه، مثل العديد من المسلمين، يُفضل تجنب الفن التصويري. وبينما كنا نجتاز الطريق بحثًا عن الفن الإسلامي، مررنا برسم لمايكل أنجلو، ومجموعة من التماثيل الرومانية دون أن نبطئ خطواتنا. بالنسبة له، بدت هذه الأعمال وكأنها إعلانات ماكدونالدز على الطريق العام، من حيث الاهتمام الضئيل الذي أولاه لها. ببساطة، كان غير مبالٍ؛ فلم يُثره الفن المحيط به، لكنه لم يمانع الجلوس على مقعد في وسطه.

لاحقًا، عندما سألته عما إذا كنت قد أزعجته، طمأنني أنني لم أفعل. شرح لي أن المسلمين لا يحبذون صور الأنبياء؛ لأن تصويرهم يُقلِّص من عظمتهم. فاحترامًا للأنبياء، لا نحب أن نُقيدهم في صورة".

لقد قلب ذلك أفكاري التقليدية، عن قوة الفن، رأساً على عقب. فبالنسبة لأكرم، كانت الصور تقيِّد الخيال بدلاً من أن تُطْلقه. وأصابني ذلك بالإحباط!. لقد تفوق عليّ بطريقة ما. فعندما أستعيد ما حدث، أتساءل عما إذا كنت أتمنى نوعًا من التحول لدى الشيخ، ليس تحولًا دينيًا، بالطبع. فقط كنت آمل أن يرى البلاط، أو ربما لوحة لتيتيان، ويُدرك، ولو لدقيقة أو اثنتين، جمالها. أظن أن جزءًا مني كان يريد منه أن يخطو خطوة نحو عالمي، كما خطوت أنا نحو عالمه. ولم يكن الأمر أنني كنت أريده أن يغير نظرته للعالم، فقط كنت أريده أن يعترف بجمال عالمي.

في الحقيقة، فإن الشيخ قد تبنى العديد من قيمي بمجرد حضوره إلى متحف أشموليان. ووفقًا لمعايير الحجاب الإسلامي في ولاية أوتار براديش، فإن مجرد موافقته على دروسي الفردية

كان بمثابة قفزة ثقافية كبرى. لقد وُلِد في أسرة لا يتحدث فيها الإخوة والأخوات مع بعضهم البعض، والآن يلتقي، في متحف فني، بامرأة- غير مؤمنة على الأقل. ألم تكن محادثتنا هي تجسيد لتعدديتي الثمينة؟

بأدب بالغ، أشار الشيخ إلى ذلك عندما سألته عما إذا كان هناك عناصر في الثقافة الغربية قد تصدم نسخته الأصغر سنًا. قال: "على سبيل المثال، أنا جالس هنا معك الآن. وإذا رأى أحد في ندوة العلماء أنني جالس معك، فلن يصدق ذلك! عالم يجلس مع امرأة!"

بأكثر الطرق تهذيبًا، كان يقول: "أنا هنا، أليس كذلك؟" كنا نتحدث عن الموت، والجنس، والزواج، والطبيعة، ومعنى أن تكون إنسانًا... لكن ما المشكلة في عدم اتفاقنا الدائم، أو عدم إظهاره الانبهار بالحضارة الغربية أثناء طريقنا إلى معرض الفن الإسلامي؟ بالتأكيد قدم لي أكثر بكثير من مجرد بضع ثوانٍ مشتركة أمام قطعة فنية جميلة.

عندما كان الروائي سلمان رشدي يعيش تحت تهديد الموت الذي أصدره آية الله الخميني بتهمة الإساءة للإسلام، كتب رشدي عن الأدب بوصفه مساحة مقدسة، قائلاً إنه يظل "المكان الوحيد في أي مجتمع حيث يمكننا سماع أصوات تتحدث عن كل شيء بكل طريقة ممكنة". أما في القرآن، فلم تكن هناك أصوات متعددة، بل صوت واحد حاضر ومهيمن. ورغم أن القرآن يحتوي على مقاطع ذات قوة وجمال فائقين، إلا أنه لم يكن أدبًا. لكن بالنسبة للشيخ، كان القرآن فضاءً بلا حدود، كما رأى رشدي أنَّ الأدب فضاء بلا حدود.

بالنسبة لي، سمحت لنا قراءة القرآن مع أكرم بالتحدث، إن لم يكن عن "كل شيء بكل الطرق الممكنة"، فعلى الأقل عن أكثر مما كنت أتصور أنه ممكن. في بداية هذه الدروس، كنت أعرف الإمكانيات المبهرة للثقافة الإسلامية لاحتضان وجهات نظر مثل وجهة نظري. لكنني كنت أتوقع أن أجدها بين التقدميين المسلمين، وليس مع عالم مدرسة دينية محافظ .

لقد ذكرني الدرس الذي تلا ذلك، بينما كنا نجلس على مقعد خشبي في المتحف محاطين بشظايا من الثقافات الإسلامية، بمدى صعوبة تجاوز هذه الحدود. كنا نتحدث عن الممارسة المنتشرة في العديد من المجتمعات الإسلامية المتمثلة في تزويج الفتيات في سن مبكرة. وكما كان متوقعاً، كنت أعترض على هذه الممارسة. ماذا عن التعليم؟ الاختيار الشخصي؟ الآمال في الحصول على مهنة؟ كل ما هو معتاد، باختصار .

لقد استمع الشيخ إلى حديثي ـ ثم اقترح أن ألقي نظرة على الحضارة الغربية. كان لزاماً على المرء أن ينظر إلى الوراء ثلاثمائة عام أو نحو ذلك في تاريخ أوروبا، إلى ما قبل الثورة الصناعية، لكي يجد الزواج المبكر. لم تكن هناك مدارس عامة، أو سلطات للمتغيبين عن المدرسة، أو بيان لحقوق الطفل، أو قوانين خاصة بالقاصرين. ربما كان غضبي قد اشتعل، ولكنه هدأ قليلاً بعد أن ذكرني أكرم بأن المبادئ الغربية المطلقة تُصنع، ولا تولد. وما اعتبرته حقيقة كونية كان في الواقع مؤسسًا على تاريخ من الثورات السياسية والصناعية والشخصية.

إن حق الفتاة في التعليم والطفولة لم يكن من الأمور الثابتة في المشهد الطبيعي، مثل صخرة أو محيط. بل كان لابد من النضال من أجله، ثم خلقه. لقد كان هذا تذكيرًا منعشًا بثقافتي، باعتبارها تقليدًا حيًا، تم بناؤه من خلال تأطير وإعادة تأطير معايير ما تعنيه العدالة.
" عندما نكبر في ثقافة معينة، وفي سياق معين، يصبح العقل جامدًا إلى الحد الذي يجعلنا غير قادرين على التفكير في أي سياق آخر"، لاحظ الشيخ وهو يلتقط معطفه. "من الصعب جدًا رؤية الموقف برمته". وبعد أن أشار بلطف إلى الأسس التي تقوم عليها الأخلاق الغربية، غادر إلى صلاة العشاء.

جلست لبرهة على المقعد في ذلك المتحف، محاطة بكل أنواع الأشياء الإسلامية: وعاء فيروزي من القرن الثاني عشر من آسيا الوسطى. بلاط إزنيكي مطلي باللون العنابي واللازورد. مصباح مسجد مصري. وعندما غادر أكرم، شعرت بالحرمان بشكل غريب. لقد ذهب إلى مسجده، وتُرِكت- مثل والدي من قبلي- لأعجب بجمال الثقافات الإسلامية دون أن أستمتع بالامتداد الكامل للإيمان. فقط عندما اقتربت من نهاية دروسنا، أدركت المفارقة في مشروع هذا العام. لقد سمحت لي دراسة عقيدة الشيخ بممارسة عقيدتي. ولقد كانت دروسنا طقوساً تحتفي بإيماني، وأن كون المرء إنساناً كاملاً يعني يجب أن يحاول فهم الآخرين. ولو كنت مقتنعة بنظرته للعالم، وكان هو مقتنعًا بنظرتي، لكنا قد خاطرنا بتدمير النظام البيئي الهش لصداقتنا، الذي أصبح أكثر ثراءً وغرابة بسبب اختلافاتنا. فإذا كان فهم الاختلاف من بين القيم الأساسية التي أؤمن بها، فهو أيضاً من القيم القرآنية التي يؤمن الشيخ بها. يقول القرآن: من خلال التنوع يمكنك فقط أن تعرف حقًا هدف إنسانيتك: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) وأيضًا لنتعرف على أنفسنا. فلولا عام كامل من محاولة رؤية العالم من وجهة نظر أكرم، لما تمكنت من رؤية العالم من وجهة نظري.